الألف كتاب
الثاني
١٤٠

فرانك تيرنر
ستيفن أوزمنت

التاريخ من شتى جوانبه

ترجمة: د. أحمد حمدى محمود



الجزء الثاني



التاريخ من شتى جوانبه

مجموعة مقالات

الألف كتاب الثانى

الإشراف العام
د. سمير سرحان
رئيس مجلس الإدارة

رئيس التحرير
لمعى المطيعى

مدير التحرير
أحمد صليحة

الإشراف الفنى
محمد قطب

الإخراج الفنى:
علياء أبو شادى

التاريخ من شتى جوانبه

مجموعة مقالات

إعداد

ستيفن أوزمنت

فرانك تيرنر

ترجمة

د. أحمد حمدى محمود

الجزء الثانى

الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٤

هذه هى الترجمة العربية لكتاب :

THE MANY SIDES OF HISTORY

By : STEVEN OZMENT / FRANK M. TURNER

الفهـــــرس

تمهيـــد

يعني التصدى لبحث العالم الحاضر ـ تاريخيا ـ مواجهة عالم فكرى جم التعقيد ، لم يكتشف أكثره الا منذ ثلاثين سنة أو يزيد ، ولا يتجاوز ما تم الكشف عنه النزر اليسير ، فلم يسبق قبل ذلك أن اعتبرت الحدود التى يتوقف عندها البحث التاريخى والكتابة التاريخية هى الحدود التى يفرضها حب الاستطلاع عند المؤرخ ، ومجالات أنشطة البشر ، ولقد كانت نواحى التجربة الانسانية التى يستقصيها المؤرخون الآن للمرة الأولى موجودة على الدوام ، مثلما كانت الطبيعة الفزيائية التى يدرسها العلماء الآن لأول مرة ، موجودة أيضا • غير أنه فى كلا الحالين ، ساعدت الاهتمامات المعاصرة الجديدة والتقنيات الجديدة والمخيلات المنطلقة على الاهتداء الى كشوف وتفسيرات تتطلب الكثير من الحاجة الى اعادة النظر فى فهم الماضى ، ولقد تولدت من المعرفة الجديدة والمناهج الجديدة مواضع مستحدثة أوسع وأبعد فى التاريخ ، مثلما حدث فى العلم •

وبوسعنا أن نقارن التغيرات الحديثة العهد فى الدراسات التاريخية ، بما يجرى عند التخطيط لانشاء شبكة من الطرق العلوية • فلقد أدت الاحتياجات الاقتصادية التى أدركت حديثا ، والرغبة فى توفير فرص عمل ، وارتقاء الأجهزة والمعدات التكنولوجية ـ أحيانا ـ الى تيسير انشاء الطرق العلوية • وبمجرد الانتهاء من انشاء الطريق العلوى ، تظهر امكانات اقامة مشروعات عملية جديدة ، أو اقامة مجتمعات جديدة،وسيؤكد حب الاستطلاع عند المسافرين مدى ما تحققه هذه الطرق العلوية من نفع ، ويحدث تفاعل بين المسافرين على اختلاف أهدافهم ، وبين القائمين بالادارة الذين ينظمون ويديرون خدمات أسفارهم • كما يحدث تفاعل بين هؤلاء الاناس وبين أهل البقعة التى أنشىء فيها الطريق العلوى • وما كان هذا التفاعل ليحدث قبل انشاء هذا المشروع • وعندما يرقب العمال والسياح الطريق العلوى الجديد فانهم يواجهون مشاهد ومناظر ـ وأحيانا عادات وتقاليد ـ لم يسبق

تعرفهم عليها من قبل • وربما بات بامكانهم أيضا انشاء مجتمعات جديدة ، وينتهى بهم المطاف الى ادراك وجوب احداث تكامل بين كل ما استحدث من تجارب ومجتمعات وأفكار ، وبين العالم الذى عرفوه قبل وجود الطريق العلوى • ولابد أن يقوم الأشخاص الذين لم يسافروا على الطريق بدورهم بتحقيق تكامل بين تجاربهم وبين المعارف المستخلصة من المسافرين العائدين • وسيكتشف من استمروا يحيون فى مجتمعاتهم الأصلية أن حياتهم الاجتماعية والاقتصادية قد ازدادت ارتباطا وثيقا ــ بالضرورة ــ بالمجتمعات المنشأة حديثا على جانبى الطريق العلوى ، وأيضا بمن يعيشون عند طرفه الأبعد • وبعد افتتاح طرق علوية جديدة فى البحث ، أصبح المؤرخون المحترفون يمثلون جمعا هائلا من الباحثين الساعين لاحداث تكامل بين المعرفة القديمة والمعرفة بمعناها الجديد •

وحتى قرابة خمسينات القرن العشرين ، تركزت الاهتمامات الأولية للمؤرخين الأوربيين على الاهتمامات المتصلة بانشاء الدولة ، والعلاقات الدبلوماسية ، والمؤسسات الدينية ، ودور العظماء فى الماضى ، وليس من شك فى وجود بعض الاستثناء لهذا الاطار العام للكتابة التاريخية • فلقد ظهرت بعض كتب ومقالات مرموقة عن الحياة الاقتصادية والعمال والأطفال والنساء ، ولكن عددها كان ضئيلا نسبيا ، اذ غلب على انتباه المؤرخين الاهتمام بالدبلوماسية والسياسة العامة ، والمنازعات الطائفية داخل الكنيسة والخلافات السياسية ، ومن الناحية الجغرافية ، تركزت أغلب الأحداث التى رواها المؤرخون وحللوها فى عواصم البلدان موضع الدراسة • وتحدث المؤرخون عن ما دار فى أذهان أهل الصفوة من مفكرى هذه العواصم ، وفضلا عن ذلك ، فلقد كتب المؤرخون متأثرين بسياق يتمحور حول أوربا ، أو من منظور عالمى • ولم تحظ الشعوب غير الأوربية فى أفضل الأحوال بما هو أكثر من الانتباه الهامشى ، فلقد اعتقد المؤرخون ــ بوجه عام ــ أن الحضارات الأخرى أقل اثارة للاهتمام ، وأقل أهمية وقيمة من الحضارة الأوربية •

ان مثل هذه النظرة التاريخية ، ومثل هذه الاهتمامات المتركزة على جوانب بالذات ، هى ذاتها نتاج لحقبة معينة من التاريخ الأوربى • فابان الفترة الواقعة بين ١٨٥٠ ، و ١٩٤٥ ، تمتعت الأمم الأوربية بالسيادة على العالم بدرجة تفوق ما تمتعت به من سيادة طيلة العهود الماضية ، وأحدثت القوى الأوربية العظمى تأثيرا عارما فى النواحى العسكرية والسياسية والاقتصادية فى شتى أنحاء المعمورة ــ وقد ساعد على منح الغلبة لأوربا

ما حدث من تقدم فى الاقتصاديات الصناعية وظهور دول قوية تركز النفوذ السياسى فى يديها بفضل جيشها الضخم واساطيلها الهائلة • والحق أن من واجبنا أن نعترف بأن «الدولة ـ الأمة» (*) المستندة الى اقتصاد صناعى وقوة عسكرية عاتية هى أقوى نظام استطاع البشر خلقه ، بغض النظر عن آثاره الحميدة أو المرذولة • ولقد استهوى سلطان هذه « الدول ـ الأمم » وافعالها المؤرخين طويلا ، وسيطر على انتباههم بالضرورة • وبالمقدور ارجاع تدهور غلبة التاريخ السياسى الى شعور المؤرخين بالاحباط ـ وبخاصة فى فرنسا ـ ابان عشرينات القرن العشرين ، من مسلك حكوماتهم الممثلة لأمتهم •

غير أن للعلاقة بين البحوث التاريخية وبزوغ « الدول ـ الأمم » بعدا أساسيا آخر • ففى القرن التاسع عشر ، كان هناك تلازم بين كتابة التاريخ وايقاظ الوعى التاريخى ، اذ ساعد التاريخ على وضع حجر أساس الايمان بالحياة القومية المدنية • وكان من بين العوامل الأساسية فى انشاء الدولة فى القرن التاسع عشر والقرن العشرين وضع برامج للتعليم تشدد على التطور التاريخى للأمم ، وتشيد بالشخصيات القومية المرموقة ـ وبخاصة من الذكور ـ باعتبار شخصيات مثل جان دارك والملكة اليزابيث الأولى ملكة انجلترا فى القرن السادس عشر من الاستثناءات الكبرى ـ والتى بمقدور من يحيون فى شتى الأنحاء الشعور بامكان تقمص شخصياتهم • وابان القرن التاسع عشر ، الف مؤرخون عديدون من امثال ماكولى فى انجلترا ، وجيزو فى فرنسا وترايتشكه فى المانيا كتبا تاريخية من جملة اجزاء تهدف الى توطيد الاعتزاز بالماضى العريق والايمان بأنواع ذات طابع خاص من التقاليد والأنظمة القومية السياسية • واعتقد المؤرخون أن هذا النوع من الكتابة التاريخية سيفيد شعوبهم ، واستمر هذا التقليد سائدا فى القرن العشرين ، عندما ازدهرت النزعة القومية فى أوربا ، واشتعلت نار المنافسة بين الدول ـ الأمم قبل الحرب العالمية الأولى ، وبعدها •

واجتذبت احداث القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين انتباه المؤرخين ودفعتهم الى الاهتمام بالموضوعات السياسية وموضوعات « الدولة ـ الأمة » • فبدءا (بالثورة الفرنسية) عبر الحرب العالمية الثانية ، نشب اضطراب سياسى فى جميع الأمم الأوربية ، وجاء فى أعقاب الثورة الفرنسية ذاتها نابليون وثورات ١٨٣٠ وثورات ١٨٤٨ ، كما

(*) nation — state.

ظهرت الوحدة الايطالية والوحدة الالمانية ، كما حدثت قلاقل بين أصحاب النزعات القومية فى الامبراطورية النمسوية الهنجارية وظهرت الأحزاب الاشتراكية الكبرى ، واندلعت الثورة في روسيا ، ونشأت « دول ـ أمم » فى شرق أوربا ، وقامت الحركة الفاشية فى ايطاليا ، والحركة النازية فى المانيا • وبدت هذه القلاقل والثورات السياسية من بين أكثر الأحداث اثارة للاهتمام فى تلك الأيام ، بعد أن تركت آثارها على أرواح عشرات الملايين من الأوربيين • فلا عجب اذا اهتم المؤرخون بالكتابة عنها وعن مسبباتها ، بل وطغت فى بلاد مستقرة نسبيا كبريطانيا العظمى على اهتمام المؤرخين السياسيين ، ممن سعوا لتفسير أسباب الاستقرار السياسى فى هذه البلدان •

وساعدت حروب أواخر القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين على منح الصدارة فى البحث التاريخي للمشكلات السياسية والدبلوماسية • فلقد اشتبكت دول أوربا فى عدة حروب كحرب القرم التى بدأت ١٨٥٤ ، والحرب العالمية الثانية ، فى صراعات دموية عديدة ، تواءمت هى وعلاقاتها السلطوية النسبية فى القارة الأوربية • واشتبكت هذه الدول أيضا فى صراعات استعمارية شتى فى مختلف أنحاء العالم ، وبذلك نقلت خلافاتها وصراعاتها الى ما وراء البحار ، وانشات امبراطوريات استعمارية ، وطغت الحرب واحتمالات شن الحروب على جانب كبير من الحياة العامة ، والمناقشات العامة ، وتسببت الحروب التى نشبت ـ خصوصا الحربان العالميتان فى القرن العشرين ـ فى فقدان عدد مهول من الأرواح ، وتدمير قدر كبير من الممتلكات • فلا عجب أيضا ، اذا طغت العلاقات بين القوى الكبرى على الكتابة التاريخية •

وعند نهاية الحرب العالمية الثانية ، تدخلت جملة عوامل ، دفعت المؤرخين الى التمرد على ما أصبح يسمى حينذاك بالكتابة التاريخية التقليدية ، بعد أن نعمت أوربا بالسلام زهاء اربعين سنة أو يزيد • فلقد صمم الساسة الأوربيون ابان هذه الحقبة على الحيلولة دون تكرار حالات عدم الاستقرار السياسى والاجتماعى التى أدت الى نشوء الحركات السياسية السلطوية بين الحربين العالميتين ، والى نشوب الحرب فى آخر الأمر ، وترتب على ذلك احتلال العوامل الاجتماعية فى المجادلات والمناقشات العامة، حيزا أكبر من الحيز المخصص للعوامل السياسية • وأدى هذا الاستقرار الذى جاء فى اعقاب الحرب وتحول الاهتمام الى الجوانب الداخلية ، واضطلاع الدولة بمهمة تدبير الخدمات الاجتماعية ، الى زيادة الاهتمام

التاريخي بالعوامل التي ساعدت على تحقيق الاستقرار الاجتماعي والسياسي. ويبدأ بوضوح موضوع المجتمع ينافس في الصدارة في التحليل التاريخي موضوع الدولة .

وساعد ما يقارب خمسين سنة من السلام الأوربي على جعل مشكلات العلاقات الدبلوماسية بين الدول الأوربية تتخذ مظهرا أقل الحاحا نوعا . فلقد انحصرت القارة الأوربية الآن (١٩٨٧ - ولا يخفى أن الموقف تغير الآن تغيرا شاملا) بين قوتين تتمتعان بالحد الأقصى من القوة (الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي) ، وأدت نهاية الامبراطوريات فيما وراء البحار ، وعملية تصفية الاستعمار الى تقلص مساحة الحلبة التي تدور فيها المنافسة بين الأمم الأوربية . ولم يسفر هذا التحول في أوضاع قوى الدول الأوربية عن انتهاء التاريخ الدبلوماسي ، ولكن الأصح هو القول بنزوع هذه الكتابات الى اتباع روح أكثر تركيزا على الناحية العلمية ، وتضاؤل الميل للنظر للأحداث على أنها امتداد لسياسة خارجية ترمي الى هدف قومي ما .

وبوجه عام ، لم تختف المشكلات التاريخية التي تبحث بالطريقة التقليدية ، كما أن جميع المشكلات والمعضلات الفكرية الرئيسية التي تناولتها هذه الكتابات لم تهتد الى حلول مقبولة ، وان كان بعض المؤرخين هذه الأيام قد يؤثرون استبعاد هذه المسائل الخلافية ، وكان هذا هو الحل الأمثل . وبدلا من ذلك رأينا ظهور اهتمامات جديدة في عشرات السنوات الأخيرة تتخذ الصدارة في نظر المؤرخين ، وزودتهم بوسائل جديدة تمكنهم من متابعة هذه الاهتمامات ، ونجم عن ذلك ازدهار موضوعات تاريخية شتى ، انضمت الى موضوعات البحث الآن ، وساهمت العلوم الاجتماعية بنصيب كبير في المناهج الجديدة - كالتحليل الكمي والأنماط الاقتصادية وسوسيولوجية المعرفة وعلم النفس والتحليل النفسي ، ونظريات أنثروبولوجية شتى . وتيسر هذه المناهج الاستقصائية والتحليلية للمؤرخ الاستفادة بالوثائق بعد أن أغفلت طويلا دون رجوع اليها . وتضم هذه الوثائق شهادات التعميد والوفاة ، والكشوفات الحسابية للأراضي المزروعة وتقارير ومحاضر الشرطة وشهادات الأطباء والمسئولين عن الصحة العامة وسجلات الضرائب . وبالاضافة الى ذلك ، فلقد ساعدت نظريات العلوم الاجتماعية على تقديم العون للمؤرخين لمحاولة تقديم تفسيرات هامة لأنماط من السلوك الاجتماعي بدت يوما ما مجرد غرائب في نظر من عاشوا بعد ذلك بالعديد من القرون ؛ وساعد هذا الاتجاه - بوجه خاص - على فتح نافذة مطلة على عالم الريف والثقافة الشعبية ، وفحصها وتحليلها تاريخيا ،

تبعا لذلك • وبعد أن زاد عدد وسائل التحليل التاريخي ، أتيحت الفرصة للمؤرخين للانتقال الى مجالات جديدة من البحث • بيد أنه يتعين التنبيه الى وجوب الحرص على عدم تفوق هذه الوسائل والطرائق وطغيانها على مخيلة الأشخاص الذين يستغلونها ، فالأهم من المنهج الجديدة هو حب الاستطلاع الذى يدفع المؤرخين الى توجيه أسئلة جديدة ، وسبر غور التجربة الانسانية التى سبق اغفالها •

وأهم تغير ملحوظ حدث فى عالم البحث التاريخي الأوربى القريب العهد هو ظهور « التاريخ الاجتماعى » • ويضم هذا المصطلح ـ الذى يبدو مهوشا نوعا ـ مجموعة متنوعة واسعة من الاهتمامات والموضوعات التاريخية • ويركز هذا العلم الجديد الانتباه التاريخي على نوعيات البشر التى لم يلتفت اليها المؤرخون كثيرا ، أو أغفلوها اغفالا كاملا ، انهم طوائف البشر الذين نادرا ما اشتركوا ـ أو لم يشتركوا قط ـ فى بنيان السلطة الاجتماعية والسياسية ، خصوصا الفلاحون وعمال الصناعة والنساء والأطفال • فقد اصبحوا الآن يلقون ما هم جديرون به من عناية التاريخ • ولم يعد ينظر اليهم كمجرد مادة سالبة تخضع ارادتها لقوى سياسية واجتماعية أعتى • وبدلا من ذلك ، يعترف بانها قد شاركت بدور فعال فى صنع التاريخ ، ثانيا ـ لقد ازدادت عناية المؤرخين الاجتماعيين ـ الذين كثيرا ما يستعينون بالأنثروبولوجيا ـ بالأنماط الاجتماعية والتجارب الاقتصادية للحياة اليومية لهذه النوعية من البشر • وتبرز فى صفحات التاريخ الاجتماعى البينات الخاصة بالابحاث والعلاقات الجنسية والأدوار الاجتماعية التى تستند الى نوع الجنس والحياة الأسرية ورعاية الأطفال ، وطقوس الموت وتدبير الغذاء والمأوى واستخراج الموارد الطبيعية ، واستغلالها ، والتنظيمات الاقتصادية المحلية • ويحتل هذا النوع من الوقائع حيزا أكبر فى التاريخ الاجتماعى • وأخيرا فبينما كان المنتصرون فى الصراعات الاجتماعية والسياسية فى الماضى يحتلون الصدارة فى اهتمام المؤرخين ، فاننا نرى المؤرخين الاجتماعيين أميل الى الاهتمام بالتجارب والظواهر التاريخية التى وصفها ادوارد طومسون(١) ـ وهو من أبلغ من عبروا عن رسالة التاريخ الاجتماعى ، « بانها تماثل الحارات المسدودة والقضايا الخاسرة ، بل والخاسرين انفسهم » • وفى هذا المقام ، لقد كرر المؤرخون الاجتماعيون محاولة الافصاح ـ تاريخيا ـ

---

(١) E. P. Thompson فى كتاب The Making of the English Working Class. (نيويورك ١٩٦٣) ص ١٢ •

عن أولئك الذين لم يكن هناك صوت ينطق باسمهم ، ممن لاتعرف لهم أسماء من أبناء الماضي • وحاولوا أيضا الدعم التاريخي لذلك النفر من الأشخاص الذين ألفوا أنفسهم في عصور مغايرة مغلوبين على أمرهم من أثر التغيرات الاجتماعية والسياسية • ان هذه الخاصيه الأخلاقية للتاريخ الاجتماعي لها أثر كبير في جاذبية هذا النوع من التاريخ •

ومثلما اتجه التاريخ الأبكر الى التركيز على السياسة والدبلوماسية والصفوة من الذكور ، فان التاريخ الاجتماعي هو في ذاته — في أغلب الظن — من النتيجة التي لا مفر منها للأحوال التاريخية الراهنة • فمنذ ١٩٤٥ ، وفي شتى أنحاء العالم الغربي ، حفلت الجامعات بحشود من ملايين الطلبة الذين انحدروا ديموقراطيا من تلك الجماعات الاجتماعية بالذات ، التي كانت تستبعد فيما مضى من عالم سياسة وحضارة الصفوة ، وبمرور الزمان ، رأينا هؤلاء الطلبة يتساءلون عن التجربة التاريخية لأشخاص من الماضي يتماثلون معهم ، ومن أمثال من يرتقون فوق ظهورهم • فقبل أن يسمح لأبناء العمال بالانخراط في الجامعة زرافات ووحدانا ، لم يكن هناك غير قلائل يرغبون في معرفة تاريخ الطبقة العاملة • ثم رأينا أناسا في ستينات القرن العشرين ممن كانوا لا يرون أية حاجة الى التواؤم وسياسة وحضارة صفوة الأمس في أى عصر ديموقراطي حتى يشرعون في متابعة دراسة تاريخ اللاصفوة ، ورأيناهم يتعهدون بينهم وبين أنفسهم في حالات كثيرة بانشاء جيل جديد من الباحثين المهتمين بمسائل بعيدة الاختلاف عن المسائل التي كانت تهم اسلافهم •

ويعكس الكشف الهام عن التاريخ القريب العهد للنساء — بالمثل — التغيرات التي طرأت على البيئة الاجتماعية والسياسية في العقود الثلاثة الماضية • اذ لا يقتصر الأمر على حدوث زيادة في النساء اللاتي تلقين تعليما أعلى • ولكن لعل الأهم من ذلك هو ما حدث من تقدم في الحركة النسوية من استحثاث على العناية المستحدثة باستحضار التجارب الماضية للنساء ، وفهمها • ويتطلب البحث في هذه التجربة بالضرورة ابحاثا ممتدة في مشكلات الزواج والحياة الأسرية ورعاية الأطفال واقتصاديات الأسرة ، وتجربة العمل عند النساء ، وأيضا النماذج الأبكر لمشاركة النساء في الحياة السياسية •

غير انه ربما كان من الخطأ المغالاة في التشديد على التنويه بعدم وجود لا تواصل بين البحث التاريخي في الماضي والبحث التاريخي في

الحاضر • اذ يحاول اليوم مؤرخون كثيرون ـ وان كان هذا الراى لا ينطبق عليهم جميعا ـ تحقيق وعي تاريخي لاناس يظن أنهم يحيون فى مجتمع طبقي ، بينما كان المؤرخون في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين يحاولون التزويد باحساس بالوعى السياسى القومى لاناس يدركون أنهم يعيشون فى دول ذات نزعات قومية • أجل لابد من الاعتراف بان انجاز المؤرخين ـ فى الماضى والحاضر على السواء ـ يعكس الوسط الاجتماعى والسياسى المعاصر • فليس المؤرخون فى جميع مجالات التخصص اقل من نظرائهم فى الماضى ، فى ناحية الاهتمام بمشكلات السلطة ، سواء ظهروا فى سياق « الدولة ـ الأمة » واتحاد العمال والقرية او الأسرة • والى جانب ذلك ، فكما اتخذ التاريخ السياسى والدبلوماسي المصدارة في عصر سادته مثل هذه المسائل ، حدث شيء مماثل فى التاريخ الاجتماعى الذى اتخذ الصدارة عندما سادت العصر الصراعات الاجتماعية والدولة المؤمنة بتحقيق الرفاهية لأبنائها •

فهل تعني جميع هذه التغيرات ، وارتفاع شان التاريخ الاجتماعى ، احتجاب أحد سبل النظر الى الماضي ، وبزوغ وسيلة أخرى تتهيأ لاتخاذ الصدارة ؟ • ان الاجابة عن هذا السؤال بالسلب ، وان اتصفت هذه الاجابة بالحذر والحسم معا • وليتنا نرجع ثانية الى تشبيه الطرق العليا ، فلقد فتحت عملية اثراء حب الاستطلاع ، والاعتراف باحقية الاستعانة بمناهج جديدة ، وادراك وجود مشكلات جديدة فى عشرات السنين الأخيرة من البحث التاريخي أبوابا جديدة ، ولكنها لم توصد أبوابا اخرى • ومن ثم رأينا العديدين من المسافرين والعاملين على الطرق العلوية الجديدة يعودون حاملين تقارير عن مشاهدات لم يكشف النقاب عنها من قبل ، وعن الفرص الفكرية العظمى التى صادفوها في المنعطفات ، بل لقد قام بعضهم بتوطيد ما قامت به المجتمعات الباكرة من عمليات ريادية • ويعكس اضطرابهم ما فى هذه التجربة من حداثة ، ومدى التزامهم الشخصي بما يقومون به ، ولكن الزمان كفيل باحداث التكامل بين القديم والحديث • وغالبا عندما يفتتح طريق علوى ، فان حركة المرور تبتعد عن الطريق السابق توطده ، ولكن حركة المرور سرعان ما تعاود الرجوع الى الطريق الأقدم ، بعد أن يزداد ازدحام الطريق الحديث ، أو تصبح المشاهد القديمة غير مالوفة ، وتجتذب متفرجين جـــددا •

وثمة اربعة عوامل دينامية تتخلل المجتمع التاريخي ، وتؤكد استمرار التعددية : أولا ـ بعض مشكلات أساسية ، كانت موضع عناية التاريخ التقليدى كمشكلة بزوغ الدولة المطلقة ، واندلاع الحرب الأهلية فى انجلترا، أو بدء الحرب العالمية الثانية • وتستحث أمثال هذه الأحداث ، بحكم شدة اهميتها ، وتعقدها ، على استمرار البحث فيها • ويجرى فى كل مشكلة من هذه المشكلات ، وفى العديد غيرها من ميادين البحث التقليدية عمل هام وحيوى • ثانيا ـ لقد غدا الفهم الجديد للقوى الاجتماعية والتاريخ المحلى والحياة المادية ، قوى دافعة لاعادة بحث المشكلات التاريخية المعترف بها منذ أمد بعيد كالامبريالية واندلاع الثورة الروسية وظهور النازية • ثالثا ـ فى نطاق حرفة كتابة التاريخ ، كما هو الحال فى أى مجال آخر من الحياة الانسانية ، يحدث تارجح فى النظر الى عواقب الأحداث • فقد يؤدى الاهتمام بقضايا جديدة فى تاريخ اليوم الى تقلص البحث فى مجالات كان لها الصدارة فى زمان سابق • وبمرور الأيام ستتعرض المجالات الحديثة للارهاق من وطأة الأعباء التى تصحب البحث فيها ، ويكتشف ما فى بعض قضاياها من تفاهات ، كما حدث سلفا فى حالة التاريخ الدبلوماسى • وسينظر للمجالات الأقدم للبحث على أنها من المجالات المهملة التى تستاهل مشكلاتها العديدة التى مازالت بلا حل اثارة فضول مؤرخى المستقبل • وفضلا عن ذلك ، فان الخلافات والمجادلات التى تثيرها الأنواع الجديدة من البحث التاريخى ، ستؤدى الى ظهور أنواع جديدة من سبل سبرغور الماضى ، وأخيرا فالظاهر أن المؤرخين عندما يبحثون الماضى يتجاوبون هم والاهتمامات المعاصرة ، فعندما تحدث تحولات فى الاهتمامات المعاصرة ـ وهذا أمر لا مناص من وقوعه ـ ستأسر انتباهنا مجالات جديدة من البحث التاريخى • وثمة شىء واحد يبدو مؤكدا : فكما أن الدراسات التاريخية الماضية والحاضرة ليست مودعة فى خزانة حديدية مغلقة ، كذلك الحال فيما سيظهر من دراسات مماثلة مستقبلا •

ان العديد من الأبحاث التالية ستقود القارىء بطريقة مباشرة الى المجال الجديد للتاريخ الاجتماعى ، وستصور له المجال الواسع المتنوع الذى عنى ببحثه المؤرخون الاجتماعيون • وفى بعض الحالات ، تولى المؤرخون فحص فئات أو جماعات طالما تجوهلت ، أو نظر اليها على أنها تقوم بدور سالب ، أو بدور المتلقى ، بدلا من قيامها بدور المرسل الفعال فى التاريخ • ومن هنا سنرى مثلا ايزابيل مادارياجا وهى تعيد لنا رواية احداث أكبر انتفاضة قروية فى تاريخ روسيا ، وتتحدث عن الضيق بالتغيرات التى طرأت على الحقوق التقليدية للفلاحين ، وسنرى جوان سكوت ولويزا

تيلى وهما تفصان كيف حاولت الفتيات اللائى انتقلن من الريف الى المدن فى القرن التاسع عشر استبقاء العادات الفردية ، فى البيئة المدنية الحديثة • أما تسويوشى جازيجاوا ، فانه سيفحص التغيرات التى طرأت على البنية الاقتصادية والاجتماعية للقوة العاملة فى بتروجراد ابان الحرب، مما ساعد على تحفيز العمال لاحداث تغير ثورى أثناء الحرب العالمية الأولى •

وفى المقالات الاخرى ، يلاحظ اكتشاف المؤرخين الاجتماعيين لأبعاد اجتماعية لم يلحظها أحد من قبل ، أو لعل أحدا لم يعرها ما تستحق من تقدير • وتشير مرجريت جاكوب الى الدروس الاجتماعية التى استخلصها علماء لاهوت انجليز معينون فى مشارف القرن الثامن عشر من العلم عند نيوتن • ويصور ميكائيل كندى التفاعل بين الحكومة الفرنسية الثورية فى باريس والأندية الجاكوبية المحلية ، فيما يتعلق بالتحولات فى السياسة الدينية للثورة • ويربط ريتشارد هاملتون بين تجنيد الأعضاء الأول للحزب النازى وبين التجارب الاجتماعية للجنود الألمان المنهزمين فى الحرب العالمية الأولى • وفى كل مقال من هذه المقالات ، يساعد تقدير دور العوامل الاجتماعية على فهمنا لكيفية تقبل الأفكار العلمية ، وكيفية تكون السياسة الحكومية أو ارتقاء الحركة السياسية •

وأحيانا يسمح لنا اتجاه المؤرخين الاجتماعيين بفهم أى مسلك بدا سلفا غريبا وشاذا ، أو ربما قاسيا ووحشيا • وفى هذا المقام ، يحلل جون ماكمانرز الدور الاجتماعى للوحشية فى عمليات الاعدام العلنى فى فرنسا القرن الثامن عشر ، ويساعدنا مؤرخون اجتماعيون آخرون على الاحساس بما كانت عليه أوضاع الحياة آنئذ • ويعرض أنطونى وول المخاطر والمخاوف التى واجهتها جميع الطبقات والفئات فى القرن التاسع عشر من أعراض الأمراض التى لم تكن طريقة علاجها معروفة حينذاك •

ولم يقلل التشديد الجديد على دور المجتمع من الحاجة الى فهم ماهية الأفكار التى أثرت فى الأشخاص فى لحظات معينة من التاريخ الأوربى • والحق أن التاريخ الاجتماعى وتاريخ الأفكار غالبا ما يرتبطان كل بالآخر • ويكشف مقالا فرنكلين باومر وكلاوس ابستين عن بزوغ الأفكار التى عارضت الثورة الفرنسية وارتابت فى حركة التنوير • ويساعدنا هذان المقالان على فهم ما قام به المحافظون والرومانتيكيون فى بدايات القرن التاسع عشر، ويكشف بحث روبرت دارنتون للجانب العملى وراء نشر « الانسكلوبيديا » عن الطريقة التى تتبعها الأفكار فى انتشارها داخل المجتمع ، عندما تشعر

الحكومة بالعداء نحو الكثير منها ، ويثبت تصوير أوجين فيبر لأثر مذاهب المدرسة الجديدة في القرن التاسع عشر في فرنسا كيف وطدت الأفكار التي انتشرت بفضل التعليم الاحساس الجديد بالنزعة القومية في فرنسا • ويصور أيضا النزاع على النفوذ بين القسس والمدرسين العلمانيين في مقاطعات الريف في فرنسا • ويحلل ميكائيل هوارد المعتقدات الخاصة بالحرب الهجومية ، التي أدت بطريقة مباشرة الى مصرع مئات الآلاف من الجنود في الحرب العالمية الأولى • ويضع روبرت وول خطين تحت الطريقة ، التي استطاعت عن طريقها حادثة كبيرة كالحرب العالمية الأولى خلق مجموعة من الأساطير في غضون عشر سنوات ، وأحدثت اضطرابا في فهم الماضي والتوقعات من أجل الحاضر •

واكتشف المؤرخون أيضا عجزهم عن تجاهل دور الاقتصاد والتكنولوجيا • ويضع روبرت دارنتون مرة أخرى في الصدارة الصعوبات التقنية البحتة التي اكتنفت مشروعا رحيبا كنشر « الانسكلوبيديا » • ويكشف جنيفر تان الصعوبات التي واجهها صناع المحركات البخارية الأوائل عند تسويق مخترعاتهم التي كانت تعد من مفاخر هذا العصر • ويربط دانييل هدريك بين كيف استطاع الأوربيون بطريقة مذهلة توطيد أقدامهم على جزء كبير من الدنيا وبين التقدم التكنولوجي في أوربا ، ويتتبع ميكائيل ماندلباوم أثر التغيرات على التقدم في صناعة الأسلحة وأنظمة التوزيع (توزيع السلع) على طابع تحالف الناتو •

ومازالت السياسة ومسائل دبلوماسية القوى العظمى محتفظة بدورها المحوري في الأبحاث التاريخية • ويتتبع أنطوني فلتشر سلسلة الأحداث التي غالبا ما كانت غير متوقعة التي أشعلت فتيل الحرب الأهلية الانجليزية• ويصف ريتشارد بوني كيف امسك لويس الرابع عشر بزمام الخيوط المتحكمة في السلطة السياسية حتى استطاع توطيد النموذج الاستبدادي الكلاسيكي للنظام الملكي (المونارکی) • ويبحث روبرت تاكر الوسيلة التي لجأ اليها ستالين لانشاء شكل من الأشكال التي تكررت بعد ذلك للحكم السياسي الفردي المناسب للقرن العشرين • ويوحي تحليل سالي ماركس لقضية التعويضات بان ما يعتقده الناس عن الموقف السياسي والاقتصادي قد يكون أهم من طابعه الحقيقي • ويمبط كل من رونالد سملسر ووليمسون موراي اللثام عن شتى جوانب سياسة التهدئة وميثاق ميونخ •

غير أن القليل من هذه المختارات بمقدوره أن يصور ما هو أكثر من جانب واحد من شتى جوانب التاريخ ، أو كان من واجبه ان يفعل ذلك •

فلابد أن يراعى من يتناول السياسة بالضرورة البنيان الاجتماعى والتوقعات الشخصية والاجتماعية • ولابد أن يراعى من يكتب تاريخا اجتماعيا « الأفكار » • وليس باستطاعة المؤرخ الفكرى كتابة تاريخه بغير معرفة بالمجتمع والتكوين السياسى للعصر موضع البحث ، والحق أن من اهم اركان البحث التاريخى والكتابة التاريخية ـ وان لم يكن هذا الشرط موضع تقدير كامل ـ ادراك التأثير المتبادل لمختلف المناهج المتبعة فى تناول الماضى • وعلى الرغم من أنه من المناسب التحدث عن انقسام الفعل الانسانى الى أقسام مستقلة ، الا أن الحياة ذاتها لا تعاش على نحو مجزأ ، ولن يكتب التاريخ كتابة صحيحة باتباع هذه الطريقة •

وتصور المختارات المنتقاة لهذه المطالعات الطابع المتعدد الجوانب والثرى والحى لكتابة التاريخ الأوربى فى العهد الحديث ، وترمى الى تقديم العون لطلبة التاريخ ، وغيرهم من القراء لتقدير التنوع الثرى لنظراته الفكرية • وبعد أن يفرغ الطالب من قراءة هذه المقالات ، فانه قد يدرك أنَ اى وصف لعصر النهضة والحركة الهيومانية ، اتبع منذ أكثر من قرن من قبل احد كتاب عصر الملكة فيكتوريا ، لم يعد مناسبا لمهنة المؤرخ :

« لما كانت ماهية الهيومانية هى الاعتقاد الذى يعتقد أنه لا يحتمل اى شك بأنه لا وجود لشىء ما من الأشياء التى اهتم بها الأحياء من البشر ، رجالا ونساء ، يمكن أن يفقد حيويته ، لذا يستطاع ادراك ماهية الهيومانية من اللغة التى تكلموها أو من طريقة استماعهم الى النبوءات فى صمت ووقار أو من نظرتهم الى الأحلام التى مرت بخاطرهم ، أو الى اى شىء شعروا نحوه بتعلق وافتتان ، أو تحمسوا له ، أو أضاعوا وقتهم فى سبيله (٢) » •

إن هذا العالم الفسيح من تجربة ماضى البشرية فى صوره المتعددة • هو العالم الذى يسعى المؤرخون للكشف عنه ووصفه وتفسيره •

---

(٢) W. Pater فى كتاب The Renaissance : Studies in Art and Poetry (١٩٨٠) ص ٣٨ •

رابعاً

القرن السابع عشر

أثنــاء القرن الســـابع عشر ، بدأ ظهور تنظيمات جديدة للسلطة السياسية فى أوربا • ويكمن فى صميم هذا الاجراء طابع العلاقة بين الأنظمة الملكية المركزية ، ومراكز السلطة السياسية المحلية ، المتمثلة بوجه خاص فى طبقة النبلاء والأعيان • وفى نهاية المطاف ، اتخذ الصدارة نموذجان سياسيان مختلفان : ظهر النموذج الأول فى انجلترا ، والآخر فى فرنسا • وكما هو متوقع ، فقد نسب الى هذا الاجراء الاضطراب الدينى بظلاله القاتمة ، وكان ماضيا فى طريقه فى خطى حثيثة •

ففى انجلترا ١٦٤٠ ، اندلعت الحرب الأهلية بين القوى التى تدين بالولاء للملكية والقوى التى تدين بالولاء للبرلمان الذى يتزعمه كبار الأعيان الى حد كبير • وازدادت الخلافات الأصلية الدســـتورية حدة من تأثير الخلافات الدينية الأساسية التى أثارها أنصار كالفان ممن يطلق عليهم اسم « البيورتان » • ويفسر أنطونى فلتشر كيف استغل الزعماء البرلمانيون البيورتان المخاوف الشعبية الدينية من حدوث مؤامرة كاثوليكية ضد الحريات الانجليزية ، عندما هاجموا سياسات شارل الأول • وأحدثت الحرب الأهلية المترتبة انقلابا فى انجلترا دام عشرين سنة • غير أن هذه الحقبة من القلاقل قد تبعتها فى هذا القرن ثورة ١٦٨٨ ، التى وطدت النموذج الســـياسى الانجليزى الذى قيد فيه البرلمان حكم النظام الملكى ، وساده أيضا التسامح الدينى •

وفى فرنسا ، حكم لويس الرابع عشر حكما فرديا ١٦٦١ • ولقد شهد لويس فى طفولته آخر تمرد للنبلاء الفرنسيين المعروفين باســـم «الفروند» • وعندما بلغ سن الرشد ، صمم على أن لا يدع سلطانه يتعرض لأى تحد • ويتتبع ريتشارد بونى الأسلوب الذى سار عليه الملك لاخضاع

مراكز القوة الممثلة للنبلاء ، والمدن ، فسيطر على الواحدة منها تلو الأخرى، الى أن أخضعها فى نهاية المطاف لهيمنة النظام الملكى • وفضلا عن ذلك ، فلقد ألغى لويس الرابع عشر ١٦٨٥ ميثاق نانت ، وبذلك انتهى التسامح الدينى والبروتستانت الفرنسيين • وتوطدت وحدة الدولة الكاثوليكية • والنموذج السياسى الذى تمخض عن ذلك هو ما يعرف بمصطلح « الحكم المطلق » ، وقلده ملوك مختلفون فى أوربا فى القرن التالى •

بيد أن السياسة وحدها لم تكن هى المتحكمة فى القرن السابع عشر، الذى شهد أيضا تصاعد حركة الفكر العلمى الذى بدأه كوبرنيك • ويعبر مصطلح الثورة العلمية عما حدث من فهم انسانى جديد للتكوين الفزيائى للكون ـ وللفلك بوجه خاص ـ ففى مدة تقل عن القرن ونصف القرن من الزمان ، انتقل المفكرون العلميون الأوربيون من تصور الكون المتمركز حول الأرض ، الى تصور كون تدور فيه الأرض حول الشمس • وأعظم أسماء اتبعت هذا الاتجاه الجديد هى : كوبرنيك وكبلر وجاليليو ونيوتن • وتفسر مرجريت جاكوب كيف استعان الكتاب المسيحيون بهذا الفهم الجديد لحالة انتظام الكون الفزيائى فى الدفاع عن الاستقرار السياسى والاجتماعى، وكيف سخر هذا الفكر الثورى العلمى لغايات اجتماعية محافظة •



الملك لويس الرابع عشر

اندلاع الحرب الأهلية الانجليزية

أنطــونى فلتشر

كانت الحرب الأهلية الانجليزية من بين أكثر الاحداث اضطرابا فى القرن السابع عشر فى أوربا • وبدات هده الحرب ١٦٤١ • وما ان جاءت ١٦٤٩ حتى توالت الأحداث ، فخضعت كنيسة انجلترا لحركة الاصــلاح الدينى الراديكالى ، وألغى مجلس اللوردات وأعدم الملك ، وبعد أن سد الاضطراب زهاء احدى عشرة سنة عادت الملكية ١٦٦٠ • ولم يكن هناك من هو قادر قبل ١٦٤٢ على التنبؤ بمثل هذه الأحداث التى تبعها اندلاع الحرب الأهلية بين القوى الموالية للملك والقوى الموالية للبرلمان ، أجل ! لم تخطر مثل هذه الأحداث ببال أحد • واتسم الاضطراب باتساع نطاقه، مما دعا الى ارجاع اندلاع هذا الصراع فيما بعد الى النزاع حول المبادىء الدستورية الكبرى والمعتقدات الدينية • ولا شك أن قلائل قد تساءلوا عن الأحداث المباشرة والتحولات المباشرة فى الجو السياسى التى أدت الى تصدع النظام السياسى واختيار الانحياز لصف أحد طرفى النزاع •

وليس هناك شك فى وجود مجالات للصراع بين الملك شارل الأول والبرلمان ، ابتداء من منتصف عشرينات القرن السابع عشر • فلقد زاد الملك دخل الحكومة ، وحكم البلاد دون رجوع الى البرلمان من ١٦٢٩ الى ١٦٣٩ ، ابان تلك الحقبة ذاتها التى ظهرت فيها الحركة البيورتانية ، وما صحبها من تركيز على اللاهوت الكالفانى ، وانتشار فى طول البلاد وعرضها لقراءة التــوراة ، ونزوع القسس الى حث الجميع على اصــلاح أنفسهم بأنفسهم•وقوبلت هذه الدعوة بمعارضة شديدة من أساقفة كنيسة انجلترا ممن يتبعون لاهوت أرمينيوس (**) ويقيمون الطقوس المقدسة •

(★) نقلا عن كتاب The Outbreak of the English Civil War تأليف Anthony Fletcher (١٩٨١) •

(★★) الحركة الــ Arminian تنسب الى عالم اللاهوت الهولندى Arminious الذى كان يدعو الى مذهب الارادة الحرة ، ويعارض كالفان •

ولم يتوقف الملك شارل عن مؤازرتهم، بل وتزوج أيضا أميرة فرنسية كانت تتبع الكنيسة الكاثوليكية • وليس هناك من ينكر الطابع الخطير لمثل هذه العوامل ، التى ارتكز عليها الصراع ، وان كانت لا تعد بالضرورة مبررا كافيا لنشوب حرب أهلية •

وفى ١٦٣٩ ، دعا شارل البرلمان ــ بعد تردد دام طويلا ــ للمطالبة بالتصديق على بعض الاعتمادات للصرف منها على الحرب ضد اسكتلندة ، وكان يسعى لارغامها على اتباع « الكتاب الانجليزى للشعائر العامة » واتبـــاع الحكومة لكنيسه الأساقفة بدلا من اتباع الكنيسة الاسكتلندية الكالفانية القوية ، ورفض البرلمان التصديق على الضرائب ، فأمر شارل بحل البرلمان • وهكذا أصبح هذا البرلمان يعرف باسم « البرلمان قصير الأجل(*)» • وفى ١٦٤٠ ، دعا شارل الى انتخاب برلمان آخر أطلق عليه اسم البرلمان طويل الأجل أو المعمر(**) ، وكان من بين زعمائه جون بيم ، الذى كان من المسعدين الصريحين للملك ، ومن البيورتان الأشداء ، ولما حدثت مواجهه بين البرلمان وشارل بعد أن ثار الخلاف بينهما ، وبعد أن حاول الملك القبض على أعضاء البرلمان ، ادعى بيم وأنصاره وجود مؤامرة بابوية لفرض الكاثوليكية على انجلترا ، وتقويض دعائم الحرية والديانة الحقـة تبعـا لذلك • وأخطر بيم ومؤيدوه شارل بهذا الرأى فى مظاهرة كبرى ١٦٤١ • وساعدت سنوات عدم الثقة والمنازعات الحديثة العهد بين الملك والبرلمان ، والجدل حول من يحق له السيطرة على الجيش (الذى كان منهمكا آنئذ فى اخماد ثورة نشبت فى ايرلاندة) على استحثاث كثيرين على تصديق هذه الاتهامات • وما هى الا شهور قليلة حتى ارتبط اسم شـارل فى عقول الناس بالنوايا الشريرة للمؤامرة البابوية المزعومة ، وارتبط ايضا اسم البرلمان بالدفاع عن الحرية والديانة الحقة • فى هذه الحالة المضطربة ، التى أثارت البلبلة ، اندلعت الحرب الأهلية ، ورمز فيها الملك الى المبادىء الدستورية ، كما رمز البرلمان الى المبادىء الدينية ، واحتدم الصدام بين اتباع المبدأين •

لا يلزم رد الأحداث الكبرى الى أسباب كبرى ، وان كان من الطبيعى أن يسعى المؤرخون للبحث عن هذه الأسباب • فحتى عهد قريب ، كان التاريخ البرلمانى لبواكير القرن السابع عشر يعانى من أصفاد تقليد الأحرار(***) وتصوراته الكاسحة عن دورى الحكومة والمعارضة ، بالرغم من عدم مسايرة هذه التصورات لعصرها • فليس من المحتوم حدوث صراع بين الملك

(*) Short Parliament.

(**) Long Parliament.

(***) Whigs.

والبرلمان يسفر عن ظهور دستور متوازن في القرن الثامن عشر · كما أنه لم يثبت امكان تفسير الحرب على أنها ثورة اجتماعية · اذ كان الانقسام فى الرأى يمثل بكل جلاء انقساما داخل الطبقة الحاكمة · وبالمثل فلا يفى بالغرض أيضا التفسير المستحدث الذى يفسر الصراع على أنه قد وقع بين البلاط والأهالى · فلم يخطر ببال أحد من أغلب من اشتركوا فى القصة التى سنرويها فى الصفحات التالية ، أنهم ينتمون الى أى طرف من الطرفين، كما أنه كان من المستبعد لأى أحد ممن عرفوا العالم البيوروتانى من محاضراته وشعائر صومه أو ممن حدقوا بأبصارهم متأملين لوحة الرسام الهولاندى روبنز التى مجد فيها عائلة ستيوارت(*) ، أن يرتاب فى وجود صراع بين النزعتين فى ثلاثينات القرن السابع عشر ، فلابد اذن من وجود سبب أقوى من الصراع بين النزعتين لدفع الملك ورعاياه لخوض الحرب ·

فما الذى تعنيه مثل هذه الأحداث ؟ · ان أى بيان مفصل يروى حدثا هاما كاندلاع احدى الحروب الأهلية ، ويتتبع الأحداث خطوة خطوة ، سيكتشف بالتأكيد مدى التعقد الكامن فى أية عملية سياسية من هذا القبيل ، وسيكتشف كيف تسلسلت الظروف الضرورية التى أدت الى ظهور شىء ما يتناقض تناقضا شديدا هو وافتراضات عامة النـاس عن العلاقة الاجتماعية والسياسية · غير أنه ليس هناك ما يدعو الى تجريد السرد السياسى للقصة من كل معنى يمتد الى أغوار بعيدة · فلا يصح القول على الاطلاق بأن الحرب الأهلية الانجليزية كانت مجرد مصادفة · فلقد لعب الحظ والاتفاق دورهما بلا مراء · ولكن لعل الأحداث كانت ستجىء مختلفة ، لو أن التمرد الايرلاندى لم يقع فى نفس الوقت الذى وقع فيه · وعلينا أن لا ننسى أن القصة حافلة أيضا بمثالية بعض الأشخاص ، والمشاعر الجماعية والأهواء الأيديولوجية ·

ولقد بينت دراسات البرلمانات والادارة فى الحقبة الواقعة بين ١٦٠٣ و ١٦٤٠ وجـود انقطاع فى أداء هذه الهيئـات لواجبها فى بواكير حكم ستيوارت · وازداد ذلك وضوحا عندما اشتدت وطأة الحرب فى عشرينات القرن السابع عشر ، ومرة أخرى ١٦٤٠ · غير أنه من المهم أن نلحظ ـ نظريا على الأقل ـ أن المشكلات الادارية التى تركز عليها الاهتمام بعد نشوب الحرب الاسكتلندية ، قد أمكن حلها خلال ١٦٤١ بفضل اصلاحات بيم الاقتصادية ، وفرضـه ضريبة عامة للدخل وعقده معاهدة سلام مع اسكتلندة وتسريح الجيوش · وبعبارة أخرى ، فان صح وصف ما حدث

(*) هذه الصورة موجودة فى سقف Inigo Jonés Banqueting House فى وايتهول ·

١٦٤٠ و١٦٤١ بالأزمة الدستورية ، فانها لا تزيد عن أزمة أمكن التغلب عليها ، ولم تكن هناك حاجة ماسة لاشعال حرب أهلية ٠

ورأى بعضهم الاهتمام المحورى فى الحقبة بين ١٦٤٠ ، و ١٦٤٢ كامنا فى ارجاع الخلل الى أسباب برلمانية ، ومعاداة الأغلبية « للأرمينية » وضريبة السفن(*) ، والرغبة فى ازاحة ستراتفورد من الحياة العامة،وتنظيم العمل بالبرلمان ٠ غير أن مثل هذه النظرة قد أرجعت فى تحليها المشكلات التى لازمت البرلمان عهدا طويلا الى بداية عهده ، ولا أظن أنه قد خطر ببال معظم من زحفوا نحو وستمنستر فى نوفمبر ١٦٤٠ أن هناك سببا برلمانيا يدعوهم الى ذلك ٠ فلقد ساد الاعتقاد بأن الهدف من البرلمانات هو حل الخلافات بالمصالحة وتصفية النزاعات ، مما يوحى بتجاوب أغلبية أعضاء البرلمان مع هذا الهدف ، ولم ير أحد ماعدا بيم وقلة من أصدقائه الحميمين المسألة فى ضوء بعيد الاختلاف ٠ فقد ظنوا أن ارجاع السبب الى البرلمان سيساعد على استئصال المؤامرة التى أصابت الأمة فى الصميم ٠ ولابد ـ بالتأكيد ـ من اتخاذ سوء تصورهم الأساسى للموقف السياسى الذى ذاع بطريقة متزمتة ، وانتشر فى الشهور التالية كنقطة بداية لتفسير أسباب اندلاع الحرب ٠ فالمشكلة المحورية اذن لم تكن ارجاع هذه الأسباب الى خلل ما ، بقدر كونها التساؤل حول لماذا التفت الكثرة فى وستمنستر وما وراءها حول بيم وأعوانه وتشبثوا بهم،رغم نظرتهم المحبطة ومغالاتهم فى تصور متاعب الأمة ؟

لقد أشيد بألمعية زعامة بيم واقتداره فى السيطرة على المؤيدين ، وألباب المتعاطفين عليه فى المجلسين ٠ ولكن ليس بمقدور أحد أن يتناسى التباين بين تكتيكات بيم وحدة تبصرها ، ونزعتها العملية ، والأساس العاطفى لسياسته ٠ فلعل هذه السياسة نفسها توحى بتعارضها مع العقل ٠ اذ كان زعماء البرلمان أناسا غير قادرين بحكم أدوارهم على التفرقة بين الحقيقة والشائعة ، ولم تتوافر لهم الرغبة فى القيام بذلك ٠ فمن البداية اقتصرت بضاعتهم على الكلام البليغ ٠ فلا ننسى ما يجره عدم الثقة من ويلات ٠ ولقد تصدع الايمان ٠ وشيئا فشيئا ، اختفت فرصة استعادة الثقة بالملك وحوارييه٠وشاركت فى هذه العملية الأحداث الخارجية والطارئة ، وكشفت لأعضاء البرلمان عن مغزى قصة بيم وما تنبىء به من نتائج واضحة للعيان ، ومن ثم علينا أن ندرك وجود عدة أحداث شاركت فى صنع قرار بيم كمؤمرات الجيش والمؤامرة التى جـرت فى اسكتلندة ضـد منتقدى الملك والتمرد الايرلاندى ، ومحاولة الملك القبض على خمسة أعضاء من البرلمان ٠ وفى

(*) Ship money ـ ضريبة فرضت على الموانىء والمدن والاحياء السكنية والريف البريطانى ، لجمع مبالغ من المال تخصص لانشاء سفن حربية ٠

كل مرة كانت تقع أحداث تؤيد وجود هذه المؤامرة ، وتثبت وجود بصمات الملك عليها • وبدأت المناوشات فى وستمنستر ووايتهول فى ديسمبر ١٦٤١ ، وبدا حضور الملك لجلسة مجلس العموم بعد ذلك ببضعة أيام كأنه تصعيد منطقى لكل ما قاله بيم وأعوانه منذ ٧ ديسمبر ١٦٤٠ • ولابد أن يكون ريتشارد باكستر - وهو من بين من علقوا بعد ذلك على تفسير بيم للحرب - قد خطرت بباله تلك الأيام عندما كتب يقول : « لقد بدأت الحرب فى شوارعنا ، قبل أن يتسنى للملك أو البرلمان حشد أية جيوش » •

وعلى الرغم من موجة العداء التى تعرض لها بيم بعد ذلك ، الا أنه كسب أتباعا أقوياء فى لندن فى خريف ١٦٤١ • وعلق الوزير نيقولاس على العقبة الرئيسية التى اعترضت اعادة اعلان سلطة الملك فقال « ان الصخب الذى صحب النية للعودة الى العقيدة الكاثوليكية هو أول من تسبب فى بغض الشعب لحكومة كل من الكنيسة والكومنولث » • ومن دلائل الروح التى سادت العاصمة (لندن) الرسالة التى أرسلها أوبريان المقيم فى كوفنت جاردن الى سير فيليب برسيفال : « بالرغم من أننى أقسمت بالولاء لغبطة البابا وجلالة الملك ، الا أننى لا أجرؤ على التمرد عليهما • فالاضطهاد أمر مريع جديد وشديد الوطأة » •

كان من الطبيعى أن لا تعى الاقاليم رسالة بيم الا بعد مضى وقت طويل • غير أن المظاهرة الكبرى(*) قد كشفت فى نهاية المطاف عن النية المبيتة • اذ أعرب آنئذ توماس ستكوديل من يوركشاير عن الاستعداد للتشهير باتهام الأعضاء الخمسة ، ووصفه بأنه مؤامرة يسوعية • وربطت الدعاية البرلمانية كل ما فعله الملك بين يناير ونوفمبر ١٦٤٢ والمؤامرة البابوية وزعم أن تطهير الملك لبعثة السلام فى ١١ يوليو كان بمثابة مقدمة لتيسير التغير الكبير المستهدف للدين والحكومة » ، مع الاكتفاء بذكر مثل واحد • واستمر وقع هذه الدعاية واضحا فى الالتماسات التى قدمت فى ربيع هذه السنة ، واستمرت أصداؤها تتردد عالية طوال الصيف • وجددت الالتماسات الجديدة الصيحات الببغاوية لشهرى فبراير ومارس • وتمثل التفجرات التى ثارت فى وادى ستاور ضد الكاثوليكية مدى ترحيب الجماهير بهذه الصيحات • وكشفت أعمال البحث فى بيوت الرافضين فى عدة مقاطعات عن وجود مبالغ طائلة من المال وأسلحة مكدسة ، ساعدت اعتمادا على براعة الدعاية المصاحبة لها على زيادة التوتر فحسب ، بدلا من أن تعيد الاطمئنان الى القلوب •

(*) Grand Remonstrance.

ويرجع انتصار بيم الى أنه عندما فرض مخاوفه من زحف الديانة الكاثوليكية بطريقة كاسحة على عامة الناس ، وما عرف عنهم من قابلية للتأثر بمثل هذه الأساليب ، فانه نجح فى اقناع عديدين بتأهب البابويين لاشعال النيران · وانتشرت الشائعات ـ التى لم تكن بغير أساس بطبيعة الحال ـ بأن البابويين قد أمدوا الملك شارل بما يحتاجه من مال · ووفقا لما جاء فى أحد التقارير التى انتشرت فى سائر الأنحاء ، فان الملك قد تلقى بالفعل مبلغ ٨٠٫٠٠٠ جنيــه استرلينى من البابوية والاكليروس ونسب عامة الناس المرة تلو الأخرى عدوان الملكيين الى الرعايا الكاثوليك للملك · فرأينا جون أوزبورن يخطر هنرى أوكسيندن فى ٢٧ يوليــو « بانقضــــاض البابويين على لانكشــــاير ، وتهديدهم بانزال الويلات بالبروتستانت المقيمين فى هذه البقاع » ، وأبلغ ايرل ستافورد أعضاء البرلمان فى ٨ يوليو فى معرض روايته للأحداث(*) : « لقد تآمر جميع البابويين واليسوعيين فى انجلترا سويا لالحاق الدمار به وبأسرته » · وأبلغ صيدلانى من جرانتهام جاره الذى اعترف بمناصرته للملك قبل ذلك بأيام : « ان لديك قلبا عفنا داخل جسدك ، لأنك بتأييدك للملك ستضطر الى مناصرة البابويين » · وانتشرت الأقاويل عن البابويين ممن التفوا حول العرش فى يورك وأعرب أحد الوجهاء (**) عن مخاوفه من احتمال استغلال « أمر البرلمان بنزع سلاح دعاة الانفصال محليا لتجريد أفضل البروتستانت ، وتركهم بلا حول ولا قوة،لكى ينكل بهم البابويون ـ الذين كانوا ما زالوا غير مسلحين ـ ولكى يقطعوا رقابهم » واحتل جورينج بورتسماوث فى بداية شهر أغسطس ، وزعم أن ما ساعده على تحقيق هدفه هو العون الذى تلقاه من أربعمائة أو خمسمائة من «القرصان والبابويين»·وذكر أن سير بيفل جرينفيل ـ هكذا تقول الحكاية ـ زار أغلب الأعيان البابويين فى كورنوول وديفون ـ متنكرا ـ خلال شهر أغسطس لجمع الرجال والمال للملك · وتولى سير جون بيرون الزمام فى اكسفورد بمساعدة لفيف من البابويين وغيرهم من الأشخاص اليائسين · وأبلغ قاضى المصالحة (***) فى كنت فى ٢٣ نوفمبر « عن انزعاج الفرق المدربة مما يفعله البابويون الذين يلقون كل ترحاب بعد أن أطلق اللوردات سراح أحدهم من سجن مينستون ، بعد أن سمعوا فى جميع التصريحات أسماءهم مقترنة بحزب الأسقفيين ، مصدر كل بلاء وشقاء » ·

لم يعرف عن الزمرة المحيطة ببيم أنهم اتصفوا بقدر من السذاجة يدفعهم الى افتراض قيام البابويين وحدهم بتغيير العقلية الانجليزية وقلب

(*) من Leicetshire.

(**) من Monmouth hire

(***) ابلغ رئيس مجلس العموم لنتهول Lenthall

حكومة انجلترا · اذ اعتمدت براعة المخطط الكاثوليكي والمظاهرة الكبرى على مناصرة جماعة من رفاق السلاح مؤلفة من الأساقفة « أو الجزء الفاسد من الاكليروس ، بمعنى أصح » والمستشارين أو رجال البلاط ممن يعملون لصالح أنفسهم طمعا فى المغانم التى يحصلون عليها مقابل اشتغالهم عملاء لدولة أجنبية · ويعكس رد الفعل السريع لاحتجاج الاساقفة على أحداث ٣٠ ديسمبر ١٦٤١ المزاعم التى تشبثوا بها بعناد وانحيازهم الى صف الخونة· وأزيح سترافورد من الطريق ، بعد أن اعتقد كثيرون أن هؤلاء الأساقفة يمثلون أكبر حزب مشبوه فى المملكة · وعومل الاكليروس المنحل بعد اقتلاع جذوره بصرامة·فكما لاحظ أحد المعقبين(*) فى ٢١ يوليو ١٦٤٢ : لقد أثبتت أبحاث المجلس أن الاكليروس الذين تسببوا فى استيراد « مذاهب شريرة كالأرمينية » كانوا غالبا من أصحاب النفوس المفضوحة · وكتب رئيس البرلمان الى لجنة الامن فى ٢٢ أكتوبر يوحى بمصادرة جميع الأموال التى جمعت فى عيد القديس مايكل ، بوساطة الأساقفة والعمداء والشماسين « باعتبارهم عصبة من الأشرار الذين أثبتوا مسئوليتهم عن حالة الشقاء التى نعانى منها الآن » ·

وتزايد تأويل فكرة وجود حزب شرير يجنح الى الحاق الأذى والدمار بالأمة ، عندما تكشفت أحداث أواخر ١٦٤١ ، وبدايات ١٦٤٢ · فلقد استدرج أشخاص مثل ديجبى وجورنج بسهولة الى الشبكة·واعتقد ديويز أن جورنج شخصية منحلة من الزنادقة ، تعمل لحساب البابويين لتحويل بورتسماوث الى حامية ملكية · وتعذر تجاهل الحقيقة البسيطة التى كشفت عن مرافقة ضباط الجيش الذين حاربوا مواطنى لندن فى وستمنستر ووايتهول فى نهاية ديسمبر ١٦٤١ للملك شارل فى ٤ يناير ١٦٤٢ وتجرعهم لشراب نخبه فى كنجسنون ، وأطلق عليهم منذ ذلك الحين اسم الفرسان ، وما لبثوا أن تمتعوا بالحظوة عند الملك مثل مستشاريه راسخى القدم · ولاحظ سير جون هوتمان أن كثيرين ممن التفوا حول الملك عند بوابات هل فى ٢٤ ابريل كانوا من المنتسبين الى البرلمان ! ·

وهكذا انكشف الستار عن حقيقة المؤامرة ، أكثر من ذى قبل ، بعد أن كشف أنصارها الأبرياء عن أنفسهم · فلم يعد هناك من بين من تأثروا بدعاية بيم من يرتاب فى تستر البابويين وراء الأساقفة والاكليروس والفرسان · ففى رسالة الى سيرجون بانكس فى ٣١ مايو أجمل ايرل اسكس أعداء الأمة عندما وصفهم « بالمجرمين البابويين الراغبين فى التربح على حساب متاعب البلاد » · وبعد ذلك بخمسة شهور ، وفى رسائله التى أعلن فيها احراز « نصر موفق » فى ادجهيل نبذ بانكس الجيش الموالى

(*) D'Ewes.

للملك ووصفهم اجمالا « بالأشخاص اليائسين المرضى بالولاء للدولة » .
ولم يبق غير قلائل من أمثال هنرى مارتن الذى ازدرى خرافة الظن بأن الملك أسير مسلوب الارادة من قبل مستشاريه . أما أغلب زعماء البرلمان فمن غير المستبعد أن يكونوا قد آمنـوا نصف ايمان بدعايتهم . فرأينا توماس نول يكتب للناخبين فى نورويش فى ١٠ سبتمبر ما يأتى : « انى مقتنع بأنه لو شعر هؤلاء المجرمون ، والفرسان الذين فى معيتهم بالاطمئنان الى امكان النجاة بأرواحهم ، فان جلالة الملك سيسعده حينذاك الحضور الى البرلمان ، ولعله شديد التأييد لهذه الفكرة » ، ولا يستبعد أن يكون معظم أعضاء البرلمان قد رددوا نفس النغمة . وليس هناك ما يدعو الى الارتياب فى اخلاص رسالة دنزيل هولز الى بانكس ، التى كتبت على عجل فى مجلس العموم فى ٢١ مايو . اذ كان واثقا من نزوع البرلمان الى الخضوع للملك وتعبير أعضائه عن كامل الولاء والاخلاص بمجرد ظهور أول علامات دالة على تغير موقف جلالته ، وتخليه عن المستشارين الذين دفعوه الى اتباع موقف البغض والمعارضة لكل ما يقومون به . وبذلك خانوا أمانة ولائهم له .

وترجع قوة قضية البرلمانيين فى وستمنستر وما وراءها الى ما اتسمت به من مسلك تلقائى ، لم يحدث أى اختلاف بشأنه . فلم يكن هناك أى شك فى وصم أعداء الأمة بالأشرار المتعنتين. وبذلك غدا التوؤم والتناغم مع البرلمان والوثوق فيه رد فعل دفاعى وضرورى.. وظهر هذا الاحساس واضحا جليا فى التماسات بواكير ١٦٤١ . وعبرت عنه بعض الاستعراضات الصيفية التى أشرفت عليها الميلشيا . وكم تأثر بها شديد التأثر من جاهدوا فى مجلس العموم حتى النهاية . وعبر دنزيل هولز فى حديث له فى ٢٧ يناير ١٦٤٢ عن اعتقاده بحفاظ البرلمان على معايير الاستقامة والالتزام بالواجب العام ، مما جعله يحظى بالتفرد كأداة يستعان بها لخلاص الدولة : « فكل من يسعى فى سبيل الحصول على الحظوة ، أو يعمل مدفوعا بغايات الود أو البغض ، أو أية غايات أخرى ، ولا يحرص على مراعاة الاخلاص فى فكره، لا يستأهل الجلوس بين هذه الجدران . وكم أنا موقن أنه لن يدخل جنة الخلد أبدا » هكذا عبر سير سيمونس ديويز فى ١٦ مايو عن شعوره بأن كرامته وعزة نفسه مرتبطتان بما ينجزه «البرلمان طويل الأجل» . وأردف قائلا : « من ناحيتى أظن أن من يحلمون بتحقيق السعادة لأنفسهم بعد القضاء على البرلمان يملكون قدرا غير عادى من الحكمة يؤهلهم للصعود الى القمر ! ولسـت أرغب قط فى مشاهدة ذلك اليوم الذى يتحطـم فيه البرلمان » .

على أن كل هذا لا يزيد عن أحد وجوه الحقيقة . فلقد عاش شارل الأول ومستشاروه الحميمون فى عالم عقلى مغلف بالمثل . فلقد زودته

تجربته فى عشرينات القرن السابع عشر بنظرة هوائية مسممة عن البرلمانات، وباحساس شديد بعدم الثقة فى أشخاص بالذات ، اعتقد أنهم على استعداد لتحدى ملكه لأسباب شخصية وأنانية . وازداد استعار متاعبه هو والاسكتلنديين من جراء اعتقاده بأن البيورتان مشاغبون بفطرتهم . ولقد لازمته هذه الفكرة واستحوذت عليه،وترجع الى تأثره بكون(*)،والمساجلات التى دارت بينهما ابان ١٦٣٨ ، ١٦٣٩ عن امكانات مسارعة البابا بالنهوض لمساعدته . وصور كون التمرد الاسكتلندى بأنه حصيلة الشراهة والطموح المغلف بغلاف الدين . ورأى الملك ــ بكل بساطة ــ الشخصية الانجليزية بنفس المنظور . فلقد أخطر أعيان يوركشاير فى ٤ أغسطس : « عدم استبعاده أن يسلمه البرلمان هو وأبناءه « لحفنة من الأشرار الذين كونوا عصبة ترمى الى التخلص منى » . وصرح لجيشه فى ١٩ سبتمبر « : انكم لن تواجهوا أى أعداء،ولكنكم ستواجهون خونة معظمهم من أتباع براون(**) واللامعمدانيين والملحدين ، أى من الساعين لتدمير الكنيسة والدولة معا » . ولخص فى مناسبة أخرى (***) قضيته على الوجه الآتى : « لقد عوملت من قبل حزب شرير قوى فى هذه المملكة يهدف الى ما هو أدهى من تحطيم شخصى وتاجى وقوانين البلاد والسلطة الحاكمة للكنيسة والدولة » .

واستندت قوة شخصية شارل على احساسه الدائم بعدم استجابته لأحد غير الله . وتحدث على رأس جيشه قبل أن يخوض معركة ادجهيل بيومين عن « الكفر اللانسانى ، المجرد من التقوى عند ذلك النفر الذى لا يستجيب لكلمته » . « علما بأنه لا يهدف الى أى شىء غير اسعاد مملكته والدفاع عن الكنيسة والقانون وحرية رعاياه » . وأصر على القول « ان علينا أن نتحرر من الطموح الذى يملأ عروق من يتصفون بالعظمة ويسعون لزيادة عظمتهم لأننا نحن الأعظم بالفعل ، وسيبقى الحسد والحقد بعيدين عنا ما دمنا لا نسعى للتنافس والتسابق » . ولعل اساءة فهم الملك لأهداف خصومه ودوافعهم كانت خطورتها ستقل لو اختلفت شخصيته عن ذلك . اذ كان شارل من الأشخاص الذين أسرفوا فى عدم الوثوق حتى فى أشد الناس ولاء له.أما نظرة الآخرين له فقد تركزت على تصوره كشخصية محبة للعزلة تتسم بالجرأة ، غارقة فى ثقافة بلاطه الكوزموبوليتانية ، التى لم يفهموا أصلها وفصلها ، ورأوه شخصية شديدة التعلق بزوجته الفرنسية ، التى لم يعنيهم أمرها من بعيد أو قريب.أما ما دفعهم للارتياب فيه ــ على حق ــ فكان ضلاله وميله للتآمر . وابان ما دار من جدل حول تنفيذ قوانين

(*) Con.

(**) Brownists : انصار Robert Browne (١٥٥٠ ــ ١٦٣٣) وقد الف جماعة دينية متطرفة .

(***) فى حديثه الى اهل Denbighshire فى ٢٧ سبتمبر .

المكابرة(*) فى برلمان ١٦٢٥ ، كان بمقدور أى عضو فى البرلمان الاعتراض عليه دون وجل فكانوا يقولون «أن تعلق الملك بالدين يتبع أهواءه وأمانيه» • وما كان أحد يجرؤ على التفوه بمثل هذه العبارات قبل ١٦٤١ •

واهتزت ثقة الناس بشارل من جراء تزعزع سياسته وترددها ابان النصف الأول من ١٦٤١ • وجاء تشدده فيما بعد كأنه برهان يؤيد ما يقال عن استيلاء البابويين على لبه • وأدت أغلاط الملك ــ لا سيما انشقاق خمسة أعضاء من زمرته ــ الى وقوع أحداث جسيمة ترتب عليها عدم حل الأزمة السياسية • وأسـفرت بالمثل عن اصابة النظام الملكى (لعائلة ستيوارت) فى هذه اللحظة بالذات بالوهن • وكان بالاستطاعة الرد على مظالم ثلاثينات القرن السابع عشر باصدار قوانين جديدة • أما الخسارة المريعة فى الثقة التى نجمت عن الغاء سياسات جيمس الأول الخارجية والدينية ، واقحام ثقافة ملكية غريبة ، فقد تعذر اعادتها لسابق عهدها • ولما كان نفوذ الملك قد تدنى لدرجة كبيرة ، لذا لم يكن مستغربا تعرضه لما شاع من قصص المؤامرات التى تحدث بيم عنها •

فلقد لاحظ ايرل بريستول فى حديث الى اللوردات فى ٢٠ مايو ١٦٤٢ « بأن أمراضنا ترجع الى أوهامنا وشعورنا بالزهو بأنفسنا (وأعنى بذلك مخاوفنا ومظاهر غيرتنا) أكثر من ارتدادها الى أى سقم حقيقى أو خلل » • وجاء تحليله حصيلة لما أدركه ادراكا فعليا : « من اليسير تهدئة الاختلافات التى ترد الى أسباب معقولة ، بل ومن الممكن التهوين من الشعور بأية اساءة ، وتفوق قدرتنا على ذلك القدرة على تخفيف حالات الغيرة النابعة من عدم الثقة بالنفس والتى تتعرض للتفاقم والتشكل فى أشكال شتى توائم كل مناسبة » • وعرض معقب آخر (**) تحليلا رصينا مماثلا فى رسالته الى سير جون بانكس قبل ذلك بيوم واحد : « من الواضح الجلى ، أنه لا الملك ولا البرلمان مجردان من المخاوف وبواعث الغيرة • فالملك يخاف ويغار خشية فقدانه لسلطانه والعدوان على حقوقه • أما البرلمان فيخاف ويغار من فقدانه للحرية التى يتعين أن يتمتع بها الرعايا الذين ولدوا أحرارا، والتى تسمح بها قوانين البلاد » • وصرح نورثمبارلاند وهو يتذكر عبارة قيلت ١٦٢٨ : « لعل تغيير الحكومة من الأمور التى يخشاها الطرفان » • وكان بعض البرلمانيين صرحاء عندما أبدوا الاهتمام بالحفاظ على حرياتهم • فكتب سير رالف فيرنى فى يونيو ١٦٤٢ : « فحتى ننعم بالسلام ، لابد أن نستمتع بالحرية • واذا لم أستمتع بالحرية ، فاننى لن أنشد السلام دون

(*) Recusancy laws القوانين التى صدرت لالزام المواطنين باتباع الشعائر التى تفرضها الكنيسة •

(**) Northumberland.

صميم فؤادى » • واقتنع جون هاتشنسون بوجود مؤامرة لاعادة العقيدة الكاثوليكية « الا أنه لم يؤيد اتخاذ هذه الذريعة كمبرر للحرب ، مثل الدفاع عن الحريات الانجليزية العادلة » • ولقد وردت هذه الرواية على لسان زوجته • والظاهر أن ما أفصح عنه فرنى وهاتشنسون هو عدم قدرتهما على الوثوق فى امكان حكم الملك باتباع القانون •

ومن المهم حيويا التفرقة بين المشكلات التى ثارت من وراء الأزمة السياسية ١٦٤١ و ١٦٤٢ (كتلك الخاصة بالميليشيا وتعيين مستشارين وما ترتب عليهمـا) • وليس من شـك أن ايرل بريسـتول وايرل نورثمبارلاند قد أدركا هذه المسألة ادراكا صحيحا • اذ استندت الحرب الأهلية على وجود عدم ثقة متبادلة •

فمنذ وقت باكر يرجع الى ١٦٢٦ ، ازدادت المخاوف من فكرة المساواة، من ناحية ، ومن العقيدة الكاثوليكية من ناحية أخرى • وأعتقد من منظور الحياة الانجليزية المعاصرة بوجود هوية بين هاتين الناحيتين • انها مخاوف يعكس كل طرف منها المخاوف الأخرى ، وتتبادلان التأثير على نحو غريب • اذ ساعدت كل منها بالضرورة على ترسيخ الأخرى • وما حدث ١٦٤١ ، ١٦٤٢ هو تعرض طائفتين من الناس للتقييد كسجناء للأساطير المتنافسة التى تتغذى كل منها على الأخرى ، بحيث بدت الأحداث وكأنها تؤيد تفسيرين متعارضين للأزمة السياسية • وكان التفسيران أصلا نتيجة لاساءة تصور ووقوع فى الخطأ • ولربما بدا هذا الأساس أساسا هشا لا يبرر قيام الحرب الأهلية • غير أن الحرب يجب أن ينظر اليها على ضوء اجداب مخيلة القرن السابع عشر • اذ كان المجتمع حينذاك مجتمعا يفتقد فيه الناس من أجل عمليات تفتقر الى القدرة على تصور الأنظمة السياسية والموازنة بينها • وكان هذا المجتمع شديد الاتباع لنظرة تقليدية للعالم تراه مكانا لا يتوافر له « الا قدر محدود من الخير » ، ولا يتسنى لأى شخص أن ينعم بالخير الا على حساب شخص آخر •

لهذه الأسباب ، فلابد أن يخفق أى بيان عن أصول الحرب الأهلية يتجاهل انصاف مضمونها الأيديولوجى استنادا على ما شابه من خلل • فاذا كان الخوف وانعدام ثقة الأمة قد جعلا الحرب أمرا لا مفر منه ، الا أن هناك ـ يقينا ـ عاملا آخر أكثر اتصافا بالايجابية دفع الناس الى امتشاق الحسام ضد بنى وطنهم • اذ كان هناك عديدون على الجانبين ١٦٤٢ يعتقدون أنهم يحاربون فى سبيل قضية ما ، وأن رسالتهم لا تقتصر على الدفاع عن الدولة ضد حفنة منشقة أو ضد احدى المؤمرات • نعم لقد اندلعت الحرب الأهلية لوجود تواؤم بين اساءة الفهم الميئوس منها ، وعدم الثقة التى لا تقبل المصالحة ، مما أدى الى نشـوب صراع أيديولوجى شرس •

ولعل تعريف ايديولوجية الملكيين ، كان الأصعب عند اندلاع الحرب ، لأنها لم تتبلور الا حثيثا • ومنحت المشاعر التعميمية الهلامية الملك قدرا كبيرا من التأييد المبدئى ، وان كانت هناك تلميحات باستناد مناصرة النظام الملكى على دعامة من الاتجـــاه الانتقادى لأهداف النخبـة المســيطرة على وستمنستر ، وتكتيكاتها ، وتكشفت المثالية الموجبة التى ساندت أولئك الملكيين ، وتوطدت ، خلال ١٦٤٢ • وانصب جوهر هذه المسألة على التمسك بالتصور التقليدى المعتدل لدور الكنيسة فى المجتمع ، مع التشديد على أهمية اتباع نظام خاص فى العبادة وحكومة الكنيسة على السواء •

أما جوهر الأيديولوجية عند البرلمانيين فكان قوامه الربط فى عقول الناس بين الكفاح ضد العقيدة الكاثوليكية والحفاظ على الدين الحق • وأرجع أحد المؤرخين جوهر الصراع مع الملك « الى الصدام بين الدين الحق والعقيدة الكاثوليكية » • ولن يتسنى لنا فهم حماسة البرلمانيين فى بداية الحرب الا اذا قدرنا مدى ما أصاب كثيرين منهم من احباط من المظهر المتقلب للكنيسة التى اتخذت موقفا متأرجحا بين الاصلاح الدينى وما استلهمته من رؤياها لأورشليم الجديدة ، والصدمة التى أحدثها اعتداء الملك فى العقد السابق على التيار الأساسى للأنجليكانية البيوريتانية المعتدلة • وكما بين هولز فى حديث له فى ٢٢ يونيو ١٦٤٢ : « لقد رأى البروتستانت مدى ما تعرضت له حقيقة الدين وجوهره من تآكل من تأثير المظهريات الفارغة والاحتفالات غير الضرورية ، والأخطاء الفادحة للعقيدة الكاثوليكية والأرمينية، التى فرضت علينا تحت اسم مذهب كنيستنا ، فانفتح الباب على مصراعيه أمام جميع مظاهر الفجور » • ووصف مقدمو الالتماس باسم « اسكس » الدين بأنه أنفس من أرواحهم وحرياتهم : « ان هدفنا الرئيسى هو الحفاظ على الدين » كما صرح أحد أعضاء البرلمان فى معرض تعليقه على رد الملك على الاقتراحات التى أرسلت الى قصر بيفرلى فى ٢٥ يوليو : « لقد بدا الآن ان الغرض الأساسى للبرلمان هو تحطيم الدين » •

أما بيت القصيد وراء هذه الأزمة فقد كان مستقبل الكنيسة ، وليس مشكلة الميليشيا أو تعيين المستشارين ، والعبارات المباشرة عن انعدام الثقة السياسية • وكان على رأس الموضوعات التشريعية المطروحة على مجلس العموم فى صيف ١٦٤٢ مشروع الدعوة لاجتماع رجال الدين ، والغاء التعددية ، واستئصال البدع الأرمينية واستبعاد القسس المنحلين، وكانت هذه المشروعات هى التى حاول أعضاء البرلمان التعجيل بعرضها على مجلس اللوردات ، مما دفعهم الى الاسراع فى الاقتراح التاسع عشر على اعطاء الصدارة لمعاهدة محادثات أكسفورد فى الأشهر الأولى من ١٦٤٣ •

وذكر ديويز(*) في حديث له في يوليو ، « أنه بينما أعلن بصراحة عن حقوق الرعية في التمتع بالحرية والامتلاك ، الا أن المسألة الأساسية التي مازالت تحتاج الى طمأنتنا هي اصلاح الدين » • اذ كان ديويز من بين من اعتقدوا أنه من واجب البرلمان درء خطر تكرار هجوم الأرمينيين على الدين الحق ، بعد ادراك مقدار الاساءة الناجمة عن هذه الاحتفالات ، والتي لا تعد ضرورية بأي حال ، ومن ثم يتحتم الغاؤها تماما ، وبذلك تنتهي متاعبنا التي نعاني منها في سبيل ارضاء أصحاب الضمائر الضعيفة ، الذين يقبلون عليها ، والتي ما كانت لتستمر باقية بدونهم » • وقبل ذلك بأيام قليلة ، شدد ديويز على القول بأن البرلمان لا يرغب تعديل « أي جزء أساسي أو جوهري من ديننا الراسخ • وكل ما يسعى اليه هو تعديل بعض أشياء في الاطار الخارجي ، أو في حكومة الكنيسة » • ومما يدعو الى السخرية ، أنه بينما قدح الملكيون في البرلمانيين لصفحهم عن المتعصبين ، الا أنهم قد لجأوا في الواقع الى وسائل قمعية • فمثلا في سبتمبر ١٦٤٢ ، سجن أحد عمال الطرق بأمر مجلس العموم ، لأنه قام بالوعظ علنا في هولبورن •

ولم يكن باستطاعة زمرة البيورتان في معسكر البرلمانيين التنازل عن اعتقادهم في علو مكانة الحقيقة • ثم غدا هذا الاعتقاد متعارضا هو ودعوة فوكس التقليدية للولاء للحاكم الذي يحكم باسم الله • وهكذا تحول التيار المناهض للكاثوليك الى دفع الناس الى العصيان • وهكذا يكون الملك هو الذي فتح الطريق للدعوة الى الحرب الخفية التي تفجرت من منابر لندن ١٦٤٢ ، وهو الذي أرغم فئة علية القوم على التحالف على نحو غير طبيعي مع البيورتان الراديكاليين ممن ينتمون الى مرتبة متدنية من المجتمع • وباختصار يصح القول بأن الصلة بين البيورتان والحرب الأهلية كانت الى حد كبير من صنع شارل الأول •

وفي بداية الحرب ، كان التأييد الشعبي مسألة حاسمة لتدعيم البرلمانيين • ففي مقاطعة مثل سوسكس ، ما كانت الاليجاركية البيورتانية المحصنة لتقدم على خوض معارك البرلمان بغير اعتماد على الحماسة التلقائية لعائلات الأعيان في الاحراج والأقاليم الشرقية • وهي حماسة تغذت لسنوات طويلة على مشاعر التقوى التي اشتهر بها البيت الانجليزي ، والتطلع لخلق كومنولث يرعاه الله ، واذا كان بعض الأشخاص(**) قد قاموا بدور الزعامة الضرورية ، فان أشخاصا (***) آخرين قد ساندوا قضية

(*) D'Ewes.

(**) من أمثال John Herbert Morley, Sir William Bereton Pyne.

(***) من المشتغلين بالتجارة وفي مقدمتهم Nehemiah Willington من لندن وتاجر الاقمشة Samuel Priestley ومن أهل المدن المتحمسين مثل John Coulton

البرلمانيين فى هذا المضمار • ويمثل وصف وارتون لزحف البرلمانيين الى وورستر صورة للنضال البيورتاني • وكتب وارتون بعد التقهقر الى كوبرى بوويك : « على الرغم من أنني وآلاف عديدة كنا معرضين للتهلكة ، الا أنني كنت واثقا من مناصرة الله لنا فى نهاية الأمر » • وترك لنا شقيق بريستلى بينة عرفتنا كيف ذهب الى الحرب برغم توسلات أسرته ، مفضلا الاصرار على الموت فى سبيل قضية خيرة على رؤية مأساة كتلك التى وقعت فى ايرلاندة، وخطط لها فى انجلترا • وتعبر رسالة صمويل تيرنر لأخيه فى لندن عن حملة الفرسان على هنلى فى يناير ١٦٤٣ عن نفس الروح : « لا جدال فى وجوب وصف من لم ير الله حاضرا فى كل لحظة من لحظات هذا القتال ، عاملا على انقاذنا (وفركشة) أعدائنا بأنه قد فقد نعمة البصيرة » • وعندما سمع رالف جوسلين الذى ذكر أن « دوافعه للاسهام فى تقديم المقترحات كانت نابعة من مشاعره نحو الله وكتابه المقدس » بأنباء ادجهيل بعد المعركة بثلاثة أيام ، أثناء توجهه لالقاء موعظة أحد أيام الصيام ، لاحظ توافق موعد هذه المعركة ومواعيد صلواته فى يوم الأحد السابق لها : « عندما كنت أدعو الله أن يؤازرنا ضـد أعدائنا » ، وهـذا ما يؤيد القول بأن الحرب الأهلية الانجليزية كانت حربا دينية ••

وهكذا اندلعت الحرب فى انجلترا ، وسالت فيها الدماء على نحو ما كان أحد ليتكهن به ، أو يتوقعه قبل ذلك بسنتين • لقد كانت حربا غير طبيعية ، مثلما أدرك الناس آنئذ • واستند احساس الانجليزى بالأمان فى هذه الحقبة على ايمانه بما اتصف به المجتمـع المدنى من توازن وتناغـم وكرامة • وبامكاننا أن ندرك حتى بالرجـوع الى الفن المعمارى وتماثيل الكنيسة فى هذه الأثناء الى أى حد تمسـكوا بهذه المعتقدات • فلم يكن الأشخاص مهيئين للتوفيق بين التغير السياسى أو الانقلاب السياسى وبين دعائم عالمهم الذهنى • فلقد أحدثت الحرب الأهلية انفصاما عما سبقها من أحداث ، وأرغمت على التحرر الموجع من الماضى• فاذا لم توصف هذه الحرب بالحرب التى لا مفر من وقوعها ، فان هذا سيبرر شعورنا بمأسويتها • فهناك خليط عجيب من الحمق والمثالية يكمن وراء الأحداث التى تحدثنا عنها • وعندما اندلعت العداوات ، كانت مصحوبة بمظهر هزلى ، أضفى على الحرب صورة رقصة الموت (ماكابر) • فلقد ذبح الملكيون ثمانية من رحالهم عندما انفجر أحد المدافع أمام قلعة وارويك فى أغسطس ١٦٤٢ ، وطاحت رؤوس أربعة جنود فى لواء بدفورد « نتيجة لاهمالهم العناية بذخيرتهم » أثناء تقدمهم نحو شربورن بعد ذلك بأسابيع قليلة •

وآخر انطباع ترك أثره فى عقولنا هو الانفعالات التى أحس بها الأفراد من جراء تورطهم فى هذا المازق، بعد وقوع الرجال والنساء فى صراع لا ناقة لهم فيه ولا جمل ، وان صح القول بأنه كان من صنعهم • اذ بدا للعديد من

أبناء الفئة الحاكمة لانجلترا أن الحياة المتحضرة على حافة الانهيار • ولقد عرفنا من رسائل مختلف الأفراد الأحزان التى شعروا بها من جراء توقعهم اندلاع الحرب • ففى تلك الأيام الباكرة التى سادها الوئام من عهد « البرلمان طويل الأجل » ، كان أحد البسطاء (*) يحلم بكوخ فى الريف فقال لزوجته : « أتخيل وجود بيت صغير نعيش فيه سويا على خير حال حيث نمضى ما بقى لنا من أيام فى سلام دينى ، لأن هذا البرلمان سيحقق السلام والسكينة لنا جميعا » • وفى صيف ١٦٤٢ ، تأمل حالة بنى وطنه فى أسى : « ان كلا الطرفين يسعى لاتباع القوانين • غير أن المشكلة لا تنصب على كيف سنحكم حكما شرعيا ، بقدر تركزها على من سيكون السيد والفيصل الذى يحتكم اليه عند تنفيذ هذه القوانين • انها حالة مؤسفة أن تستنزف ثروات هذه البلاد ونفائسها ــ وربما دماء أبنائها ــ فى قليل من الغايات المراوغة » •

وشعر المعتدلون المخلصون بأوجاع أشد • انهم الأشــخاص الذين لم يكن بمقدورهم ادراك النزاع كمسألة نظرية ، وان لم يكن باستطاعتهم تجنب الانحياز لفريق أو آخر • وكان أثر هذه الحرب على الصداقات الوطيدة التى تمتد جذورها فى أغوار بعيدة ، أشد ايلاما • وعبر اللورد سافيل فى رسائله الى الليدى تمبل فى خريف ١٦٤٢ عن شعوره بالمرارة لما حدث من قدح فى سمعته فى وستمنستر ، ولكن ما أثلج صدره هو تعرض صديقه الفيكونت ساى لتزييف صورته فى جميع المحافل • وكتب سير جون بوتس الى ديويز ٢٢ سبتمبر : « عليك أن تنصف صديقك وتحميه من الألسنة الفحاحة ، التى أسمع قرقعتها بأذنى • يا سيدى اننى أؤكد لك ان ضميرى يدفعنى الى التمسك بالكومنولث الذى لن أحيد عن الولاء له » •

لم يتخيل أحد من العديدين من أبناء الأعيــان وعلية القوم الذين ناضلوا أثناء الحرب الأهلية حدوث نصر فورى لأحــد الطرفين • وأعلن سافيل : « لن أرضى أن يمتهن الملك البرلمان ، كما لا أرضى أى حط من قدره ، قد يفسح المجال لعامة الناس لكى يتحكموا فينا جميعا • فبرغم شدة حبى للملك ، الا أنه لا يسعدنى أن أتخلى عن البرلمانيين ، رغم أنهم كانوا مخطئين » • واعترف سير وليم وولر فيما بعد بمقته للحرب رغم اشتراكه فيها • ولكنه كان يرغب دائما « أن لا يصاب أحد الطرفين بسوء على حساب فوز الطرف الآخر » • وكتب جون هوثام لايرل نيوكاسل فى ٩ يناير ١٦٤٣ ما يلى : « اننى كالآخرين أمجد الملك الى حد كبير ، وأحب البرلمان ، غير انى لا أميل الى رؤية أحد الطرفين يقهر الطرف الآخر قهرا مطلقا ، لأن هذه النتيجة ســتمد اغراء كبيرا لفرض الارادة وممارســة العنف » •

(*) Thomas Knyvett.

وساقت الحرب الأهلية طبقة الأعيان الى الظلمات ، وحاولوا استبقاء مظاهر الحياة ، كما عرفوها ، بينما كانت البلاد معرضة للفناء من أثر الصراع • وكتب جون هوثام الى نيوكاسل في رسالة (١٨ ديسمبر ١٦٤٢) يطلب مبادلة الأسرى : « يا الهى ! كم أعتبرها منة كبرى أن لا تحول هذه الاختلافات ــ التي أرجو الله أن يصلح أمرها ــ دون دفعك الى تناسي صداقتنا القديمة » • ولعله لا وجود لرسالة ماثلت الرسالة التي كتبتها احدى السيدات (*) في ٢٧ ديسمبر ١٦٤٢ في تعبيرها عن مرارة الحرب الأهلية ، وفيها تحدثت عن المعاملة التي لقيتها من قبل أنصار الملك في هرفورد شــاير :

« ان أفكاري شاردة في تيه • ولست قادرة على الاهتداء الى اجابة تعرفني لماذا يعاملونني على هذا النحو ؟ وعندما أراجع نفسي لا أرى شيئا غير المحبة والاحترام يغمران فؤادي • وعندما أتأمل الصلات العديدة التي ربطت أغلب وجهاء هذا البلد بسير روبرت هارلي ، وبعضها صلات قرابة، وبعضها الآخر صلات زمالة ، الى جانب صداقته المخلصة الطويلة والاكيدة لي بفضل أدبه الجم وحسن معاملته لامرأة غريبة وفدت الى بلاده ، فانني أعجب من هؤلاء الناس ، فبرغم تحليهم بالأخلاق الكريمة ، فانهم استطاعوا الابتعاد عن جميع هذه الالتزامات » •

نعم لم يكن بمقدور علية القوم آنئذ أن يدركوا عدم احتمال نشوب ثورة انجليزية •

(*) رسالة من الليدى Brilliana Harley الى الفيكونت Scudamore

المراجــع

R. Ashton, The English Civil War, 1603-1649 (1978).

W. Haller, Liberty and Reformation in the English Revolution (1938).

C. Hibbard, Charles I and the Popish Plot (1983).

C. Hill, The Century of Revolution 1603--1714 (1980).

D. Hirst, The Representative of the People ? (1975)

J. P. Kenyon, Stuart England (1978).

J. Morrill (ed.) Reactions to the English Civil War (1642-1648) 1982.

J. Morrill, The Revolt of the Provinces : Conservatives and Radicals in the English Civil War 1630-1656 (1980)

J. G. Pocock, ed, Three British Revolutions 1614, 1688, 1776 (1980).

C. Russel, Parliaments and English Politics 1621-1629, (1979).

L. Stone, The Causes of the English Revolution 1529-1642 (1972).

L. Stone, The Crisis of the Aristocracy 1558-1641, (1965).

D. E. Underdown, Revel, Riot, and Rebellion : Popular Politics and Culture in England (1603-1660) 1985.

الحكم الفردى للويس الحادى عشر

ريتشــارد بــونى

ادت سنوات الحكم الفردى للويس الرابع عشر لفرنسا (١٦٦١ ـ ١٧١٥) فى أعقاب موت الكاردينال مازاران الى توطيد أقدام السلطة الملكية المطلقة فى فرنسا ، وجاءت بنموذج سياسى تطلع الملوك الأوربيون الآخرون لتقليده ، فلقد امسك لويس زمام جميع السلطات السياسية فى يديه • اذ كان الملك نفسه ، وليس رئيس وزرائه ، هو المسـئول عن الحكومة • فلم يكن بمقدور أى شخص آخر أو مجموعة من الأشخاص ، او هيئة من الهيئات التمتع بقوة مماثلة لقوة الملك الحاكم ، كما لم يكن باستطاعة أحد تحدى ارادة الملك السياسية •

وفى البداية ، وضع لويس جميع وزرائه تحت سيطرته المباشرة ، وكشف عن نوع الولاء الذى يتوقعه من أتباعه ، ونوع الخدمات التى ينتظرها منهم ، عندما قبض على فوكيه المسئول السابق عن المالية الذى تربح من وظيفته•وفيما بعد ، تجاهل لويس ما قام به وزيره الذى حظى بأعظم تقدير منه (يعنى كولبير) ثم أقدم لويس بعد ذلك على كبح جماح استقلال المدن ، بحيث يتسنى للحكم الملكى المركزى فرض الضرائب على ايرادات هذه المدن ، ثم شرع فى تحديد الحقوق المدنية للبروتستانت الفرنسيين • وهى سياسة ازداد تصاعدها بعد نقض ميثاق نانت ١٦٨٥ • ولما كان لويس قد شهد فى طفولته التمرد الأرستقراطى المعروف باسم « الفروند » ، فانه بذل جهدا كبيرا لتقييد سلطات النبلاء ، ممن اكتسبوا اللقب بحكم المولد أو المنصب الذى شغلوه ، وحد بطريقة صارمة من سلطة البرلمانات المحلية التى كانت بمثابة مجالس يسيطر عليها النبلاء • وقصد الملك بهذه الاجراءات السياسية الحـد من سـلطان أية جمـاعة قد تحاول تأكيد استقلالها بالسلطة ، أو تقدم على أى فعل غير خاضع لارادته •

(★) نقلا عن Political Change in France : Richard Bonney under Richelieu and Mazarin (١٩٧٨) •

وفي نهاية المطاف ، فقد احاطت بسياسات الحكم الفردي للويس الرابع عشر أحداث عديدة مثيرة للسخرية • فلقد سعى لرفع شأن النظام الملكي ودعم سلطانه داخل البلاد حتى يتسنى له اتباع سياسة خارجية عدوانية •• واحتاجت مغامراته خارج فرنسا الى استمرار امتشاق السلاح والتأهب للحرب ابتداء من ١٦٦٧ حتى ١٧١٢ • غير أنه عندما حل هذا التاريخ الأخير ، كانت الحروب التي شنها قد جردت مملكته من خيرة أهلها، وجردت أرضها من الأخضر واليابس ، وأضعفت من سلطات النظام الملكي ذاته ومن مكانته •

كان لويس الرابع عشر قد اكتسب خبرة فعلية بالحكم ، عندما أعلن عن نيته حكم البلاد بغير حاجة الى رئيس للوزراء ، في اليوم الذى تلا وفاة مازاران (٩ مارس ١٦٦١) • وكان الملك الفتى قد ترأس لأول مرة المجلس الأعلى للدولة في ٧ سبتمبر ١٦٤٩ عندما كان في الحادية عشرة من عمره • وكان أول قرار سياسى أصدره عندما مارس سلطاته هو القبض على الكاردينال دى ريتز (١٩ ديسمبر ١٦٥٢) • وبين ١٦٥٣ و ١٦٥٥ ، كان مازاران ولويس يلتقيان لمدة ساعة يوميا على الأقل لتصريف أمور الدولة • ولاحظ موروزينى سفير فينسيا أنه عندما كان لويس يعتقد أن القرارات المتخذة لا تلائم مصلحته ــ بالرغم من اقرار الآخرين لها ــ فانه كان يوقف العمل بها ، ويصمم على رفضها (١) • وهكذا عرف مازاران لويس في تؤدة ، ولكن بطريقة تدريجية ، أسلوب الحكم • وخشى أنصار الفروند من استغلال مازاران لمركزه كمشرف على تعليم الملك الفتى فيلقنه السياسة في صورة زائفة وضارة (٢) •

وأثبتت الأيام صحة مخاوفهم • غير أن وظيفة مازاران كرئيس للوزراء ، وليس كمشرف على تعليم الملك ، هى التى أتاحت له فرصة تعليم لويس مبادىء السياسة • وهكذا كانت المبادىء التى استرشد بها لويس في السنوات الأولى لحكمه الفردى فى أغلب النواحى تقريبا تعزيزا للسياسة التى اتبعها مازاران قبل موته • والحق ان لويس قد طبق المبادىء التى صاغها مازاران وهو على فراش الموت ، والتى أملاها لويس على أحد سكرتيريه فى ٩ مارس ١٦٦١ • ومن ثم يعد لويس الرابع عشر تلميذا لمازاران فى السياسة •

---

(١) **Ne conviennent pas vraiment à son service, quoiqu'elles soient approuvées par le autres il les casse, en les désapprouvant résolument.**

(٢) **Fausse et pernicieuse politique.**

ونصح مازاران لويس باحترام سيادة المجالس السيادية ، ولكن عليه قبل ذلك ان يرغم أعضاء هده المجالس على التزام حدود واجباتهم ، وكانت النتيجة المباشرة لهذه الوصية هي القرار الذى أصدره فى ٨ يوليو ١٦٦١ ، والذى يؤكد سيادة مجلس الملك على المجالس السيادية • واعتبر برلمان باريس هذا القرار(*) صفعة قاضية ضد كرامة المجلس السيادية•••ولكن لويس كرر التأكيد لهم بأنه لم يقصد بهذا القرار « المساس بسلطة هذه المجالس ، وانما المقصود فقط هو تنظيم مهامه على نفس النحو الذى اتبع فى تنظيم المجلس الأعلى » (**)•واتبع لويس هذا الاجراء فى ٢٥ أكتوبر ١٦٦٥ بأن أعاد تسمية المجالس السيادية بالمجالس العليا • وعلق على هذا القرار فى مذكراته بالقول : « لقد جعلت المجالس تتمتع بالسيادة ، ومنحتها استقلالها • ولقد دفعتهم الى ادراك عدم استطاعتى تحمل تجاوزاتهم » (٢) • وفى ١٦٧٣ ، تقيد حق الاحتجاج والتظاهر ، فلم يعد من الميسور تقديم أى احتجاج الا بعد اتخاذ اجراءات قانونية مناسبة • ولربما لم يقصد لويس بهذا الاجراء ما هو أكثر من الاجراء الوقتى المناسب لحالة الحرب ، ولم يهدف الى تطبيقه بصفة دائمة • وعلى أية حال فلقد ظلت فرنسا فى حالة حرب أو حالة استعداد للحرب منذ ١٦٧٣ حتى وفاة لويس ١٧١٥ ! وهذا يعنى أن القرار ظل ساريا طيلة حياته • وكما انكمش الدور السياسى للمجالس، كذلك تضاءلت امتيازاتها الاقتصادية • فحتى ١٦٦٥ ظلت الجهات المعنية تمارس مهامها الاستثمارية بدرجة معقولة • ومع هذا فقد حدث تخفيض للامتيازات المالية بعد ١٦٣٩ ، ثم أوقفت تماما ١٦٤٨ ، ثم تعرض أعضاء البرلمان فى اكس وروان لعملية حط لمرتبة وظائفهم بعد انشاء نظام لمنح الأجور كل ستة شهور ، وان كان هذا النظام قد أدى فى الواقع الى مضاعفة مصروفات هذه المجالس • ومع هذا فقد تصدى الأعضاء لهذه الاجراءات واستعانوا بالقوة المسلحة ١٦٤٩ ، ونجحوا فى الغائها • غير أنه بعد ١٦٥٢ لم يتكرر التجاء أى برلمان للقوة المسلحة ضد سلطة الملك ، ولم يصدر بعد

(*) Un coup fatal à la dégnité des compagnie souveraines.

(**) Les compagnies ... se regardaient comme autant de souverainetés :eparées et independantes

(٢) نصح مازاران لويس باحترام المجالس السيادية مع « ارغامها على التزام حدود واجباتها » • وكانت النتيجة المباشرة لهذه النصيحة صدور القرار (٨ يوليو ١٦٦١) الذى يؤكد سيادة المجلس الملكى على المجالس السيادية • واعتبر برلمان باريس هذا القرار « لطمة قاضية تمس كرامة المجالس السياسية ••• » ولكن لويس عاود التأكيد لهم « باننى لم اقصد من القرار تقليص السلطات السابق منحها فى اكتوبر ١٦٦٥ ، باعادة تسمية المجالس السيادية بالمجالس العليا • وعقب على ذلك فى مذكراته بالقول : « لقد اعتبرت المجالس نفسها ذات حقوق منفصلة ومستقلة •• ولقد الهمتهم اننى لن اطيق تجاوزاتهم » •

١٦١٦ الا القليل من القرارات التي تنقض القرارات الملكية · بيد أن هذا التدهور السياسى لم يدم طويلا · اذ استطاعت البرلمانات الاقدام على اتخاذ خطوات سياسية فعالة مرة آخرى بعد ١٧١٥ أثبتت أهميتها على المدى القصير على أقل تقدير · وتوافقت هذه الخطوة هي وانتصار الحكومه فى الميدان السياسى النظرى بغض النظر عن النظريات البروتستانتية كتلك التى وضعها جوريو (*) بعد ١٦٨٥ · أما الآراء الداعية للمقاومة ــ خصوصا المقاومة عن طريق المؤسسات القانونية ــ فقد اختفت بالفعل من فرنسا · ولم يعد هناك أصحاب نظريات من بين شاغلى الوظائف يتبعون الطريق الذى اتبعه شارل لويسو (**) ، ويجادلون دفاعا عن حقوق المجالس السيادية ضد حكومة لويس الرابع عشر · وهكذا توقف شاغلو الوظائف عن اصدار نظريات أو تعليقات سياسية · وكان هذا التدهور من أهم مظاهر موقف المجالس السيادية ، التى لم تعد قادرة على الدفاع عن نفسها فى ديسمبر ١٦٦٥ عندما خفض كولبير ــ بتعسف ــ مرتبات العاملين ، بعد أن اكتشف ضخامة الاعتماد المخصص لذلك ، مما يحرم أبواب الاقتصاد الأخرى القيام بأية عمليات استثمارية منتجة · وحاول هذا الاجراء تخفيض اعتماد بعض الوظائف القائمة بمقدار الثلث · وفضلا عن ذلك ، فقد شهدت المجالس السيادية تضاؤل عدد القضايا المعروضة عليها نتيجة تشكيل عدة مجالس تابعة للملك بصفة مباشرة ابان ستينات وسبعينات القرن السابع عشر كمجلس العدالة ومجلس تعديل امتيازات النبلاء ، ومجلس مراجعة الديون والاشراف على موارد المياه والغابات ··· وهكذا · وبذلك فقد أعضاء المجالس قدرا كبيرا من دخلهم ومن الهدايا العينية (***)، مما أثبت أن الوظيفة كانت مصدر رزق مهين · وأنشأ لويس الرابع عشر ما لا حصر له من الوظائف الجديدة ، كان من بينها بعض وظائف تابعة للبرلمانات ، وبخاصة فى تسعينات القرن السابع عشر · وخفض مرتبات شاغلى الوظائف القائمة دون تعرض لأية مقاومة من المجالس تماثل المقاومة التى واجهها فى أربعينيات القرن السابع عشر ·

وربما قام مازاران بتحذير الملك من طموح فوكيه · ومن المؤكد أنه أخبره « أن الملك الذى لا يقدر على الحكم لا يستحق أن يحكم » (٣) · وهكذا يكون القرار الذى اتخذه الملك بالحكم دون رجوع لرئيس الوزراء ، والذى أعلنه فى ١٠ مارس ١٦٦١ تطبيقا لاحدى رغبات مازاران وهو على

(*) Pierre Jurieu (١٦٣٧ ــ ١٧١٣) عالم اللاهوت الفرنسى البروتستانتى · وعرف بمجادلاته مع بوسويه وتصديه للويس الرابع عشر ·

(**) Charles Loyseau.

(***) Epices.

(٣) Un roi qui ne pouvait gouverner n'était pas digne de regner.

فراش الموت٠وأوحى مازاران الى لويس أيضا بتعيين كولبير كمساعد لفوكيه٠ وعلى الرغم من قيام كولبير بخدمة مازاران باخلاص منذ ١٦٥١ ــ وبذلك بدا وكأنه يمثل استمرارا لسياسة الحكومة ــ الا ان انتقاده لفوكيه بدءا بسنة ١٦٥٩ قد تضمن تصميما على الابتعاد عن بعض مظاهر الماضى ، لا سيما نظام تمويل الحرب والسلطة المبالغ فيها التى كان يتمتع بها ناظر المالية ٠ وفضلا عن ذلك فان كولبير كان بحاجة للخلاص من فوكيه ٠ اذ قدرت الثروة التى تركها مازاران عند وفاته بحوالى سبعة وثلاثين مليونا من الجنيهات ، مما دعا كولبير الى السعى للخلاص من كل مخلفات هذا الماضى السياسى غير المشرف ٠ فقد اعتبر فوكيه محسوبا لمازاران ومسئولا عن كل تصرفاته المالية ٠ وألقى اللوم عليه ٠ وتم القبض على فوكيه فى ٥ سبتمبر ١٦٦١ ، أى بعد عشرة أيام من الغاء وظيفة ناظر المالية(*) وانشاء المجلس المسمى «المجلس الملكى للشئون المالية» (**)٠وكان هذا المجلس الجديد فى مرتبة أدنى من مرتبة مجلس الدولة ، ولكنه كان يعلو على المجالس الصغرى الأخرى كالمجلس الخاص مثلا ٠ واختص المجلس الملكى للشئون المالية بتحقيق قدر من الرقابة الفعالة يفوق ما كان يقوم به ناظر المالية دون أن يمس التاج بأى سوء ٠ وترأس لويس الرابع عشر هذا المجلس ، وبذلك اختلف عن أبيه ــ وعن نفسه أيضا فى خمسينات القرن السابع عشر ــ فكان يخطر بجميع تفصيلات المسائل المالية والأعمال الروتينية للحكومة ٠ وحرص لويس بكل دقة على الهيمنة بسلطانه على هذا المجلس ٠ فكان يشطب بنود المصروفات التى لا يقتنع بوجود ما يبررها ٠ وعندما انتقل لويس الى جبهة القتال ١٦٧٢ ، عهد للملكة بترأس المجلس أثناء غيابه ٠ وبعد ذلك بسنتين لعله ازداد حذرا ٠ اذ طلب من كولبير اخطاره بصفة منتظمة أسبوعيا بالأعمال الهامة للمجلس ٠ غير أن لويس احتفظ لنفسه لدى عودته بسلطة مراجعة حساب الشئون المالية الملكية ٠

وأخفق المجلس الملكى للشئون المالية عندما رأسه المستشار سوجيه (***) بين ١٦٣٥ و١٦٦١ فى الحد من سلطات ناظر المالية ، ومن ثم أبعد عن الاطلاع على تفصيلات الادارة المالية ، ومن نطاق المبادرة السياسية ، وكنتيجة للحكم الصادر فى سبتمبر ١٦٦١ ، لم يعد من حق المستشار بحكم كونه وزيرا التدخل الرسمى فى شئون مجلس الدولة أو المجلس الملكى الجديد للشئون المالية ٠ ومن ثم رأينا ليتيبه (****) الذى عين ١٦٧٧ وبونتشارتران (*****) الذى عين ١٦٩٩ مستشارين يتمتعان

(*) Surintendance

(**) Conseil d'état et des finances.

(***) Séguier.

(****) Le Tellier.

(*****) Pontchartrain.

بهذا الحق · ولم يتمتع بهذا الحق آخرون (*) · وحدث تدهور مماثل لمنصب المستشارية فى عهد ريشيليو ومازاران عندما خضع لقيود النظام الحكومى الذى يستند الى وجود رئيس للوزراء · فقد سمح بحرية التصرف لافراد قلائل (**) ، ممن شغلوا قبل ذلك منصب قوميسير للملك فى الاقاليم ، كما عمل ثلاثة منهم كمسئولين فى الاقاليم تحت رئاسة ريشيليو ومازاران ، دون تعرض لأى وهن من جراء الخضوع لرئاسة أو اشراف رئيس مسن أو مجلس يتألف من العديد من الأعضاء · ولو أردنا معرفة مدى ما حدث من تغير فما علينا الا أن نقارن بين كولبير عندما شغل فى البداية وظيفة ناظر المالية ، أو مراقب عام الشئون المالية · فلم يزد عمله فى الحالين عن مراجعة القرارات · أما بعد انشاء المجلس الجديد ، فقد عهد اليه بالمحافظة على سجلات الايرادات والمصروفات ، واقتراح المشروعات التى حققت نتائج سياسية هامة ونفعا ماليا كبيرا · ولقد مارس كولبير هذه المسئولية بالفعل ، دون أن يتمتع بأية سلطة سياسية مستقلة · وفى بعض حالات نادرة ، تجاوز فيها حدوده ، فوجه الملك اليه لوما شـديدا ·

ونظر كولبير الى المجلس الملكى للشئون المالية كوسيلة يمكن الاستعانة بها لاصلاح الأوضاع المالية اصلاحا جذريا·وسعى كولبير لتخفيض النفقات الاجمالية ، بحيث لا تتجاوز اثنين وأربعين مليونا من الجنيهات ١٦٦٣ · وكان من العسير اتباع القيود التى فرضها كولبير ، ولكنه عندما شكا الى لويس الرابع عشر (١٦٧٠) وأبلغه بأن زيادة المصروفات تحول دون تنفيذ اصلاحاته ، وكان مقدار الزيادة موضع شكايته (٧٥ مليونا) أى أقل من التجاوزات التى حدثت فى أية سـنة من السـنوات الواقعة بين ١٦٣٦ و ١٦٦٢ ، أى السـنوات التى توجد وثائق دالة على قيمـة الايرادات والمصروفات فيها · ومع هذا فقد حققت اصلاحات كولبير مزايا سياسية ومالية للحكومة فى المدى القصير · ففى الناحية السياسية ، عادت بالنفع على لويس الرابع عشر وكولبير بفضل تمكنها من تحقيق بعض الأهداف البناءة للويس الرابع عشر شخصيا · وفى الناحية المالية ، يسرت تخفيض المصروفات الحكومية والغرامات الموقعة على الممولين من قبل مجلس الدولة(***) (١٦٦١) ، وبذلك تحقق التوازن فى مصروفات الحكومة · وفى الوقت نفسه ، فالى جانب قضاء كولبير على الاسراف ، فانه أعاد تنظيم دخل النظام الملكى الفرنسى ، وأدرك وجوب استبعاد الارتكان على ضريبة الحرب

(*) من امثـال Seguier ابتداء من ١٦٦١ حتى وفاته ١٦٧٢ و Etienne d'Aligre (عين ١٦٧٢) و Boucherat (عين ١٦٨٥) ·

(**) مثل Le Tonnelier, Marin, Sève Aligre, Colbert Hervart, de Breteuil.

(***) Chambre de justice.

كمصدر رئيسى لايرادات التاج الفرنسى · وتبعا لذلك حرص على تخفيض أو تخفيف المتأخرات المستحقه عن آخر سنوات المدة التى أمضاها مازاران فى رئاسة الوزارة ، وخفض ضريبة الحرب بالتدريج ، حتى وصلت الى ما مقداره أربعين مليونا من الجنيهات حتى فى سنوات الحرب مع هولاندة (١٦٧٢ ـ ١٦٧٨) وبذلك انخفضت الى مستوى أقل من مقدارها فى ١٦٥٨ ، وخفض هذه الضريبة مرة أخرى ١٦٨٠ ، فبلغت اثنين وثلاثين مليونا · ومن أسف أن آثار هذه الاستقطاعات قد محيت عندما حدث كساد فى المحصول الزراعى بعد ١٦٧٠ · وفضلا عن ذلك فمن الآثار الحميدة لتخفيض ضريبة الحرب ، ما حدث من ازدياد فى الدخل غير المباشر · وعندما مات كولبير ١٦٨٣ ، بلغ الدخـل ٦٥ر٨ مليونا ، وبلغ مقدار الضرائب غير المباشرة ما يساوى نصف الدخل الاجمالى للتاج ، بينما انخفضت ضريبة الحرب الى ٣٠٪ من مجموع الدخل · ويعد قانون الايجارات، الذى دارت المفاوضات بشأنه مع فوكونيه(*) ١٦٨٠ بداية لتطبيق أحد الأنظمة المالية التى حققت نجاحا باهرا فى فرنسا فى القرن الثامن عشر ، مثلما حدث فى ضريبة الفلاحة (**) التى جمعت عدة ضرائب غير مباشرة فى ضريبة واحدة للمزرعة · وارتبطت بهذه الاجراءات التغيرات فى وسائل جبـايه الضرائب · ففى ١٦٦١ ، ابتكر كولبير نظاما خاصـا بالمحصلين العموميين (***) وأعاد اتباع الوسائل المألوفة بدلا من الاعتماد على نظام المحاسبين والاستعانة برجال الجنـدرمة للارغام على سـداد الضرائب · ويحتمل أن تكون الحكومة قد جست النبض قبل اصدار هذا القرار فى أواخر عهد فوكيه ، وان كان كولبير هو الذى عجل بتنفيذه · ويصح القول بأنه قد أمكن الاستغناء التام عن وسائل الارغام على دفع الضرائب عن طريق الجهات الحكومية المسئولة فى ستينات القرن السابع عشر ، باستثناء حالات قليلة نسبيا · وبعد ١٦٦١ ، ازداد ارتياب كولبير عمن سبقوه فى جدوى الاستعانة بالقوة المسلحة لجباية الضرائب · ويعزى الى هذا الاتجاه الأخير بوجه خاص ، والى الاصلاحات المالية والاتجاه المعتدل الذى اتبعته الحكومة ، ما حدث من تغير فى النظرة الى دور المسـئولين الاداريين بعد ١٦٦١ ، على أن هذه الاصلاحات المالية التى قام بها كولبير لم تزد عن جانب واحد من الاجراءات الاقتصادية التى هدف كولبير من ورائها الى شد أزر الصناعة والتجـارة والزراعة الفرنسية ، فى فترة الكساد الاقتصادى · وبرز فى هذه السياسة ما سمى بحرب « التعريفة الجمركية » التى فرضـها كولبير على الهـولانديين وقد احتلت مكانة

(*) Fauconnet.

(**) Ferme-générale.

(***) المحصلون العمـوميون receveurs-généraux والوسائل المألوفة voies ordinaires.

الصـــدارة فى هـذه السـياسة أيضـا مجـادلاته لانشـاء نظـام المتصرفين (*) أيضا فى المشروعات الاستثمارية المحلية التى ساعدت على تقديم العون للفقراء وتوزيع الغلال عليهم ، لا سيما أثناء الأزمات الطاحنة فى السنوات ١٦٩٣ و ١٦٩٤ و ١٧٠٩ و ١٧١٠ ٠

واختلف المؤرخون فى الحكم على اتجـاه كولبير نحو المتصرفين ٠ فطالما أسيء فهم تعليماته الى مكاتب الشكايات فى سبتمبر ١٦٦٣ ٠ وقيل ان كولبير كان يعتبـر هؤلاء المتصرفين (**) مجـرد موظفين مؤقتين ، بالاستطاعة الاستغناء التام عن خدماتهم عند الضرورة٠ويرجع هذا الحكم الى فقرة غامضة فى تعليمات كولبير ، وربما رجع أيضا الى أنه كان يصـدر التعليمات الى مكاتب الشكايات وليس الى المتصرفين ٠ وفى الحق قد يجوز القول بأن « مكتب الشكايات والمتصرف » قد عنيا نفس الشيء فى هذه الحقبة ٠.وعلى الرغم مما حدث من تحول سريع فى مسئوليات هؤلاء المتصرفين فى ستينات القرن السابع عشر ، الا أن هذا لا يعنى أن نظام المتصرفين كان مجرد اجراء وقتى ، وأنهم كانوا على هامش الحياة فى فرنسا ، كما يبين من اختيار بعض هؤلاء المتصرفين السابقين فى مهام مثل الاشتراك فى محاكمة فوكيه (***) ٠ ومن ثم فلا يجوز الظن بأن كولبير قد تخيل امكان الغاء وظائف المتصرفين المقيمين فى الأقاليم ، كما نستطيع أن نستخلص من مذكرته المؤرخة فى أول أكتوبر ١٦٥٩ الى مازاران والتى اعتبر فيها « وجود المتصرفين من المقومات الأساسية للاصلاح المالى » ٠ ومن ثم رأيناه يكتب قائلا : « من المستحيل أن ينهض بجميع هذه المهام فى الأقاليم الا من يشغلون وظائف المتصرفين » (٤) ٠ وفضلا عن ذلك ، فانه لا يعقل أن تكون الحكومة قد قررت الغاء نظام المتصرفين اعتمادا على تكليف موظفى الحسابات (١٦٦٠ ـ ١٦٦١) بعمليات جباية ضريبة الحرب ، وأنهم عقدوا اجتماعات غير قانونية بحجة تسريع انجاز هذه المهمة ٠ ويذكر أن الحكومة قد رفضت مطالب هؤلاء الموظفين الحسابيين ، ولم تمس السلطات المالية للمتصرفين ، بل وأمرتهم بوضع نهاية لاجتماعات موظفى الحسابات ٠ وهكذا يكون

(*) intendants ولعل وظيفة المتصرف فى تاريخ الاتراك والمماليك هى اقرب الوظائف الى هذه الوظيفة التى يتحدث عنها الكاتب ٠

(**) Maitres des requêtes

(***) ومن الامثلة الجديرة بالذكر ايضا الصراع على الولاية بين كولبير ولى وانتقادات لوفوا للعسكريين ١٦٦٦ ٠

(٤) toute ces choses ne peuvent estre exécutees dans les provinces que par la ministère des intendants.

كولبير قد اعترف بالمسئولية المالية للمتصرفين فى ١٦ نوفمبر ١٦٦١ و ١٢ فبراير و٢٥ أغسطس و٦ سبتمبر ١٦٦٣ • وترجع أية سلطة تمتع بها الصرافون (أمناء الخزينة) الى المهام التى كانوا يكلفون بها من قبل المجلس • فلا عجب اذا رأينــا هؤلاء الأمناء ينــدبون حظهم ويقولون ان « وظائفنا قد حل بها الخراب (٥) ، وأن المتصرفين قد انتزعوا منا ما كان يشرفنا ويثبت دورنا الفعال ، ولم يتركوا للعاملين معهم غير المهام الثقيلة لمواجهة الحملات الشرسة التى كان يشنها الملك » واحتفظ المختارون (*) بمعظم الوظائف القضائية الجنائية والمدنية ، وان وجب أن لا ننسى قضايا الفساد التى نسبت الى هؤلاء المختارين وعرضت على مجلس الملك فى ستينات القرن السابع عشر ، مما أكد على شدة الحاجة الى الاشراف الدقيق من قبل المسئولين الاداريين • ولم يكن بمقدور هؤلاء المسئولين فعل أى شيء أكثر من ملاحقة أمثال هؤلاء الموظفين اذا ارتكبوا جرائم خطيرة، تتوافر الأدلة بشأنها ••

وبعد ١٦٦٩ لوحظ استبقاء المسئولين الاداريين مدة أطول فى المقاطعات أكثر مما كان يحدث فى الماضى • ففى السنوات الخمسين بين ١٦٦٦و١٧١٦ كان « المتصرف » يقضى خمس سنوات فى المتوسط فى مقاطعته ، أى سنتين أكثر من المدة التى كان يمضيها فى عهد «الفروند» • ومن هذا يتضح أن الشرط الذى وضعه ريشيليو ومازاران لتحديد مدة خدمة المتصرف بثلاث سنوات ، يعاد بعدها تعيين المتصرف أو ينقل أو يستدعى ، قد استغنى عنه ابان سنوات الحكم الفردى للويس الرابع عشر ، ولعل كل مقاطعة كانت تتوقع أن يتولى ادارتها تسعة أو أكثر من هؤلاء المتصرفين فى الخمسين سنة الواقعة بين ١٦٦٦ و ١٧١٦ • وفاق الاستقرار فى المقاطعات التى يختار محافظوها بالتعيينالاستقرار فى المقاطعات التى ينتخبمتصرفوها(**) • فهل كان هناك عامل مساعد يفسر أسباب احتفاظ المتصرفين « المعينين » بوظائفهم ؟ • وربما رجع أحد الأسباب الى ما كان يقوم به كولبير من استبيان عن ديون المدن • ولاحظ بوشو ١٦٦٦ أن تصفية الديون القائمة لن تفى بالغرض ، فيلزم أيضا منع المقاطعات من تجشم أعباء ديون جديدة • وقدر

---

(٥) "nos charges sont tombés dans la dernière décadence ... et le intendants retiennent ce qui est de plus honorable et plus effectif et ne laissent dans les bureaux que le fardeau du grand nombre d'expéditions pour le Roy."

(*) Elus.

(**) فلقد شهدت مقاطعة Montauban احد عشر متصرفا • أما Moulins Rouen, Poitiers, فقد شهدت ربما ما هو اكثر من ذلك • وخدم Basville كمتصرف فى بورغونيا زهاء ٢٧ سنة (١٦٥٦ ــ ١٦٨٣) بينما خدم Bouchu فى Langudroc مدة ٣٢ سنة (١٦٨٥ ــ ١٧١٨) •

كولبير هذه الملاحظة • ففى مذكرة أرسلها الى المتصرفين فى ٢٩ فبراير ١٦٨٠ ، طالب باقتراحات عن الطريقة التى يمكن أن تتبع لتحقيق ذلك • وتقرر تنفيذ ما جاء فى تقارير المتصرفين فى المنشورات التى صدرت فى ١٨ نوفمبر ١٦٨٠ ومرسوم ابريل ١٦٨٣ • فلقد نقل هذا المرسوم مراقبة الشئون المالية للبلديات من المدن الى المتصرفين • وباستثناء السنوات الواقعة بين ١٧٤٦ و ١٧٧١ ، فقد حدد هذا المرسوم اطار العلاقات بين الحكومة والمدن ، واستمر العمل بهذا النظام الى أن حدثت الثورة الفرنسية• ولم ينص المرسوم على قيام المتصرف بمراجعة حسابات البلديات لأن كولبير لم يقر هذا الاجراء ، واعتبره مسئولية ضخمة لن تحقق أية فائدة تذكر للشعب » (*) • ومع هذا فان ما حدث كان نتيجة لتشريعات كولبير•ويرجع الى هذا العامل أكثر من أى عامل آخر ما حدث من فرض للرقابة الاداريه(**) على المدن • وازدادت أعباء العمل الذى ينهض به المتصرفون نتيجة لهذا الاجراء ، وما ترتب عليه•وكان المتصرفون مضطرين الى الاعتماد على عون المرؤوسين أثناء عمليات المراجعة وتصفية الديون ، « لانجاز مثل هذا العمل الضرورى » (***) • وما أن جاءت ١٧١٨ حتى أصبحت المسائل التى تخص المدن هى الشغل الشاغل للمتصرفين،الذين كانوا ينهضون بمسئوليتهم من خلال شبكة من المساعدين المنتدبين (****) ، للتأكد من صرف مخصصات المدن فى وجهها الصحيح • وجردت المدن من استقلالها السياسى والمالى • وترتب على ذلك اتاحة الفرصة لاستغلال التاج لها اعتمادا على قواعد أشد قسوة وصرامة أكثر مما كان ميسورا قبل ذلك • وبعد ١٦٨٣ ، حل محل استغلال المسئولين المحليين واساءة تصرفهم واستغلال الدولة للمدن بطريقة جائرة • وارتفعت الاحتياجات المالية من أثر سنوات الحرب التسع وحرب الخلافة الاسبانية ، ثم بلغت أوجها ابان الحرب مع البولانديين وحرب الخلافة الأسبانية (فى القرن الثامن عشر) •

أما العامل الثانى الذى أطال بقاء المتصرفين فكان الرقابة الصارمة التى فرضها لويس الرابع عشر على البروتستانت • ففى ١٦٥٧ ، كان البروتستانت (*****) يخشون حدوث اضطهاد وشيك لهم • وأثبتت الأحداث فى السنوات التالية ـ خصوصا بعد ١٦٦١ ـ صحة مخاوفهم • وأسفرت المحادثات بين ممثلى الاكليروس والمستشار سيجيه فى ١٣ فبراير

(*) "un travail immense qui ne produiroit aucun avantage aux peuples..

(**) tutelle administrative.

(***) Pour avancer un travail si nécessaire.

(****) Subdélegués.

(*****) فى Midi.

١٦٦١ عن الاتفاق على تنفيذ بنود مرسوم نانت (*) (الذى صدر فى ١٥٦٦) ونشره · ولم يتخــــذ أى اجراء فى هذا الشأن حتى موت ماراران فى ٩ مارس · على أنه فى بحر شهر أويزيد من وفاة الوزير الأول (مازاران) أوفدت البعثات الأولى · وفى ١٥ يونيو ١٦٦١ ، وعد لويس الرابع عشر الاكليروس بتنفيذ اعلان ١٦٥٦ تنفيذا كاملا · ومن سخريات القدر ، أن تنتصر « حركة الورع الكاثوليكى » بعد أن كان الوهن قد اعترى نفوذها السياسى · غير أن لويس تمكن من القضاء على هذه الحركة بأن عمد الى اتباع سياسة تتبنى فكرة شن حرب صليبية ضد البروتستانت (**) · ويذكر الملك فى مذكراته أنه سعى ١٦٦١ لتنفيــذ التنــازلات التى نص عليها ميثاق نانت · ونفــذ ذلك عن طريق المبعــوثين الذين أوفدهم فيما لا يقل عن ثلاث عشرة مقاطعة فى فرنســـا · وفى بعض الأحيان ، احتفظ البروتستانت بحقوقهم · غير أن حجر الأساس كان قد وضــع · اذ نصــت النظرية الجـــديدة ، كمــا عبر عنهـــا ١٦٦٦ على « وحــدة المجتمع وعـــدم جــواز تقسيمه أو المشـــاركة فيــه ، لأنه كاثوليكى قلبا وقالبا (٦) » وقيدت تقييدا صارما اقامة قداسات بروتستانتية ، كالتى نصت عليها المادتان ١ ، و١١ من مرسوم نانت·وبوجه عام كان المبعوثون البروتستانت حريصين على الحفاظ على رضاء الملك ، واتبعوا وجهة نظر المتصرف الكاثوليكى · وأحيانا كان المتصرفون يســتدعون بعض أفراد اضافيين من الهجنوت للمساعدة فى انجاز عملهم · ولعلهم كانوا عملاء لهم · وربما كانوا يأملون من وراء ذلك الى اضــعاف القرارات التى يصــدرها المبعوثون البروتستانت (***)·وحتى فى الحالات التى لم يتبع فيها المبعوث البروتستانتى المتصرف الكاثوليكى ، فقد لوحظ ايفاد مبعوثين من قبل مجلس الدولة لبحث الالتماسات والشكايات·وكانت البعثات التى يرسلها المجلس مؤلفة ــ بطبيعة الحال ــ من الكاثوليك وحدهم ، وقد تضم اثنين من الأعضاء البارزين فى حزب الورع وابن أحد العاملين · وهذا يثبت أن الاجراء من أوله لآخره كان موجها ضد البروتستانت ، وتمخض فى نهاية المطاف عن اصدار تصريح ٢ أبريل ١٦٦٦ الذى حد بصرامة من مرسوم نانت ·

(*) Commi aire pour l'exécution de l'edit de Nantes.

(**) ففى Languedoc مثلا دبر Bazin de Bezons و De Pevrema'es هجوما منظما على حقوق البروتستانت (التى سمحت لهم بالمشاركة فى الحكومات البلدية من خلال Consulats mi partis · وأعاد الكاثوليك فرض هيمنتهم على Montpellier, Bedarieux, Sommières و Mazamet,

(٦) La communauté ne peut 'tre divisés ni partageé.

(***) فمثلا استدعى Bazin de Bezons القاضى الملكى Anoul فى Uzès للمساعدة فى استجواب المتصرف ·

وبدأ اضطهاد الهجنوت باتباع الأساليب القانونية . ففى ٢١ يناير ١٦٦٩ ، تقرر تعطيل المجلس التشريعى (*) فى باريس وروان. ونقل مجلس كاستر الى احدى المدن الكاثوليكية . وبعد ذلك بعشر سنوات ألغيت المجالس التشريعية الباقية ، وضمت الى البرلمانات المحلية .. وبعد ذلك بعشر سنوات هطل سيل من التشريعات المقيدة بعد ١٦٧٩ ، التى أدت الى نقض مرسوم نانت بعد صدور مرسوم فونتانبلو فى ١٨ أكتوبر ١٦٨٠. وأدى النزوع الى ارغام البروتستانت فى بواتييه وأماكن أخرى بعد ١٦٨١ على اعتناق العقيدة الكاثوليكية الى خلق موقف جديد . وحدثت نتيجة مماثلة لذلك من أثر النزاع البعيد الغور بين لويس الرابع عشر والبابوية . وهكذا يتضح أن نقض مرسوم نانت كان وليدا لمجموعة من الظروف الخارجية والداخلية . على أنه كان بالمقدور تنفيذه بطريقة فعالة بغير استبعاد للحقوق المدنية البروتستانتية فى السنوات التى سبقت ١٦٨٥ . وبعد هذا التاريخ ، ازدادت مسئوليات المتصرفين حيال المرتدين الجدد (**) (وهو الاسم الذى أطلق على البروتستانت حينذاك) . وأمر المتصرفون باضطهاد البروتستانت الذين قبض عليهم أثناء محاولتهم الهروب الى الخارج ، وأمروا بحكم قرار مجلس الدولة الصادر فى ١٣ مايو ١٦٨٦ بالاشراف على جرد الممتلكات التى تركها المنفيون البروتستانت كاجراء تمهيدى يسبق مصادرة هذه الممتلكات . واضطهد المتصرفون « المرتدين الجدد » الذين بقوا فى فرنسا وكانوا يأملون العودة الى ممارسة عقيدتهم الأصلية ــ واضطهدوا أيضا الجماعات التى أسرتها القوات المسلحة أثناء اجتماعاتها المحظورة التى كانت تقام فيها الشعائر البروتستانتية ــ بل لقد حاول المتصرفون تنفيذ أوامر الاضطهاد حتى على من فارقوا الحياة من «المرتدين الجدد» ، الذين رفضوا الشعائر المقدسة التى أقيمت لهم وهم على فراش الموت ! نعم لقد تركت الأساليب التى اتبعها بعض المتصرفين عند معاملتهم للبروتستانت آثارا بعيدة على سياسة الحكومة . فلقد دارت مطارحات طويلة بين باسفيل وبوسويه (أعظم عقلية كاثوليكية فى العصر) حول هل يحق للمتصرفين والقوات المسلحة ارغام « المرتدين الجدد » على حضور القداس . ومما له أهمية بالغة تأييد المتصرفين لفكرة ارغام المرتدين الجدد على الحضور . ولقد شعر باسفيل بالارتياب فى سياسة تهديد البروتستانت . غير أن هذا قد حدث فيما بعد ابان الصراع الطويل ضد التمرد الكالفانى بعد ١٧٠٢ الذى اشترك فيه القميصارى (***) فى احدى المدن الفرنسية (****) .

(*) Chambres de l'édit.

(**) Nouveaux convertis.

(***) جماعة من الكالفانيين الفرنسيين اشتهرت بهذا الاسم لارتدائها قمصانا تشبه اقمصة النوم النسائية Camise

(****) مدينة Cévennes

ولقد اشير أنه رغم اتباع لويس الرابع عشر لمازاران في سياسته ، الا أنه في ستينات القرن قد نحا منحى جديدا في سياسته • وأنشأ مجلسا جديدا • وأقدم على اصلاح المسائل المالية في النظام الملكي الفرنسي• وأجرى تحريات خاصة للتعرف على ماهية ديون البلديات ، وطريقة تسديدها • وفقد البروتستانت جميع حقوقهم المدنية ، وتعرضوا – فيما بعد للتهديد – في سبيل دفعهم للارتداد عن البروتستانتية • وترتب على هذه المؤثرات استمرار بقاء المنصرفين في المقاطعات مدة أطول مما حدث قبل ١٦٦١ • ولو صح أن لويس الرابع عشر ، يسعى حقا للحفاظ على السلام ، لما كان من المستبعد أن ينعم بحرية أعظم للعمل ، ولكان باستطاعته الخلاص من مخلفات ريشيليو ومازاران • ولقد ارتبطت اصلاحات كولبير المالية بالضرورة بالأحوال الاستثنائية لسنوات السلام الاثنتى عشرة بين ١٦٦٠ و ١٦٧١ ، وايضا بمخططاته للنهوض بالصناعة والتجارة والزراعة في فرنسا في سنوات الكساد الاقتصادى • ومن المحتمل أن لا يكون كولبير من أنصار الحرب باعتبارها تتعارض على طول الخط هي وسياسة الاصلاح والاقتصاد في النفقات • غير ان لويس لم يكن في نيته الحفاظ على السلام من أجل السلام • فقد كانت لديه مخططاته الخاصة بالخلافة الأسبانية ، وعمل على اعادة تفسير تسوية وستفاليا ١٦٤٨ لصالح فرنسا • وفوق كل ذلك ، فانه في ١٦٧٢ ، أراد معاقبة الهولانديين لأنهم أنشأوا تحالفا ثلاثيا ضده قبل ذلك بأربع سنوات • وتصاعدت الحرب الهولاندية بسرعة، وتحولت الى حرب ألمانية أيضا • وفي ١٦٧٤ ، بلغ المجموع الكلى للنفقات ١١٣ مليونا من الجنيهات (وكانت قيمة الجنيه مماثلة لقيمة ١٦٥٣ على وجه التقريب) • وترجع الى الدين الذى خلفته الحرب الزيادة الكبرى في النفقات التى تجاوزت ١٣٠ مليونا في سنتى ١٦٧٩ و ١٦٨١ • وبعد وفاة كولبير ١٦٨٣ ، انهارت جميع اصلاحاته ، وبدأ لويس ١٦٨٩ يواجه أول داعين كبيرين مع الموارد المالية المهولة لانجلترا • ونادرا ما كان يجتمع المجلس الملكى للشئون المالية السابق انشاؤه ١٦٦١ ولو فرض أن اجتمع ، فان عمله كان يقتصر على التصديق على القرارات التى اتخذها المراقبون العامون للمالية (*) الذين كانوا يعملون نظارا للمالية• وكان كولبير يأمل أن يساعد الدخل غير المباشر على التزويد بأساس يحقق مساواة أفضل في توزيع أعباء الضرائب • غير أن أهم شرط للجباية الموفقة للضرائب غير المباشرة هو الحفاظ على السلام • وبعد اندلاع الحرب ١٦٨٩ سرعان ما انخفض دخل الحكومة من العائدات غير المباشرة ، فاضطرت الحكومة للعودة الى فرض ضريبة الحرب ، وانشاء وظائف مختصة بتمويل الحرب• واتسعت الفجوة مرة أخرى بين الايرادات والمصروفات ، ومن ثم فلم يبق

(*) Controleur-général des finances.

أمام التاج أى خيار آخر سوى الاستعانة بخدمات رجال المال من أمثال صموبل برنار وأنطوان كروزال ، ودفع الفائدة الباهظة التى يطالبون بها مقابل خدماتهم ، وبذلك يكون لويس الرابع عشر قد شق طريقه الى الحرب بدلا من أن يواصل ضغط الانفاق والاصلاح • ولعله ظن أن مطالب السياسة الخارجية الفرنسية يجب أن تتخذ الصدارة على جميع الاعتبارات الداخلية• ومن هذه الناحية ، يصح وصف سنوات حكمه الأخيرة بأنها كانت استمرارا مباشرا لعهدى رئيسى الوزارة ريشيليو ومازاران •

ان هذا يعنى أن الاهتمامات الأساسية للحكومة فى السنوات التى أعقبت ١٦٧٢ قد تشابهت بالضرورة هى واهتمامات الحكومة فى السنوات بين ١٦٥٣ و١٦٦١ ، وتركزت على كيفية تمويل الحرب دون اثارة تمرد كبير بين دافعى الضرائب الفرنسيين • وكان الاهتمام بصالح دافعى الضرائب من الفلاحين فى فرنسا من بين جوانب الحكومة ، التى شدد مازاران على وجوب الاهتمام بها ، حتى وهو على فراش الموت • ويوحى التغاضى عن متأخرات ضريبة الحرب فى بواكير ستينات القرن السابع عشر بأن هذه الفكرة كان لها بعض التأثير على لويس الرابع عسر•غير ان الحرب الطويلة تحتاج الى فرض المزيد من الضرائب وازديادا فى سوء حال الفلاحين من تأثير الكساد الاقتصادى • وحتى فى سنوات السلام ، فلقد حدثت بعض حالات عصيان(*)•وجرت الحروب الأخيرة فى أعقابها احداث تمرد أخطر من ذلك خصوصا بين الكاميسار البروتستانت عندما انتفضوا ١٧٠٢ (وتعد هذه الانتفاضة موجهة أيضا ضد فرض الضرائب) (**) • وبالرغم من أن «التمرد ضد الضرائب» قد حدث على نطاق له أهميته ابان الحكم الفردى للويس الرابع عشر،ووجه أحيانا الى المتصرفين،الا أن تصاعده لم يتفاقم الى درجة مماثلة لما سبق أن حدث ابان عهد ريشيليو ومازاران•ولا وجود لتفسير بسيط يفسر السبب ، لانه يرجع ــ من ناحية ــ الى ما حدث من تبدل فى توجهات الفلاحين • فعندما يرغم الفلاحون على تركيز كل جهدهم على النبش بأظافرهم بحثا عن لقمة العيش ، فان ما حدث من كساد زراعى

(*) كتلك التى وقعت فى Bénauge (١٦٦١ ـ ١٦٦٢) وفى Lustucru وفى Boulonnais, ١٦٦٢ وفى Audijois فى و Chalosse (١٦٦٣ـ١٦٦٥) وفى Roure, وفى Vivarais (١٦٧٠) • ثم حدثت احداث غزو وعصيان اخرى بعد اندلاع الحرب فى Agen و Le Mans, Bordeaux ولعل ذروة العداء قد جرت عند التصدى لأصحاب القلنسوات الحمراء او Torrebent بين جميع أحداث المناوشات مع القرويين فى فرنسا فى القرن السابع عشر •

(**) ولا تنس أيضا انتفاضة Tard-Avisés ١٦٧٥ وفى Quercy ١٧٠٧ •

ربما غدا من المعوقات الفعلية للاحتجاج أكثر من نزوعه الى تشجيع الاحتجاج الفعلى · نعم لقد كان الفلاحون فى عهد ريشيليو ومازاران أحسن حالا ومن ثم فانهم كانوا سيخسرون من عصيانهم ما هو أكثر من زيادة الضرائب التى يدفعونها للدولة · وهناك عوامل أخرى يجب أن توضع فى الحسبان كزيادة قوة الحكومة ، وبخاصة عندما توافر لها المزيد من القوات فى معظم السنوات ، وازدياد رسوخ مكانة المتصرفين بعد ١٦٦١ ، والعقوبات الأكثر وحشية التى كانت توقع على العصاة ·

ومن الميقون منه أن اتجاه النبلاء الى المسالمة قد ساعد الحكومة فى مهمتها لحصر العصاة الفلاحين وقمع حركتهم ، ولقد أشار مازاران ــ وهو على فراش الموت ــ على لويس الرابع عشر بالحفاظ على امتيازات النبلاء ، وعمل لويس بنصيحته يقينا ، فيما يتعلق بالامتيازات الاجتماعية والاقتصادية ، ولكنه لم يسمح للنبلاء المنتمين الى عائلات أعرق وأرسخ قدما بدخول الحكومة الا فى مناسبات خاصة ولأفراد معينين · وأبرز مثل لذلك هو الدوق بوفيلييه(*) بعد ١٦٩١·ومن الحقائق الملفتة عن الحكم الفردى للويس الرابع عشر ، والتباين الكبير بين موقفه بعد نضجه وموقفه عندما كان مازال حدثا ، عدم تمرد الوجهاء والأعيان عند اقصائهم · فلقد أجهضت محاولات تآمر الشفالييه دى روهان(**) ١٦٧٤ ومحاولة شومبرج ١٦٩٢، بالرغم من اصدارهما البيانات المعهودة الداعية الى الحاجة الى استعادة الامتيازات الخاصة بالنبلاء والبرلمانات والمقاطعات وتخفيف الضرائب ، واشتركت سياسة لويس الرابع عشر الخارجية وسياسته الدينية الداخلية فى الحيلولة دون حدوث عمليات تخريب باستثناء ما حدث من فئة صغيرة للغاية · أما الحجج التى ذكرها « حزب الورع » فى عشرينات القرن السابع عشر بعدم عدالة الحرب ، لأنها أحدثت انقساما فى أوربا الكاثوليكية فى الوقت الذى وجدت فيه أقلية بروتستانتية (لها وزنها) فى فرنسا ، فانها لم تنطبق على الحالة بعد ١٦٦٦ الا لماما · وأثبتت عدم صحتها ١٦٨٥ · اذ حارب لويس الرابع عشر الانجليز والهولانديين البروتستانت ، وأرغم طائفة الهجنوت على الركوع تحت قدميه · وأدى استعداد الامبراطور لتقاسم الارث الأسبانى مع فرنسا بعد ١٦٨٠ ، الى استبعاد احتمال عقد تحالف كاثوليكى يضم أسبانيا الخاضعة للهابسبورج والنمسا ضد فرنسا ·

(*) البارون François Houral de Beauvillier (١٦١٠ ـ ١٦٨٧) ·

(**) الشفالييه Louis de Rohan (١٦٣٥ ـ ١٦٧٤) ·

Schomberg (١٦١٥ ـ ١٦٩٠) Armand-Frédric

وحدث تحول تدريجي للنبلاء بين ستينات القرن السابع عشر وسبعيناته داخل الاقاليم بفضل السياسة الملكية الواعية • فبعد أن كانوا جماعه مشاغبة الى أبعد حد ، من المتعذر تحديد نوازعهم فى عهد ريشيليو ومازاران ، فانهم تحولوا خلال الحكم الفردى للويس الرابع عشر الى جماعة تتمتع بمميزات شخصية وباستقلال كبير ، وان كانت ملتزمة بالقانون بدرجة متزايدة ، ومن اليسير تحديد ملامحها قانونيا • وما حدث من محاولة لاصلاح حال النبلاء من قبل المتصرفين ، تنفيذا لتعليمات كولبير له أهمية بالغة ترجع على أقل تقدير لنفور النبلاء من هؤلاء المتصرفين •

وهناك سوابق واضحة للتحريات التى جرت للتأكد من صحة من يحملون لقب النبالة • ففى السنوات ١٥٩٨ و١٦٣٤ و١٦٤٠ و١٦٥٠ ، ألغيت شهادة حديثة العهد بالانتماء الى طبقة النبلاء (*) •وجرت تحريات للتأكد من ادعاءات الانتماء الى هذه الطبقة • وظهر فى احدى المقاطعات كتابان عن أنساب النبلاء • ولكن هناك مقاطعات أخرى لم تكتمل فيها التحريات ، أو لعل سجلات البحث لم يعثر عليها • وعمد كولبير الى اجراء عملية مسح واستقصاء أكثر احكاما امتدت الى مختلف العصور فى أغلب أنحاء فرنسا • وكان من بين أهداف هذه الحملة هدف مالى للتأكد من الغاء جميع الألقاب الزائفة ، حتى يتحمل أعباء ضريبة الحرب الجميع بالتساوى ممن يحق لهم ذلك بحكم المولد ، (٧) • غير أن هذا الاستقصاء كان له جانبه السياسى أيضا • وبغض النظر عن النتائج غير الصحيحة التى أسفر عنها البحث فى صحة ألقاب النبلاء ، الا أنه حقق ثلاث نتائج هامة : النتيجة الأولى ـ أنه فى شتى أنحاء فرنسا ـ باستثناء بريتانى وبروفانس ، اتضح أن المتصرف بحكم اتصاله الوثيق بمجلس الملك (ولكن ودون اشارة الى المحافظ) ـ قد أصبح الفيصل الذى يؤتنس برأيه لتحديد من يحمل لقب النبالة بصفة شرعية ، ومن لا يحق له ذلك • ففى كل مقاطعة ، كان هناك نبلاء زائفون رفضت مزاعمهم(**)،وطلب منهم دفع غرامة لاتقل عن مائة جنيه•ولم تكترث بعض عائلات مرموقة بهذه التحريات ، ولم تحرص على الاحتفاظ بسجلات تثبت أحقيتها فى اللقب ، ظنا بأن مسألة نسبها وأصلها وفصلها مفروغ منها ، ومن ثم ألفوا أنفسهم فى مواجهة مصاعب جمة عندما واجهتهم رغبة المتصرف بالاطلاع على ما يثبت الانتماء الى طبقة النبلاء • كما أن البحث عن الأسانيد التى تثبت ذلك فى المحاكم المحلية وسجلات الكنيسة والأديرة

---

(٧) Le fedreau de la taille soit porté avec egalité par tous ceux que la nais ance y assujetit.

(*) annoblissement.

(**) فى مقاطعة Caen اسم المؤلف الأول Mesmes de Roissy (١٥٩٨ ـ ٩٩) والثانى Etienne III d'Aligre (١٦٣٤ ـ ١٦٣٥) •

كان اجراء مكلفا ، ولا يسفر عن نتائج مؤكدة • وفى مقابل ذلك ، لم يصادف نبلاء الهندام(*) صعوبات كبيرة لاثبات زعمهم ، والانتماء الى طبقة النبلاء ، وغالبا ما كان البحث يمتد الى ما قبل ١٥٥٠ • فتواريخ التهيؤ للوظائف التى تدل على الانتماء لطبقة النبلاء •كانت معروفة • ولعل من حصلوا على لقب النبالة عن هذا الطريق ، كانوا أحرص على اثبات هذا الحق ، واحتفظوا بالوثائق الدالة على أحقيتهم • وثانى نتائج التحريات هى التعريف الجديد للنبالة • فلم يعد النبيل الشخص الذى يدعى أنه نبيل ، أو من يعتقد أنه من النبلاء ، أو يتمتع بحق الاعفاء من الضرائب المباشرة • ولكن النبيل أصبح الشخص الحاصل على شهادة معتمدة من المتصرف بحقه فى هذا اللقب • وهى شهادة قانونية ملزمة ، يتم الحصول عليها بعد استقصاء الوثائق والأسانيد ، وثالث نتيجة مستخلصة من التحريات ومن الاجراءات الحكومية المصاحبة هى اقفال باب الانتماء الى طبقة النبلاء بعد ستينات القرن السابع عشر • فلقد تزايد الاتجاه الى اختفاء الفروق بين نبلاء الهندام والنبلاء الأصل(**) • ويرجع ذلك ـ من ناحية ـ الى تضاؤل الكسب من مظهريات اللقب ابان حكم الملك لويس الرابع عشر • فكانت أغلبية « نبلاء الهندام »• تضطر الى الاعتماد على ايراد ممتلكاتها لتعويض خسارة الدخل المكتسب عن طريق الوظائف التى كانت تتطلب انفاقا على النواحى المظهرية • وزادت التحريات الخاصة بالقاب النبالة من صعوبات الحصول على اعفاءات جديدة من الضرائب•وفى ظل (النظام القديم) كانت عملية اغتصاب النبالة ، أو الحصول على اللقب « بالأمر » دون رجوع لشجرة النسب ممكنة دوما • أما بعد تشديد المتصرفين الرقابة على ضريبة الحرب ، فقد ساعدت الى حد كبير على الاقلال من المطالبات الزائفة بالاعفاء المالى • ولم يستطع النظام الملكى فى عهد البوربون القضاء قضاء مبرما على استقلال النبلاء ، ثم زال خطر التهديد الذى كان يمثله النبلاء على البنيان السياسى بين ١٦٢٤ و ١٦٦١ بفضل التحريات التى أجراها المتصرفون والجهات المصاحبة الأخرى للمراقبة التشريعية والسياسية • وفى ذات الوقت فقد الفلاحون ممن تزعموا حركة التمرد على الضرائب والتى كانت موجهة ضد التاج ، والطامحون فى التزعم قواعد انطلاقهم •

(*) Preuves nobilitaires.

(**) Noble de robe, Nobles d'epeé.

بيد أنه يتعين عدم المبالغة فى تقدير مستحدثات لويس الرابع عشر بعد ١٦٦١ · ففى أغلب الحالات ، لم تزد التغيرات التى جاء بها عن تعزيزه للمنجزات السياسية التى حققها ريشيليو ومازاران · وزادت من متانة خيوط التواصل حقيقة نهوض نفس العائلات التى كانت تسـيطر على الحكومة ووظائف المتصرفين قبل ١٦١٦ ، بنفس هذا الدور بعد هذه السنة أيضا · اذ كان وزراء لويس الرابع عشر يختارون فى الأغلب من عائلات احتلت الصدارة فى عهـد ريشيليو ومازاران (*) · لكل هذه الأسباب وحدها ، لم يكن من اليسير قيام لويس الرابع عشر بوضع سياسة تختلف من السياسة التى اتبعها ريشيليو ومازاران ، وأن ينجح فى تنفيذها ·

(★) لوحظ تشكيل ابن كولبير : Seignely وابن Colbert : Croissy re Torcy. شلة من الوزراء · وشكل ميشيل Le Tellier ونجله Lauvois وابن لوفوا و Barbezieux فريقا ثانيا · وكان هناك وزراء قلائل من امثال Pontchartrair Chamillart لم ينضموا الى اى فريق من الفرقاء · اما Lionne وزير خارجية لويس الرابع عشر من سنة ١٦٦٢ الى ١٦٧١ فكان ابن شقيق Servien ، وانضم للحكومة اعتبارا من ١٦٥١ على اقل تقدير · وكان Pomponne الذى خلف Lionne من محاسيب فوكيه وعمل كمسئول اداری عن الجيش فى خمسينات القرن السابع عشر · وخدم بالمثل مسئولون اداريون كثيرون ممن عينهم مازاران خلال الحكم الفردى للويس ·· وكان هناك ابناء وأحفاد للمسولين الاداريين ممن عينهم ريشيليو ومازاران · وبذلك وصل عدد من يندرجون تحت هذه الفئة الى عشرين شخصا ·

المراجـــع

P. Goubert, Louis XIV and Twenty Million Frenchmen, 1966.

R. Hatton ed, Louis XIV and Europe (1976).

W. H. Lewis, The Splendid Century (1953).

A.L. Moote, Revolt of the Judges : The Parliament of Paris and the Fronde, (1971).

D. Ogg, Europe in the Seventeenth Century (1925).

L. Rothrug, Opposition to Louis XIV : The Political and Social Origins of the Enlightenment 1965).

J. C. Rule, Louis XIV and the Craft of kingship (1970).

W. J. Stankiewicz, Politics and Religion in 17th Century France 1960.

G.R.R. Treasure, Seventeenth-Century (1966).

J. B. Wolf. Louis XIV (1968).

المعنى الاجتماعي للنيوتينية

مرجريت جاكوب

يمثل نشر كتاب « مبادىء الرياضة » لايزاك نيوتن (١٦٨٧) نقطة تصاعد الثورة العلمية • وبعد ذلك ، انتشرت على نطاق واسع نظرية نيوتن عن الجاذبية الكونية وفهمه العام لآليات الطبيعة الفزيائية وتفسيره العقلاني لها ؛ بفضل دوائر العارفين في أوربا • وأثرت نظرياته في العديد من مجالات الحياة الفكرية غير المرتبطة ارتباطا مباشرا بالطبيعة الفزيائية • وكانت الحياة الدينية من بين النواحي الهامة من هذه النواحي الفكرية في عصر ارتبطت فيه الاعتبارات الدينية برباط وثيق بالفكر الخاص بالمجتمع •

وفي انجلترا ، قام عالم آخر بالقاء سلسلة من المحاضرات بين فيها كيفية الاستعانة بتعليم العلم في دعم « الدين الطبيعي » يعني الاعتقاد بأن حقائق الدين ومن ضمنها حقائق الأخلاق ، بالمقدور تعليمها اعتمادا على مشاهدة الطبيعة والتدقيق في أحوالها ، واشترك علماء نيوتونيون انجليز مرموقون ، من بينهم ريتشارد بنتلي وصمويل كلارك ووليم درهام وجون هاريس ووليم ويستون بالقاء بعض الأبحاث أثناء موسم محاضرات بويل الذي عقد خلال أواخر القرن السابع عشر ومشارف القرن الثامن عشر ، وتصور كتاباتهم المزايا الدينية والاجتماعية التي أمكن استخلاصها من الفزياء النيوتينية في السنوات التي أعقبت الثورة المجيدة ١٦٨٨ •

وكان هؤلاء المحاضرون من أنصار بويل من أتباع طائفة «الخلاصيين»(*)، أو اللاهوتيين المعتدلين في كنيسة انجلترا ، ومن الراغبين في حماية الدين

نقلا عن كتاب Margaret. C. Jacob : The Newtonians and the English Revolution (1720-1790) (١٩٧٦) •

(★) Latitudinarians جناح من كنيسة انجلترا في منتصف القرن السابع عشر يهدف الى اتباع نظرة جامعة تقتصر على النقاط موضع الاتفاق العام بين شتى الطوائف المسيحية ، وتستبعد جميع النقـاط الخـلافية ، التي ربما تنافرت مع العقيـدة السليمة •

من أوصاب المذهب المادي الملحد الذى ربطوا بينه وبين الفيلسوف الانجليزى توماس هوبز • وسعوا – من ناحية أخرى – لمقاومة أى تطرف دينى صاحب حالة عدم الاستقرار التى نجمت عن الحرب الأهلية الانجليزية • وقد ذكروا أن الفهم الصحيح لعالم الفزياء عند نيوتن ، بطابعه العقلانى ، والمنتظم انتظاما أشبه بانتظام الآلة ، لابد أن يؤدى الى الاعتقاد بأن الله أيضا يتصف بالعقلانية ، ويتعين أن يعبد عن طريق العقل•واعتقدوا أيضا أن الفزياء النيوتينية تحمل فى ثناياها الاعتقاد بوجوب خضوع المجتمع لنظام مماثل للنظام الذى تتبعه الطبيعة الفزيائية • وحثوا الأثرياء على كبح جماح سعيهم نحو تحقيق الصالح الشخصى ، حتى لا تؤدى الأنانية المتهوسة الى احداث بلبلة اجتماعية وسياسية • ورأوا أيضا أن تأمل انتظام الطبيعة الفزيائية وتصور الأشخاص للمجتمع كشىء منتظم بطبيعته ، قد يؤدى الى الاعتقاد في وجود نظام هرمى اجتماعى واضح ، وبما كان من الخطأ اعتراض الكائنات البشرية عليه • وعلى هذا النحو ، شعر محاضرو بويل انهم جمعوا بين مبدأ دعم فضيلة السعى المعتدل من اجل الصالح الذاتى وبين الدعم القوى للوضع الاجتماعى والسياسى الراهن(*)•واستند الدرسان (الدرس الأول الموجه الى الأغنياء والدرس الثانى الموجه الى الفقراء) على تفسيرهم فى دعم النظرة النيوتينية للعالم •

حددت سلسلة المحاضرات التى وضعها روبرت بويل واشرف عليها فى سنواتها الباكرة اثنان من أصدقائه الحميمين : افلين وتنيسون مضمون فكرة الدين الطبيعى الانجليزى واتجاهه ابان القرن الثامن عشر • وما أن جاءت ١٧١١ ، حتى أضحى الاطلاع على محاضرات بويل من مقومات معرفة المثقفين • وأثرت هذه المحاضرات ، بالاضافة الى محاضرات ريتشارد بنتلى (١٦٩٢) والى حد كبير محاضرات صمويل كلارك (١٧٠٤ – ١٧٠٥) ووليم درهام (١٧١١ – ١٧١٢) أعظم تأثير فى سائر أنحاء أوربا • فعندما هاجم الفيلسوف الفرنسى هولباخ المذهب التأليهى (١٧٧٠) فانه ركز على الفلسفة الطبيعية لمحاضرات بويل • وعندما عبر روسو عن احساسه بوجود الله فى الطبيعة ، استشهد بكلارك كأول مؤيد لرأيه • وتعلم صمويل جونسون الكثير مما يعرفه عن العالم من مطالعاته لمحاضرات بويل •

وتدل الشهرة الكبيرة التى حظيت بها هذه المحاضرات فى القرن الثامن عشر على مدى ما قدمه هذا الفريق المعتدل من خدمات للكنيسة • وكان الأوصياء على هذه المحاضرات يختارون المحاضرين بعناية فائقة ، ووجهوا حججهم للدفاع عن الدين الطبيعى والدين السماوى اعتقادا منهم بأن جهودهم وانتقاداتهم ستساعد على الحفاظ على الزعامة المعنوية للكنيسة

(*) Status quo.

ونفوذها السياسى فى مجتمع مهدد من كل ناحية بالالحاد · وعندما نتذاكر ما احتوته المحاضرات ، ونراجع ما حدث حينذاك ، سنرى أن أهم ما حققته محاضرات بويل بين ١٦٩٢ ـ ١٧١٤ فكريا هو التكامل بين الفلسفة الطبيعية لنيوتن باعتبارها دعامة جديدة للأيديولوجيا الاجتماعية البروتستانتية الحرة · ويرجع الفضل فى احداث هذا التكامل ـ أساسا ـ الى جهود بنتلى وكلارك ، وبمقدار أقل لجون هاريس ووليم درهام ووليم تنيسون ·

وأغلب الظن أن النيوتينية قد فهمت فى بداية عهدها كظاهرة فكرية مجردة فحسب خالية من أية أيديولوجية مجاوزة للواقع ، أو مضمون اجتماعي وسياسى · ولم يشعر أحد بدور نيوتن الخلاق الأفضل نوعا فى الناحية الاجتماعية والناحية السياسية ، الا بعد أن ظهرت الأبحاث التاريخية الحديثة جدا التى تصورت نيوتن خاضعا لاهتمامات عصره ، مما دفعه الى الحرص على احداث وفاق فى فلسفته الطبيعية حتى تساير روح العصر · أما المذهب الذى نسبه أنصاره اليه (والذى رضى عنه بصفة جوهرية) والمصادر التى ارتكن اليها الأحرار عند معارضتهم له فقد ظهرت فى الكتابات الحديثة على أنها متصلة بالناحيتين الدينية أو الفلسفية فحسب · وقيل ان رجال الكنيسة قد اتبعوا الفلسفة الطبيعية لنيوتن لأنهم كانوا يخشون الفلسفة الميكانيكية لديكارت ، والعون الذى قد تقدمه للملحدين والماديين · ولكن لماذا كانوا يخشون الالحاد ، ويخشون أكثر من ذلك المذهب المادى ـ بوجه خاص ـ عندما يستند الى الديكارتية ؟ فهل اقتصر التعرض للخطر على التقوى المسيحية ؟ وهل كانت النيوتينية مجرد أحد أسلحة الحرب بين التمسك بالدين والهرطقة ؟ لعل مثل هذه النظرة قد جعلت الدين مجرد مسألة اقتناع عاطفى وتجربة روحانية مجردة بعيدة عن الواقع الاجتماعى ، أو ربما قيل لنا ان النيوتينية قد أعادت توكيد النغمة التى رددها الاسميون (فى القرون الوسطى) من القائلين بالارادة والاختيار فى اللاهوت المسيحى الذى نما فى أواخر القرن الثالث عشر ، وأنه من ثم « فمن غير الضرورى ـ ومن المضلل حقا ـ التسليم بوجود حالات تشابه اجتماعى وسياسى ، لأن التأثير ـ لو وجد ـ سيكون تأثيرا معاكسا · ومن المفيد والهام الى أقصى حد أن ندرك أن الفلسفة الطبيعية النيوتينية تتبع أحد تقاليد الفكر المسيحى ، وان كان تصور التحول الفكرى على أنه شىء يتم بصورة آلية ، وأن المفكر يتبع فكرة ما لمجرد أنها موجودة فى انتظار من يتبناها ، يدل على اتباع فرضية منهجية تعتقد أن الأفكار النيوتينية بمقدورها أن توجد مستقلة عن بيئتها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية السائدة أو بمعزل عنها · وأنها موجودة كذلك ·

أن رجال الكنيسة الذين اتبعوا النيوتينية ، لم يتحدثوا باسمهم فقط ، وباسم الأوصياء على محاضرات بويل ، ولكنهم تحدثوا أيضا باسم طائفة « الخلاصيين » من أتباع الكنيسة ، فمنذ بدايات حركة الاصلاح الديني ، شغل رجال الكنيسة بالبحث عن مذهب بروتستانتي ليبرالي وشامل بمقدوره التحدث عن المشكلات الأخلاقية في عصرهم • ولقد أمكن صد التهديد الموجه للسلطة السياسية والدينية للكنيسة من قبل الراديكاليين ، بعد رجوع النظام الملكي (عهد الاستعادة) • وشيئا فشيئا كاد يختفي تأثيرهم السياسي ، وان كان رجال الكنيسة لم يقنعوا بذلك ، ففي الحقبة السابقة لسنتي ١٦٨٨ و ١٦٨٩ ، تأسفوا لانعدام الأخلاق في عصرهم ، وسعوا لكسب رضاء جماهير الكنيسة بتأييد فكرة السعي المستنير وراء تحقيق الصالح الذاتي ، تمشيا مع ارادة العناية الالهية ، وكما أكدت قوانين الطبيعة •

وكان « الدين الطبيعي » المتأثر بعقيدة « الخلاصيين » قد ارتقى من الناحية العقائدية على عهد الملك جيمس الثاني • وبغتة ، تعرضت مصالح الكنيسة مرة أخرى للتهديد من النظام الملكي ذاته ، هذه المرة • واتجه نفر من صغار رجال الكنيسة الى النبوءات سعيا وراء الهداية والسلوان • والتزم أغلبيتهم باتباع موقف هامشي ، بينما اضطلع بدور الثورة – من أجل انقاذ الكنيسة – الأمراء والحكام والأعيان •

ومن تأثير الثورة ، التي بدت في نظر رجال الكنيسة حادثا يدعو الى الارتياب – أخلاقيا – استولى « الخلاصيون » على الكنيسة ، غير أن النظرة السياسية اليهم كانت متضاربة • فلقد اطمأنت الكنيسة الى وضعها بالرغم من استناد نفوذها السياسي وسلطتها التهذيبية على تحالف عشوائي مع السلطات العلمانية أو المدنية • وبعد أن انتصرت حكومة الثورة القائمة على فكرة التعاقد وضرورات الصالح الذاتي ، تأزم موقف الخلاصيين• وتعكس محاضرات بويل محنتهم ، بكل دقة • اذ بدا الدين الطبيعي الذي جاء به من سبقوهم من مفكري « عهد الاستعادة » هو الحل الأوحد • ورئي أن باستطاعة المسيحية الليبرالية المستندة الى منجزات العلم ، الجلية البينة، والتي لا يستطاع الطعن فيها ، أن تحقق الولاء للدين ضد المزاعم التي يرددها انصار هوبز والمفكرون الأحرار • وعنى الولاء للدين في نظر صغار رجال الدين الولاء للكنيسة • واستنادا الى هذا الولاء ، قد يرتقي السلوك الاجتماعي والاقتصادي الخاضع للعناية الالهية ، ويسود الاستقرار، ويتوافر الرخاء ، وتتحقق أحلام الكنيسة بحلول القيامة الألفية (*) •

(*): millennium تعني فترة زمنية تقدر بألف سنة ، يتم فيها تقييد حركة الشيطان ، ويعود بعدها المسيح للحكم على الأرض • والله أعلم •

وعنى ذلك عند بعض النيوتينيين من أمثال ويستون الاهتداء الى « السماء الجديدة » و « الأرض الجديدة » بمعناهما الحرفى ، كما ورد فى الأسفار المقدسة • وعنى هذا الحلم فى نظر آخرين ككلارك ، تحقق نظام مستقر متناغم ، تسوده العناية الالهية ، حيث لا تعرض ضرورات السوق أية تناقضات تتعارض وما يمليه الدين الطبيعى • واستعان النيوتونيون بعلم أستاذهم (نيوتن) لدعم أهدافهم • واتخذت الفلسفة الطبيعية لنيوتن كدعامة للايديولوجية الاجتماعية التى وضعتها الكنيسة بعد الثورة ••

وبعد ١٦٨٨ - ١٦٨٩ ، استندت صياغة الأيديولوجية الاجتماعية المعتدلة للكنيسة على نظرة جديدة لدور الدين فى نطاق النظام المدنى للدولة • فلقد نظر الآن الى دور الدين على أنه سعى لتحقيق الطمأنينة الى سلامة مجرى الأحداث فى مجتمع منتظم على خير وجه • وزعم جون هاريس : أن الفضائل التى يبثها الدين « ستؤدى طبيعيا وبالضرورة الى تحقيق صالح البشرية وسعادتها،والى الدعم المتبادل للمجتمع ، والتجارة ، والى استتباب السلام والسكينة لجميع الحكومات والطوائف • فالدين يزود بالسبل المناسبة لتحقيق غاية الصالح الذاتى • ولن يحدث أى ارتياب فى الغايات ، الا اذا استهلكت الوسائل المتبعة لتحقيقها قيم الاخلاق المسيحية » •

ويعبر بنتلى عن هذه النظرة الجديدة لمكانة الدين فى الدولة عندما يسأل محاوره فى معرض هجومه على هوبز : « لماذا اذن تحاول تقويض هذا الأساس ؟ ولماذا تعمل على افساد اللحمة (بضم اللام الثانية) التى تساعد على التئام المجتمع ، وأن ترد كل شىء مرة أخرى الى الحالة المضطربة والمهوشة التى تتوهمها عن أصل الطبيعة ؟ فليس باستطاعة أى مجتمع ، أو بمقدوره البقاء على أى أساس آخر غير الدين » • فالدين يتشابه والأسمنت فى احداث التلاحم داخل المجتمع ، وفى احداث جذب متبادل بين مختلف القوى التى تهدد استقرار المجتمع •

وترتب على الدور الذى نسب الآن صراحة الى الدين ضرورة اعادة توجه تعاليم الكنيسة تجاه المجالات العامة للنشاط الانسانى ، والابتعاد عن الخصوصيات التى تكتفى بالدعوة الى الصلاح الشخصى والعبادات • فممارسة الفضيلة الاجتماعية تثيب الفرد ثوابا عظيما ، وتحقق أعظم نفع للمجتمع بوجه عام • ويعترف صمويل كلارك لمستمعيه بأن هذا الجزء الاجتماعى جلى بين « حتى ان أعدى أعداء جميع الأديان ، الذين يزعمون أنه لا يزيد عن اجراء دنيوى أو سياسى من صنع الدولة ، يعترفون - حتى ضمن هذا الزعم بالذات ، بالكثير مما يتعلق به » •

وحتى يتسنى للمفكرين الدينيين اعادة توجيه أهداف الدين،واقصائها عن « الأخرويات » والتعبد الشخصى أو الاتصال بالخالق ، أو لمسايرة « سياسة الدولة » ، أو لممارسة الفضائل العامة والاجتماعية ، كان عليهم أن ينسبوا للنتائج المستمدة من اعادة توجيه البشر على هذا النحو أعظم قيمة ممكنة • وعرض بنتلى فى مستهل محاضراته القيم التى قصد بها الوظيفة الاجتماعية للدين : « فالدين ذاته يمنحنا أعظم غبطة ، ويحقق لنا أسمى ميزة ، حتى فى هذه الحياة أيضا ، دون مبالاة بالبعث فى الحياة الآخرة • فكل سبله تحقق السلام ، وكل وسائله تؤدى الى الشعور بالانشراح » •

وعرض رجال الكنيسة السلام كهدف يحصل عليه المجتمع عندما يتمسك بأهداب الدين • وحتى يكتسب عرضهم المصداقية ، ذكروا اسم المسيح كقمة للثقات الذين يرعون اتجاهاتهم ، وقالوا انه أوصانا باتباع الحكمة فى مسلكنا حتى يتوائم هو والجانب العقلانى من طبيعتنا • فاذا نظرنا الى جميع قوانينه فى ذاتها سنراها مجردة من أى نوقع يحقق الصالح العرضى أو الوقتى لمن يتبعون هذه القوانين • فهل هناك ما هو أكثر نفعا لصالح الانسان أو صالحه أو مكانته أو سلامه فى هذا العالم من الاحسان والوداعة والأمانة والاجتهاد فى التضرع اليه • وما يعنيه قول بنتلى فائق الأهمية : لقد جاء المسيح بالمسيحية للبشر اعتمادا على تجرده من الأنانية ، حتى يتأكدوا من أن صالحهم الوقتى سيكون حصيلة سعيهم لتحقيق ذاتهم •

فالدين يغفر ويشجع على اتباع نظام اجتماعى واقتصادى قوامه الاعتراف بحقوق الملكية الشخصية واحترام الذات • ويطالب الدين فى المقابل أن يسعى الأشخاص لتحقيق صالحهم اعتمادا على العقل ، وأن يحرصوا على الفضائل الاجتماعية للعدالة والأمانة • وكما لاحظ افلين ١٦٨٨ : ان المتدينين لا ينفرون من الثراء ، ولكنهم يشجبون فقط « تفاهات الثراء » ويقر كلارك القول بأن المخربين والمفسدين « يعرضون أنفسهم للاكتساح من قبل النزوات العشوائية والتعسفية ، التى كان باستطاعتهم التنبؤ بعواقبها ويقعون ضحية للأهواء الطائشة والشهوات والتفاهات والكبرياء والصالح الشخصى والمتع الحسية الآنية • وهذه النواحى هى التى تدفعهم الى تعبئة ارادتهم وذواتهم بأفعالها المنافية للعقل لمواجهة طبيعة الأشياء ومعقوليتها • نعم يحاول الغارقون فى المتع الدنيوية « تدمير هذا النظام الذى أقيم الكون على أساسه » •

ولما كان رجال الدين لم يقصدوا قط شيئا بالتحديد عندما تحدثوا عن أصحاب العقليات الدنيوية ، لذا كان بمقدور المؤرخ أن يتماثل معهم فى

التعميم ، عندما يعرف « طابع » الحساسية الدينية. فلقد تحول الاحتجاج الذى بدأ فى بواكير تسعينات القرن السابع عشر ضد الطبقات المتخمة بالمال الى فيض من النقد والسخرية فى عهد انجلترا الأجسطية (*). وانصب أغلب هذا النقد الاجتماعى ـ وبخاصة عند الساخرين المحافظين من أمثال سويفت وبولنجبروك وجاى ـ على الكشف عن العروض الساذجة للثراء والعادات المبتذلة التى شاعت عند طبقة الأثرياء الجدد التى لم يستند وجودها على عراقة الأصل ، وغالبا لم يستند أيضا على المكتسبات « الحميدة » التى رضى عنها افلين كمعيار للمكانة الارستقراطية • والواقع أن هذه الطبقة الجديدة قد نسبت لنفسها نفس مكانة صغار علية القوم الاجتماعية ، بل ومكانة الارستقراطية ـ الى حد كبير ـ بعد أن استحدث التوسع التجارى والمالى فى انجلترا ١٦٨١ فئة اجتماعية جديدة ، كل مؤهلاتها القدرة على الاستثمار والحرص الدائب على الكسب • وأحدثت سرعة تحولهم الاجتماعى ، بالاضافة الى ما صحب ذلك من ضعف التعاليم الدينية وسيطرة الكنيسة بعد حركة الاصلاح الدينى ، نظاما اجتماعيا جديدا • ولم تعد السلطة الاجتماعية والسياسية تتبع بالضرورة انتماء الشخص الى احدى المراتب العليا فى الكنيسة ، ولم تعد المشاعر الدينية التى تبرر أحقية النجاح الدنيوى حقيقة ملموسة •

وهدد المخادعون معدومو المبادىء نظام المجتمع ، ومكانة الدين فى هذا النظام • وكثيرا ما انتفعوا على حساب أهل الفضل ، كما ذكر كلارك بأسف • فلقد خلقوا موقفا لم يقتصر أمره « على حرمان (الفضلاء) من الاستمتاع بالخيرات العامة التى ستعود عليهم بطبيعة الأحوال وبانتظام كثمرة لتمتعهم بالفضيلة ، ولكن فى كثير من الأحيان ، كانت سببا فى تعريضهم لأفدح النكبات الدنيوية ربما لمجرد اتصافهم بهذه الفضائل » • وهكذا كان النظام الاجتماعى الرقيق الذى تصوره النوتونيون يتعرض بلا انقطاع لتشويه نفر من اللاعقلانيين الذين دأبوا على السعى نحو تحقيق صالحهم الذاتى بلا شفقة ولا هوادة •

وسعى المتدينون لخلق نموذج لكيفية عمل نظام للمجتمع يمكن الاطمئنان الى تطبيقه • فلقد اعتقدوا فى وجوب شرح هذا النموذج على الملأ لأن :

« فساد الحالة الراهنة التى تكتنف الطبيعة البشرية الآن ، تحتم عدم ترك البشر بوجه عام للخضوع لما تمليه عليهم عقولهم ، ولاستعمال ملكاتهم الطبيعية ، ولمواجهة المعتقدات المجردة لعقلهم • ولكن يتحتم تهذيبهم

(*) Augustan ـ يقصد به انجلترا بعد اعتناقها للمذهب البروتستانتى.

وتعليمهم بوجه خاص كيفية قيامهم بواجبهم • ويجب أن تغرس في عقولهم ودوافعهم هذه الأفعال ، في الأغلب وبصورة قوية ، وأن تبث فيهم اعتمادا على سلطة لها وزنها • ويجب أن تقدم لهم العديد من المساعدات ، حتى يحافظوا بطريقة فعالة على ممارسة أعظم واجبات الدين وأبينها » •

واتجه رجال الكنيسة لدراسة الطبيعة الفزيائية في محاولة لاصلاح فساد البشر ، ولحثهم – غالبا وبطريقة قوية – اعتمادا على سلطة لها وزنها • وقبل أن نناقش الدروس الهامة التي استخلصوها من الطبيعة ، وكيفية تطبيق هذه الدروس على المجتمع ، يجب أن نتوقف لبحث مسألة لماذا اتجه العديد من رجال الكنيسة في أواخر القرن السابع عشر وبدايات القرن الثامن عشر الى الدراسة العلمية • وهي محاولة ساهمت بطريقة حاسمة في تقدم العلم الحديث والتكنولوجيا الحديثة على نحو يدعو الى التقدير •

ولقد زودنا صموئيل كلارك باجابة جزئية • ولعل كلارك كان واحدا من قلائل من رجال الكنيسة في انجلترا فهموا الفزياء النيوتينية فهما صحيحا ، وأقام فكره الفلسفي والأخلاقي برمته على تصورات فزيائية مدعمة بمنجزات نيوتن العلمية • وكما قيل ، فان المفكرين الدينيين الانجليز في أواخر القرن السابع عشر قد اتجهوا الى الاشادة بالدين في الحالات التي اكتشفوا فيها نهوض الدين بدور اجتماعي • فالدين يؤدي مهمة تزويد المجتمع بالنظام ، وكبح جماح الشراهة والتقتير ، وتوطيد الاستقرار داخل المجتمع عندما يساعد على لم شمله والتئامه • ويرافق التوكيد الجديد للدور الاجتماعي للدين الأهمية التي نسبت للعناية الالهية في الكون وشئون البشر • فالله يوجه ما يجرى في العالمين : « فبفضل حكمته وعدالته وخيريته التي تجلت في تنظيم العالم وحكمه لعالم الأخلاق الذي يعتمد بالضرورة على ترابط هيكل وحدته الكلية وصدوره » • وأكد كلارك – بكل ثقة – الدور الفعال للعناية الالهية في الجانب الطبيعي للعالم ، وجانبه السياسي » •

على أن كلارك قد كشف عن اهتمامه (ولابد أن يكون هذا الاهتمام قد اتخذ شكلا استفزازيا ومتعبا) عندما قال ان ما تفعله العناية الالهية يتكشف لأعيننا ، لأننا لا نرى غير آثارها في أحوالنا ، بيد أن دور الله واضح ومتمايز في النظام الطبيعي • انه واضح مثل المنطق الذي استعان به كلارك في شرح أوصافه وآثاره • وكتب كلارك يقول :

« لربما بدا للوهلة الأولى من الغريب أن يتوافر لكل شيء في ذاته الكثير مما هو واضح جلي من دلائل لا تنكر للبراعة الدقيقة والحكمة

اللامتناهية لخالقها العظيم ، التى تتمثل فى نظام الطبيعة فى عالم الماديات والجمادات ، وفى الجانب اللاعملانى للخليقة ، ابتداء من ألمع النجوم فى قبة السماء الى أصغر حصاة على وجه الأرض · فلا وجود لنتفة من المادة لا تعرض أمثلة للبراعة المذهلة ودقة التناسب والصنعة بقدر يتجاوز كل فطنة الانسان (ولا أقول قدرته على محاكاته) مما يصعب بحثه كل شيء باستيفاء أو فهم · ومع هذا ففى ادارته للعالم العقلانى والأخلاقى ، الذى خلقت باقى الأشياء من أجله ، والذى يرجع سر بقائها الى كونها فى خدمة هذا العالم ، لا وجود لدلائل واضحة بما فيه الكفاية فى عصور كثيرة لا لحكمته ، ولا لعدالة الله وخيريته ، ولا لما يثبت تدخل العناية الالهية على الاطلاق ، لاقناع الكافة بوضوح وبصفة عامة ، بأن العالم خاضع للعناية الالهية المباشرة وللاطلاع الالهى على كل ما يجرى ، ولحكم الله » ·

ولن تظهر دلائل فاعلية الله فى النظام الأخلاقى والسياسى الا بعد مجيء حقبة حافلة ببعض الثورات الكبرى ، ومنجزاتها ، التى تثبت اعتماد الانسان على الله جليا واضحا حتى لأبعد الناس ايمانا بالدين ، عندما يتكشف المخطط الالهى فى التاريخ ، ونعرف السماء والأرض فى صورتيهما الجديدتين · وحتى يحين ذلك اليوم ، يجب أن يقنع الناس بالايمان بدور العناية الالهية فى عالم السياسة · ولكن عندما يسعى البشر لتفسير المعنى المتضمن وراء مخطط العناية الالهية لمعرفة طبيعة المجتمع ، فان الايمان وحده لن يعد كافيا · فاذا أمكن فهم مخطط الله فى العالم الطبيعى ، واستطاعت الطبيعة أن ترشدنا ، أو تقدم لنا نموذجا يعرفنا ما يجرى فى العالم الأخلاقى · فى هذه الحالة ، سيتسنى التعرف عند دراسة الطبيعة الفزيائية الى بديل لما فى هذا « العصر المرذول » من فساد وشر · وفى أواخر القرن السابع عشر ، استطاع العلم التزويد بدليل أوضح مما قدمه المجتمع ، للدلالة على فاعلية العناية الالهية · وأقبل رجال الكنيسة على « دراسة الفلسفة الطبيعية بأعداد كبيرة متزايدة » ·

وقدم كلارك كبديل لهذا « العصر المرذول » فى محاضرات بويل النتائج المستخلصة من دراسته للطبيعة · فلقد استعان كلارك بمبادىء الحركة وقوانينها ، التى تعبر عن دور الله ، والتى تضم بنيان الفلسفة الطبيعية لنيوتن ، لتفسير طبيعة النظام الاجتماعى ·

وربما يظهر للوهلة الأولى تصور مثل تصور « الخواء » وتصور « المكان المطلق » و « الزمان المطلق » و « المادة والحركة » بعيد الاتصال بنموذج المجتمع الذى يتطلع اليه رجال الكنيسة · غير أن فلسفة الطبيعة ذاتها الكامنة وراء محاولات نيوتن الرياضية والتجريبية ، والتى تبناها بدورهم المعقبون عليه قد انبعثت من وسط فكرى واجتماعى

قد أضفى حتى على الطبيعة الفزيائية أهمية أيديولوجية • فلقد تولى تفسير معنى القول بأن « المادة ميتة » أو « خالية من الحياة » بطريقة صارمة ، أفلاطونيو كيمبردج من أمثال هنرى مور ورالف كادورث • ولقد قاموا بالمحاولة للتعبير عن رأيهم فى مواجهة الماديين والملحدين فى منتصف القرن السابع عشر ، الذين أكدوا وجود مبدأ للحياة في المادة ، ومن ثم استخلصوا قابلية الروح للفناء • ولقد أضفى التكامل بين هذه المعانى الفلسفية الظاهرة الأهداف الاجتماعية والسياسية والراديكالية لطوائف بالذات مثل طائفة المنادين بازالة الفروق (*)•وليس من شك أن نيوتن قد استخلص الكثير من فلسفته الطبيعية من أفلاطونيى كيمبردج • ولا أرغب حاليا فى التعرض لتعقيدات هذه المشاحنات السياسية والأيديولوجية فى منتصف القرن • وتتعين الاشارة فقط الى أن الفلسفة الطبيعية لنيوتن حتى فى صورتها الأصلية التى ظهرت فى منتصف القرن عنده وعند من عقبوا عليه لم تنفصل البتة عن سياقها الاجتماعى •

والتصور القائل بأن المادة ميتة وخالية من الحياة وممتدة ، ولا يخترقها شىء تصور أساسى فى الفلسفة الطبيعية النيوتينية • فالمادة لا تتحرك ، سواء اتخذت شكل الكوكب ، أو فى حالتها الذرية ، الا اذا دفعتها قوة لا مادية من الخارج • ومصدر الحركة هو الله • فهو الأصل والمصدر الثابت للحركة ، القائمة في الكون • وعبر نيوتن عن تصوره للمادة فى أوضح صورة فى المبحث الواحد والثلاثين من كتاب البصريات (**) (١٧١٧ - ١٧١٨) : « ان قوة القصور الذاتى (***) هى مبدأ سلبى يساعد على استمرار الحركة أو السكون • ويتلقى الحركة على نحو يتناسب والقوة الضاغطة عليه ، ويقاوم بقدر يتساوى وقدر مقاومتها • وليس بالمقدور حدوث أية حركة فى العالم اعتمادا على هذا المبدأ وحده » •

وتحدث قوانين الحركة (الجاذبية الكونية مثلا) تأثيرها الفعال على المادة من بعد • ويلزم وجود الخلاء لانجاز هذه العملية • وللفضاء الذى يحدث من خلاله اجتذاب المادة وحركتها كينونة فى ذاته ، تعمل من خلالها قوة الله فى الكون • والواقع أن قانون الجاذبية الكونية هو ارادة الله ، كما يعبر عنها في الكون • ويكشف « نظامها الرائع » عن ارادة العناية الالهية لكائن عاقل قادر على كل شىء •

وبعد الثورة ، قال أنصارها : لقد كانت الارادة الالهية ذاتها وراء الأحداث التى وقعت فى ١٦٨٨ و ١٦٨٩ • وتمشيا مع هذا اللاهوت المؤمن

(*) Levellers.

(**) opticks

(***) Vis inertiae.

بالعناية الالهية ، شدد المعقبون النيوتينيون على الاشادة بدور الله فى الكون • فعندما بدأت الخليقة رص الله ذرات الكون فى نظام ، وشكل الله العماء البدائى فى صورة الاطار الراهن للأشياء ، ويرجع استمرار بقاء هذا الاطار الى التدخل المستمر لله • ويقول لنا كلارك : « وتبعا لذلك ، فلا وجود لما يسميه الناس عادة بمسار الطبيعة أو قوة الطبيعة • واذا توخينا الدقة فى الكلام علينا القول ان مسار الطبيعة هو هو ارادة الله التى تحدث آثارا معينة على نحو مستمر ومنتظم وثابت ومطرد • فأى مسار أو حالة من حالات الفعل تتصف فى كل لحظة بالعشوائية الكاملة ، سيكون من اليسير تغييرها فى أى وقت ، مثلما سيسهل الحفاظ عليها » • فالله بوصفه كينونة بحتة وروحانية وقوة هائلة حاضرة فى كل مكان ، وكاملة وقادرة على كل شىء ، يمارس سلطته كاملة على المادة ، انه المصدر النهائى لكل حركة فى الكون • وباستطاعته تفويض الانسان لممارسة هذه القدرة •

وفى المذهب النيوتينى ، أثبتت القدرة الممنوحة للانسان لتنظيم المادة ، وتحريكها ، أو تعديل اتجاه الطبيعة ، فى نهاية الأمر ، التعاليم الاجتماعية « للخلاصيين » • فالمادة غفل وغبية (أى لا عقل لها) وللانسان السيطرة النهائية ــ بفضل عقله ــ على الأشياء فى العالم • واعتقد بنتلى أنه من السخف تخيل : « ان بمقدور الذرات ابتكار الفنون والآداب والعلوم، وتكوين المجتمعات والحكومات ، أو عقد المعاهدات والاتفاقيات ، وابتكار وسائل لتحقيق السلام ، وتخطيط استراتيجيات الحرب » ، أو « التعامل فى المسائل العامة والخاصة ، وفى البحر والبر ، فى دور البرلمان ومخادع الحكام » • ويساعد التعريف النيوتينى للعلاقة بين الانسان والمادة على اجازة السعى وراء الغايات المادية ، وتسخير الأشياء فى هذا العالم لصالحنا ، وبالتساوم والبيع والشراء والاشتغال بالأمور الدنيوية ، بعد معرفة أن هذه الأنشطة من الحقوق التى منحها الله • وتعد قدرة الانسان على كسب الممتلكات المادية امتدادا لحقه فى تغيير مسار الطبيعة ذاته ، والتحكم فى المادة «الغفل والغبية» • ولكن الانسان عندما يتعامل هو والأشياء المادية، عليه أن يبث فيها نظاما شبيها بالنظام الذى فرضه الله على الطبيعة • وكما لا يتوقف الله عن الارتقاء بخير الكون ، فان على البشر أيضا أن ينشغلوا بالخير الكونى • فالانسان ملزم باطاعة من يتسيدون عليه والخضوع لهم فى جميع الأشياء العادلة والحقة للحفاظ على المجتمع •

وفى عملية التحكم فى المادة ، خصصت للبشر مواقف معينة • فمن الضرورى للحفاظ على النظام الاجتماعى ، أن يلتزم الفرد بالواجبات التى يفرضها عليه هذا المركز بالذات ، أو مقومات الحياة ، أيا كانت ، أى حيث وضعته العناية الالهية فى الحاضر ، وأن يواظب على عمله ،

ويرضى عنه ، دون شعور بالضيق والتبرم من كون الآخرين قد وضعتهم العناية الالهية فى مواقع أفضل ومختلفة فى العالم ، أو جعلته فى حالة توجس شديد وغير معقول يدفعه الى العمل على تغيير موقعه فى المستقبل، مما يشجعه على اهمال واجبه الراهن • « فالبنيان الاجتماعى قد صدق الله على قيامه ، ومحاولة تبديله تدل على الانحراف » •

وحدثت مثل هذه المحاولة التبديلية ابان فترة الخواء (*) عندما سمح لاناس ذوى نفوس طموحة ومضطربة ممن شعروا بعدم الرضا وعدم الارتياح عن خصوصياتهم وانفرادهم بالحياة،وفقا لمبادىء أبيقور بالاشتغال فى مهام الدولة • ويلمح ينتلى بذلك الى الطوائف المنشقة الذين حصلوا بطرق خفية على سلطات الأريستقراط « بالخصوصية » والانفراد ، والبلاط وما حل به من وهن فى النظام الاجتماعى والسياسى • ويصف ينتلى أفعالهم بالنزعات الأبيقورية والشهوانية (**) التى لمحها فى مجتمع ما بعد ١٦٨٨ •

وبالمثل لم يكف صمويل كلارك عن ذكر الفساد والفوضى التى عمت العالم المحيط به : « لقد بلغت حالة البشر فى هذه الدولة الراهنة حدا جعل النظام الطبيعى للأشياء فى العالم فى حالة انحراف واضح ، مما حال الى حد كبير دون احتلال الفضيلة والخير موضعهما الصحيح ، والنهوض بدورهما فى توطيد السعادة التى تتناسب هى ومسلكهم وممارستهم • ودفع التشاؤم الناجم عن هذا التبصر بمسلك البشر فى العالم عند أولئك الذين يتجاهلون العناية الالهية والتحكم فى شئونه كلارك ، كما دفع معاصرين له من رجال الكنيسة الى الربط بين انحراف القيم الاجتماعية وفساد الطبيعة • ولقد حفلت عظاته دوما بتشبيه المجتمع بالطبيعة :

« عندما تتخلى الشمس عن مبدأ المساواة الذى تتبعه الآن فى مسارها، كما يبين من حرصها على نشر دفئها الرقيق ونورها الوضاء ، ورعاية كل شىء بما يناسبه ومنحه القوة فى كل بقعة فى النظام الشمسى ، وتتجه عكس ذلك الى الاحتراق واتباع مسار معوج بعيد عن الانتظام ، فتمد بعض الأجرام بحرارة لا تخضع لأى كبح ، وتترك أجراما أخرى للفناء من هول البرودة والظلمة ، فان ما يحدث فى هذه الحالة بالنسبة للعالم الطبيعى يتماثل مع حالة الظلم والطغيان والاجحاف والشر بالنسبة للجانب الأخلاقى والعقلانى للخليقة » •

فلقد اعتقد كلارك ان تدهور القيم الأخلاقية وفقدان الاستقرار الاجتماعى ، بالتبعية ، قد تمثل قبل ذلك فى التدهور الفزيائى للطبيعة •

(*) Interregnum.

(**) aitheistical.

فاذا أمكن الحيلولة ، دون حدوث انهيار للطبيعة ، لابد آنئذ من توقف انهيار القيم الأخلاقية • فمبادىء النظام والعقل تتطلب التعبير عن نفسها • وعندما يحدث ذلك يتأكد وجود نظام كامن في الطبيعة ، ينطبق على النظام الأخلاقى والاجتماعى • ومن هـذا يتضح كيف استعان رجال الكنيسة بالمذهب النيوتينى كنموذج كامن فى الطبيعة ، وطبقوا مبادئه على المجتمع الذى يحيون فى ظله •

فالمبدأ المنظم للطبيعة هو الجاذبية ، أى التجاذب الكونى والمتبادل لجميع الأجسام • ويمثل هذا المبدأ « أمر الله » كما يتجسم فى قوانين الجاذبية التى تولد النظام والتناغم فى الكون • وتقوم الجاذبية بدورها فى المادة المحيطة بالخلاء • وبفضل هذا الفراغ ، تيسر للذرات التحرك فى المكان والتشكل عن طريق الجاذبية فى مادة الكون وصورته • وتعد قوة الجاذبية المتبادلة برهانا حاسما لاثبات وجود الله ، ولعل دليل التجاذب المتبادل فى الكون هو أنصع دليل لاثبات دور العناية الالهية فى الطبيعة • وقد استند كلارك فى حكمه على دور العناية الالهية على هذه الحجة : « ان مبدأ الجاذبية بالذات هو أعظم المبادىء قاطبة ، لأنه مصدر جميع الحركات الكبرى المنتظمة للجمادات فى العالم ، أو يكاد يكون كذلك • ولا يرد هذا المبدأ الى أسطح الأجسام (فاعتمادا عليه وحده يتعامل كل جسم مع الأجسام الأخرى) لأنها بحكم صلة محتواها لا يمكن أن تكون حصيلة أية حركة ضاغطة على الماء ، ويتحتم بالضرورة أن يكون مبعثها (بصفة مباشرة أو لا مباشرة) شيئا يخترق الجواهر الصلدة ذاتها لجميع الأجسام ، ويبث فيها بلا انقطاع قوة أو طاقة بعيدة الاختلاف عن تلك القوى التى تحدث تأثيرا فعالا فى المادة • وهذا برهان واضح لا يثبت فقط وجود علة عاقلة سامية وراء خلق العالم ، وانما يثبت فوق ذلك اعتماد العالم فى كل آن على كائن أسمى ما للحفاظ على اطاره •• « ان هذه القدرة الحافظة والحاكمة ، سواء آكانت مباشرة فى صورة قوة الفعل عند نفس العلة السامية التى خلقت العالم يعنى الله » الذى بدونه لن يتمكن كائن كالعصفور من التحليق فى الجو دون أن يسقط على الأرض ، والذى بفضله وجد عدد لجميع شعرات رؤوسنا ، أو تمثلت هذه القدرة فى شكل معدات ثانوية خصها الله بتوجيه أجزاء معينة أو التحكم فيها ، ففى كلا الحالين ، بوسعنا الحصول على فكرة سامية للغاية عن معنى العناية الالهية » •

وقدمت المبادىء الفزيائية التى فسرها نيوتن رياضيا فى كتـاب «المبادىء الرياضية» (*) لرجال الكنيسة ما بدا لهم برهانا لا ينكر لاثبات

(*) Principia Mathemaica.

وجود العناية الالهية • ومثل مبدأ الجاذبية الكونية وسيلة يستطاع بفضلها الحيلولة دون حدوث انهيار للطبيعة ، والعمل كأساس « للحفاظ على الأفلاك العديدة فى الكون وحمايتها من التشتت والتناثر » • وهذا حل بديل يمكن تقديمه لمواجهة مخاوف « افلين » من امكان انفجار العالم ، وتفتته الى شذرات ، ما لم يجر الاصلاح الدينى • ولم يهدف المعقبون النيوتينيون اطلاقا لتفسير مبدأ يستطاع الارتكان عليه لتأكيد استقرار النظام الطبيعى ، لأن مذهبهم لم يظهر الى عالم الوجود الا بعد أن استند الى المبادىء الفزيائية التى شرحت فى كتاب « المبادىء » • وكانوا يدركون ان الأحداث فى العالم الطبيعى معلقة فى نهاية الأمر تعليقا مباشرا على الأحداث فى عالم السياسة ، وكانوا يهدفون الى انشاء نموذج فزيائى وأخلاقى وأيديولوجية اجتماعية تستند الى علم نيوتن ، وربما اتخذ هذا النموذج كركيزة لتحقيق حركة الاصلاح •

ولقد بين كلارك بجلاء غاية المذهب الذى أنشأه على أساس التجاذب الكونى والمتبادل لجميع الأجسام : « ان جميع الجمادات وجميع الكائنات اللاعقلانية ، بحكم ضرورة وجودها ، تخضع دائما لقوانين خلقها ، وتنزع بانتظام لبلوغ الغايات التى خصصت لها • وكم سيبدو مريعا اذن أن تسىء الكائنات العاقلة الى هذه الميزة السامية للحرية التى رفعت مكانتها فوق باقى خلائق الله ، ان هى وصفت وحدها بالجزء البعيد عن العقل والنظام فى الكون •

لقد أدى عصيان الكائنات العقلانية التى وهبها الله القدرة على تحريك المادة ، ومن ثم ـ أمكن تعريف الحرية بأنها القدرة على الفعل ـ أدى الى اتجاهها للعمل ضد ارادة الله،والى حجب رؤيانا لأفعال الله النابعة من عنايته فى النظام العقلانى•غير أن كلارك اعتمد على نمط العناية الالهية «والجود» فى العالم الطبيعى الذى تكشف بعد دراسة الفزياء النيوتينية ، وعاد الى « عالم السياسة » ، وطالب ببث نظام مقارن يستند الى خضوع الكائنات العاقلة لارادة العناية الالهية • فيجب أن تتأثر أنظمة الحكم المدنية ، بالطابع العقلى للعالم الطبيعى : « اذ يبين جليا من ممارسة ما يتسم به الكون من عدالة وانصاف وجود وسيلة تتماثل فى مباشرتها وكفايتها فى النهوض بالصالح العام هى وعدالة البشر فى المجتمع ، وهى واية حركة فزيائية أو عملية هندسية عندما تحدث نتيجة طبيعية أو تترك أثرا طبيعيا » •

وقام مفسرو نيوتن اعتمادا على بيورتينياتهم التى كانت أمرا شائعا بين المعتدلين من رجال الكنيسة بوضع قائمة بمظاهر الضلال والزندقة فى عصرهم : « اذ باستطاعتنا ادراك ما يحيط بنا من قاذورات من شتى الأنواع وتصنيفها الى جانب الالحاد وتاليه الطبيعة والشك والكفر بالله والاباحية

والزندقة وغلبة الجنوح الى ازدراء الله والأديان كلها ، والتمومس بكل صوره في سبيل النفع الشخصي والميزات الشخصية » • وتعبر هذه الصورة القاتمة «نهاريس» تعبيرا بارعا عن المشاعر التي انتشرت في دوائر الكنيسة بعد ثورة ١٦٨٨ • فلقد أصبحت « النزعة الفردية التملكية » التي اكتشفها المؤرخون المحدثون في كتابات لوك وهوبز جانبا غالبا على السلوك الاجتماعي في انجلترا في عصرها المجيد • غير أن المعتدلين من رجال الكنيسة عندما انتقدوا هذا المسلك لم يقصدوا فقط شجب السعي وراء الصالح الذاتي • فلقد قدم النيوتينيون ـ مختلفين عن منافسيهم من رجال الكنيسة ـ تبريرا لأسلوب معين يستطاع اتباعه في سعي الفرد لتحقيق صالحه الذاتي ، واكتفوا بادانة من يفرقون بين الصالح الفردي والصالح العام ، ومن يرون عيوب الآخرين ، ويدفعهم الانخداع بأنفسهم الى ابتكار البدع والتقاليع والتفنن في البحث عن المرفهات • فلقد أقلقت أتباع نيوتن المساعي المضطربة عن الصالح الذاتي • ففي المجتمع يتوجب على البشر التحلي بالقوة والقدرة على توجيه المادة ، على غرار القوة التي تمارسها المشيئة الالهية عند تسييرها للطبيعة • وبوصفهم المتفردين الآخرين الموهوبين بالقـدرة على تحريك المادة ، لابد أن يفرضوا النظام ، وأن يضعوا اطارا ينظم ممارساتهم لحقوقهم وامتيازاتهم •

فلابد أن يكتسب الانسان في مسلكه في الأمور الدنيوية نفس «العقل» الذي يكتنف كل شيء ، الذي يتجلى في تحريك الله للكون الفزيائي • فكما لا تتصف قوة الله المطلقة بالتعسف على الاطلاق ، بفضل عقله المتميز، فيتعين أن تخضع أيضا سيطرة البشر على المادة وقدرتهم على تشكيل الجمادات لما يناسب احتياجات عقولهم ، بعد تهذيبها وصقلها • فالآثار المتناغمة لعقل الله في الكون أمور طبيعية ومألوفة ، وتفضي فاعلية العقلاء من البشر ، كما تتمثل في « الحقيقة والعدالة والجود » بالطبع وبالضرورة الى خير البشرية وسعادتها ، والى حدوث عون متبادل بين المجتمع والتجارة ، وتفضى الى «السكينة والسلام وراحة البال لجميع الحكومات والطوائف» •

وبزغ من بين حجج المعقبين النيـوتينيين تعريف جديد للفضـائل الاجتماعية • فلقد تأكد حق الفرد في السعي لتحقيق صالحه الذاتي • فثمة تماثل بين حفاظ الفرد على مصـالحه والحفاظ الذاتي الكامن في النظام الطبيعي • وتحقق هذه الناحية دوما صالح الكل ، لأن هناك تكاملا وتناغما في الطبيعة • وبالمثل فلابد أن يفسح الصالح الشخصي الطريق أمام الضرورة العامة • وعلينا أن ندرك ان الانصياع الذي نصادفه في نظام الجمادات نموذج يجب أن يقتدى به ما يمليه الصالح الذاتي ، الذي يجب أن يساير احتياجات المجتمع • ان اشتهاء القوة أمر طبيعي ، ولكن اساءة استعمالها ليست كذلك • وهكذا تغدو الفضيلة الاجتماعية أمرا طبيعيا

للانسان • ويحول المسلك المضاد للمجتمع الانسان الى شخص منحرف « وغير طبيعى » ، ومن ثم بدا وقوع الانسان فى الخطيئة ـ أساسا ـ فى نظر الايديولوجية الاجتماعية النيوتينية ، شيئا يتنافى مع الطبيعة •

لقد وضعت سيطرة الانسان على المادة ، من ناحية علاقته بالمجتمع ، فى موقف مماثل لعلاقة الله بالكون • فكما ينظم الخير الالهى مسار الطبيعة، ويرتقى بالصالح الكلى للكون ، لذا لابد أن يشارك الانسان أيضا فى الجود الاجتماعى الكلى • اذ تيسر له قدرته على تنظيم مسار الأشياء بناء المجتمع على نحو ييسر قيامه بتحقيق التناغم الكلى •

ودفعت الرغبة فى تحقيق التناغم الاجتماعى ، التى اشترك فيها جميع المعقبين على نيوتن ، وايضا وبحق ، الفريق المعتدل بأسره من رجال الكنيسة ، دفعتهم الى اخضاع حتى المشاعر الدينية لاحتياجات المجتمع • وذكر كلارك ـ مدفوعا بحماسته للتناغم الاجتماعى ـ وجوب انطلاق الفضيلة الاجتماعية « اعتمادا على التأمل الدائم والمعتاد للخالق ، وما يتمتع به من كمال لا متناه وقوة لا متناهية ، وحكمته الكاملة فى حكم العالم » • اذ تؤدى دراسة النظام الفزيائى الى الفضيلة الاجتماعية ، والى الاخضاع المناسب لجميع شهواتنا وأهوائنا لحكم العقل الرصين والمتواضع • وهذه هى أكثر الوسائل مباشرة لتحقيق السلام الوطيد والرضاء الراسخ للعقل ، باعتباره الركيزة الأولى ، والمبدأ الأول ، وأعظم مقوم ضرورى للسعادة الشاملة الحقة • وتهتدى المشاعر الدينية الى أنفع تعبيراتها الاجتماعية اعتمادا على الدراسة المنهجية للطبيعة أو تأملها • وبالمثل لابد أن تخضع جميع المشاعر الأساسية الأخرى للعقل • وفى العالم الرصين للمعقبين النيوتينيين ، نرى العلم والفلسفة الطبيعية يزدهران الى جانب التقوى والاعتدال ، ويقمع الجانب اللاعقلانى فى الانسان لكى يتوائم هو واحتياجات المجتمع المتناغم •

ان هذا المذهب الذى تحقق فيه خضوع سعى الانسان للمجتمع ، المنبعث من دوافع دينية أساسا ، والذى لاتستجاب فيه الاحتياجات الانسانية الا اذا توائم اشباعها مع احتياجات المجتمع ، قد تلقى التصديق النهائى عليه من الله وعنايته • فالله يترأس العالم الحديث ، ويؤدى رعايا هذا العالم دورهم لانه يوائم صالحهم الذاتى • انهم يخضعون قدراتهم لاحتياجات الكل ، ويثابون على ذلك ، بالتناغم الاجتماعى ، وبادراك أن مسلكهم كان «طبيعيا» • ويرجع مغزى ذلك الى مبدأ كامن فى نظام الكون، لأن الانسان عندما يتبع العقل فى مسلكه ، فانه يكمل النظام الطبيعى • *ويزداد ما ينجم عن ذلك من رضاه عن النفس ، بدراسة الطبيعة أو العلم* ، لانها تؤكد للبشر أن النموذج الذى جاءت به الطبيعة مازال يتمتع بسلامته وصحته ••

غير أن رجال الكنيسة أدركوا غلبة الفوضى الاجتماعية والارتباك السياسى فى مجتمعهم • ولما كانوا يعتقدون فى وجود تماثل بين « عالم السياسة » وعالم الطبيعة ، فانهم كثيرا ما خشوا من أن يؤدى انتصار الفوضى فى عالمهم الى حدوث دمار وشـيك فى النظام الطبيعى • وسـعى النيوتينيون أساسا لتقديم رؤية للمجتمع قد تدعم الاستقرار والتناغم ، وتحقق السعى المصطبغ بالصبغة المسيحية لقدرات الانسان وواجباته فى النظام الاجتماعى • غير أنه رئى لضمان تحيقق هذه الرؤية وجوب نهر أصحاب العقليات الدنيوية الذين يسعون وراء القوة والارتقـاء بطريقة جائرة ، والذين ربما قوضوا دعائم كل حكومة وسلطان • فلربما تسنى لهؤلاء المنحلين والملحدين ـ بعد انكارهم لدور العناية الالهية ودفاعهم عن الأفكار الهوبزية والأبيقورية ـ أن ينشئوا مجتمعا يستبعد منه الدين كقوة سياسية أو اجتماعية • وقد يضعفون من مكانة الكنيسة • واذا فعلوا ذلك ، فانهم سيدفعون المجتمع الى حتفه • ولم يتوقف النيوتينيون عن الاعراب عن مخاوفهم من مخططات الدنيويين ، الذين سينشئون ـ وفقـا لتخيلهم ـ مجتمعا دنيويا وحكومة تتبع اتجاها دنيويا صرفا •

ان ما لم يدركه المعتدلون من رجال الكنيسة البتة هو أن تعاليمهم الاجتماعية المستندة الى النظام الصارم للكون النيوتينى ، قد قدمت تبريرا قويا للنظام ذاته الذى أقلقهم • ففى مجتمع السوق الذى ازدهر فى انجلترا فى القرن الثامن عشر ، باذن من مخطط العناية الالهية ، استطاع حتى أولئك المخادعون المجردون من المبادىء تثبيت أقدامهم فى نهاية الأمر ، بالرغم من عدم ادراكهم لما جد من مخطط عظيم ••

المـراجـع

M. Boas. The Scientific Renaissance 1450-1630, (1962).

I. B. Cohen, Revolution in Science (1985).

E. J. Dijkstermun, The Mechanization of the World Picture (1961).

C. C. Gillispie, The Edge of Objectivity : An Essay in the History of Scientific Ideas (1960).

A. R Hall, The Revolution in Science 1500-1750, (1981).

M. Hunter, Science and Society in Restoration England, 1981.

A. Koyré. From the Closed World to the Infinite Universe (1957).

B.J. Shapiro, Probability and Certainty in Seventeenth Century England : A Study of the Relationship between Natural Science. Religion, History, law, and Literature (1983).

R. E. Schofield, Mechanism and Materialism : British Natural Philosophy in an Age of Reason (1970).

R. E. Sullivan, John Toland and the Deist Controversy : A Study in Adaptations (1982).

R. S. Westfall, Never at Rest : A Biography of Isaac Newton (1980).

R. S. Westfall, Science and Religion in Seventeenth Century England. (1958).

خامساً

القرن الثامن عشر

يطلق عادة على الحياة التى سبقت اندلاع الثورة الفرنسية ١٧٨٩ اسم النظام القديم • وبدت هذه الحقبة في نظر بعض من عاشوا فيما بعد حقبة هدوء قبل السنوات العاصفة للثورة • ومع هذا فقد تمتع المجتمع الأوربى فى ابان القرن الثامن عشر بالحياة الى حد كبير • وليس من شك أن هذه الحقبة لم تتصف بالركود ، ولم تخل من الأحداث اطلاقا • ففيها بذرت بذور نوع جديد من المجتمع والحياة الفكرية والاقتصادية •

واضطرت جميع حكومات أوربا لمواجهة مشكلات الواقع المتصلة بالقانون والنظام • اذ كانت الأغلبية العظمى من الأهالى من القرويين الذين يقتاتون على ما يزرع فى الأرض ، التى كانت تنشب أحداث عديدة من التمرد والعصيان من جراء تنازع القرويين على حقوق امتلاكها واستئجارها واقامة الأسوار عليها • وتتحدث ايزابيل دى مادارياجا عن أضخم هذه الانتفاضات وأخطرها • انها تمرد القرويين والقوزاق فى روسيا فى عهد الملكة كاترين الكبرى • وثارت فى المدن بعد اتساعها مشكلات مختلفة تتعلق بالقانون والنظام • وكثيرا ما لجأت فى شتى الأنحاء الطبقات الحاكمة الى توقيع عقوبات شديدة الصرامة على السلوك الاجرامى • ويتحدث جون ماكمانرز عن الاعدام العلنى فى فرنسا ، كاجراء متطرف لردع الجريمة ، وتكشف عن موافقة المجتمع على الخضوع لحكم النخبة القائمة •

وشهد اقتصاد القرن الثامن عشر فى أوربا أسس الثورة الصناعية ، والتوسع فى التجارة • ويكشف جنيفر تان عن الصعوبات التى واجهت الصناع الأول للمحركات البخارية لاستحداث أسواق لمنتجاتهم • وينظر روبرت دارنتون فى الجانب الاقتصادى من عصر التنوير ، ويتحدث عن كيف تم نشر الانسكلوبيديا الكبرى ، وكيف أمكن بيع مجلداتها التى حفلت بالاصلاحات الدينية والاقتصادية والسياسية فى سائر أنحاء أوربا •

ومن بين ملامح مدخلات فكر التنوير ، كما تمثل فى الانسكلوبيديا وكتابات « الفلاسفة » الآخرين ، النقد الفظ للمسيحية والكنائس الوطيدة فى أوربا · وبمجرد بدء الثورة الفرنسية ، أثبتت بعض سياساتها القليلة انها أكثر اثارة للجدل والانقسام من هجومها على الكنيسة · ويتحدث ميكائيل كنيدى عن أثر الدستور المدنى للاكليروس ١٧٩٠ ، وما أثاره من جدل وانقسام فى الرأى ساعدا على وضع أسس محاولة تجريد فرنسا من المسيحية ابان حكم الذعر · ويكشف كلاوس ابستين بدوره عن كيف أدى التنوير والهجوم الثورى على الدين الى بزوغ النظرات السياسية والاجتماعية المحافظة فى ألمانيا · والحق أنه يصح النظر الى ظهور الاتجاهات المحافظة فى أوربا على أنها نتيجة لقرن كامل من التحولات الجديدة فى الضغوط الاجتماعية والسياسية التى دفعت الطبقات الحاكمة فى نهاية الأمر الى ادراك أن موقفهم من المواقف التى تتطلب حججا جديدة ومبررات ذاتية جديدة ·



ديدرو (١٧١٣ ـ ١٧٨٤) وجان دالامبرت (١٧١٧ ـ ١٧٨٣)

تمرد القوزاق وحرب الفلاحين فى روسيا

ايزابيــل دى مادارياجا

قبل ثورة ١٩١٧ ، كان أخطر تحد تعرضت له الدولة الروسية هو التمرد الذى حدث فى القرن الثامن عشر ، وقام به القوزاق والفلاحون ، وقاده امليان بوجاتشوف بين ١٧٧٣ و١٧٧٥ • وتماثل هذا التمرد هو والكثير من أحداث التمرد والعصيان والمشاغبات المحلية فى شتى أنحاء أوربا فى القرن الثامن عشر ، فيما تضمنه من محاولات لاسترداد الامتيازات التقليدية والعادات الاجتماعية التى كانت قد فقدت من جراء سياسات النزوع نحو العصرية والعقلانية فى ظل نظام ملكى مركزى قوى ، والتف حــول بوجاتشوف آلوان شتى من الساخطين • ومن الناحية العسكرية ، كانت أهم فئة بين هؤلاء الساخطين هم فئة القوزاق الذين كانوا ـ بوجه عام ـ من الجنود الفرسان من غير المنتمين الى الجيش النظامى ممن اضطلعوا بمهمة الدفاع عن بعض حدود الامبراطورية الروسية فى مقابل حصولهم على بعض الامتيازات • ولقد كانوا يرغبون العودة الى أسلوب فى الحياة أقل انضباطا، ويرغبون أيضا استعادة الحصول على الأرض • والتف الفلاحون أيضا فى أعداد كبيرة حول بوجاتشوف سعيا وراء المزيد من الحرية الشخصية ، وللاستيلاء على مساحات كبيرة من الأرض وللاعفاء من الخضوع للأعباء التى يفرضها عليهم الملاك ، وبالاضافة الى ذلك ، كان هناك « قدامى المؤمنين » من الناقمين على التغيرات التى جرت منذ أكثر من قرن لممارسات الكنيسة الروسية ، وكذلك الرقيق الأبيض من الكادحين فى مسابك المعادن التى انشئت ابان حكم بطرس الأكبر •

وتطلعت جميع هذه الفئات لظهور قيصر « بالمعنى الحقيقى » ظنوا انه قد يرفع بكرمه وشهامته الضيم عنهم ، واقتنعوا بسهولة بعدم توافر هذه الشروط فى الامبراطورة كاترين المولودة فى المانيا ، والتى اعتلت عرش روسـيا ١٧٦٢ بعد اغتيال زوجها بطرس الثالث ، ومن ثم فانها

نقلا عن كتاب Russia in the Age of Catherine the Great

تأليف Isabel de Madariaga

لا تصلح لحكمهم • واعلن بوجاتشوف نفسه قيصرا « بالمعنى الحقيقى » يتجاوب مع تطلعات السواد الأعظم من الأميين القوزاق والفلاحين • ولكن السؤال هو : لماذا اتبع كثيرون هذا الشخص الدعى ، وأبعد الناس عن الصلاحية للحكم ، ليس بالاستطاعة اعطاء جواب شاف عن هذا السؤال • وليس من شك أن بعض الناس قد اعترفوا به كقيصر بالمعنى الحقيقى ، لأنه قد تجاوب بوسائله الفجة مع تطلعاتهم • فلقد اتخذ ما اعتقد انه المظهر الحقيقى للقيصر ، وألف بلاطا ، وأصدر التعليمات لتحقيق اهتماماتهم ، وعلى هذا النحو ، اتخذ زعيم التمرد واعوانه الرئيسيون المظهر الخارجى للسلطان السياسى الشرعى ، ومثلوا الدور الذى كان من المنتظر نهوضهم به • وأحرز بوجاتشوف نجاحا عسكريا مبدئيا ، أكد مزاعمه •

وأثناء المراحل الأولى من التمرد لم تكن كاترين قادرة على الاستعانة بجيشها النظامى لانشغالها فى الحرب ضد الامبراطورية التركية ، أو «الباب العالى» • وبعد أن أنهت هذا الصراع بالانتصار ، اطلقت جيشها ضد القوزاق والفلاحين • وهزم بوجاتشوف فى نهاية المطاف ، وان كان هذا لم يتحقق الا بعد حرب شرسة ضروس دامت عدة أسابيع • وكان من المهم فى نظر كاترين وحكومتها عدم الاكتفاء بهزيمة بوجاتشوف ، وانما كان عليها أن تثبت أيضا أن القوات المسلحة التى تتبع السلطات الروسية أقوى من القوات اللاشرعية المناوئة للسلطة ، التى جمعها القيصر القوزاق الزائف •

يجب أن ينظر الى التمرد الكبير الذى وقع بين ١٧٧٠ و ١٧٧٣ على ضوء خلفية التوتر المتزايد فى معقل القوزاق ، اثر امتداد السلطة المنظمة للدولة الروسية ، وما عرف عنها من تزمت ، وانعكاسه عليهم • وأشعل فتيل التمرد ظهور زعيم قدير هو المنشق دون قوزاق املين بوجاتشوف بعد خمس سنوات من الحرب والطاعون وارتفاع الأسعار وما تكبدته نفقات الخدمات الشاقة وحشد الجيش من تكاليف باهظة • وكان فحوى الكثير من سخط القوزاق قد عرف أمره مما جاء فى تعليمات مبعوثيهم وأحاديثهم فى اللجنة التشريعية ، وابان فترات الاضطراب المستمر فى أواخر ستينات القرن الثامن عشر وسبعيناته • وعانت جميع معاقل القوزاق من تصادم القيادات العسكرية العليا والسواد الأعظم من الجنود ، ومن الصدام بين الأغنياء والفقراء ، وبين من ارتضوا بيع أنفسهم للخروج من الخدمة ومن أرغموا على الخدمة ، وبين اكراه الحكومة الروسية والطموحات الفردية لزعماء القوزاق • وفى ١٧٨٨ ، وبعد أن أعلن القوزاق (*) العصيان .

(*) Zaporazhian.

استدعى بيتر كالينشفسكى القوات الروسية لحماية كبار الضباط القوزاق (*) ٠ وما لبث أن قام هو نفسه بالتهديد بطلب الحماية من الحكومة التركية (الباب العالى) اذا لم تفلح الحكومة الروسية فى معالجة ما يسود « المعقل » من ظلم واجحاف ٠

وفى نهر الدون ، أدى طموح « الاتمان » يفريموف أحد رؤساء القوزاق الى اثارة مشاعر الغضب « بالمعقل » الى حد الغليان ٠ ولكنه منذ اندلاع الحرب ، كان يتآمر هو والمغول (**) فى الامبراطورية العثمانية ، ويسعى لزيادة سلطانه فى المعقل على حساب الحكومة ٠ وعندما حاولت السلطات القبض عليه فى نوفمبر ١٧٧٢ ، قام القوزاق بحركة عصيان ، وقتلوا العديد من الضباط النظاميين ، وقبض على يفريموف فى نهاية المطاف ، وحوكم بتهمة الخيانة والعمالة لصالح المغول ، ثم حكم عليه بالنفى الى ليفونيا ، وعاد السلام الى « المعقل » ٠

وبلغ الاخلال بالنظام مرحلة أخطر فى معقل آخر حيث أحدث التوتر بين كبار الضباط (***) وباقى الجنود انشقاقا شطر الجماعة الى شقين : شق «المنصاعين» وشق «الرافضين» ٠ وفى ١٧٦٩ ، أعلنت عدة مئات من الشق الأخير العصيان ، ورفضوا الخدمة فى مواقع خارجية قصية ، وسحقت قوات الحكومة تحت قيادة الجنرال تراونبرج العصيان ، ووقعت الأحكام القاسية المعهودة ٠ وعندما لم يهتد المبعوثون الى العاصمة بطرسبورج الى اية نتيجة فى التماسهم رفع الأحكام ، اندلعت أحداث اضطراب أخرى فى يناير ١٧٧٣ ، وقتل فيها الجنرال تراونبرج ، ثم أرسلت قوات اضافية تحت قيادة الجنرال فريمان لاستعادة النظام ٠ وبعد أن وصلت القوات فى يونيو ١٧٧٣ ، أعاد فريمان النظام الى المعقل ، ودعم رقابة الحكومة على مواقع الحامية ، واوفد بعثة خاصة لمحاكمة زعماء زمرة المتمردين ١٧٧٣ ٠ وصدرت مرة أخرى أحكام عديدة بالجلد والأشغال الشاقة ٠٠ الخ ٠ وأمر ٢٤٦١ من القوزاق العاديين المشتركين فى التمرد بدفع غرامة جماعية مقدارها عشرون الف روبيل ٠ ونفذت الأحكام فى معقل يايتسك نفسه فى يوليو ١٧٧٣ ، وترتب على ذلك تحول المعقل الى برميل للبارود لا يعوزه أكثر من شرارة بسيطة لكى يشتعل ٠

(*) Starchina.

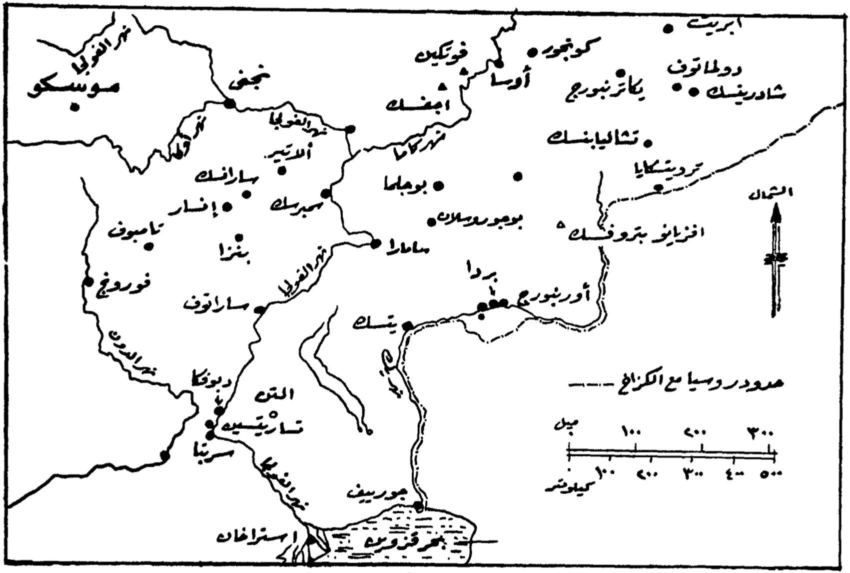
(**) فى Kuban

(***) فى Yaik.

في مثل هذا الموقف ، كان من المحتوم أن تلقى الشائعات بوجود قيصر آخر ما زال على قيد الحياة التربة الصالحة لاضفاء الشرعية على مزاعم الساخطين • فلقد علق الروس آمالهم طيلة القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر في الهروب من الاضطهاد على وجود أو اكتشاف قيصر حقيقى انتزع منه العرش من أثر مؤامرات البويار (النبلاء) • وأدى عدم استقرار الخلافة على العرش في القرن الثامن عشر الى ظهور حفنة من الأدعياء ممن انتحلوا شخصية بطرس الثانى (١٧٢٧ — ١٧٣٠) أو شخصية الفتى ايفان السادس أو حتى الكسى بتروفتش ابن بطرس الأكبر • ولكن الى أى حد اعتقد أتباعهم في صحة ما يدعون ، والى أى حد وثق أتباعهم في زعمهم ؟ والظاهر انهم جميعا عاشوا في عالم يجمع آنيا بين الايمان واللاايمان ، يعنى أنهم كانوا يعتمدون على الايمان لتبرير أفعالهم عندما يخشون ارتكاب خطيئة ضد القيصر المعين من قبل الله ، لأنهم لا يتوقعون حدوث تحسن في أوضاعهم الا عن طريق هذا القيصر • ويجنحون في ذات الوقت الى اللاايمان عندما يواجهون الحقيقة القاسية عند القبض عليهم ومعاقبتهم عقابا وحشيا • ونادرا ما طالب عامة الناس بأى برهان يثبت هوية « المدعى » اكتفاء بتفتيش جسمه بحثا عن علامة تثبت انتماءه الى أسرة القيصر • وساعد تركز الشائعات دائما على شخصيات لم تحكم قط ، أو حكمت لفترة قصيرة فحسب ، أو ماتت صغيرة في السن مما جعلها غير معروفة ومحاطة بأسرار خفية،ومبشرة بآمال كبيرة بقدوم عهد أفضل،ساعدت على وضع ظاهرة(*) الادعائيين في عالم الفولكلور والأساطير والبالاد والشعر البطولى ، الذى يلجأ اليه دوما خيال الأذلاء والمضطهدين • وجدير بالملاحظة أن أحدا لم يزعم أبدا أنه بطرس الأكبر ، أو أن بطرس الأكبر لم يمت •

وأدت فترة الحكم القصيرة لبطرس الثالث الى تفضيله للقيام بهذا الدور عند « الادعائيين » ، وانتشرت فور وفاته الشائعات باستمرار وجوده على قيد الحياة في بطرسبورج • وفى ١٧٦٣ ، اتهم أحد الجنود بأنه صرح بأن بطرس مازال على قيد الحياة • وعندما سئل كيف عرف ذلك ؟ أجاب : ألا تعرفون ان أسقف روستوف أرسينى ماستييفتش قد خلع من منصبه لأنه دفن بطرس الثالث بنوع الخطأ ؟ وهذا مثل كلاسيكى يبين كيفية تحول الأحداث السياسية الى أساطير • وفى ذات السنة ، انتشرت شائعة في أورنبرج بالتجاء بطرس الثالث الى معقل القوزاق في يايك • وتكاثر المدعون أو الأدعياء (فقد ظهر عشرة من هذا الصنف ما بين ١٧٦٤و١٧٧٢) وكان من بينهم بوجومولوف ، وهو من العبيد الهاربين ، ولعله أهم من جسد آمال القوزاق ، وأعلن بمساعدتهم في مارس ١٧٧٢ أن اسمه هو

(*) Pretenderism.



ثورة بوجاتشف

« بطـرس الثالث » ، وقبض عليه فى ديسـمبر ، ومات فى طريقـه الى سيبريا • غير أن الشائعات التى أطاحت به انتشرت على نطاق واسع ، بأن الحكومة قد أمرت باصدار نشرة توزع فى معقل دون قوزاق وفى الفولجا بالقاء القبض على القيصر المزعوم ، ومعاقبته • وترتب على ذلك ازدياد الاعتقاد بأن بطرس الثالث مازال حيا يرزق ، ويعيش وسـط القوزاق •

ولم تمض سوى أسابيع قليلة بعد تنفيذ الأحكام فى يايك القوزاق فى يوليو ١٧٧٣ ، حتى ظهر على المسرح « بطرس ثالث » جديد أكثر جسارة واتصافا بالمهابة • فلقد ولد املين بوجاتشوف حوالى ١٧٤٢ ، وينحدر من أسرة أحد جنود القوزاق ، واشترك فى حرب السنوات السبع ، ومرة أخرى فى الحرب ضد الأتراك (الباب العالى) ١٧٦٨ ، حيث رقى الى أصغر رتب الضباط القوزاق • وفى ١٧٧١ ، فر من الخدمة العسكرية ، وظل يهيم على وجهه الى أن بلغ تاجانروج فى الجنوب ، موطن بعض أقربائه ، ثم انتقل الى معقل القوزاق على نهر تيريك • وبعد تطواف من مستعمرة المؤمنين القدامى الى مستعمرة المؤمنين الجدد ، استغل أمرا من أوامر العفو العديدة التى أصدرتها الحكومة الروسية للفارين العائدين ، وعاود الظهور فى معقل نهر الدون ، بعد أن انتحل شخصية مواطن بولاندى • وبعد أن حصل على جواز سفر فى أغسطس ١٧٧٢ ، استأنف تجواله مرة أخرى ، فأقام بين « المؤمنين القدماء » ، وغالبا ما كان يتخفى فى شخصية أحد التجار الأثرياء • وفى نوفمبر عاد الى يايتسك ، وأقام مرة أخرى وسط « المؤمنين القدماء » • ولم يكن قد مضى على حركة العصيان فى المعقل أكثر من خمسة شهور ، وكانت الأحكام مازالت سارية المفعول •

وفى هذه المرحلة ، تقدم بوجاتشوف كأحد التجار الأثرياء (ممن يملكون ما ينوف عن المائتى ألف روبل فى الخارج بالاضافة الى سلع تتجاوز السبعين ألف روبل) ، وعرض نقل الساخطين القوزاق الى خارج روسيا الى « كوبان » فى القرم ـ وهى من المناطق التى يحتلها المغول ، وعرض مبلغ اثنى عشرة ألف روبل منحة لكل قوزاقى ينضم اليه • وأكد لمستمعيه ترحيب « الباشا » التركى بهم • ولأول مرة فى يايتسك ، ادعى بوجاتشوف انه بطرس الثالث • أما الظروف التى أحاطت بهذه الواقعة فمازالت فى طى الكتمان ، نظرا لتضارب الأدلة التى قدمها بوجاتشوف ذاته وأنصاره التواقون لتبرئة ساحتهم • وطبقا للرواية التى رددها بوجاتشوف ، فانه أبلغ مضيفه انه الامبراطور بطرس الثالث ، الذى نجا بمعجزة من الموت ، ثم تجول بعد ذلك فى مصر والقسطنطينية وبولاندة •

(*) رتبـة Khorunziy

ومما لا شك فيه أن بوجاتشوف اكتشف أن الروح السائدة بين قوزاق يايك مشجعة • أما ما بقي غير مؤكد فهو ما كان يخطط لتنفيذه في هذه المرحلة • ولا ريب أنه عاش طويلا في عالم الفانتازيا ، وعندما كان مازال بالخدمة العسكرية ، كان يفخر بأن أباه الروحي بطرس الأكبر هو الذى منحه سيفه الأثير • ولربما يكون التقرير المتضمن القول بأن بوجومولوف هو بطرس الثالث ، وبأنه قد تم القبض عليه هو الذى نبهه الى ذريعة الزعم بأنه « القيصر » بشحمه ولحمه • ومن جهه أخرى ، فلعل الفكرة قد راودته عندما كان مقيما بين قوزاق يايك • ويشيع افتراض قيام بوجاتشوف باختراع الفكرة في المؤلفات التاريخية السوفيتية ، اعتمادا على تدعيمها لبعض فرضياتها الأساسية ، ومؤداها أن بوجاتشوف كان يعى بقيامه بتخطيط تمرد يعم الأمة كلها ضد العبودية ، وصمم على انتحال شخصية بطرس الثالث كحيلة استراتيجية لتحقيق غايته • غير أن الدليل على صحة مثل هذه الخطة بعيد المنال وواه نوعا • اذ تذكر روايات أتباعه أن بوجاتشوف كان يخطط لقيادتهم الى ما وراء الحدود والى تركيا • ولعلهم نزعوا الى تزييف أدلتهم للتخفيف من جرمهم في نظر الحكومة الروسية • بيد أن الرحيل الى بلاد أخرى كان أكثر توافقا هو والتقاليد القوزاقية من الهجوم بالمواجهة على الدولة الروسية • وتثبت كلمات بوجاتشوف أنه كان معنيا أساسا بالأزمة التى تعرض لها أسلوب القوزاق في الحياة بتأثير ضغوط الدولة الروسية ، وليس من أثر أوجاع وتأوهات الفلاحين في جملتهم •

ولم يبق بوجاتشوف أكثر من أسبوع بعد زيارته الأولى لمعقل يايك • وعندما عاد الى نهر الدون ، سرعان ما قبض عليه بتهمة الفرار من الجندية، ونقل الى كازان في مشارف يناير ١٧٧٣ ، واعترف عند استجوابه بأنه حرض القوزاق في يايك على الفرار ، ولكنه لم يذكر أى شىء عن ادعائه بأنه بطرس الثالث ، ونجح في الهروب في مايو ١٧٧٣ ، وعاد يهيم على وجهه مرة أخرى حتى أغسطس ١٧٧٣ ، وبعدها عاود الظهور مرة أخرى في يايتسك • وهناك أطلع مضيفيه في الحمام على « علامات الانتماء الى الأسرة المالكة » وكانت ندوبا على القفا وعلى صدره — وهى علامات معكوسة غريبة عن الأوصاف التى تنسب للملك الالهى-الشرعى • ومنذ ذلك الحين ، بدأ الاعتقاد يسود في المعقل بأن التاجر بوجاتشوف هو في الواقع بطرس الثالث • وكان المعقل ما زال يتوجع ويتحسر من وطأة الأحكام الموقعة على العصاة في يوليو ١٧٧٣ • وشرح زوار بوجاتشوف من القوزاق مظالمهم الى « بطرس الثالث المزعوم » وتتلخص في كون الجهات الروسية المسئولة طالبت باقامة منشآت جديدة وتشكيلات جديدة ، بينما طالب القوزاق ، أن تستمر الخدمة التى ألفوها في سابق عهدهم ، يعنى كما كان

الحال فى عهد بطرس الأول أو الأكبر ، وتبعا للوائح التى كانت متبعة . واشترك بوجاتشوف ونفر من الأجرياء من القوقاز وحفنة من المغول باعداد البرنامج الذى سيرتكن اليه للحصول على الاعتراف به كبطرس الثالث فى معقل يايك ، ووعد بتأمين العيش تبعا للأسلوب الحر القديم ، الذى يستطاع اجماله : « فى اتاحة حرية العمل فى مسابك يايك وحرية استعمال الأرض والمرافق واعفاء الملح والمراعى من الضريبة ، ومنح كل من ينتمى الى القوزاق اثنى عشر روبل سنويا ، وكيلة من الغلال » .

لقد كان هؤلاء القوزاق يعلمون علم اليقين أن المدعو بطرس الثالث ما هو فى الحقيقة الا القوقازى الفار بوجاتشوف . ولابد من الاعتراف بأنهم قد أثبتوا بهذا الاعتراف أنهم كانوا من رواد تخطيط التمرد ، وأنهم كانوا على دراية بضرورة تغليفها بثوب الشرعية لو أريد انتشارها . وأغلب الظن أنهم وهم فى مثل هذا الحال من التبرم والاهتياج قد رحبوا بوصول رجل مقدام على استعداد لتمثيل الدور . واتسعت دائرة العارفين بحقيقة بوجاتشـوف ، وسره ، فضمت قوقازيين لديهم أهداف قوقازية بسيطة وشخصيات مثل القائد السابق ليايك ومتزعم جناح العصاة أوليانوف ، الذى كان يأمل فى استيلاء بوجاتشوف على الدولة ، وبذلك يتقلد احدى الوظائف المرموقة . وربما كان من الصحيح أيضا أن ادعاء بوجاتشوف « القيصرية » لم يلق اعتراضا يذكر ، لانه كان من بسـطاء القوزاق ، وبالاستطاعة التعرف عليه بسهولة كأب لشعبه ، وليس بالشخص الذى نفصله عن أقرانه فجوة ثقافية واسعة.ولعل جمع القوزاق للألفة والاحترام فى معاملتهم له لم تكن ــ كما يحتمل ــ جانبا من المؤامرة ، ولكنها تمثل الجمع بين العيش فى العالم الحقيقى والعالم الزائف فى ذات الوقت .

وحدد لاندلاع الانتفاضة افتتاح موسم صيد أسماك الشتاء . وفى الوقت نفسه ، عثر أنصار بوجاتشوف على زى مناسب عبارة عن قفطان يقوتى اللون وقلنسـوة من المخمل ، واختـاروا له سكرتيرا هو اينـان بوشيتالين ، لأنه كان أميا . غير أن الأحوال فى الخارج هى التى أدت الى تسريع الأحداث . اذ سمع قومندان حامية يايتسك شائعات عن وجود أحد الأدعياء ، وارسال دوريات للقبض عليه ، فصمم المتآمرون على العمل فورا . وكتب أول بيان لبوجاتشوف على عجل . وفى صباح ٧ سبتمبر قرىء فى مزرعة احدى عائلات القوزاق على بعد مائة فرست (الفرست ٦٦ ميلا) من يايتسك فى حضور جمع مؤلف من ستين الى مائة شخص من القوزاق ، وانضمت اليهم فئات أخرى من المغول وغيرهم . وجاء فى البيان ما يأتى : باسم الامبراطور بيتر فيدارفيتش ، قد صـدر عفو عام عن جميع رعايا بوجاتشوف ممن ارتكبوا جرائم ضده ، ثم طرح برنامج القوزاق أمامهم : « يعنى حرية الملاحة فى الأنهار من منابعها الى مصـابها ، وحرية زراعة

الأرض ، وأن يكون دفع الضرائب بالمال والرصاص والبارود ، وامدادات من الغلال » ٠

ثم انتقل بوجاتشوف توا الى يايتسك ٠ وفي اليوم التالي ، عندما توقف عند القلعة ، كانت قواته تضم ثلاثمائة مقاتل يحملون بيارق تمرد ١٧٧٢ عالية على حرابهم ، ومنقوش عليها صليب المؤمنين القدامى ٠ وكان لقومندان يايتسك ما ينوف عن الألف جماعة (الجماعة تتالف من عشرة رجال) ، ولكنه كان يعرف عدم امكان الوثوق في القوزاق ، وبخاصة بعد أن انضم كثيرون منهم الى بوجاتشوف ٠ وقبض على آخرين ، وشنقوا من قبل المتمردين حتى يصبحوا عبرة للآخرين ٠ غير أن هجوم العصاة على الحصن رد على أعقابه في ١٩ سبتمبر ٠ وأدرك بوجاتشوف أنه في مقدوره التصدي لنيران مدافع القوات النظامية ، وتراجع في محاذاة نهر يايك ، وأزال من الوجـود أثناء التراجع التحصينات الصـغيرة ٠ وكان القوزاق والجنود في كل مكان يتوجهون الى المتمردين ، أو يطلق عليهم الرصاص ٠ وشنق بعض القوزاق ضباط الجيش ، وبعض القسس ٠ وكان من بين الضباط القوزاق الذين استسلموا لبوجاتشوف المساعد السابق لرئيس اللجنة التشريعية بادوروف ٠

ويعكس اختيار الهدف التالي الأولويات الضرورية للقوزاق في حركة التمرد في هذه المرحلة ٠ وكان بمقدور بوجاتشـوف التحرك نحو خط « سمارا » والداخل ٠ وآثر بدلا من ذلك التقدم الى أورينبورج ، المركز الاداري العسكري الذي كان يسيطر على يايك منذ انشائها ١٧٣٥ ، ووصل الى المدينة في ٥ أكتوبر ١٧٧٣ ، يرافقه ما يزيد عن ثلاثة آلاف رجل وحوالي من ٢٠ الى ٣٠ مدفعا ٠ ولكن لم تتوافر له القوة الكافية للاستيلاء على المدينة بالهجوم الخاطف ، ومن ثم قرر فرض الحصار على أورينبورج ، واتخذ بردا مركزا لقيادته (على بعد ٥ فرست) ٠

وفي ذات الوقت ، وصلت آخر الأمر أنباء ظهور بطرس الثالث الجديد في يايك الى بطرسبورج في ١٥ أكتوبر ١٧٧٣ ، وبدا الموقف بعيدا عن موقع الأحداث كأنه فتنة محلية صغيرة ، واستمرارا لتمرد ١٧٧٢ ٠ اذ كانت الحكومة على دراية حسنة بأن الادارة الحكومية في أورنبورج ، والتي تضم معظم الباشكيريا تعـاني من هزال المقيمين في هذه المدينة ، وضـآلة حمايتها ٠ أما الادارة الحكومية الكبيرة التي كانت تقيم بجوار كازان ، فلم تكن تضم أكثر من ثمانين موظفا يشرفون على منطقة عدد سكانها مليونان ونصف المليون ٠ غير أن كاترين بذلت قصارى جهدها لشن هجوم ضد

الأتراك ، ولم يكن بالاستطاعة الاستغناء عن القوات المدربة ، ومن ثم اضطرت الى تجهيز حملة تاديبية صغيرة تحت قيادة الجنرال كار من كازان بالاضافة الى فصائل أخرى من سيمبرسك وسيبيريا • ولكن قوة كار هزمت في وقت مبكر من نوفمبر ، وتوجه القائد بنفسه الى العاصمة للابلاغ عما حدث • وبعد أسبوع هزمت قوات بوجاتشوف فصيلة الحكومة القادمة من سمبريسك (وشنق الكولونيل) • وبعد أن تحمس بوجاتشوف لما حققه من انتصار ، وشعر بالانتشاء ، سمح للطابور الثالث المؤلف من ألفين وربعمائة مقاتل واثنين وعشرين مدفعا بالانزلاق الى أورنبرج،وبذلك مكن حاكمها الحازم راينسدورب من التركيز على فرض حصار استمر ستة شهور• وفي ياتيسك أيضا ، تحصن القائد في القلعة ، واستعد للدفاع عنها تاركا باقي المدينة للمتمردين •

وفتحت هزيمة التجريدة الامبريالية التاديبية الباب أمام امتداد التمرد، فوصل الى بشكيريا حيث فرض زاروبين تشيكا ـ وهو من أقدر معاوني بوجاتشوف ـ الحصار على أوفا في نهاية نوفمبر ، بينما احتل أحد أتباعه الآخرين (ايليا ارابوف) سامارا لفترة قصيرة (وهناك دقت أجراس الكنيسة تحية له ، وأقيمت شعائر الصلاة على شرف بطرس الثالث) في نهاية ديسمبر ١٧٧٣ •

وفي ذات الوقت ، ساعد النجاح الذي حققه التمرد المبدئي على تصعيد مشكلات التنظيم وامدادات المؤن ، وهي مشكلات لم يعد بمقدور الحفنة الصغيرة من الأصفياء ممن التفوا حول الزعامة في أول أطوارها ، النهوض بها ، ومن هنا تشكل في مركز قيادة بوجاتشوف في بردا الجهاز الحكومي للمتمردين الذي أطلق عليه اسم «كلية الحرب» • واستعيرت هذه التسمية من المؤسسة الحكومية المركزية ، باعتبار كلية الحرب من الأسماء المألوفة عند القوزاق • وفضلا عن ذلك ، فقد دعم انشاء مثل هذه الكلية الايهام بحدوث تمرد تحت قيادة « القيصر » ، الذي كان قادرا في ذات الوقت على اقامة فاصل بينه وبين أتباعه ، استلزمه التنظيم المحكم للتمرد ، وان كان قد جنح الى الانتقاص من عنصر المساواة ، الذي كان من مقومات هذا التمرد في أطواره الباكرة •

والمسئول الرئيسي في الكلية تمشيا مع التقليد الروسي من الأعضاء الأثرياء واسمه أندريا فيتوشنوف • وعين ايفان بوشيتالين الذي كان يكتب بيانات بوجاتشوف سكرتيرا للمجلس • وبذلك أعيد اللقب المسكوفي الذي كان قد اختفى من الوجود منذ اصلاحات بطرس الاكبر • وجندت « كلية الحرب » المتمردة أيضا عددا من الكتاب الملمين بالقراءة والكتابة ، وتولى أحد القلائل ممن ينحدرون من أصول النبلاء مسئولية الاتصال بالمتمردين•

وكلف شفانفيتش بالاضطلاع بمهام المراسلات والاتصالات باللغة الألمانية والفرنسية • وتولى اثنان من زعماء المغول : ايدربايميكوف وابنه كتابة هذه المراسلات ، وحرروا بيانات بالعربية والفارسية والتركية والمغولية • وجمعت وظائف « الكلية » بين الناحية المدنية والناحية العسكرية • فكانت تشرف على شئون المتطوعين الذين كانوا يتوافدون للانضمام الى بوجاتشوف ، وهم مسلحون عادة بأدوات الفلاحة ، أو الرماح • وتتولى أيضا أمر تنظيمهم فى تشكيلات عسكرية على غرار ما يجرى فى صفوف القوزاق • وبمجرد قبول المتطوع فى القوة ، يعترف به كواحد من «القوزاق» للتفرقة بينه وبين « الجنود » النظاميين الذين كانوا يحاربون فى صف الامبراطورة كاترين • ومنذ اللحظة التى استقر فيها بوجاتشوف فى مقر قيادته فى بردا خارج أورينبورج واجهت حركة التمرد مشكلة التجنيد ، اذ قدمت أعداد غفيرة من المتمردين للعمل على مقربة من بردا حول أوفا(*) • وما لبثت الحاجة الى مد نطاق العمليات ، أو الاعداد للدفاع ضد قوات الحكومة ، أن دفعت زعماء التمرد الى استعادة أحد أسلحة الترسانة القيصرية ، يعنى « التجنيد الاجبارى » ، فصدرت الأوامر الى الأهالى المحليين للتزويد بمجندين «بمعدل واحد من كل ثلاثة بيوت» ، بل وأحيانا بمعدل واحد من كل بيت • وفى يناير ١٧٧٤ أمر أحد المتمردين بجمع أنفار لخدمة اللورد بيتر فيودورفتش ضد رغباتهم ، « والقضاء على من يرفضون الاذعان ومصادرة أملاكهم » ونظر الى القسم بالولاء لبطرس الثالث ، على أنه اعتراف رسمى بالولاء • وبذلك أرغم جميع من مثلوا أمام المدعى العام ، أو أسروا بحلفان ذلك اليمين • ولم يكن أمام أحد فرصة الاختيار ، لان العقوبة كانت توقع على الفور ، وجرت العادة أن يتم الموت بطريقة موجعة عقابا للرافضين •

وكان على « كلية الحرب » المتمردة مواجهة مشكلات الامداد والتموين والذخيرة ، وتزويد الخيول بالعليقة • وجرت هذه الناحية بعض المشكلات مع الأهالى فى المناطق التى تسيطر عليها قوات بوجاتشوف ، أو فى المواقع التى لم يكن لديه أنصار كثيرون فيها من الموظفين ، وانتخب آخرون بدلا منهم • وفى أول موجة من موجات التمرد ، قتل بعض الأعيان المحليين وزوجاتهم وأطفالهم وعبيدهم ، بالاضافة الى المسئولين المحليين ، وخدم الكنيسة •• الخ ، بطريقة وحشية ، مريعة فى بعض الاحيان • وحاولت « الكلية الحربية » المتمردة ممارسة بعض الانضباط فى هذا المضمار باللجوء الى اصدار المنشورات(**) ، وترك الحكم فى هذه المسألة لقرار مركز

(*) وتقدموا الى ما بعد Yakaterinburg و Chelyabinsk,

(**) Ukazy.

القيادة · ولعل هذا المثل أيضا كان مثلا آخر من أمثلة المنازعات التى ثارت ، وكان لا مفر من حدوثها ، بين القوزاق والبشكير ـ من ناحية ـ وبينهم وبين الأهالى المدنيين ـ من ناحية أخرى ·

واستمرت الدعوة « للايهام بأن بوجاتشوف هو القيصر » فى معسكر المتمردين بالالتجاء الى وسيلة صورت التوتر السيكلوجى داخل القيادة · فلقد أنشأ بوجاتشوف بلاطا ، اقتدى فيه أيضا ببلاط كاترين وتسمى بعض أعوانه الحميمين بأسماء وألقاب كبار العاملين ببلاط كاترين · فأسمى شيجايف ـ وهو من أقرب أعوان بوجاتشوف ، ومن الزعماء المخلصين أسمى نفسه بالكونت بانين · وتسمى زعيم آخر باسم الكونت أولون وتسمى زاروبين شيكا ـ أجرأهم ـ بالفيلد مارشال الكونت شيرنيشيف (وهو الاسم الخاص برئيس كلية الحرب فى بطرسبرج) · وفى فبراير ١٧٧٤ ، تزوج بوجاتشوف بابنة أحد القوزاق فى يايك ، بعد أن هجر زوجته وأولاده وتركهم فى نهر الدون · وعوملت هذه الزوجة كأنها « جلالة الامبراطورة » ، وعينت بعض النسوة من القوزاق كوصيفات شرف لها · ولكن زواج بوجاتشوف أضعف من مركزه ، لان الجميع كانوا يعرفون أن بطرس الثالث كان متزوجا من كاترين التى اغتصبت عرشه ! · وانضم العوام الى قوته لاعادته الى العرش ، الذى اغتصبته منه زوجته · ولا ننسى أنه من المستبعد أن يقدم قيصر حقيقى على الزواج من ابنة أحد العوام القوزاق · وهكذا أدت النوازع الشخصية الأنانية الى تمزيق قناع الوهم ·

ومرة أخرى ولاثبات الأصالة ، ونفى شبهة الزيف ـ وان كان هذا العمل قد عكس التصور الأول للمصدر الشرعى للسلطة ، الذى بمقدور عالم القوزاق ادراكه ـ أصدر بطرس الثالث منشورات ، روعى فى كتابتها بقدر الامكان الأسلوب الرسمى للكتابة فى روسيا فى القرن الثامن عشر ، بل وطبعت هذه المنشورات ـ باعتبار المنشورات المطبوعة وحدها هى المعتمدة قانونيا فى روسيا ، وضمنت مجموعة متنوعة من الأختام · ومن بين الأختام الطريفة اللافتة ، ختم استعمله بوجاتشوف فى أغسطس ١٧٧٤ ، ويحمل الكلمات الآتية : « بطرس الثالث برعاية الله ـ امبراطور التاج » · وتعلو هذه الكلمات صورة شخص يرتدى باروكة وله شارب · ولعل هذه الصورة تشبه صورة بطرس الأكبر كما تصورتها مخيلاتهم · واستعمل زعماء آخرون أختاما تحمل شعارات العائلات النبيلة ، والمصانع ، بل ومصانع تقطير الخمور ·

ومن العسير للغاية تقدير مدى السلطان الذى كان يتمتع به بوجاتشوف فى الدائرة المحيطة به من أولئك الذين يعرفون شخصيته الحقيقية · وكان

يعامل بالاحترام فى العلن • وفى الجلسات الخاصة ، كان الزعماء يجلسون لتناول الغذاء سويا ، وحاول من صعدوا الى القمة فى البداية منع الآخرين من الاقتراب من بوجاتشوف ، والتأثير عليه ، وصرح يوما ما لأحد أقرانه : « ان طريقى ليس مفروشا بالورد ، ولكنه طريق محصور للغاية » • فلم يكن دائما قادرا على حماية من يرغب فى حمايتهم ، وغالبا ما كان يرى نفسه فى مواجهة الأمر الواقع (*) • وعلى الرغم من احتمال قيام الزعماء بادخال بعض الضــبط والربط فى معسكر المتمردين ، الا أنهم ظلوا وفقا لما ذكر المعاصرون حفنة من الغوغاء المنحلين • وكانت الصلوات تقام يوميا من أجل الامبراطور « بطرس الثالث » وزوجته كاترين الى أن تزوج بوجاتشوف « يوستينا » • غير أن المعسكر كان حافلا بزوجات الضباط وبناتهم ، ممن أسروا ووزعوا كغنائم على المتمردين • وكانت أحكام الاعدام تنفذ فى كل لحظة ، وكانت الأخاديد المحيطة مشحونة بالجثث بلا دفن ، وموائد الشراب منتشرة فى كل مكان •

ومن اليوم الأول للانتفاضة فى سبتمبر ١٧٧١ ، وجه بوجاتشوف نداءات الى الشعوب غير الروسية فى المنطقة الشاسعة التى تقع بين نهر الفولجا ونهر يابيك وغرب سيبيريا • وكان من بين أوائل أعوانه فى سبتمبر ١٧٧٣ ، عشرون من المغول وعشرون من الكالموك ، من مجموع المعاونين وعددهم ثمانون • وقد وجه بيانه الأول لهم أيضا وخصهم بالذكر • وتضمن هذا البيان العفو عن جميع من حاربوا وبذلوا جهدا ضد الدولة الروسية فى حروب الباشكير فى أربعينيات القرن الثامن عشر ، وصدرت بيانات عديدة فى أكتوبر ١٧٧٣ تعد الباشكير باتباع أسلوبهم التقليدى فى الحياة المتمردة واباحة تملكهم للأرض والميــاه والأخشاب ، والايمان بما يروقهم، واتباع ما يناسبهم من قوانين وغذاء وزى ومرتبات وبارود وصيد • كما أمنهم على « ابدانهم » ، بمعنى عدم استرقاقهم ، والتمتع بحق « التشبه بوحوش الاستبس والانطلاق فى الحياة الرعوية والبدوية » • ولكن بخلاف النداءات الموجهة الى الأتباع الروس ، فاننا نلاحظ أن بيانات بوجاتشوف لم تكن موجهة ضــد فرائس الظلم الاجتماعى فى بشــكيريا لحثهم على الانقضاض على رؤسائهم ، ولكنهــا تخاطب زعماء القبــائل البشكير ، وتحرضهم على نفض أصفاد اضطهاد الدولة الروسية •

وما أن جاء أكتوبر ١٧٧٣ ، حتى انضم الى بوجاتشوف ما لا يقل عن الألف من الباشكير تحت زعامة كينزيا أرسلانوف ، الذى استمر مرافقا له حتى النهاية • وبغتة انقض الباشكير على أحد الرموز المقوتة للوجود الروسى فى بلادهم : المسابك • ففى نهاية السنة سقط بين ايدى المتمردين أربعة وأربعون من المسابك والمناجم ، التى كانت تمون بوجاتشوف بكميات كبيرة

(*) Faits accomplis.

من قطع غيار المدافع والذخائر ، وبالقدرة على صنع أشياء كثيرة • غير أن المشروعات الصناعية لم تنتقل دائما وعلى الفور الى المتمردين • فلم تشر بيانات بوجاتشوف الى الفلاحين المكلفين أو أرقاء المصانع أية اشارات خاصة • ولجأ المتمردون أحيانا الى الفلاحين المكلفين لتشغيل المصانع ، ودافع العبيد العاملون في المصانع فى بعض الأحيان عن مصانعهم ضد محاولات الباشكير تدميرها ، بعد أن شعروا بتوثق صلتهم بحياة المصانع •

وما أن جاءت بداية يناير ١٧٧٤ حتى رأينا قوة مختلطة مؤلفة من نحو ألفى رجل من المغول وعبيد المصانع والجنود الفلاحين والفلاحين المكلفين يقودها قائد شاب من البشكير يدعى سالافات يوليايف ويرافقه كوزنيتسوف تشن هجوما على مسابك النحاس في جبل الأورال • ونجحت بعض البلاد في الدفاع عن نفسها ، أما بلدة شليابنسك فقد احتلت لفترة وجيزة ، وتحرك المتمردون صوب دير دلمانوف ، وكان مشهورا بسوء سمعته عندما كانت الكنيسة تملك عبيدا • وكان الدير محاطا بأسوار عالية مثبتا عليها ستة عشر مدفعا من مختلف الأعيرة • واشترك الرهبان وموظفو الكنيسة فى الدفاع عنه بمساندة بعض القرويين الذين لا يعتمد عليهم • غير أن الدير قد تحرر عندما هبت قوات الحكومة لنجدته فى ١٤ مارس ، وهزمت الجيش المتمرد فى أحد أحياء المدينة •

ثم ظهرت بوادر حقة تدل على بدء تحرك الحكومة ، بعد أن استثارت أنباء دحر فصيلة كار فى أكتوبر ١٧٧٣ ، والأخبار المتلقاة من محافظة اورنبوج الملكة كاترين فى نوفمبر ، ونبهتها الى خطورة الموقف • وفى ٢٩ نوفمبر ١٧٧٣ ، عين الجنرال بيبيكوف المارشال السابق فى اللجنة التشريعية لاخماد الانتفاضة ، مع منحه سلطات كاملة للتعامل مع المسئولين العسكريين والعاملين المدنيين فى الكنيسة « تمشيا مع القوانين العسكرية والمدنية القائمة » • وطلب من بيبيكوف أيضا تشكيل مجلس تحقيق لمعرفة سبب التمرد ، وما جرى فيه ، وأصبح هذا المجلس يعرف فيما بعد باسم « المجلس السرى لكازان » •

وبعد أن اتخذ بيبيكوف كازان مركزا لقيادته ، اثر وصوله فى ٢٦ ديسمبر اتخذ خطوات فورية لاعادة توطيد سلطة الحكومة ولاستعادة الروح المعنوية ، وشجع النبلاء على تشكيل عدد من وحدات المتطوعين ، وتسليح ما تحت امرتهم من فلاحين • واقتنعت الامبراطورة بهذه الخطوة ، وبوصفها من «ملاك كازان» أمرت بفرض ضريبة على فلاحى القصر ، وأوفدت ضابطا لقيادتهم • وشاركت جميع الرتب فى الكنيسة بدور فعال فى توزيع بيانات الحكومة ، وانفضح أمر بوجاتشوف ، وزيفه • وما أن وافت نهاية يناير ،

(*)

حتى رأينا الجانب الأكبر من القوات التى وضعت تحت تصرف بيبيكوف تصل وتحتل مواقعها ، وأرسلت فصائل مختلفة لتفرقة المتمردين الذين يعملون بين كازان وأوفا ٠

وفى الوقت نفسه ، انفك الحصار المفروض على مدينة أوفا منذ منتصف نوفمبر ١٧٧٣ ، وشارك ما يقرب من جميع أهل المنطقة من غير الروس فى الانتفاضة ٠ غير أن الفويفود أو المدنيين وقائد القوات النظامية نجحوا فى السيطرة على أعصابهم ، ولجأوا الى تنظيم دفاع فعال ٠ وفى ٢٣ يناير ١٧٧٤ ، شن زاروبين شيكا على رأس اثنى عشر ألف من المقاتلين هجوما قويا ، ولكنه رد على أعقابه ٠ ولجأ المتمردون بعد ذلك الى الحصار ، ثم تراخت العمليات العسكرية خلال شهرى فبراير ومارس ١٧٧٤ ، بينما قام زاروبين شيكا بالتباحث مرارا هو والمدافعون عن أوفا ، وطالبهم بالاستسلام ٠ وفى ذات الوقت ، تقدمت قوات الحكومة تحت قيادة ابن العقيد ميخائيل ــ وهو من المحاربين القدماء فى حرب السنوات السبع ــ وشب القتال بين قادة المتمردين ٠ وفى ٢٣ ــ ٢٤ مارس هزم زاروبين شيكا على رأس جيش مؤلف من (بين سبعة آلاف وعشرة آلاف رجل) فى معركة شرسة جرت بينهم وبين الجنود المحترفين لابن ميخائيل ، ورفع الحصار عن أوفا وقبض القوزاق على زاروبين وليانوف وسلما الى ابن ميخائيل ٠

بقيت بعد ذلك أورنبورج تحت الحصار زهاء ستة شهور ، وكانت قيادة ياتيسك مازالت متحصنة فى قلعتها ٠ واحتد النقص فى الموقعين فى المؤن والعليقة والوقود خلال أشهر الشتاء ٠ وتركزت قوات كبيرة فى المنطقة الواقعة بين بورجوسلان وبوجولمان تحت قيادة جوليتسن لتحرير هذين الموقعين تمهيدا للزحف الى بوجاتشوف نفسه ٠ وصمم قائد التمرد على التوقف فى تاتيشيفو التى تحكم الطريق المؤدية الى أورنبورج والطريق الى ياتيسك ، وحشد لهذه المهمة حوالى تسعة آلاف رجل وستة وثلاثين مدفعا ٠ ولم يتوافر لجوليتسن أكثر من ستة آلاف وخمسمائة جندى وبين اثنين وعشرين وخمسة وعشرين مدفعا ٠ وجرت الموقعة الحاسمة فى ٢٢ مارس ٠ وبعد مبارزة ثنائية بالسلاح الأبيض ، اندفع الجنود النظاميون التابعون لجوليتسن،وأجهزوا على مقاومة المتمردين،وأثبتت قوات المتمردين عجزها مرة أخرى عن الصمود أمام وحدات صغيرة من الجنود المدربين ٠ وتكبد الطرفان خسائر فادحة ٠ فقد فقد جوليتسن مائة وأربعين ، وجرح ما هو أكثر من خمسمائة من قواته ٠ وقتل من بين المتمردين ١٣١ وجرح قرابة ١١٨٠ ممن سقطوا صرعى أثناء مطاردتهم ، وأسر حوالى أربعة آلاف أسير ٠ وهرب بوجاتشوف وقليل من الزعماء الآخرين الى بردا ٠

وتسببت هزيمة تاتيشيفو فى خلق أزمة بين المتمردين. فقد اتخذت الصدارة فى قواته بعض القوات الشديدة المراس من القوزاق فى يايك ـ من المقربين من بوجاتشوف ـ وحلوا محل الفلاحين والجنود فى واجبات الحراسة فى بردا • وفى نفس الوقت ، أسرع آخرون الى نقل أمتعتهم استعدادا للرحيل مما أثار شكوك الكافة من غير القوزاق • وبعد اقتراب قوى الحكومة ، اتضح أن الهروب من المعمعة لن يتيسر لغير من يملكون خيولا. بيد أن القوزاق عندما تخلوا عن الفلاحين المسلحين تسليحا هزيلا، فانهم كشفوا بوعي ، أو بلا وعى عن احتقارهم لمن يحرثون الأرض : « فقد أنكروا اتصافهم بصفة المحارب، ووصفوهم بالمواشى». وفى ذات الوقت نزع كثيرون من القوزاق الى التفكير فى طريقة النجاة ، ودبرت مؤامرة للقبض على بوجاتشوف ، وتسليمه فى الوقت المناسب ، وازداد التوتر داخل بردا • وفى ٢٣ مارس ، غادر بوجاتشوف مقر قيادته برفقة ألفين من الرجال وعشرة مدافع • وفى اليوم نفسه ، دخل الحرس الأمامى لقوات جوليتسن بردا ، التى تفجرت فيها عمليات السلب والنهب والذعر والافراط فى الشراب ووقعت فلول قوات بوجاتشوف الهاربة فى الأسر • وكان من بين الأسرى معظم زعماء « كلية الحرب » والأمين العام بوشيتالين ، وانفك الحصار عن أورينبورج • ففى ١٦ ابريل ، حررت حامية ياتيسك بعد أن كان المحاصرون على وشك الموت جوعا • وبعد أسبوعين ، تطهرت قلعة جورييف عند مصب نهر اليايك وبحر قزوين من المتمردين • ولم يظل المهندس الذى وضع خطة النصر حيا لكى يرى ثمرة عمله • اذ مرض بيبيكوف الذى قاد المعركة بالحمى ومات فى ١٧ ابريل ، وشعرت كاترين باللوعة لموته ، وانتقلت قيادته العسكرية الى العقيد الأمير شيرباتوف •

وقامت البعثة السرية التى عينها بيبيكوف فى الوقت نفسه بالتحرك لمعرفة دوافع التمرد : كيف استطاع بوجاتشوف تسمية نفسه « بطرس الثالث » ؟ وهل هناك أصابع أجنبية وراء ذلك ؟ : فرنسية أم تركية ؟ وما هو مدى مشاركة النبلاء المتعضين و « المؤمنين القدامى » ؟ وكانت البعثة السرية ـ أو بيبيكوف بمفرده ـ مفوضا ـ باصدار أحكام بالموت ، وتنفيذها ، وان كان المتبع فى حالة النبلاء وكبار علية القوم ، احالة أوراق اتهامهم الى الامبراطورة للتصديق عليهـا • وفى الأسابيع الأولى لممارسة البعثـة السرية لمهامها ، كانت تراعى الحرص عنـد تطبيق حق اصدر الحكم بالموت • فشنق أحد العبيد لاتهامه بقتل عشيقته ، وشنق عدد قليل من الجنـود المغول لاشتراكهم فى التمرد ، وحكم على آخرين بعقوبات شتى كالسجن لمدد متفاوتة ، وأطلق سراح العديد من الأشخاص ممن كانوا متورطين جزئيا ، بعد أن أقسموا يمين الولاء للامبراطورة ، واتبعت البعثة السرية الأساليب المعهودة فى انتزاع الاعترافات كالجلد

مثلا ، رغم تدخل كاترين للاقلال من الالتجاء للتعذيب • وكتبت كاترين الى بيبيكوف فى ١٥ يناير ١٧٧٤ : « لست أشك أنك ستلتزم بقواعدى ، وان كانت القسوة ضرورية أحيانا • وأرجو أن تأمر البعثة السرية بالحرص عند اصدار قرارها بتوقيع العقوبة ••• وفى رأيى أن الجندى « س » والجندى « ص » قد جلدا رغم براءتيهما • وأيضا هل هناك حاجة للجلد أثناء اجراء التحقيق ؟ فلقد شاهدت بنفسى عدم اقدام البعثة السرية ـ زهاء اثنتى عشرة سنة ـ على جلد شخص واحد أثناء استجوابه • وكانت كل قضية تصنف وفقا لحالتها تصنيفا صحيحا • ورغم ذلك ، فقد اهتدينا الى معرفة ما هو أكثر مما أردنا معرفته » • هكذا كتبت مرة أخرى فى ١٥ مارس • غير أن كاترين صدقت على أحكام الاعدام ،وبخاصة على الضباط الذين أهملوا فى أداء واجبهم ، وان كانت قد تركت أمر التنفيذ لحصافة بيبيكوف • وتعرض بعضهم للمعاناة والتعذيب (ربما لست مرات أثناء حكم كاترين) ، ولانزال رتبته الى رتبة « نفر » فى الحامية •

وبعد أن تحققت هزيمة قوات الحكومة لجماعات المتمردين المختلفة ، ازداد عدد الأسرى الى حد كبير ، حتى عجزت كازان عن استيعابهم • وفى حالات كثيرة ، خفف قادة وحدات الاغاثة العقوبة فى الموقع الذى حدثت فيه المحاكمة ، ولم يحولوا غير زعماء العصابات الى كازان ، ومنحوا الباقين شهادات بالعفو•وبعد موت بيبيكوف ، ألفت البعثة السرية نفسها بلا سيد، ولديها ١٦٩ أسيرا فى كازان ، وما ينوف عن الأربعة آلاف فى أورنبرج ، وغيرهم كثيرون فى مختلف المراكز • وبعد أن اقتنعت كاترين بقصم ظهر التمرد ، عينت فى ١٦ ابريل الجنرال ششرباتوف للحلول مكان بيبيكوف، بغير أن يتمتع بسلطاته الواسعة • ووافقت على القرار الذى اتخذه بيبيكوف بانشاء فرع للبعثة السرية فى أورينبورج • ووضعت البعثتان السريتان حينذاك تحت سلطة محافظى المدينتين •

ولكن الحكومة تسرعت فى الاطمئنان الى انتصارها • اذ ظل بوجاتشوف مطلق السراح • وبعد أن فقد الأمل فى العمل كعميل لكوبان ، أو حتى لفارس ، تقدم متبوعا بحوالى خمسة آلاف من الباشكير المسلحين تسليحا واهنا بالاضافة الى شرذمة من فلول عبيد المصانع والقوزاق ، من مسبك لآخر ، فى تشكيل دائرى واسع ، مخترقا بشكيريا • وكان بعض الباشكير قد نزعوا بالفعل الى عقد مصالحة مع الحكومة ، وتقديم المساعدات لدوريات الجنود النظاميين • غير أن آخرين من أمثال سالفات يولاييف واصلوا الكفاح لصالح بوجاتشوف أو ربما لصالح فلولهم •• الله أعلم • أما المقدم ميخائيلسون الذى كان يقود فصيلة الحكومة فى المنطقة فقد أقدم على مطاردة بوجاتشوف من مسبك لآخر • غير أن ذوبان الجليد قد صعب مواصلة عمليات الطرفين الى حد كبير • وبعد مطاردة دامت ما يقرب من أربعين يوما ، شعرت قوات ابن ميخائيل بالانهاك ، فاضطر للانسحاب الى

أوفا ابتغاء للراحة ، وتعويض الخسائر • وانتشر الذعر فى سائر أنحاء بشكيريا ، وحتى مدينة أوفا فانها فقدت الاطمئنان الى سلامتها • فلا أحد يعرف أين يوجد بوجاتشوف ؟ وأين سيضرب ضربته التالية ؟ فبعد أن مر مرورا عابرا بأوفا ، اتجه الى الشمال ، وظهر أمام قلعة أوسا فى ١٨ يونيو ١٧٧٤ • وبعد أن حاصرها ثلاثة أيام ، استسلمت القلعة لبطرس الثالث الذى كان يتلقى التحية العسكرية الامبراطورية • وجاءت الخطوة التالية ، وهى عبور كاما للوصـــول الى كازان • والتقت عبيــد المصانع والفلاحون من معسكر التجنيد فى برم للانضمام الى المتمردين الى جانب الكثير من الباشكير ، وتوقف لاشعال الحرائق فى ايجيفسك وفوتكين ، حيث قوبل بالترحاب رغم محاولات المدافعين من الفلاحين وعمال المسابك من العبيد مصحوبا بدق الأجراس ووسط التلويح بالرايات التى تحمل صور الأيقونات • وتقدم جيش المتمردين بلا حول ولا قوة صوب مدينة كازان التى كانت خالية من أية قوة دفاعية •

وكانت مدينة كازان تضم أحد عشر ألف نسمة ، أغلبهم من المغول• وكانت مبنية أساسا من الخشب • اذ كانت حتى قلعتها مبنية من الخشب • وكان الجنرال فون براندت المحافظ المريض على بينة بالأخطار المحدقة به من كل جانب وكتب فى ٢٤ يونيو رسالة عاجلة الى القائد الأعلى فى المنطقة الأمير ششرباتوف يطالب بتعزيزات ، وأوفد رسلا الى جميع الاتجاهات ، ولا سيما الى ابن ميخائيل • واستقر ششرباتوف فى مكانه ــ يعنى فى أورينبورج ــ حتى ٥ يوليو ، غير أن ابن ميخائيل قام بالضغط محاولا عبور كاما ، واعتراض سبيل بوجاتشوف • وكان يأمل فى الوصول الى كازان فى ٨ يوليو أو ٩ يوليو ، ولكن الحاجة الى خوض غمار عدد من الانهار حال دون تقدمه ، فلم يعبر كاما الا فى ٣ يوليو ، بعد أن سبقه بوجاتشوف فى العبور ، وظهر مصحوبا بعشرين ألف من رجاله أمام المدينة • وفى ١٢ يوليــو ، فاجأ هجــوم المتمردين المتشعب فى ثلاثة اتجـــاهات الدفاعات المرتجلة للمدينة ، واكتسحها ، وهربت قوات الحكومة ، وتقهقرت ثانية الى القلعة ، وتحصنت فيها ، وتبع ذلك أحداث سلب ونهب استمرت من الساعة السادسة مساء الى منتصف الليل ، وتبعا لما ذكره أحد المعاصرين: « فقد قتل من يرتدون زيا ألمانيا ، وحليقو الذقون » ، وقبض على النساء المرتديات « زيا ألمانيا » واقتدن الى معسكر بوجاتشوف ، وأطلق سراح جميع سجناء الحكومة ، وكان من بينهم الزوجة الأولى لبوجاتشوف (أى زوجته الحقيقية) ، وابناؤه الذين اقتيدوا الى معسكره ، وشعر « القيصر الزائف » ببعض الاضــطراب • وقــدمت زوجته اليــه على أنها املين بوجاتشوف برفقة أبنائها • وآووا برفقة النسوة اللاتى يتالف منهن حريم بوجاتشوف الى الجناح المخصص لهن • وأشعلت النيران فى تسع نقاط

مختلفة ، وتناثرت الأنقاض في جميع أنحاء المدينة • واستمر النهب والسلب والشراب والاغتصاب الى أن فرق شملهم الدخان المتصاعد من النيران • ودمرت الحرائق ٢٠٦٣ بيتا من مجموع البيوت (٢٫٨٧٣ بيتا) •

وفى مساء ١١ يوليو ، كان ابن ميخائيل على بعد ٦ فيرست من كازان • وبعد أن أراح خيوله زهاء ثلاث ساعات ، استأنف السير في الساعة الواحدة صباحا في ١٢ يوليو في مسيرة ارغامية الى المدينة ، حيث كانت ألسنة اللهب تتصاعد ، ويمكن رؤيتها من بعيد ، وسمع ابن ميخائيل في قرية تسايتسين بأن بوجاتشوف في انتظاره برفقة اثنى عشر ألف رجل • وشن ابن ميخائيل بقواته المنهكة التى لا تزيد عن ثمانمائة رجل هجوما عنيفا ضد مركز التمرد ، الذى تشتت وساده الاضطراب ، بعد قتال دام خمس ساعات • غير أن قوات ابن ميخائيل قد تضعضعت مما صعب مطاردتها للمتمردين •

وفى ٣ يوليو ١٧٧٤ ، دخل ابن ميخائيل كازان ، وبدأ على الفور في حصر المشاركين في عملية السلب • غير أنه لم يكن قد انتهى من تصفية حساباته هو وبوجاتشوف،الذى عاود الهجوم بعدد أصغر فى اليوم التالى ، وهزمته قوات الحكومة مرة أخرى ، ولم يتهيب بوجاتشوف الموقف ، وأعاد الكرة ، اعتمادا على قطيع يقارب خمسة عشر الف رجل ، لا يصح أن يوصف بالجيش • واتجه ابن ميخائيل لمقابلته في نفس البقعة التى التقيا فيها للمرة الأولى خارج المدينة • وأصبحت قوات بوجاتشوف تحارب بشجاعة اليائسين ، ولكن لم تمض أكثر من أربع ساعات حتى خارت قوى رجاله وخسروا ألفى شخص بين قتيل وجريح ، وأسر حوالى عشرة آلاف من كلا الجيشين ، كانوا محتجزين في معسكر بوجاتشوف ، وأطلق سراحهم الآن •

فأين يتوجه بوجاتشوف بعد ذلك ؟ ان التقدم الى نيجينى نوفجورود قد ينقل التمرد الى قلب روسيا والى قلعة العبيد • وشرع قائد موسكو (الأمير فولكونسكى) فى الدفاع عن المدينة والأراضى الزراعية المحيطة بها • والتقى الاعيان وأهل المدينة فى عدد من المدن الصغيرة ، وصمموا على حشد قوات محلية لمواجهة التحدى • غير أن هذا اللقاء لم يتم قط ، بعد أن تحرك بوجاتشوف نحو الجنوب • فهل كان ينوى حقا الزحف الى موسكو ؟ كثيرا ما دار الحديث حول هذه الناحية بين أصدقائه الحميمين ، ويقال انه قد جاء على لسان بوجاتشوف ما يأتى : « لو تمكنت من الاستيلاء على أورنبورج وياتيسك • فاننى سأتوجه بعد ذلك بنفس الخيول الى كازان • وبعد استيلائى عليها ، سأتوجه الى موسكو وبطرسبورج ، وأودع الامبراطورة فى أحد الأديرة ، وسأتعامل مع النبلاء بنفس عملتهم • وهى

خطة لا تبدو عليها أية مظاهر الخطة الحسنة التدبير · بيد أن التقدم نحو موسكو كان عنصرا سيكلوجيا ضروريا فى عملية اضفاء الشرعية على دور بوجاتشوف كبطرس الثالث ، الذى أرغمه الأشرار (*) على التجوال فى بلاد غريبة سنوات عديدة ، وهو يعود الآن لاستعادة عرشه · على العموم ، عندما واجهت بوجاتشوف الهزيمة المحتملة ، فعل ما كنا نتوقعه : آوى الى الأرض التى يعرفها خير معرفة : أرض دون قوزاق ·

وأدى التصميم على الاتجاه صوب الجنوب الى حدوث تغيير فى النواحى التى ركز بوجاتشوف الكلام عليها فى بياناته ، بحيث جعلها تناسب طبيعة المنطقة التى سيجرى عليها تحركاته · فلقد قطعت اتصالاته ببشكاريا (بالرغم من استمرار التمرد هناك) وانقطعت الى حد ما معاونة عمال المصانع له ، ودخل الآن منطقة يقطنها عدد أكبر من صغار الملاك ، الذين لا يملك أى فرد منهم أكثر من عشرين عبدا ، وان وجدت أيضا بعض اقطاعيات كبيرة · وبالمقارنة بالمقاييس المعاصرة ، فان الفلاحين كانوا أيسر حالا نسبيا · غير أن اقتصاد هذه المنطقة كان اقتصاد اعاشة أساسا ، أى لا يعتمد الا فى أضيق نطاق على الصادرات الزراعية والتسويق داخل البلاد·ويغلب على هذه المنطقة طابع الزراعة بالاكراه (**) ، وبالرغم من أن بعض الاقطاعيات كانت تدفع ضريبة سنوية (***) · وكانت المدن أيضا ـ أساسا ـ من المستوطنات الزراعية المنهكة ، التى تتعامل مع الريف تجاريا ، لأن سكان المدن يزرعون المحاصيل التى يقتاتون منها · ولما كانت المنطقة قليلة الكثافة السكانية ، لذا أصبحت ملجأ وملاذا للكثير من المغامرين والفلاحين الهاربين «والمؤمنين القدماء» ، وتضم أيضا من ١٪ الى ٢٪ من صغار الروس والقبائل الوطنية التى لا تعتنق الديانة المسيحية ·

واتجهت المنشورات التى أصدرها بوجاتشوف حينذاك ، وانتقلت من قرية لأخرى بوساطة مبعوثيه الى تحريض الرقيق بالانتفاضة ضد أسيادهم ، والقضاء على نظام الرق كلية ـ والاستيلاء على الأرض ، ووعد « بطرس الثالث » الجديد المؤمنين الجدد بالحرية ومنحهم الصليب القديم وحق اقامة الصلوات ، واطلاق شعورهم وذقونهم ، وبالتمتع بامتيازات القوزاق دوما ، يعنى الاعفاء من ضريبة الدخل « والبدلية » ومختلف الضرائب والاتاوات التى يفرضها عليهم الملاك الأشرار والقضاة الفاسدون· وشجع الفلاحين على القبض على النبلاء السابقين ممن سبق لهم اضطهاد الفلاحين ، ودعا الى قتلهم وشنقهم ومعاملتهم نفس المعاملة غير المسيحية التى

(*) Dvoryane.

(**) Barshina

(***) Obrok.

عاملوا بها الفلاحين • وهب العبيد استجابة لندائه ، وانتشرت أخبار انتفاضتهم من قرية لأخرى ، بعد تأثرهم بمنشورات بوجاتشوف أو بمقابلتهم له • وأحيانا كانت تظهر مجموعات صغيرة من القوزاق فى احدى القرى ، وتشجع الفلاحين على الانتفاضة ضد الملاك • وفى مواضع أخرى ، كان الفلاحون يهبون من تلقاء أنفسهم ، أو بعد تأثرهم بالشائعات ، وبتلقائية تفوق سرعة البرق • وأحيانا كانت جماعات الفلاحين تحوم بعيدا وتزداد قوة وجنوحا نحو التدمير أثناء طوافها ، وتزداد بأسا يشجعها على اختراع قصص بطولية عن المعارك التى خاضتها ضد قوات الحكومة • وفى الحالات التى حدثت فيها الانتفاضة فى موقع قريب من القوات الأساسية لبوجاتشوف كان الفلاحون يصحبون معهم الى مركز قيادته أشخاصا من علية القوم أو كبار الموظفين كى يحاكمهم « الامبراطور » بنفسه• وفى مواضع أخرى ، كانت تجرى أعمال وحشية للتنكيل بالملاك والأعيان رجالا ونساء وأطفالا • ولم ينس المشاغبون الانتقام من القسس والخولية والمقاولين • ومما يثير الاهتمام أن ملاك الاقطاعيات الصغيرة كانوا الأكثر تعرضا للاغتيال ، باعتبارهم أقرب الناس الى التعاقد مع الفلاحين •

وفى ذات الوقت ، كانت قوات بوجاتشوف تتقدم من مدينة لأخرى تاركة آثار الدمار • وفى ٢٣ يوليو ، وصل الى آلاتير ، وقوبل بالترحاب والتعهد له بالولاء ، وأقيمت على شرفه القداسات والمواكب الكنسية • وهنا انتهز الفرصة وزود صفوفه بالمتطوعين والمجندين من بين اللائقين للخدمة • وتكررت نفس العملية فى ٢٦ يوليو فى سارانسك ، حيث تناول بوجاتشوف طعام الغذاء فى دار أرملة فويفودا ، ثم شنقها ! وساعدت بداوة المنطقة ، وانحياز الأهالى الى كلا الجانبين فى هذه الحرب الاجتماعية على زيادة العنف والوحشية • وقبل التمرد ، لم تكن المنازعات المسلحة بين الخصوم والمتنافسين مجهولة • وكانت سلطة الادارة المدنية على الأعيان واهية ، وشعر الرائد « ملين » ، الذى كان مسئولا عن بعض فصائل الحكومة بالانزعاج عندما سمع بعض البلاغات « التى رفض تصديقها » ، عن نزوع بعض النبلاء الى الانتفاع من حالة الفوضى،وقيام كل واحد منهم بتدمير اقطاعية الآخر ، أو شنقهم لأعدائهم • ومن ناحية أخرى ، فان مشهد النبلاء وهم يشنقون ـ بالجملة ـ بعد قطع رؤوسهم وأيديهم وأقدامهم ، قد أثار القوى النظامية وشجعها على المعاملة بالمثل ، فارتكبت عمليات وحشية فظة •

وفى أول أغسطس ، أعلنت جماعة من القوزاق فى سوق المدينة نبأ قرب وصول بطرس الثالث ، وهددت بذبح الجميع كبارا وصغارا بالسيف ، اذا لم يلق الترحاب المناسب بتقديم الخبز والملح • ولقى بوجاتشوف الترحيب المناسب ونهب خزانة المدينة ، وجند مائتين من الرجال بالاكراه •

ولما أدرك جدية قوات الحكومة فى تعقبه ، توقف هو وقواته المؤلفة من تشكيلة متعددة الألوان فى ساراتوف على نهر الفولجا • وليس بالاستطاعة الاتفاق حول عدد القوات التى التفت حوله • اذ تقدرها البيانات المعاصرة بعدد يتراوح بين الثمانمائة وعدة آلاف ، ولكن تسميتها بالقوة المقاتلة كان من قبيل المبالغة • اذ كان قوام محاربيها الأشداء من مجدفى نهر الفولجا ، وبعض العبيد الهاربين ، ممن يعوزهم التدريب الصحيح • واختفى من الوجود الفلاحون الذين تجمعوا للتطوع فى أغلب الأحيان • وتناقص أفراد القوة الأساسية من قوزاق يابيك الى حد كبير عن عددهم الأصلى الذى كان يتراوح بين ثلثمائة وربعمائة ، ولم يعد الجميع يدينون بالولاء « لبطرس الثالث » •

ومن ناحية أخرى ، فان « المدن » التى كان بوجاتشوف قد احتلها مؤخرا ، كانت مدنا بالاسم فقط • أما مدينة ساراتوف فمسألة أخرى ، لأنها كانت من أهم المراكز الحضارية على الفولجا الأدنى ، وعاصمة ادارية للمستعمرين الأجانب • وكانت تضم فى ضواحيها بعض المصانع الصغيرة (للقبعات والجوارب والحبال) • ويبلغ عدد سكانها نحو سبعة آلاف من الكوبتسكى • غير أن المدينة عانت الأهوال بعد أن شب فيها حريق خطير فى مايو ١٧٧٤ ، وتسبب فى تبديد معظم نفائسها ، واهمال تحصيناتها ، بالرغم من أن حاميتها كانت تتألف من ٧٨٠ رجلا •

وتسبب اختلاف الراى بين المدافعين (وكان بينهم شاعر عظيم دفعته الظروف للتورط فى القيام بدور مشين) بطريقة مباشرة فى سقوط المدينة فى ١٦ أغسطس • وعسكر بوجاتشوف خارج المدينة زهاء ثلاثة أيام ، وأقسم جميع الحاضرين يمين الولاء لبطرس الثالث ، وأقيمت القداسات بالكنيسة على شرف الامبراطور ، ووريثه بول وزوجته يوستنيا ، وشنق أربعة وعشرون من الملاك،وواحد وعشرون من موظفى المستشارية،وتواصلت مذابح الرجال والنساء من جميع المراتب ، وحطمت مخازن الدولة التى كانت مشحونة بالغلال والمشروبات الروحية والنقود • وحتى بعد أن بارح المضيف الرئيسى لبوجاتشوف ، فقد استمرت تسع عصابات مسلحة ، تجوب المدينة تنهب وتقتل وتدمر •

وبعد أن هرول بوجاتشوف الى تسارتيسن (**) ، فانه لم يكف عن محاولة الحصول على تأييد دون قوزاق•غير أن الحكومة كانت منذ بدء التمرد متيقظة لهذا الخطر بالذات ، واتخذت خطوات لدرئه • وفى أكتوبر ١٧٧٣،

(*) Derzhavin.
(**) Tsartisyn.

صدرت الأوامر بمراقبة جميع علامات التذمر داخل المعقل ، ومصادرة المنشورات التي يصدرها بوجاتشوف ، وحرقها ، وأصدرت مستشارية الحرب منشورات مضادة تحذر فيها من الأفاق بوجاتشوف ، غير أن الخطر لم تشتد حدته الا بعد أن وصل بوجاتشوف الى المنطقة الواقعة بين نهر الفولجا ونهر الدون • وأصدر بوجاتشوف بيانا في ١٣ أغسطس ١٧٧٤ موجها على الأخص لقوزاق نهر الدون ، ويتضمن اشادة ببطرس الثالث الذى اعترفت روسيا عن بكرة أبيها به امبراطورا عليها • ووعد القوزاق « بالحرية والصليب وبرؤوس الأسلاف العظام وذقونهم وان كان قد استدرك وذكر أن القوزاق قد أصيبوا بالغفلة الآن ، وضلوا السبل ووقعوا فى أحابيل الجنس الملعون للنبلاء ، الذين لم يقنعوا بالاستجابة لرغبة روسيا تسليم المعقل الوطنى للقوزاق الى الفلاحين ، وبذلك يتم القضاء على شعب القوزاق » • وهكذا نادى بوجاتشوف مرة أخرى بالمدينة الفاضلة (اليوتوبيا) التى ستأوى المؤمنين القدماء من القوزاق • ولكن كلماته ضاعت فى أدراج الرياح ، بعد أن صدر منشور يعد كل من يقبض على بوجاتشوف بمكافأة مالية قدرها عشرون ألف روبل ، واستمر معظم أبناء دون قوزاق يدينون بالولاء للدولة • ولعل ما حال دون انضمامهم الى المتمردين عاملان : العامل الأول هو توقيع معاهدة صلح(*) أنهت الحرب مع الأتراك فى ١٤ يوليو ١٧٧٤ ، مما ساعد على توفير قوات قد تستعمل لردع التمرد ، والعامل الثانى ــ الاحجام ــ عن الانضمام الى الجانب الذى بات خذلانه أمرا مؤكدا ، وهكذ فرغم وجود قلة من المتذبذبين أحيانا ممن انضموا الى بوجاتشوف،الا أن أهل دون قوزاق قد استعين بهم ضد قوات المتمردين• ولكن ينبغى ألا ننسى أن أهل دون قوزاق لم تغب عن فطنتهم قط حقيقة بوجاتشوف ، وكانوا يعرفون تماما أنه ليس بطرس الثالث •

وأصدر بوجاتشوف منشورات أخرى • وربما كان مازال يأمل فى اثارة أقرانه من القوزاق • وهذا جانب يكشف الكثير عن الغايات العامة للحركة : « لقد تم القضاء على القانون المسيحى النابع من التقليد العريق لآبائنا المقدسين ، وصدر بدلا منه قانون جديد حافل بالنوايا الشريرة ، واقحمت العادات الألمانية فى روسيا كحلق الذقون • وهى عادة مقززة للغاية ، وغير ذلك من انتهاكات حرمة الايمان المسيحى والصليب المسيحى • وكرر فى هذا المنشور أيضا حكاية سلب عرشه لأنه أدخل الحرية لروسيا (**) لا سيما بعد الاعتراف به حاكما فى كازان وأورنبورج وبين الكالموك والباشكير •

(*) Kuchuk Kainardzhi.

(**) Uchinit, Vo v sey Rossii vol most.

واخيرا وفى ٢١ أغسطس ، ظهر بوجاتشوف فى تسارتيسن • وكان القومندان قد اتخذ بعض الخطوات للدفاع عن المدينة ، واستدعى ألوية دون قوزاق • وكان يتوقع وصـول التعزيزات من الجيش الثـانى فى الجنوب • وعسـكر بوجاتشوف فى تسارتيسن ، ثم تقدم للتباحث مع جماعة من دون قوزاق هرعوا لمقابلته واعترفوا به علنا ، وابتداء من هذه اللحظة ، انتشر الشك بين دون قوزاق ، والمقربين من بوجاتشوف ، وظهر التصدع فى ايمانهم بهذا الافاق • وبدأ فى الانهيار عالم الايمان المعلق ، الذى عاشه الكثيرون بعد أن استمعوا بآذانهم واتخذ البحث عن السلامة الصدارة فى تفكيرهم •

وبعـد تراشق بالنيران ، دام خمس سـاعات بينه وبين حامية تسارتيسن انسحب بوجاتشوف بمحاذاة النهر نحو الجنوب ، وتوقف للنهب من مستعمرة هيرينهوت(*) الألمانية فى ساريبتا • وفى اليوم التالى ، صادر قومندان تسارتيسن قافلة من القوارب المحملة بالنفائس والنبلاء وغيرهم من السجناء • وفى ذات اليوم ، وصـل الى المدينة العقيـد ابن ميخائيل ، الذى كان يطـارد بوجاتشوف بأقصى سرعته • ولم يتوقف الا لاخلاء المرضى واراحة الخيول ، وصحب معه بعض قوقازيى الدون فى الحامية ، ثم أقلع مرة أخرى فى ٢٣ أغسطس • وبعد ذلك بيومين ، حدثت المواجهة الأخيرة • وكان لدى بوجاتشوف نحو عشرة آلاف رجل ، وان كان أكثر من نصفهم من الفلاحين غير المسلحين • وقسم قوته الى ثلاثة أقسام ، وتـولى قيـادة القسـم الأوسط ، واخترق ابن ميخائيل صـفوف جيش بوجاتشوف ، بالرغم من شدة النيران ، وتحولت الهزيمة الى هزيمة منكرة • وحاول بوجاتشوف يرافقه ثلاثون تقريبا من أتباعه عبور نهر الفولجا ، وصحب زوجته معه ، وكانت زوجته الحقيقية هذه المرة •

فأين يذهب بوجاتشوف بعد ذلك ؟ وبعد أن انضم اليه نحو مائتين من قوزاق يابيك ، وصحبته كينزيا ارسلانوف وقلة من المقربين الحميمين ، تخلى عن الفكرة التى راودته قبل المعركة الأخيرة ، بالتوجه الى فارس عبر تركستان حيث يوجد أصدقاء من الخانات ، ورأى عوضا عن ذلك اما التوجه الى أحد المواقع الحصينة(**) أو سيبيريا ، أو الى ما وراء بحر قزوين لاثارة المغول • ورفض قوزاق يابيك التوجه الى جميع هـذه الأراضى الأجنبية (واعتبروا المنطقة التى اقترحها ذاتها من البلاد الأجنبية أيضا !) ، وأصروا على العودة الى يابيك ، وبوجه خاص لأنها تضم بيوتهم وعائلاتهم • وتمشيا مع الدليل الذى قدمه ايفان تفورجوف الذى انضم الى التمرد عند بدايته

(*) Herrenhut.

(**) šaparozhian Sech.

في أكتوبر ۱۷۷۳ ، فانه اكتشف قبل الهجوم على ساراتوف أن بوجاتشوف أفاق ومخـادع • وقـرر الاشتراك مع أحـد قوزاقيي يابيك من المتآمرين الأصليين في تدبير مؤامرة لانقاذ أنفسهم بالقبض على بوجاتشوف،وتسليمه للسلطات ، وانضـم الى المؤامرة نفر من القوزاق الآخرين ، الذين أقنعوا بوجاتشوف بالموافقة على الانتقال الى الاستبس في كالموك وبحيرة التون • وأثناء مسيرتهم استولى القوزاق ، على خيول الآخرين ، الذين لا ينتمون الى القوزاق في الجماعة ، وبذلك أرغموا على التراجع الى المؤخرة ، وسمح لكنزيا ارسلانوف بمتابعة السير معهم حتى لا تستثار شكوك بوجاتشوف، وواصـلت زوجته وابنته (تروفيموت) السـير برفقـة الهاربين • وبعد أن تجاوزوا أوزين ، قبض المتآمرون على بوجاتشوف ، وجردوه من سلاحه • وحاول يائسا الفكاك ، ولكنه قيد بالسلاسل بعد أن فشلت مقاومته : « كيف تتجرأون على رفع أيديكم على امبراطوركم ؟ انكم لن تحققوا شيئا من وراء ذلك ؟ واذا لم أتمكن من معاقبتكم ، فان لدى ولى عهد هو بول بتروفتش ، وهو كفيل بذلك » • هكذا صاح « بطرس الثالث » ، ولكن عملية الاحتيال كانت قد شارفت على الانتهاء • فلقد صمم القوزاق، بعد أن سمعوا بوجود قاض عادل في ياتسيك على تسليم أسيرهم اليه • وهكذا انتهى في ١٥ سبتمبر ١٧٧٤ التمرد على نهر اليابيك ، حيث بدأ •

حاشية ـ الف الشاعر الروسى الكبير بوشكين رواية طريفة حـول هذا الحادث التاريخى الشهير بعنوان « حصار المدينة » • كما يدور موضوع الأوبرا الشهيرة « بوريس جودونوف » لموسورسكى حول نفس موضوع انتحال شخصية الوارث الشرعى لعرش روسيا (أ • ح • م) •

المراجـــع

J. Alexander, Autocratic Politics in a National Crisis : The Imperial Russian Government and Pugachev's Revolt 1775-1779, (1969).

J. Alexander, Emperor of the Cossacks : Pugachev and the Frontier Jacquerie of 1773-1775 (1973).

P. Anderson, Lineages of the Absolutist State (1974).

P. Avrich, Russian Rebels (1600-1800) 1973.

R. P. Bartlett, Human Capital : The Settlement of Foreigners in Russia (1762-1864) 1979.

P. Dukes, The Making of Russian Absolutism (1613-1801) 1982.

P. Dukes, Russia and Catherine the Great : Volume I 1978.

J. G. Garrard (ed), The Eighteenth Century in Russia 1973.

L. Gordon, Cossac Rebellion : Social Turmoil in the Sixteenth Century Ukraine 1983.

J. M. Little, The Service City : State and Townsmen in Russia, 1600-1800, 1979.

W. M. Pinter and D. K. Rowney (eds) Russian Officialdom : The Bureaucratization of Russian Society from the Seventeenth to the Twentieth Century. 1980.

D. L. Ransel ; The Politics of Catherinian Russia : The Panion Party 1975.

الموت كوسيلة للردع : الاعدام العلني في فرنسا

جـون ماكمـانرز

لم تحدث الا قلة من ظواهر المجتمع في ظل « النظام القديم » صدمة للقراء المحدثين مماثلة للصدمة التي أحدثتها العقوبات التي كان توقع في حالات السلوك الاجرامي • ولقد وقعت أحداث كثيرة في جميع البلدان ، وكان بينها مئات الجرائم التي انتهت بتوقيع عقوبة الاعدام ، ولم يكن التعذيب من الظواهر غير الشائعة • ولو أريد فهم لماذا سادت مثل هذه الممارسات ، يتعين على المؤرخين سبر غور التوجهات القانونية والاجتماعية والسياسية والدينية التي أقرت هذه السياسات الاجرامية ، وشجعت على اتباعها •

وساعد البحث والتنقيب على ايضاح جملة نقاط • اذ ظهر وجود مخططات وتدابير فعلية وراء عمليات التعذيب والاعدام • وفضلا عن ذلك ، وبخاصة في حالات الاعدام ، ابتداء من اعلان الحكم حتى لحظة تنفيذه ، بل وحتى عند عرض جثة المدان ، كانت تجرى طقوس علنية ، ساعدت على التعريف بالعواقب الجسيمة للسلوك الاجرامي ، وترسيخ اهمية قدسية النظام العام • واثبت الدور البارز للقسس في مراسم تنفيذ الاعدام اقرار الكنيسة لهذا الاجراء ، والصلة الوثيقة بين النظام العام والنظام الكنسي • وعندما دعي جمهور كبير من غير الصفوة لمشاهدة أحداث تنفيذ الاعدام ، فان السلطات أثبتت بالدليل رضاء الجماهير الواسعة عن القرار القانوني •

وفي منتصف القرن الثامن عشرة اتجه الكتاب المتصلون ببرنامج الاصلاح في عصر التنوير الى التساؤل والاحتجاج على عمليات التعذيب وتنفيذ الاعدام • بيد أن المصلحين انفسهم قد احجموا ـ بوجه عام ـ عن

نقلا عن كتاب Death and the Enlightenment : Changing Attitudes to Death among Christian and Unbelievers in Eighteenth France.

تأليف John Manners (١٩٨١) •

المطالبة بانهاء احكام الاعدام • والأرجح هو نزوعهم الى اتباع اتجاه نفعي يحد من أنماط الجرائم التى يظن أن الاعدام هو أنسب حكم لها • ومن سخريات القدر ، أن نظرتهم القائلة بوجوب اقتصار عقوبة الاعدام على جرائم مثل الخيانة ، قد زودت فيما بعد بأحد المبررات التى ارتكن اليها عند اصدار آلاف احكام الاعدام السياسية التى نفذت أثناء الثورة الفرنسية •

قال بيير باستوريه ـ وهو أحد المحامين المصلحين عند تأمله للعدد الكبير من الجرائم التى تحتمل اصدار حكم بالاعدام : « الويل لأى مجتمع يضم أناسا يشهدون آخرين وهم يموتون،دون أن تقشعر أبدانهم (*) » • وقيل هذا الكلام ١٧٩٠ قبل تحول التحمس للثورة الى شعور بالاحباط ، وعندما كان الرعب مجرد سحابة صيف ، لا تزيد مساحتها عن مساحة كف اليد فى آفاق المستقبل • ووفقا لما قاله باستوريه ، فان تشريعات النظام القديم «قد اشتملت على ما لا يقل عن ١١٥ جريمة أساسية » ، وان كان هناك شعور سوداوى مغلف بمسبحة وطنية يمكن أن يستخلص من النظرة القائلة بأن مجموع عدد الفرنسيين كان نصف عدد الانجليز ، وأن الشعب الهمجى شديد المراس ، الذى يقطن الجزر (الانجليز) كان يمقت الموت ، حتى على أرضه • ففى فرنسا ، فى القرن الثامن عشر ، كانت الخيانة والقتل ، والشروع فى القتل ، وقتل الأطفال ، والاجهاض والسرقة والتهريب ، مع استعمال السلاح ، جرائم تعرض مقترفها لعقوبة الاعدام • والأمر بالمثل فيما يتعلق بأفعال مثل المبارزة وتزييف النقود والشهادة الزور وتزوير الأوراق الرسمية ، وسرقة ممتلكات يتجاوز ثمنها لثمانمائة جنيها ، واقتحام البيوت ، وبخاصة فى الليل ، والافلاس والنصب والاحتيال.واختطاف احدى الوريثات والاغتصاب والزواج بأكثر من واحدة، ان كان قد تم عن طريق التزوير ، والمعاشرة الجنسية لاحدى الراهبات ، أو اعتداء أحد الخدم على سيدته جنسيا ، وبعض الأنواع الداعرة من الزنا ، ومخالفة قوانين الرقابة على الصحف ، والمروق الدينى والشذوذ الجنسى ، وسفاح القربى ، وامتهان وظائف القسس عند البروتستانت • وكانت أحكام الاعدام تنفذ بها علنا ، مع مراعاة الملاءمة بين التوجع فى الموت ، وفداحة الجرم المرتكب • وسن برلمان باريس طقوسا فظيعة فى وحشيتها ، تتبع فى حالة من يرتكب جريمة الاعتداء على شخص الملك • وقد أعيد احياء هذه الطقوس فى كل دقائقها البشعة عند الاقتصاص من دامينس بطريقة الموت البطىء ١٧٥٧ ، لأنه رفع يده فى وجه لويس الخامس عشر ، وفضلا عن ذلك ، فقد حرم أقرباء الخائن من استعمال اسم العائلة ، وتعرضوا للنفى ، ونسف بيوتهم وتحويلها الى أنقاض • وكانت عقوبة

(*) Malheur à la société renfermant les hommes qui en voient mourir d'autres sans frémir. "Pierre Pa toret".

معظم الجرائم الكبرى الشنق • أما جرائم العنف فيعاقب بتمزيق الجانى اربا بوساطة العجلة ، ويعاقب بالحرق مرتكب جريمة دس السم ، والشذوذ الجنسى والوحشية ، وبعض حالات المروق الدينى • وفى بعض الأحيان ، كانت العقوبات تتخذ مظهرا تراكميا • ففى ١٧٨٧ ، عوقب قاتل أقرب الأقربين اليه بقطع يده ، وتمزيق جسمه بوساطة العجلة ، ثم ألقى به فى النيران • وكانت هناك طقوس تخص عمليات التعذيب التى قد تجرى للتحضير لتنفيذ حكم الاعدام • وتتخذ شكل «الاستجواب التحضيرى» (*) لانتزاع الاعتراف بالذنب • أما الاستجواب التمهيدى (**) ، فيرمى الى الحصول على أسماء شركاء الجريمة • وصنفت هذه الطرق الوحشية للاقناع أو التحريض فى درجتين متفاوتين فى الشدة ، الدرجة العادية والدرجة فوق العادية (***) • وطبقا لما تصوره ديدرو (الفيلسوف والأديب الفرنسى) فان عدد الحالات التى صدر فيها حكم الاعدام قد بلغت ثلثمائة حالة فى نهاية النظام القديم • وبالمقارنة لا يعد هذا العدد كبيرا ، كما اعترف ديدرو نفسه ، بطريقة فجة ، لأن هناك كثيرين لاقوا حتفهم اثر اصطدامهم بعربة أو تعرضهم لريح عاتية ، أو معاشرتهم لمومس جنسيا ، وكانت مصابة بمرض خبيث ، أو معالجتهم من قبل طبيب جاهل ــ وربما أيضا من قبل طبيب طاسى • وحتى لو كان ذلك كذلك ، فان هذه الاحصائيات تمثل عددا يثير التقزز وقدرا من الأوجاع يكفى لازعاج ضمائرنا ، وشعورنا بتأنيبها ، عندما نحاول تكوين فكرة نمطية عنها ، تضاف الى تاريخ الأفكار •

لقد كان النظام التشريعى الفرنسى قاسيا ، ولكنه لم يستخف بأرواح البشر • فمن الناحية النظرية ، لم يكن بالاستطاعة التصديق على حكم الاعدام الا اذا كان الدليل قاطعا • فاذا بلغ الدليل حد اليقين ، ولكنه لم يصل الى حد الثبوت الكامل ، فان من حق القاضى فى هذه الحالة توقيع عقوبة أخف ، ووفقا لما ذكره سربيون (****) ، فى تعقيبه الذى نشر ١٧٦٧ ، فان اليقين المعنوى لا يكفى فى حالة القضايا الجنائية ، لأن « اليقين المادى » مطلوب « يعنى شهادة من رأوا الجريمة أثناء ارتكابها » (*****) • والأمثلة التى ذكرها عن نوع الأدلة المطلوبة واضحة الدلالة • بيد أنه من الناحية العملية ، فان الألفاظ الطنانة التى تحتم وجود الدليل القاطع ،

(*) La question préalable.

(**) La question préparatoire.

(***) extraordinaire, ordinaire

(****) Serpillon

(*****) Celle qui dépend des témoins qui ont vu commetre le crime.

يجب أن ينظر اليها في سياق الوسائل المعيارية والاجرائية التى ابتكرت لتحمله الوسائل البوليسية ، التى تفتقر الى الكفاءة ، وليس على أنها قد وضعت لحماية المتهم • فالاستجواب يتم سرا ، ولا يعرف المتهم اى شيء عن التهمة الى أن يواجه بالشهود • ولما كان هؤلاء الشهود قد حددوا اتجاههم بالفعل ، لذا فمن المتعذر على المتهم اقناعهم بالمخطرة وتعريض أنفسهم للأحكام التى تصدر ضده من يغيرون شهادتهم • ويدور دفاع المحامين في عالم بعيد عن الحقيقة من المراوغات التى يتعذر حيالها مواجهه الحجج المؤيدة للاتهام مواجهة صحيحة • ولقـد قيل الكثير من الكلام الذى ارتكن الى سخرية فولتير الوحشية من شذرات الأدلة والقرائن التى تجمع لتكوين دليل صحيح • وربما كان هذا الكلام مجرد لغو غوغائي قانوني ، أكثر من كونه وصفا منصفا للطريقة التى يعمل بها القضاة ، وان كان يوضح أسلوب اتخاذ القرارات في نهاية المطاف وكيفية خضوعه « لأمزجة » القضاة المتأثرة بانحيازاتهم لطبقاتهم وأوساطهم الاجتماعية ، دون أن يرجع ذلك الى أى ابتعاد واع عن النزاهة •

وتتمتع البرلمانات والمجالس السيادية الأخرى ، التى لها حق البت النهائي والكلمة الأخيرة في القضايا التى يترتب عليها صدور أحكام بالاعدام بقـدر عظيم من الحصـافة عند تقرير مدى الألم والخزى الذى يتعين أن يشعر به المجرم عند اعدامه • ورئى أن الشنق (وقطع الرأس بالمقصلة في حالة النبلاء) هو أرحم السبل • أما التعساء الذين حكم باعدامهم باستعمال العجلة ، أو باطلاق الرصاص عليهم فبالاستطاعة تجنيبهم الشعور الكامل بالألم (خصوصا اذا أثبتوا وجود شركاء لهم) اعتمادا على حق القاضى في تحديد الشروط الواجب اتخاذها عند تنفيذ الأحكام•وتثبت هذه الشروط في ذيل الحكم (ولا يطلع عليها أحد غير منفذ الحكم) • فقد يصدر القضاة أوامر مسبقة بالشنق ، وبتنفيذه بعد دقائق معدودة ، أو ربما ساعات ، أو يصدرون تعليمات بالضرب عددا محددا من الضربات • واعتبرت هذه الامتيازات الجائرة جانبا خطيرا من واجبات القاضى • وبقدر ما كان معروفا في علم الاجرام (الكريمنولوجى) في القرن الثامن عشر ، فان المقصود من هذا الاجراء هو أن تكون العقوبة مناسبة للجرم • ولم ينظر للتعذيب •• المشروع على أنه اجراء تعسفي ، ناهيك باتصافه بالسادية • ولقد وضع المحامون قواعد لتنظيم طريقة تطبيق هذا الاجراء • فالاتهـام يحب أن يكون متعلقا بجريمة عقوبتها هى الاعدام ، ويجب أن تكون الأسانيد كاملة ، حتى يكون الاعتراف المنتزع من المتهم اضافة الى الأدلة الثابتة ، وليس جزءا منها • ويجب أن يكون الالتجاء الى الاستجواب مؤيدا بقرار من دار القضاء العالى ، حتى لو كان المشتبه فيه لم يتقدم بأى التماس اليه • ويتعين أن يكون الاعتراف بالذنب ملزما (يعنى ثابتا ثبوتا مطلقا مستندا

الى قرائن قوية) (*) • فمثلا لا يعد اتهام شخص يحتضر كافيا ، واذا كان المشتبه فيه يتمتع بسمعة طيبة ، فان شهادة شخص واحد ضده لا تعد كافية • واذا كانت سمعته سيئة ، فان شهادة شخص واحد ضده تكفى • ولكن يلزم فى هذه الحالة أن يكون هذا الشاهد الأوحد شاهد عيان فعلى ، ومن أصحاب السمعة الأخلاقية الطيبة (فمثلا لاتعد شهادة شخصين شاهدا المتهم وهو يغادر مسرح الجريمة ملوحا بسيف مضرج بالدماء دليلا كافيا ، ما لم توجد أدلة على حدوث تهديد سابق أو تشاجر) • ولا يعرض الفتية الأصغر من أربع عشرة سنة للتعذيب ، ويسمح لمن تجاوزوا سن السبعين ببعض التخفيف لصرامة التعذيب • ويجب حضور الأطباء عملية تنفيذ الحكم حتى يشهدوا اللحظة التى بدأت فيها المراسم البشعة تبتعد عن هدفها الحقيقى ، وأيضا لكى يقدموا ما يخفف النزيف • ولقد حددت مقادير الألم التى ستوقع على الوجه الآتى : فى حالة الاستجواب العادى يوضع أربعة خوازيق بين ألواح الخشب الضاغطة على القدمين • وفى حالة الاستجواب غير العادى ، تضاف أربعة خوازيق أخرى • أما فى حالة التعذيب المائى ، فتسكب ستة مكاييل من الماء خلال قمع لضمان تقاطر المياة بلا زيادة ولا نقصان • ودارت مشاورات حول الاجراءات الوقائية للحيلولة دون اصابة الضحية بالكساح المستديم ، ولكنها لم تسفر عن الاهتداء الى أنسب صياغة منظمة لها • وحددت كل صغيرة وكبيرة فى مواصفات الأصفاد الحديدية ، ومدى احكام حبل المشنقة ، وارتفاع الحمار الخشبى الذى تثبت عليه ألواح التعذيب • ولكن المدهش هو صدور تعليمات من برلمان باريس ١٦٩٧ تنص على استعمال ماء دافىء فى مياه التعذيب ، وأن يودع المتهم زنزانة دافئة نوعا •

وتبعا لقواعد الاجراءات القانونية ، فان الظروف المخففة لا ينظر اليها، الا بعد أن يكون القرار بالحكم بالاعدام قد صدر بالفعل • ومن الميسور اصدار عفو عن الجانى عندما يكون صغير السن أو مسنا ، أو قدمت شهادة باصابته «الخبل» أو اذا ادعى أنه أقدم على جريمته دفاعا عن النفس ، أو تحت ضغط شديد • ويصدر فى هذه الحالة قرار بالعفو(**) معتمد من دار القضاء العالى التى صدقت على الحكم الذى أصدرته المحكمة السيادية •• ومن المستطاع اصدار عفو عام عمن ارتكبوا الجريمة تحت تأثير الهوى ، وان وجب صدور الأمر فى هذه الحالة من وزارة العدل(***) باعتبار هذا الاجراء يحتاج الى تصديق أعلى سلطة لأنه لا يتم العدالة والانصاف بقدر اعتماده على التسامح•وعند الحكم فى الجرائم الخطيرة أو جرائم العنف،كانت

(*) Des preuves presqu complètes et de violentes présomptions.

(**) Lettre de grace.

(***) Grande Chancellerie.

المحاكم تنظر مكرهة في الالتماسات الخاصة بتخفيف الأحكام تذرعا بعجز المتهم ، سواء أكان فتى أو صغير السن ، أو لنقص عقله • ولقد سمحت احدى المحاكم الاقطاعية في النسون ١٧١٨ لفتى في الثامنة عشرة بالافلات من الشنق بعد ارتكابه جريمة قتل نظرا « لصغر سنه الى حد كبير ، ولأنه كان مخمورا عند ارتكاب الجريمة » ، واستبدل حكم الاعدام بالسجن مدى الحياة • وأدانت محكمة الشاتلييه (محكمة القانون) في باريس ١٧٧٨ اثنين ممن تجاوزوا سن الثمانين ، وحكمت بتمزيق أبدانهم تحت العجلة لارتكابهما جريمة القتل • وادان البرلمان في آخر أيامه صبيين ، أحدهما في الخامسة عشرة ، والثاني في السادسة عشرة ، ووقع عليهما نفس العقوبة ، وأمر بحرق فتاة في السادسة عشرة لأنها دست السم لأمها ، وكانت حالات الخبل واللامسئولية بالنسبة للشباب تطبق على نطاق ضيق بدءا بسن السابعة ، ويترك الحكم على من تقع أعمارهم بين السابعة والرابعة عشرة لحصافة المحكمة التي لم تستبعد الحكم مدى الحياة في حالة ارتكاب جرائم العنف • أما فيما يتعلق بالجنون ، فلم يحدث قبل العقد الأخير من اندلاع الثورة الفرنسية ، أن نظر الى هذه الحالة بمنظار الجد ، أو اعترف بأن الجنون مسألة طبية • فقلما راعت وزارة العدل الحالة العقلية لمن أدانتهم من الأشخاص ، اللهم الا اذا واجهتها حالة مثل حالة بيير شارنتون الذى قتل عشيقته ، لأنها ألهته عن أداء واجباته الدينية : « ففضل التضحية بحياتها على فقدان روحه أمام الله » • وفي ٢١٤ حالة من حالات اشعال الحرائق التي نظرت أمـام برلمـان باريس بين ١٧٥٠ و ١٧٨٩ ، طلبت بيانات عن مدى تمتع المتهم بكامل قواه العقلية(*) في ١٧ حالة فقط • نعم لقد أفلت خمسة من الجناة في هذه الحالات من الموت بفضل التقرير الطبي ، وسجنوا مدى الحياة(**) • ولم يلتفت الى دفوع الجنون في حالات ارتكاب جريمة الخيانة أو قتل الأقربين ، واعتبرت ضرورة الردع ذات قيمة أعظم من باقي الاعتبارات ••

ولعل أولوية مشكلة السلام العام هي أفضل مفتاح لتفسير سياسة الحكم بالادانة أو العفو في مختلف البرلمانات ، التي قد يتصرف قضاتها باندفاع هستيري أو يتبعون سياسة ملاينة ربما أضعفت سلطان الأحكام الملكية • فقد تجر جريمة ارتكبها خادم أو كمين ينصب في أحد الطرق العليا ، أو عملية «سحر أسود» تجر في ذيلها أوخم العواقب للأخلاق ، الى حدوث جرائم تخريب واحراق • غير أنه رغم صرامة الأحكام الملكية ، فاننا نرى من بين أربع وأربعين حالة مبارزة عرضت على برلمان باريس

(*) Information de démence.

(**) في سجن Salperiere أو Bicêtre

(١٧٠٠ – ١٧٢٥) أطلق سراح اثنى عشر ، وافرج عن ٢٦ لعدم توافر الأدلة ، وحكم بالادانة على ستة فقط ، ألزم أحدهم بدفع المصاريف، وشنق شبيه للثانى ، ونفى الثالث لمدة تسع سنوات ، وسجن آخر تسع سنوات. ولم ينفذ حكم الاعدام فى أحد منهم . ولم تعتبر حالات الغش والتدليس – عمليا – جرائم كبرى ، بالرغم من اعتبارها كذلك بعد ١٦٧٣ . وكان الكتاب والناشرون الذين يتفادون الرقابة ، يخشون مَن فقدان حرياتهم ، ولكن نادرا ما خشوا تعرض أرواحهم لأى خطر (بالرغم من ظهور تعليمات بعد الاجراءات المرعبة التى اتخذت بعد محاولة دامينس بتوقيع عقوبة الاعدام لطبع أو بيع كتب ضد الدين وسلام الدولة) . وفى حالات القتل ، كانت شهادات العفو تصدر عادة فى حالات مثل اقدام أحد الملاك على التصدى للصوص الليل أو حالات دفاع المرأة عن عرضها ، أو اذا أرغم شاب على المبارزة ، أو وجهت اهانة لأحد الجنود ، أو اذا قتل زوج زوجته اثر ضبطها مضاجعة عشيقها فى الفراش (وان وجب أن تقع مثل هذه الأحداث فى بيت الأسرة ، وليس فى أى مكان آخر) غير أنه حتى اذا تبين أن شهادة العفو قد تم اعدادها ، فان هذا لا يؤثر على صدور قرار الحكم بالاعدام ، لأنه من غير المباح لأحد المساس بسلامة المجتمع ، لأن فرنسا مملكة (من المحظور فيها اطلاقا ارتكاب أى عمل من أعمال العنف) .

وتركزت حجج المحامين على وجوب الحفاظ على النظام . وكانت لديهم أيضا حجة ثانوية ، أو كانت لديهم – بالأحرى – صورة متدرجة من الحجة الأولى أو امتداد لها . وتحدث أحدهم(*) عن الحاجة لتطهير المجتمع، وانتقامه من أية فضائح ترتكب فى حقه ، أو أحداث مدمرة تلحق به . وكتب قانونى آخر ١٧٧٣ عن «الانتقام» المحظور على البشر ، وان كان من حق الملك ومسئوليته بحكم التفويض الالهى له بالسيادة . وبعد ذلك بأربع سنوات ، تحدث قانونى آخر عن ضرورة توقيع العقوبة ، والانتقام لأية جريمة ، اذا رضيت الكافة عن فرضها على المجرم . ورئى أنه ليس كافيا أن يستبصر القاضى بما يمليه عقله وفكره عند اجراء عملية احتساب الرادع . فلابد أن يشعر أيضا بأنه يعمل فى خدمة الثأر الالهى ، ويناضل من أجل ما لحق بالنظام الاجتماعى من انتهاك . فلا يكفى أن يظهر الآثم بمظهر الشخص المرعب ، وأن يتخذ عبرة للمعتدين ، ولكن يجب أيضا أن يرى وهو يصلح خطأه فى مشهد علنى اثباتا لجلال القانون وللحاكم الذى أهانه . وهناك جملة لماحة قالها أحد المشرعين فى معرض دفاعه عن علنية اجراءات المحاكمة وتنفيذ الأحكام : « لابد للمتهمين أن يدينوا

(*) Muyart de Vouglans.

أنفسهم » • و «الاستجواب التحضيرى» ، لا يعنى نظريا التعذيب لاثبات الذنب وانتزاع الاعتراف به • فالمفروض أن هذا الاثبات قد حدث بالفعل عند التيقن معنويا من الجرم• والأصح هو اعتبار الغرض من هذا الاستجواب انتزاع اعتراف شكلى تتطلبه عمليه التعويض عن الخسارة • ولقد شجع أحد الاشخاص المدانين قبل تنفيذ حكم الاعدام عليه باعلان شهادة الموت(*) • فهذه الشهادة شيء والاعترافات المدونة عند الاستجواب شيء آخر • ولا تعد هذه الشهادة وصية أخيرة ، أو شهادة بالمعنى المألوف • فبعد توقيع الموت المدنى(**) عليه فانه ، لم يعد قادرا على التصرف فيما يملك • والاصح هو اعتبار هذه الشهادة مجرد اعتراف شكلى بالذنب تبرئة للذمة (***) • وقد يتخذ هذا الاعتراف الشكل الآتى : سيلتقى قاضى المحكمة برفقة أحد الكتبة والجلاد بالسجين قبل نقله الى ساحة الاعدام ، أو فى احدى المراحل الأخرى ، ثم يستجوبونه بعد أن يقسم اليمين • واذا تطوع بالاعتراف يسجل اعترافه رسميا ، ويختتم هذا الاعتراف بصيغة يعترف فيها المدان بعداله الحكم ، ويطلب المغفرة من الله • واذا رفض اعطاء مثل هذه الشهادة ، تتاح له فرصة أخرى للاعتراف ، عندما يصل الى المشنقة ، ويصرح للكاتب أن يسجل الشهادة آنئذ فى غير حضور القاضى • وغالبا ما يتضمن الحكم بالاعدام نصح المجرم بالاعتذار الكامل (****) ، عندما يكون فى طريقه الى تنفيذ الاعدام ، وقبل أن يصل الى بوابات الكاتدرائية ، أو احدى الكنائس الرئيسية فى المدن ، وهو بين السجناء من ركاب عربة النقل التى تقلهم الى مكان تنفيذ الاعدام ، وظهره ناحية الطريق العام ، ولا يزيد ما يرتديه عن قميص قصير ، والحبل يحيط برقبته ، وهو يمسك بشمعة فى يده ، ويحمل لافتة مدونا عليها طبيعة الجريمة التى اقترفها ، باستطاعته أن يركع ويطلب الصفح من « الله والملك والعدالة » • وربما اتبع نفس هذا الاجراء فى حالة أية جريمة من جرائم العنف ، حتى اذا لم تستحق حكم الاعدام • وأحيانا ، قد تضاف الى هذه المراسم اجراءات مظهرية أبقى تدفع تكاليفها المقاطعة التى ينتمى اليها المجرم ، كاقامة قداس على روح القتيل ، أو وضع لافتة تخلد ذكرى الضحية ، ويدون عليها حكم المحكمة •

ويطلب المدان فى التماس العفو الغفران من الله بادىء ذى بدء ، وهكذا لا يكون قد اكتفى بالتكفير عن ذنبه علنا ، ولكنه يكمل بهذا الاجراء عملية المصالحة بينه وبين خالقه ، التى بدأها — افتراضا — عندما اعترف

(*) Tes'ament de mort. il faut encore que le accusés se jugenl condamnent.

(**) eux-mêmes en quelque sorté — la mort civile.

(***) Par aquit de conscience.

(****) Amende honorable.

للقس فى زنزانته • واذا أصر على انكار ذنبه ، ورفض كتابة التماس العفو ، كان على المعترف له الذى يصحبه فى العربة أن يشجعه على ذلك • ولقد أذاع المصلحون الرد الشجاع الذى أجاب به أحد الخبازين (١٧٧٠) بعد اتهامه خطأ بقتل أمه السكيرة : « هل أنت على استعداد أمام الله لتحمل وزر الاكذوبة التى ترغب منى الاعتراف بها على باب هذه الكنيسة »؟ وبطبيعة الحال ، لم يكن الدين مرتبطا فقط بالتماسات العفو ، ولكنه كان معنيا أيضا بعملية تنفيذ الاعدام بكل دقائقها ، والتى ينظر اليها على أنها صـورة مسـبقة مريعة للموت مصـير كل حى ، والذى سـنلقاه جميعا بلا استثناء ، وعلى قدم المساواة عندما تحين المنية • انها صورة تذكرنا بنهاية كل آثم ، وبضرورة الاعتراف ، ورد الحق لأصحابه ، والتكفير عن الذنب ، والأمل والاطمئنان لغفران من يندم ندما حقيقيا • ومن المنظور الدينى ، ليست الشخصية المحورية فى هذه الدراما هى شخصية الجلاد ، ولكنها شخصية كاهن الاعتراف • وفى فرنسا ، جرت العادة على عدم اقامة صلاة مقدسة على روح المدان ، ويكتفى باقامتها لمن يعرب عن الندم• ويقتصر دور الكاهن على الناحية التعليمية والحث على التقبل الروحى لمغزى العشاء الربانى ويوقف العفو اذا كانت أسماء الشركاء فى الذنب لم يكن لها دور ملح ، وان كان القسس الكابوشين(**) قد أخطأوا فى حق معنى الغفران فى هذه الناحية • وكان كاهن الاعتراف (وفى حالة دامينس وكالاس خصص اثنان لهذه الغاية ، وان كانت العادة قد جرت على تخصيص كاهن واحد فقط) يصحب الضحية الى المشنقة ، ويلازمه حتى النهاية ، ويقدم له الصليب لتقبيله ، عندما تشتد وطأة التعذيب•وقد شددت كتب الاعتراف على الاشادة بامتداد رحمة الله الى ما لا نهاية • فبمقدور أى ندم مخلص حتى عند لفظ الأنفاس الأخيرة أن يحقق المصالحة لأشد الآثمين غواية وافسادا • على أن بعض رجال الدين قد دهشوا لهذا الرأى ، ورأوا أنه من غير المعقول عمليا ، عندما تشتد مرارة الأوجاع التى تحيق بالمتهم عند تنفيذ العقوبة ، أن يتجه انسان بعقله نحو خالقه ، ومن ثم انضموا الى المطالبين بانهاء استعمال « العجلة » فى تنفيذ أحكام الاعدام ، والحطب المشتعل • وكثيرا ما يطالب رجال الدين بالمواءمة بين الممارسة العملية ، والمنطق الصارم لنظرة العقيدة المسيحية الى الغفران • فمهما كانت جريمة الآثم التى اقترفها التائب مقززة ، فيجب أن لا نقتصر على منحه التسامح ، وانما علينا أن نباركه بشعائر (***) كتلك التى نقيمها للمحتضرين • ولقد

(*) Sainte - Omer.

(**) Capuchine . وتعنى اصحاب القلنسوات وكانت احدى طوائف الفرنشيسكان ١٥٢٨ تركتيهـا •

(***) Viaticum.

بينت المنشورات الأسقفية الخاصة بالطقوس فى القرن الثامن عشر لماذا كانوا يرفضون اقامة قداسات فى مثل هذه الحالات ؟ ويرجع ذلك الى القاعدة القانونية التى تنص على تنفيذ حكم الاعدام فى نفس اليوم الذى صدر فيه الحكم ، حتى يحدث أثره الرادع « حتى يتسنى لجسد يسوع الطاهر (*) الاتحاد بجسد سرعان ما سيتعرض لأقصى درجات التحقير » ٠ واتصفت حجة عدم اقامة الطقوس المقدسة بوهنها ، ومن ثم اختفت بعد صدور منشور ١٧٨٨ ٠ فقد حدد حينذاك التأخير لمدة شهر للسماح بالوقت الكافى لاعادة نظر الملك الى القضية ، واحتمال اصدار أمر بالعفو ٠ غير أن القاعدة ظلت بلا تغيير ٠ ورأينا ثلاثة دفاتر تحتوى على قائمة مقدمة للجهة المختصة للاكليروس ١٧٩٩ تتضمن شكايات من تلك البشاعة التى تتعارض والمسيحية ٠

ولم يسع المجتمع الدنيوى ، سواء مثله نقاد الكنيسة ، أو نقاد قانون العقوبات لحرمان الاكليروس من حقهم السوداوى لاحتكار اللحظات الأخيرة من حياة المجرم وهو يتأهب للشنق مع استثناء مفكر واحد(**) ، طالب القسس ، بناء على أسباب دينية فحسب بالتغيب عن مثل هذه المشاهد الفظة ، وقال ان المتفرجين يصبون جام لعناتهم على المجرمين،وكأنهم شركاء للقضاة ٠ بينما يصب المجرم المحتضر لعناته على الله لأنه تخلى عنه (!) وفى واقع الأمر ، فقد كان هناك رد فعل أكثر شيوعا تمثل فى الاعجاب بكهنة الاعتراف الدينى الذين يضطلعون بمثل هذه الواجبات المقيتة ٠ فمثلا يروى أحد الأدباء (***) حكاية عن كاهن يرافق شخصية كالحة نصف مائتة من آثار تعذيب الاستجواب التحضيرى الى المشنقة : لقد رأيته يحتضن الشخصية التعسة بعد أن التهمته الحمى اثر اصابته بالعدوى التى نقلتها اليه الحشرات التى تحفل بها زنزانته ٠ وقلت لنفسى : « باركك الله أيها الدين ٠ فهذا دليل على انتصارك ! » وفى بعض المدن ، توطد هذا الدين بحضور أحد المنتمين الى جماعة اخوان المتوجعين (****) وجماعات التائبين (*****) الذين التزموا بحضور الجنازات ومراسم دفن الموتى ٠ وأقام أسقف ليموج مزادا فيما بين الحاضرين ليلة تنفيذ حكم الاعدام للتسابق على الشرف الجهيم لجمع مخلفات الجثة بعد الشنق أو بعد تمزيقها اربا بالعجلة ، ولفها فى الكفن ٠ وفى اليوم التالى لهذه الليلة الليلاء ، كانوا يتقدمون حاملين للشموع الى موقع تنفيذ الاعدام ٠ وهم يرتدون ثيابهم القرمزية اللون ،

(*) "le corps adorable de Jesus Christ".
(**) Boucher d'Argis.
(***) Restif de la Bretone.
(****) Pentients de la Croix.
(*****) Confererjes des Agonisant.

وقلنسواتهم وزنارهم الأسود • ويحملون بأيديهم مصابيح طويلة من الصليب السوداء المحاطة بتاج من الأشواك • ويتولى سند السجين اثنان من الشماسين يرتديان أوشحتهما السوداء، ثم ينشدون أحد الأناشيد الدينية ويرتلون أدعية أخرى ليسوع والقديسين • وعندما ينتهي كل شيء ، يحملون الجثة المكفنة الى احدى الكنائس(*) • وهناك يهجدون طوال الليل ، ثم يدفنون الجثة فى مقبرة الكنيسة • وهي مقبرة مخصصة للمجرمين وحدهم ، منذ عهد الطاعون الكبير (١٦٣٢) • وتعد هذه الاجراءات الكنسية شهادة على ما يأمله المسيحي ، وعلى التضامن بين جميع المؤمنين في الدراما الكبيرة للخطيئة والخلاص • ولكي يكتمل العرض ، قد يقوم أحد الاخوان الصالحين باصدار تعليمات الى خلفائه بدفنه بجوار المنبوذين ، الذين رافقهم فى آخر رحلات عذابهم •• وهناك كتاب شهير صدر فى عهد التنوير ضد بشاعات قانون العقوبات وافتقاره الى المنطق(**) (١٧٦٤) • وأحدث تأثيرا عارما فى فرنسا بعد ترجمته الى الفرنسية ١٧٦٦ ، كما أحدثت مقالات سيرفان وفولتير اللذين أذاعا معتقدات كتاب بيكاريا على نطاق واسع آثارا مماثلة ، وحدث نفس الأثر بعد انتشار الكتابات الرائقة للمحلفين الذين شجبوا قانون العقوبات • بيد أن المصلح الايطالي والمحامين الفرنسيين قد قبلوا نفس المبدأ النفعي الأساسي • فقد اعتقد بيكاريا أن الحجة المستندة الى فكرة الردع تفي بالغرض ، وقبل الموت كمصير مناسب لمن يهددون الأمن الداخلي أو الخارجي للدولة • ولكنه رأى فيما يتعلق بالجرائم الأخرى، أن أشد الروادع فاعلية هو العبودية الدائمة•فالاعدام القاسي يثير الشعور بالتعاطف على الضحية ، ثم ينسى كل شيء بعد ذلك • أما منظر المستعبد المقيد بالاصفاد ، فيمثل درسا حافلا بالعبر • والواقع أن بيكاريا قدساير مبادىء المذهب النفعي الى أبعد الحدود المنطقية ، فلم يتضمن مذهبه أي اعتراف بقيمة «الاقرار بالذنب» (***) ، وكل ما يقال عن غاية الانتقام أو التكفير • اذ اعتقد أن أهم ما يجب أن يراعى هو ما يحدثه المجرم من دمار في المجتمع • ولم يكترث بما يصيب الشخص المتضرر أو يلحق كرامة المجرم من اساءة ، أو ما قد يحط من جلال الله • وعندما تجاهل بيكاريا هذه الاعتبارات ، فانه يكون قد تصور المجتمع ـ ضمنا ـ قائما على المساواة ، ودنيويا فى طابعه ، وتجاهل المظاهر الغيبية القائمة التي قد تتراءى لنا عندما نتخيل ما يحدث فى مراسم الاعدام الرسمية • ولقد أثبت جان جاك روسو كيف يستطاع نقل هذه المظاهر الغيبية من دساتير البرلمانات الى المدينة الجديدة (التي كان يحلم بها) التي تسودها المساواة،

(*) كنيسة St Cessacteur

(**) كتاب Trattato dei delitti e delle Pene تأليف Beccaria

(***) Amende honorable

والممثلة للارادة العامة ، وحيث لا تستمد قوة الحياة والموت من أى تفويض الهى ، وانما يتم التفويض من كل من ينعم بمميزات النظام الاجتماعى . « وبذلك لا أقع ضحية لأى سفاح،ولكنى سأموت راضيا عندما يحم القضاء». وفوق كل ذلك ، فان السلوك الاجرامى يحمل فى ثناياه وصمة التمرد والخيانة . (وهناك امتداد أكثر اتساما بالروح الشريرة لهذه الفكرة سيجىء ذكره فى الفصل الذى يتحدث فيه روسو عن الدين المدنى) . ويرفض بيكاريا كل هذه الخواطر . فلا أحد قد تعاقد على التنازل للآخرين عن حق التسلط على روحه . فالموت عبارة عن شر يضاف الى باقى الشرور ، ولربما حقق اعدام شخص ما نفعا ضروريا ، ولكنه ليس مستمدا من أى نوع من الرضاء والقبول . انه اجراء من اجراءات الحرب . ولا يدافع بيكاريا فى مثل هذا الرأى عن المبدأ المسيحى الذى يؤمن بقدسية الحياة الانسانية . انه يطالب من يدعون الى ازهاق الحياة أن لا يخدعوا أنفسهم ، ويتناسون مغبة فعلتهم . وهناك اختبار بسيط بالاستطاعة اجراؤه لتقدير مدى الاخلاص فى هذا الشأن : « هل تقبل الاعتراف بالجلاد العام كمواطن خير يشارك فى الصالح العام ؟ أم أنك تقشعر من مجرد وجوده » ! .

وقبل المحامون الفرنسيون بالفعل مبادىء بيكاريا الشهيرة فى العقوبة التى تنص على وجوب اتصافها أولا ـ بالعلنية . ثانيا ـ تنفذ بأقل مظهريات ممكنة . ثالثا ـ أن تنفذ فورا . رابعا ـ أن يكون هناك تناسب بينها وبين الجريمة . خامسا ـ أن تتحدد بمعرفة القانون . ويرجع الاختلاف الى البون الشاسع فى تعريف ما تعنيه الكلمات الآتية : «ضرورة» و «أدنى» « وتناسب » و « تحديد » .وكان مونتسكيو قد امتدح بالفعل اتباع شرط ما يقضى بأن لا يوقع حكم الاعدام فى المسائل التى تمس الدين والأخلاق (فى البلدان الميسورة الحال ، حيث لا تتفاوت كثيرا ثروات الأفراد) . حتى لا يحدث أى اعتداء على الممتلكات ، واتبع روسو معيارا مختلفا : من الخطأ الحكم باعدام شخص ما اذا أمكن ابقاؤه على قيد الحياة ودون تعريض أحد للخطر . ولو طبقت هذه الشروط لما كان من المستبعد أن تحدث تحولا فى تشريعات «العالم القديم» . وشجب فولتير الاجراءات القاسية بلا مبرر ، وسعى لاعادة النظر فى جميع أحكام الاعدام بحيث يترك أمرها لحكمة الحاكم نفسه . وفى ١٧٦٢ ، بدأ حملته ضد مظالم الاجراءات الجنائية الفرنسية ، وتحقق أول انتصاراته فى مارس ١٧٦٥ ، عندما نجح فى رد اعتبار ذكرى كالاس (*) ..

(*) Jean Cala: (١٦٩٨ ـ ١٧٦٥) ، اتهم زورا وبهتانا بانه تسبب فى مصرع ابنه لاعتناقه البروتستانتية . وكان بالنية اعدامه ١٧٦٢ ، لولا تدخل فولتير لدى مجلس مدينة تولوز ، واقتناعهم برأيه .

« الحد الأدنى المناسب للحال » لقد كان من السهل الاصرار على القول بوجود حالات تستوجب اصدار أحكام بالاعدام ، ولكن ما أصعب الدفاع عن بعض الاجراءات الفظة كالتمزيق بوساطة العجلة أو الاحراق · وازدادت الاحتجاجات الحاحا بفضل الدعوة الى اتباع العقل (*) فى الأدب ، الذى أمد الانسانيين فى مباحثهم باكلشيهات أكثروا من ترديدها مثل الاحتجاج على السلوك الوحشى ، ففى ١٧٧٠ ، كان فولتير على استعداد للابقاء على الوسائل الموجعة فى الاعدام . عندما تتبع فى حالات مثل جناية قتل الأقربين والخيانة واشعال الحرائق · وبعد سبع سنوات ، اكتفى بالمطالبة بالاعدام · وقال بوشيه أرجيز (١٧٨١) ساخرا مما يقال عن وجوب مراعاة التدرج فى الحالات التى تستحق التعذيب عند توقيع عقوبة الاعدام· لا شئ يمكن أن يضاف الى عقوبة الاعدام · وقارن بريسو وسائل تنفيذ الاعدام المتحضرة بالوسائل التى كانت تتبع فى مصر قديما عندما كان المجرم يخدر باستعمال البخور ، والعقوبة الحديثة بفرمه باستعمال العجلة الوحشية ، أى الاختراع الوافد من شمال أوربا ، ونقل بطريق مصطنع الى الجنوب الأكثر ارتقاء وتحضرا · وأعتقد أن علينا أن نراعى بقدر الامكان تيسير ميتة الشخص المدان ، وان وجب علينا أيضا جعل الاعدام يبدو أمرا مفزعا فى نظر المشاهدين (**) تمشيا مع ما قاله «مارا» بعد تبنيه نفس المبدأ · وبدأت هذه الدعاية الانسانية الطابع تحدث أثرها · فقبل الثورة، الغى التعذيب ، وألغى تبعا لذلك « الاستجواب التحضيرى » (١٧٨١) والاستجواب الاستهلالى ١٧٨٨ (ومما يدلنا على طابع العصر تخلى القضاة عن الاستجواب التحضيرى ، قبل أن يرخص به فى منشور ١٧٨١ ، ولكنهم لم يتنازلوا عنه تماما بعد ذلك) ·

ومن بين الوسائل العملية لتطبيق المبدأ النفعى عند بيكاريا النظر الى كل جريمة كبرى على حدة — يعنى الى رذائلها ان صح القول — لتقرير هل يعد الحكم بالاعدام رادعا فعالا حقا · واتبع ميرليه هذا الاتجاه فى نظرته الى حالات الفرار من الجيش · وميرليه ضابط محترف محنك · وقد ذكر ذلك فى مبحث نشر ١٧٧٠ ، وانتهز فرصة ازدياد اهتمام عامة الناس بالموضوع بعد ظهور أوبرا لسيدان (***) ، لاقت نجاحا ١٧٦٩ ، وقام مرسييه بتأليف دراما نثرية تدور حول الموضوع نفسه ووصف ميرليه كيف يفرض الجيش عقوباته : فعندما يلجأ الهاربون الى العدو يشنقون ·

(*) Sensibilité.

(**) Rendez affreux l'appareil du supplice mais que la mort soit douce.

(***) Sedaine مؤلف نص اوبرا كوميك فرنسية ، وضع موسيقاها Monsigny (١٧٦٩)، واسمها Le Deserteur.

أما الهاربون العاديون فيقتلون رميا بالرصاص بوساطة فصيلة الاعدام المؤلفة من أقرانهم الجنود • بيد أن الجريمة فى الحالتين واحدة • ولقد تظلم بعض الهاربين من الوسـيلة التى اتبعت فى تجنيدهم كالتعرض للضغوط ، وتقديم الرشاوى لهم حتى يوقعوا على طلبات التطوع ، وكان أغلبهم من الفلاحين الذين لا يؤمنون بشرف الانضمام لصفوف المقاتلين • وكان صغار الجنود هم الذين يفرون دائما ، أى من لم يعرفوا طريق التظلم أو يتمرسوا على الضبط والربط ، والذين ربما حققوا نفعا أكبر اذا أعتقوا وتركوا أحرارا • ويقترح ميرليه عدم اعفاء الفارين من الخدمة بعد انتهاء عقوبتهم ، وأن يرسلوا الى بعض الاصـلاحيات بعد اطـلاق سراحهم ، حيث يقسمون الولاء مرة أخرى ، لبدء عهد جديد فى الخدمة العسكرية • وبعد ذلك بست سنوات ، طرح الأب جوبير (*) مبرراته لما يعود به الصفح من نفع اجتماعى فى معرض تأييده للافراج عن فتيات متهمات بوأد أطفالهن ، وأيد استحقاق هؤلاء الفتيات للموت ، ولكن القضاء عليهن يعنى تدمير حيـاة أشخاص مكتملات النمـو تكبد المجتمع نفقات رعايتهن ونضجهن ، وبمقدورهن خدمة هذا المجتمع للتكفير عن جريمـة قتلهن أطفال لم يكتمل نضجهم • وقال جوبير : ان ما يتماثل مع هذه الحالة فى التبديد والفظاظة الحكم باعدام المهربين ، لأن حياة الرجال أثمن من حياة أفعالهم النكراء • غير أن المبدأ الرائع للنفعية له مخاطره ، فقد لا يحقق دوما نتائج انسانية ، فكما قال مؤلف سويسرى فى كتابه عن شريعة السعادة : « ان ما تلحقه الأمراض الخبيثة من ضرر للدولة فى سنة واحدة يفوق الضرر الذى يلحقها من وراء الجرائم الجسيمة التى تقع فى قرن بأكمله » ، ولما كان ذلك كذلك ، فقد نصح بارسال الشخصـيات اللاأخلاقية التى تتسبب فى تفشى هذه الأمراض الى المشنقة •

ومن بين الوسائل الأخرى لتطبيق مبادىء المذهب النفعى ، والربط بينها وبين التأثير المتصاعد لأتباع مسلك عقلانى فحص تأثير طقوس الشنق على المجتمع بصفة عامة • فلربما كان هناك نفر من الناس فسدت عقولهم ، وانجذبوا الى الاهتمام غير السليم بالعنف بعد تأثرهم بالوسائل القمعية الوحشية التى يتبعها المجتمع ذاته• ان هذا هو رأى لاندرو دمين أوبيك • فلقد حامت زوبعة شريرة من الغرائز الوحشية حول الجلادين العموميين ، مست أحوالهم الخاصة وأحوال أسرهم • فالطلبة الذين يدرسـون علم التشريح قد تجردوا من المشاعر الانسانية من أثر تمعنهم فى التحديق فى جثث المجرمين ، وما يظهر عليها من امارات الشر والذعر التى تطغى على مظهر السكينة الذى يصحب الموت • وتزداد الفظاظة عند السواد الأعظم

(*) Jaubert.

من النـــاس من تأثير مشـاهدة المقصلة وهى تقصف الرقاب ، وســماع صوتها • ويقول لاندرو ان هذا يفسر سر ما تلقاه شرطتنا من عون من عامة الناس • ولو أننا جعلنا القانون الجنائي واضحا وبسطنا صيغته ، وراعينا الاعتدال فى عقوباته ، لما كان من المستبعد تعاون الكافة معنا فى فرض احترامه • وعندما بدأت أول مذابح الثـورة ، تناول أحـد كتاب النشرات القانونية فكرة لاندرو بالتعقيب وقال : « لقد رأينا الجماهير وهى تسبح فى بحار من الدماء البشرية ، فمن أين اكتسبت فكرة هذا الحق المزعوم بالذبح ، اللهم الا اذا كان هذا الحق هو نفسه الذى ينسب للمجتمع » ؟

لقد كان بيرو مؤلف هذه النشرات يرمى بآرائه الى الالغـــاء التام لعقوبة الاعدام ، لاعتقاده أنه من الخطأ بناء على أية ذريعة قتل أحد رفقاء الانتماء الى الجنس البشرى • ولم تتوافر لأى كاتب قبله الشـجاعة التى تدفعه الى مثل هذا الحد من التطرف المنطقى • وقد عبر عن هذا المعنى من قبيــل الزهو ، ولعله أصاب فى رأيه اذا أمكنا استثناء لاندرو أو « مين أوبيك » (*) ، واعتقد حتى أبعـد أصحاب النظريات الانســانيه تطرفا ان هناك جرائم شائعة للغاية تثبت عدم انتماء مقترفيها الى الآدميين • فهم وحوش « ماتت ضمائرهم تماما » ، وبالاستطاعة الخلاص منهم ، وانبعث الفكرة الاساسية للاصلاح المنهج ذاته على وجه التقريب ، الذى نهجــه بيكاريا ، يعنى اقرار استمرار اتباع نظام الحكم بالاعدام ، و ن وجب عدم تنفيذه الا فى الحالات النادرة ، ويمكن الاستعاضة عنه بالسجن مدى الحياة ، وخطرت ببال بعض الفرنسيين قبل أن ينشر بيكاريا مؤلـه فكرة انقاذ الأفاقين الأشداء من المقصلة ، ودفعهم للعمل المنتج الذى يعود بالنفع على الاقتصـاد • ودافع بعض الفرنسيين(**) عن فكرة انشاء ثكنات للمحكوم عليهم بالأشغال الشاقة ، والأشرار الذين أعفوا من حكم الاعدام ، والذين يحملون وصمات فى وجوههم تحول دون عودتهم للحيــاة الطبيعية فى المجتمع ، فالأصلح هو أن نســاعدهم على استثمار جهدهم فى اصـلاح الطرقات أو العمل فى المناجم • ووضع بيكاريا بعض اللمسات على هذا المشروع الاقتصــــــادى لكى يتخذ مظهرا محترما ، وتحمس له ولآثاره الانســـانية ، وحسب أثره الرادع على طريقة المحامين • وتبنى فولتير الفكرة بحماسة ، واستند الى جميع المبررات ، وبخاصــة الاقتصادية :

(*) Maine-au-Picq.

(**) من امثال Lacretelle, Servan Faignel de Villeneuve.

« ان الرجل المشنوق لن يصلح لأى شيء » (*) • وابتداء من ١٧٧٧ ، عمد فولتير الى المطالبة بانهاء الحكم باعدام القتلة • فبالمقدور الانتفاع بجهودهم ، كما أثبتت انجلترا عندما أرسلت المحكوم عليهم بالشنق الى المستعمرات ، وكما فعلت روسيا عندما أرسلت مجرميها الى سيبريا • أما « ديدرو » ، وهو من المساندين الواقعيين للحكم بالاعدام ، فقد اقترح اعفاء الجميع من هذا الحكم ، والاستعانة بهم فى المشروعات العامة ، باستثناء السفاحين الميئوس من اصلاحهم « لأن قتل شخص لا يعد مبررا لقتل شخص آخر » وأجرى حسابا دقيقا لقيمة الكائن البشرى فى تلك الأيام ، التى اشتهرت بسمو أخلاقها : « اننا عندما نحكم بالاعدام على انسان فى الثلاثين من عمره ، فاننا لا نتمعن فيما أقدمنا على فعله • فدا أجرينا حسابا لما حدث سيتضح لنا أن هذا الرجل هو الوحيد الذى سيبقى على قيد الحياة من بين عشرين شخصا ، ان شرائعنا الجنائية لا تعرف أى شيء عن قيمة حياة أبناء الثلاثين من عمرهم » ، وقبل المصلحون الفرنسيون ــ بوجه عام ــ فكرة الاستعاضة عن حكم الاعدام بالسجن مدى الحياة ، ومن ثم رأينا نفرا منهم (**) يحثون على اتباع هذا الرأى (وأضاف « موهو » فكرة شريرة) ، هى اجراء التجارب الجراحية على المجرمين الذين قد يفضلون تشريحهم ــ وهم أحياء ــ مع احتمال الافراج عنهم ، على السجن مدى الحياة ، وأوصى « لاندرو دى مين أوبيك » بالسجن بدلا من الاعدام ، واشترط ، بدافع غلبة مشاعر الشفقة المسيحية ، المعاملة الرحيمة والافراج عند بلوغ سن السبعين • ولاحظ بسذاجة ان هؤلاء الشيوخ البطركة عندما يخرجون من السجن سيكونون أفضل من يقدم نصائح مخلصة للشباب (!) ولت المحامى فازلان (***) (١٦٧٠) انتباه الجمعيه الوطنية « الى جحافل العمال أصحاب النوايا الطيبة الذين سيتوافرون فى حالة الغاء الحكم بالاعدام » « وبذلك يتيسر تحويل أشنع الاساءات الصارخة للنظام الاستبدادى الى مفاخر شرائعنا الجديدة » • وربما بدا من الغريب أن يقنع مفكرو القرن الثامن عشر أنفسهم ــ بكل سهولة ــ بالقيمة الاحتمالية للعمالة عند نزلاء السجون • غير أن نظام العبيد المتبع فى المستعمرات قد عاد بالكثير من النفع ، وبذلك ارتقى مذهب العمل فى مواجهة التبرع بالصدقة ، واعتبر علماء علم السكان تضاعف الأيدى العاملة فى الدولة مقياسا للحكومة الناجحة • فكلما ازدادت فاعلية الوسائل التهذيبية المتبعة فى المعسكرات الحربية والمدارس والمصانع والاصلاحيات ، ازداد الأمل ــ كما يبدو ــ فى احتمالات اعادة التنظيم العقلانى للمجتمع • • • •

(*) Un homme pendu n'est bon à rien.

(**) من امثال Pas'oret, Mirabeau, Boucher d'Agris, Moheau, Brissot.

(***) Vaselin.

وبغض النظر عن تأييد الحكم بالاعدام ، أو الاعتراض عليه ، فقد حدث اتفاق على جعل مصير المجرم من المشاهد التى تعرض على الكافة . ويرجع ذلك الى النظرة التى اشترك فيها الرجعيون والمصلحون معا ، التى ترى العقوبة بمثابة رادع . فما دمنا قد سلمنا بحرية البشر فى أفعالهم ، فلابد اذن من تقييد نظرة الردع بشروط أخلاقية ، لأن اللوم سينصب على دوافع السلوك الاجرامى ، وليس على نتائجه . ولما كان بناء النظام يتصف بالهشاشة ، ولذا فهناك مبرر قوى لاعطاء الأولوية للنتائج ، ولقمع العواقب الخطيرة . وقد شجع المصلحون هذا الاتجاه اعتمادا على تيار فكرى شائع كان يرتاب فى الحرية الانسانية . فلدينا مثلا ديدرو ، الذى اهتم فى مذهبه اهتماما أساسيا بالعوامل الوراثية التى رآها متشابكة الى حد التعقيد هى والمشكلات المتعلقة بحرية الارادة . وهناك أيضا هلفسيوس الذى تركز اهتمامه على التأثير التكيفى للتربية والتعليم والوسط الاجتماعى ، أما لامتريه (*) فقد تصور مصير البشر على غرار تصوره لمصير الخضروات ، أى اعتبره حصيلة بذرة وتربة ، وحسب . ومن ثم بدا له اللص والقاتل الشهير كارتوش « قد خلق لكى يكون كارتوشا » ، وما كان بوسعه أن يغدو شخصا آخر ، وهناك مفكرون من أمثال فولتير وآخرين كهولباخ (**) ، الذى قبل بفتور انهاء المسئولية الأخلاقية بصفة مطلقة . وبقدر قبول هؤلاء المفكرين لأى نوع من الحتمية ، كان من الضرورى أن تجىء تصوراتهم للعقوبة كشىء مصطنع . وقد طرح دالمبير (***) القضية بوضوح فقال : « لو كان الناس أحرارا ، فان العقوبة ستجمع بين ضرورتها وانصافها بالانصاف ، ولو كانوا غير أحرار ستكون العقوبة ضرورية فحسب » . وفى نهاية المطاف ، وربما فى حالة عدم الادانة الأخلاقية ، لابد من الالتجاء الى استئصال شىء ما ، لأن الحاجة ستدعو الى استبعاد بعض الأفراد الناشزين من المجتمع،واذا كان البشر قد أصبحوا على ما هم عليه من تأثير محتمات خفية ، سيحق لنا آنئذ أن نقول لهم عندما لا نرضى عن مسلكهم بأن العقوبة أمر مقدر لهم . واذا قلنا انهم نتاج لعوامل تكيفية قابلة للتعامل معها ــ وهذا هو الاحتمال الأكبر ــ سيتعين حينذاك ضبط دوافع العقوبة ، لانتاج النموذج الاجتماعى الأنفع لاحتياجات حياتنا المشتركة . وهكذا نعود مرة أخرى الى حساب الألم

(★) Julien Offroy de La Mettrie (١٧٠٩ ـ ١٧٥١) عالم الفزياء والفيلسوف المادى مؤلف كتاب Histoire Naturelle de l'âme (١٧٤٥)

(★★) Paul Thiry, Baron d'Holbach (١٧٢٣ ـ ١٧٨٩) من اقطاب المذهب المادى فى عصر التنوير بفرنسا .

(★★★) Jean le Rond d'Alembert (١٧١٧ ـ ١٧٨٣) من فلاسفة التنوير وأحد من اشتركوا فى تأليف الموسوعة الشهيرة .

كما فعل محامو « العهد القديم » ممن اعتقدوا أنهم يتعاملون مع أشخاص يتمتعون بحرية العمل ، وان كنا سنعود بعد ازدياد اتصافنا بالانسانية ، وازدياد مخيلتنا تنورا · وسواء كان الانسان حرا ، أو خاضعا سيكلوجيا للحتمية فان هناك حججا يمكن أن تساق لتبرير مسلك حشود الدهماء ، في ميدان دي جريف ، كما يبين عنـد التحديق في صندوق الدنيا في اليوتوبيا التي ألغت الرق وحققت المساواة (*) وأعطت المشتغلات بالتريكو حق تقرير المصير بالمقصلة ···

ولقد أشار كتاب « التراجم » الى التباين بين معارضة روبسبير لحكم الاعدام قبل الثورة ، ودفاعه عن « الرعب » ، وان كان لا وجود لأى تعارض بين موقفيه · فقد رأينا كيف اعترف بيكاريا بالموت كعقوبة مناسبة لمن يهددون أمن الدولة ، واتبعه في هذا الرأى جميع العتقيين(**) الفرنسيين ، وتماثلوا هم والمحلفون في النظام القديم الذين اعتقدوا أن العقوبة مسألة رادعة أساسـا ، ومن ثم فمن البديهي ـ على ما يبدو ـ القول بوجوب حرمان المتمردين من كل أمل في النجاة بمساعدة أقرانهم من المتآمرين · فالخيانة لن تنجح أبدا ، ويرجع ذلك لأسباب كامنة في معناها ، ولأن الخونة لن يظلوا على قيد الحياة ليروا نتيجـة ما فعلوا وجنوا · وقال سيرفان في هذا الشأن : « ان المشنقة هي سلاحنا الأخير لتخليصنا من المجرمين الأفذاذ الذين لن نستطيع ابقاءهم أحياء وسطنا ، دون تعريض أنفسنا للخطر · ولربما رضى فولتير عن استعمال المشنقة لو أنه أدرك عدم وجود وسيلة أخرى لانقاذ أرواح الأغلبية الساحقة ، وما أشبه هذه الحالة بقتل مسعور · ولقد أباح بريسو وباستوريه الحكم بالاعدام في حالات ارتكاب جريمة الخيانة : « كالتآمر سرا ، والانتفاضات الصاخبة التي تهدد أمن الوطن ، لو ألغى اعدام مثيرى الشغب » ، ولقد قيل هذا الكلام في مشارف عصر جديد ، وكان « العتقيون » من أوائل من تطلعوا لاحداث الاصـلاح على نطاق واسـع ، وعندما كتبوا عن الخيانة لم يكن ما جال بخاطرهم الأقوال المأثورة في تاريخ الرومان(***)التي كان لها الصدارة في دراستهم العليا ، أو حتى شيئا أقل من ذلك ، أى الترجمة الخبيثة لديدرو لهذا القول المأثور ، والتي جاء فيها « أن القانون الأسمى هو القانون الذى

(*) الغها Le Peletier

اشارة الى بعض النسوة اللاتي كن يشتركن النسـاء الثورة الفرنسـية في اعداد قوائم أعداء الثورة ، ولعلنا نذكر مدام ديفارج في قصـة مدينتين لديكنز ·

(**) Abolitionist.

(***) Salus populi suprema lex: (القانون الأسمى هو الذى يحقق صالح الشعب.)

يحقق مصلحة من يحكمون الشعب » ، ان ما كانوا يحمونه ليس بلادهم كما هي كذلك ، ولكنها بلادهم كما ينبغي أن تكون ، وهذا ما زاد من بغضهم للتآمر • وذهب مارا (أحد زعماء الثورة الفرنسية) في سبيل الدعوة ليوتوبيته ، وحلمه بانشاء أمة حرة تسودها المساواة الى حد المطالبه باستبقاء بشاعات المشنقة التي تنسب اليها ظلمات تشريعات « النظام القديم » وطالب بالحكم بالاعدام على من يشرع في اشعال النيران بالسفن أو الترسانات ودور المحفوظات والأبنية العامة (*) ، ان هذه الأقوال البليغة القاتمة ، التي لم يدرك أحد حينذاك دلالتها قد استطاعت بعد ذلك العثور على من تنطبق عليه هذه الكلمات • ولقد كان هـذا الشخص هو الملك بالذات • ولقد انتقلت فكرة قداسة شخص الملوك والتي استند اليها في تبرير حالات التعذيب التي أوردهـا دامينس الى الثورة في التصـور الدستوري « للانتهاكية » (**) • وتزعم مارا المطالبة باعادة تعريفها على ضوء المحاكمات وأحكام الاعدام : « كيف يتعين أن يحاكم الملك السابق ؟ أما الرد فهو ضرورة مراعاة احاطة هذه المحاكمة بمظاهر الأبهة ، مع معاملته بعنف ، والابتعاد عن الأفكار الزائفة الطنانة التي تدعو الى التسـامح والكرم ، والتي يعبر عنها بعبارات ترضي الغرور القومي وتخدعه » ! « وأنه من المؤسف أن نرى كيف اعتمد على الجانب القاتم من فكر بيكاريا وبريسو عن فكرة المثل الأعلى للعبودية ، بدلا من الحكم بالاعدام فيما دار من حوار حول خيانة لويس في عبارات مغلفة بالكراهية في خطب أصحاب السراويل الفضفاضة (***) عن الطغـــاة المعروضين في أقفاص ، حتى تكون عبرة لشعوب أوربا •

وتزايد كشف كتاب عصر التنوير عن درايتهم بالحاجة الى الاصلاح الاجتماعي للخلاص من أسباب الجريمة ، ووجه بيكاريا اللوم الى المغالاة في فرض الضرائب وخضـوع الأسرة الزائد عن الحد لسـيطرة الأب ، وانحياز القوانين •ونسب العنف في المجتمع لجميع هذه الأسباب ، وقال هولباخ : ان الحكومة التي تساعد شعبها على تحقيق السعادة والرخاء لن تحتاج لابتكار عقوبات قاسية للمجرمين • وقال فولتير : « على الأغنياء الذين يسنون القوانين دراسة ما يتعين قيامهم به لمساعدة الفقراء قبل سوقهم للجلاد • فاذا فطنوا الى حاجة الساقطات الى عمل شريف والى مؤسسات ، مثلا ، فان هذا سيحول دون ازهاقهم لأرواح ما ينجبن من أطفال » • وأشار بوشيه دارجيه الى ما هناك من ابتعاد عن الانصاف

(*) "que l'appareil de on supplice soit effrayant, et qu'l en soit témoin lui-même.

(**) Inviolibility.

(***) Sansculotte.

في وصف سرقات الخدم من المنازل بالجنايات الجسيمة ، لأن مثل هذه المخالفات غالبا ما ترجع الى التبـاين بين ما ينعم به الأسـياد من ترف والأجور الهزيلة التى يتقاضاهـا من يعملون فى خدمتهم ، وطالب مارا باجراء اصـلاح يحقق المساواة للمجتمع ، ويطهره من أوصابه ، يعنى باستحداث نظام يحقق المشـاركة فى احتلال الأراضى ، وييسر التعليم للجميع ، ويعنى بالمسنين • آنئذ سيتسنى للمشرع الاستشهاد بروائع مأثورات العهد الكلاسيكى القديم ، وتطبق القوانين التى تثيب الفضيلة بدلا من قمع الرذيلة • وكتب بريسو : « لم يولد الانسان عدوا للمجتمع• ان الظروف هى التى دفعته ، من جراء الفقر والشعور بالاحباط » نعم عليكم بتحقيق المساواة بين البشر فى الثراء والتزام الاعتدال عند فرض الضرائب ، وتعليم الناس الأخـلاق ، وتبسـيط القوانين بحيث يتسنى تجميعها فى مجلد صغير الحجم ورخيص ، يمكن بيعه للكافة كما تباع ، العظات الدينية • وسترون أثر ذلك على السواد الأعظم من المواطنين ، الذين سيرتفع شأنهم ، وسيلتزمون بالقانون • واقتربت بعض صفحات كتاب بريسو فى تحويل مسائل الاجرام الى مسائل تتبع علم الاجتماع ، وعلى الأخص عندما اكتشف حاجة كثير من المجرمين الى اعادة تعليمهم أو العون الطبى ، وقال لامتريه : ان بعض الجرائم الفظة لا يستبعد أن ترد لخلل عقلى (وكان يقصد بذلك المثل الخاص بالمرأة التى قتلت أبناءها والتهمتهم !) ولا يجب أن يتحول القضاة الى محامين ، بل أطباء ممارسين ذوى خبرة (أى مثل لامتريه بالذات) ويعد لامتريه فى هذه الناحية ، وفى النواحى الأخرى أيضا ، اكرم المصلحين الانسانيين ، لأنه رأى جميع المجرمين أشخاصا يعانون من اضطراب عقلى : « الحق أن جميع المجرمين مخبولون • وتتوجب معاملتهم بناء على هذه الصفة من قبل من يتمتعون بالصحة العقلية » ، وبصرف النظر عن جميع هذه الآراء ، فان الردع قد بدا لجميع هؤلاء الكتاب هو الغاية الأولى من العقوبة ، واستمر الحكم بالاعدام فى نظرهم جميعا ــ ما عدا لاندرو ــ سلاحا لا غنى عنه للتعامل مع حالات التآمر ضد الدولة •

فالى أى حد تاثرت سياسة أحكام القضـاة فى البرلمانات والمحاكم بمعتقدات المصلحين فى عصر التنوير ؟ وتمشيا وما ذكره أحد الشهود والمتبصرين من شهود العيان (*) ، فان المحاكم ازدادت نزوعا الى الرحمة فى العقد الأخير قبل ١٧٨٩ • ولعله أصاب فى هذا الرأى ، وان كان من

(*) Pierre-Louis Roederer. (١٧٥٤ ــ ١٨٣٥) السياسى والاقتصادى والمؤرخ والأديب • يقال عنه انه رسم أروع صورة أدبية لهروب العائلة الملكية الفرنسية من باريس ، وما تبع ذلك من قبض عليهم واعادتهم الى مقر دارهم •

الصعب تأييد هذا الانطباع بالاحصاءات الدقيقة المقنعة • فليس بالمقدور تحليل سياسات القضاة بمعزل عن باقي المؤثرات ، لأن السلوك الاجرامي كان يتطور ، ويعرض مشكلات وأخطارا جديدة • ففي آخر سنوات « النظام القديم » قدم للمحاكمة عدد أكبر من المعتدين على القانون ، وتضاعف عدد من دخلوا السجن ، كما يبين من المتوسطات التي تضمنها سجل سجن آكس في بواكير السبعينيات عن عددهم (١٧٥٠) في نورمانديا ولانجدوك • وفي نطاق السلطة القضائية لبرلمانات ليل وفالنسين والفلاندرز ، هناك دليل واضح على حدوث تحول من غلبة جرائم العنف في بدايات القرن الى جرائم الاعتداء على الملكية فيما بعد • وهناك ما يثبت أيضا ارتقاء حرفة السرقة وزيادة تنظيمها وتنوع أساليبها • فلقد ارتقى المجتمع ، وانضباطه ، بفضل تقدم أعمال الشرطة ، وازدياد الوعي بقيمة الملكية • وفي المقابل ، ارتقت الفئات الاجرامية وازدادت كفاية • ولربما حدثت ضغوط ساعدت على الابتعاد عن الأمانة بعد حدوث تفاوت بين العدد المتزايد للسكان وموارد بعض البقاع ، ومن المؤكد أن التشرد قد ازداد ، وتفاقم القلق عند الطبقات المالكة • وفي مواجهة تصاعد الروح الاجرامية وظهور أنواع مستحدثة منها ، اضطر برلمان تولوز الى النزوع الى اتباع الأساليب الصارمة ، بينما جنحت برلمانات شمال فرنسا نحو اللين والترفق • وحكم برلمان الفلاندرز بالاعدام على تسعة وثلاثين من مائة وستين شخصا من المدانين بين ١٧٢١ و ١٧٣٠ • ولكن في الحقبة الواقعة بين ١٧٨١ و ١٧٩٠ ، لم يوقع حكم الاعدام على أكثر من ستة وعشرين شخصا من بين خمسمائة • وزاد برلمان باريس من أحكام الاعدام بين ١٧٦٠ و ١٧٦٢ ، ولكنه نزع بعد ذلك من تأثير تقدم الوعي الاجتماعي في أغلب الظن الى خفض هذه الأعداد بقدر كبير (فلم يتجاوز من صدر حكم باعدامهم ١٧٨٧ سبعة أشخاص) • ومن جهة أخرى ، فقد زج برلمان باريس بعدد كبير من مرتكبي الجرائم الى السجون • هنا بوسعنا أن نفترض وجود نية لمحاولة تطوير الأشغال الشاقة ، بدلا من توقيع حكم الاعدام • وان كان تنفيذ الأشغال الشاقة قد اتصف بالجهامة ، حتى بدا أقرب الى وسيلة بديلة للحكم بالاعدام • فما لم يتمتع الشخص ببنيان متين ، فانه لن يعمر طويلا اذا حكم عليه بالسجن مدى الحياة • فمن بين اربعة آلاف من الجناة في قاعدة مارسيليا ١٧٤٨ ، صدرت أحكام على مائتين تقريبا قبل ١٧٢٠ ، وعلى ما ينوف على ألفين وخمسمائة ، قيدت أقدامهم بالأصفاد الحديدية في السنوات الثماني الأخيرة (ولم يكونوا جميعا ممن يمضون السجن مدى الحياة ، ولكن أغلبهم كان من المحكوم عليهم بالسجن مدة طويلة • ولا يعني انتهاء مدة السجن الافراج الفوري عن

السجين) وليس من شك أن منظر نزلاء اللومان (*) وهم يجرون بسلاسلهم وسط التلال والوديان ، وقصص « الأحيـاء الأموات » الذين ينتظرهم الموت كل لحظة تحت شمس البحر المتوسـط ، كان من الروادع التى لا تتجاوب مع ما قاله بيكاريا وأتباعه ، وتوحى بعدم وجود أى شيء دنس فى بالهم • ففى الحق لم يكن « النظام القديم » قد بلغ درجة من الاقتناع الفكرى تؤهله لتحمل انشاء نظام للعقوبات يجمع بين المظهر الانسـانى والفاعلية ، أو للاقدام على مثل هذه الخطوة • ولعل الأمور كانت ستتجه اتجاها آخر لو أن استراليا وقع بين أيدى الفرنسيين ، ودعا كل من بريسو ولافايت لانشاء شبكة من خطوط السكك الحديدية • فلقد كانت فرنسا عامرة بالسجون ، وكان بعضها أشبه باللوحات الخيالية المخيفـة التى رسمها مصور ايطالى شهير (**) فهناك الزنازن السفلية فى قلعة كان حيث تصاب الأقدام الغارقة فى المياه حتى الكاحل والمقيدة بالأصفاد بالغنغرينا ، ولا ننسى الأقفاص الحديدية فى برلمان باريس التى يعجز أى شخص عن الوقوف فيها منتصب القوام • وربما أمضى سنوات طويلة دون أن يرى الشمس ولو مرة واحدة ، أو دون أن يشاهد نارا أو قسا يعترف له • أما الاصلاحيات (***) حيث تودع النساء مقترفات بعض الجرائم والأطفـال المشبوهون ، لانقاذهن وانقاذهم من مصـير أسوأ قد يحل بهم لو أنهم استمروا فى العيش وسط عائلاتهم ، فكانت أبشع حالا • ومن ظواهر هذه الحقبة الأمر «بالقبض العشوائى» (****) الذى يلقى بموجبه بالشخص وسط الأفاقين الميئوس من اصـلاحهم والفاسقين • وثمـة سجون أخرى اتخذت مظهر الاطلال الرمزية • فهى مزودة بأبواب مفاصلهـا مكسورة ونوافذها خالية من القضبان • ويديرها سجانون سفلة معدومو الكفاية ، ولكن اذا تجاوزنا عن اللومان الذى اقتضت الضرورات التقنية تسخير نزلائه لبعض الأشغال الشاقة ، فاننا نستطيع القول بأن « النظام القديم » لم يعرف نظاما للسجون يسعى لتحقيق أية غاية غير الاحتجاز لفترة زمنية ما ، ولم تتوافر له أية دراية بالوسائل التى يمكن استعمالهـا كبديل للمشنقة •

لقد رأينا نوع الحياة وقيمها عند مصلحى عصر التنوير فى فرنسا • فالى أى حد حاولت تشريعات الثورة وضع معتقداتها موضع التنفيذ ؟ لعل كراسات ١٧٨٩ تزودنا بانطباع يبين لنا الى أى حـد انتشرت هـذه المعتقـدات ، بين الطبقـات المثقفة على أقل تقـدير ، فلقد طالبت بعض

(*) Galériens.

(**) Jean Baptiste Piranesi. (١٧٢٠ ـ ١٧٧٨)

(***) Masions de force.

(****) Lettre de cachet.

الكراسات بانهاء العقوبات القاسية « التى تدفع البشر الى التقزز » ، وبالاقلال من الجرائم الكبرى ، والمساواة بين النبلاء والعوام أمام المشنقة ، ولم تطالب أية كراسة واحدة بالغاء الحكم بالاعدام ، والاقلال من الالتجاء اليه بقدر المستطاع • وتجاوز قانون ١٧٩١ ما جاء « بالكراسات » ، وبدا وكأنه انعكاس معقول للحد الأدنى من القاسم المشترك عند المتحمسين للاصلاح • فلقد اقترح اتباع وسيلة واحدة فى تنفيذ حكم الاعدام تطبق على جميع الطبقات والفئات ، وهى أقل الطرائق قسوة التى عرفها العلم • (ولم يخترع «طيب الذكر» الدكتور جيلوتين آلة التهلكة التى اشتهرت باسمه . ولكنه أشرف على التجارب الشاقة لدحض الظن بأن الرؤوس بعد بترها تشعر بأى ألم) • ورئى أن اتباع اجراءات أقرب الى الانصـــاف ستوفر اطمئنانا أكبر للأبرياء ، وان كان الأمل فى المسامحة والغفران ميئوسا منه ، وهذه مفارقة ! ولم تعد العقوبة تمتد بحيث تشمل أسرة المدان وتطبق فى ناحية التجريد من الممتلكات أو التشهير والحرمان من الحقوق المدنية • ولم يعد الحكم بالاعدام يصدر فى جرائم الاعتداء على الملكية ، أو الأخلاق أو الدين • وظل الحكم بالاعدام ساريا فى جرائم القتل والعنف • واستمرت عمليات تنفيذ الأحكام تجرى علنا ، ويشاهدها المتفرجون • وفوق كل ذلك ، فقد تماثل النظامان القديم والجديد فى اصرارهما على الاشادة بضرورة حماية الدولة ، التى ازدادت قدسيتها الآن ، بعد افتراض رضاء الشعب عنها • واستبقى الحكم بالاعدام فى حالات الخيانة والاعتداء على حياة الرأس الحاكمة ، وأيضا فى محاولات الاعتداء على أعضـــاء الجمعية التشريعية ، ونزوع أى وزير من الوزراء الى نشر قانون لم يجر التصـــويت عليه ، وجباية الضرائب بطريق غير مشروع ، والاتجار بأصـــوات الناخبين للبرلمان ، وسمح القانون بعدم اغلاق باب الرعب •••

المراجـــع

D. Bien, The Calas Affair : Persecution, Toleration and Heresy in Eighteenth-Century Toulouse (1960).

J. A. Cary, Judicial Reform in France before the Revolution of 1789 (1981).

D. D. Cooper, The Lesson of the Scaffold : The Public Execution Controversy in Victorian England (1974).

W. R. Cornish et al, Crime and Law in Nineteenth Century Britain (1978).

R. Forster and O Ranum eds, Deviants and the Abandoned in French Society (1978)..

D. Hay ed., Albion's Fatal Tree : Crime and Society in Eighteenth-Century England (1975).

M. Ignatiff, A Just Measure of Pain : The Peniteentiary in the Industrial Revolution (1750-1650) 1978.

J. H. Langbrien, Torture and the Law of Proof : Europe and England in the « Ancien Regime » (1977).

P. B. Munscye, Gentlemen and Poachers : The English Game Laws

L. Radzinowiz, A History of English Criminal Law and Its Administration from 1750 (4 vol) 1671-1831. 1968.

R. Smith. Trial by Medicine : Insanity and Responsibility in Victorian Trials (1981).

E. P. Thompson, Whigs and Hunters : The Origin of the Black Act 1976.

G. Wright, Between the Guillotine and Liberty : Two Centuries of the Crime Problem in France 1983.

H. Zehr, Crime and the Development of Modern Society : Patterns of Criminality in Nineteenth-Century Germany and France (1976).

وسائل التسويق في السوق الدولية
المحركات البخارية ـ قضية بولتون ووات

جنيفر تان

يحتمل أن تكون المحركات البخارية اهم اختراع ظهر فى الحقبة الباكرة من الثورة الصناعية · فلقد أنتجت مصدرا للطاقة القابلة للتحريك من موضع لآخر ، مما ساعد على انشاء المصانع فى مواقع قريبة من المصادر اللازمة للصناعة والعمالة ، بدلا من نقلها مسافات طويلة · وتيسر أيضا استعمال المحرك البخارى لخدمة مهام شاقة ، متعددة ومتنوعة ·

بيد أن اختراع المحرك البخارى وصنعه لا يمثل الا جانبا واحدا من العملية التى اصبحنا نسميها عملية التصنيع · اذ كان من الضرورى اكتشاف سوق لهذا الاختراع الجديد ، أو خلقها ، فلابد من اكتشاف مشترين له ، ولابد أن تباع المحركات وفقا لشروط توفر الحماية لمصلحة المخترع والمصالح الاقتصادية ، وعندما حاولت الشركة التى ألفها جيمس وات وماثيو بولتون تسويق منتجاتهما فى الأسواق الخارجية بنفس الطريقة المتبعة فى انجلترا ، تمثل الخطر الأعظم فى احتمال تقليد المهندسين الأجانب للمحركات ، واقدامهم على انتاجها بمعرفتهم ، ولذا سعت الشركة لضمان الحفاظ على حقوق امتيازها فى شتى أنحاء أوربا · وبينما سعى وات وبولتون لتامين حقوقهما على هذا الوجه ، قاما أيضا فى ذات الوقت بالبحث عن زبائن مشهورين ، أو يحتلون مراكز مرموقة ، حتى يساعد شراؤهم للمحركات على اقناع الآخرين بالاقتداء بهم ·

واكتشف وات وبولتون ـ مثلما اكتشفت شركات كثيرة تعمل فى المنتجات الثقيلة بعد ذلك بقرنين ـ عدم قدرة المحركات البخارية على بيع

نقلا عن كتاب Marketing Methods in the International Steam Engine Market : The Case of Boulton and Watt.

تاليف Jennifer Tann فى مجلة Journal of Economic-History. الجزء ٢٨ (١٩٧٨) ص ٣٦٣ ـ ٣٨٩ ·

نفسها بنفسها • ومن باب الاغراء بالشراء ، اوفد الشريكان خبراء ميكانيكيين لانشاء محطات فى الخارج لخدمة المحركات ، وصيانتها • واقتضت الضرورة الارتقاء بتقنية اخرى هى عملية حزم ورزم المحركات • واستلزم هذا الاجراء ، الى جانب بيع المحرك ، التعريف بطريقة صنعه ، وعقد اتفاقية لتشغيله وخدمته لمدة زمنية معينة • وحاولا ايضا بيع مصانع كاملة للخارج ، وعلى الأخص طواحين الحبوب ، وآلات سك النقود والميداليات •

وخلقت تقنياتهما المتنوعة سوقا عبر البحار اعتبرها وات وبولتون عظيمة الأهمية ، غير ان القارىء قد يصاب بالذهول عندما يعرف مدى القصور النسبى لهذه السوق ، والندرة الملحوظة للمهندسين المدربين الذين كانت هناك حاجة ماسة اليهم لتركيب المحركات البخارية وتشغيلها ، ويتعين مراعاة العاملين معا عند ادراك مدى ضآلة التوسع فى التقدم فى بداية الثورة الصناعية ، وبطئه الزمنى نسبيا •

سجل جيمس وات امتياز اختراعه المحسن للمحرك البخارى ١٧٦٩ • ولكن وكما هو معروف ، فانه قد افتقر الى رأس المال ، وباقى التسهيلات التى تساعد على استغلال هذا الامتياز • ولم يبدأ التقدم التقنى والاستغلال التجارى لمحركه يحقق غايته الا عندما اشترك معه فى المشروع ماتيو بولتون (١٧٧٥) ، بعد نجاحه فى الحصول على قرار من البرلمان بمد الامتياز حتى ١٨٠٠ • وكانت المحركات الأولى جميعا من المضخات الترددية التى تحرك عمليات الضخ وآلات وأدوات النفخ فيما بعد • غير أن وات اخترع محركا دوارا ، وحصل على امتياز اختراعه ١٧٨٢ بناء على اصرار بولتون حتى يتسنى له تصعيد انتاج محركات المصانع •

واستمر زهاء عشرين سنة من انشاء شركتيهما صنع بعض أجزاء من المحركات الأصغر فى مصنع بولتون فى سوهو ، الذى أنشىء فى ستينيات القرن الثامن عشر ، لانتاج لعب أطفال من الصلب ، وغيرها من المصنوعات المعدنية • أما عمليات السباكة والحدادة الاكبر ، فكانت تتم بناء على تعاقدات فرعية فى مصانع الحديد فى الميدلاند أو فى أماكن نائية فى العراء ، ولم يتمكن بولتون ووات من صنع محركات كاملة الا بعد ان افتتحا مسبكا للمحركات (١٧٩٥ ـ ١٧٩٦) وعلى الرغم من أن نظام العقود الفرعية كان له بعض النفع ، لأنه سمح للشريكين بالعمل اعتمادا على رأس مال صغير ، الا أنه قد حد بشدة من كفاية الناتج • فلم يتسن الا لقلائل من السباكين والحدادين بلوغ المستوى الاسمى من الانتاج الذى يطالب به بولتون ووات • أما من كانوا قادرين على ذلك ، فكانوا منشغلين

بأعمال أخرى تدر عليهم ربحا أوفر من الربح الذين يحصلون عليه مقابل صناعة أجزاء من المحركات · وهكذا فلم يكن من المستبعد أن يؤدى أى ارتفاع بسيط فى الطلب الى الانتظار مدة زمنية طويلة ، والى تأخر الانتاج ثمانية عشر شهرا ، وفى السنوات العشر الأولى لانشاء المصنع تم تجميع ثمانيــة عشر محركا ، من بينهــا ٢١ محركا لكورنوول وأربعــة لخارج انجلترا · وتم انشاء ١٨٧ محركا بين ١٧٨٦ و ١٧٩٥ ، من بينهــا ١٢ لزبائن أو عملاء من خارج انجلترا ، وتزايد الطلب الخارجى ابتداء من العقد الأخير فى القرن الثامن عشر · وفى ١٨٢٥ ، بلغ عدد الطلبــات ١١٠ محركات ، ألغى منها ثمانية طلبات ·

وقبل ١٨٠٠ ، كان بولتون ووات يحصلان على أرباحهما المحلية من استحقاقاتهما مقابل بيع حق تشغيل المحرك ، ومن التزويد بالرسومات ، وبيع قطع الغيار ومن المصاريف الاضافية التى كانوا يفرضونها على القطع التى يسمحون للمتعاقــدين الفرعيين بصنعها · وفى السوق الخارجيــة ، كانت الزيادات فى الشحن تضاف الى مجموع أثمان السلع والخدمات بعد اضافة الاستحقاقات البريطانية · وفى معظم الحالات ، كانوا يحتاجون الى ضامن من لندن ، وابتداء من حوالى ١٨٨٠ ، كانت معظم الطلبات الآتية من خارج انجلترا لمحركات بولتون ووات تقدم ويدفع ثمنها لمكاتب بعض التجار فى لندن وليفربول وبريستول ، وعندما انتهى امتياز وات (وكانت المحركات تنتج آنئذ بالكامل بمعرفة بولتون ووات) ، لم يحدث هبوط فى الأسعار داخل أسواق انجلترا ، كما كان متوقعا ، وتزايد ، بصفة استثنائية اقبال المصانع الكبرى ، أو المصانع التى سبق لها شراء محركات وات قبل ١٨٠٠ ، والتى كانت تسعى لاحلال محركات جديدة محل القديمة أو الاضافة اليها الى جانب المبيعات الأخرى غير الحكومية · واستمرت الأسعار خارج انجلترا مرتفعة أيضا ، أى فى نفس مستواها فى سنوات ما قبل ١٨٠٠ · وفى ١٨٢٥ اتخذت صــناعة محركات وات ومحركات الضغط العــالى أسعارا تنافسية لمواجهة انتــاج فرنسا وبلجيكا وروسيا وألمانيــــا والولايات المتحدة · وابتداء من هــذا التاريخ ، انخفض طلب محركات وات ·

وعندما ألف بولتون ووات شركتيهما ، كان بولتون قد وطد مركزه بالفعل فى تجارة اللعب ببرمنجهام زهاء أكثر من عشر سنوات ، وابان هذه الحقبة ، استطاع انشاء شبكة تسويقية قوامها بعض العملاء الذين يتقاضون أجرا نظير العمل طول الوقت ، وبعض العملاء المستغلين الذين يحاسبون بالقطعة ، وكانت سلع بولتون تباع فى مختلف أنحاء أوربا · ويزوده الوكلاء بمعلومات تفصيلية عن أحوال السوق ، والاتجاهات التى

يحتمل ان تنال الخطوة ، والتغيرات فى « الموضة » ، وما تلقاه سلعة من منافسة من المصانع البريطانيـة ، ومن مصـانع اللعب خارج انجلترا ، وتماثل بولتون هو وودجوود (*) فى ناحية ادراك أهمية الاعلان وسبل اجتذاب الزبائن ودفعهم الى ايثار منتجاته · واستفيد فى الدعاية بتأثير مختلف السلع على أفراد الأسرة المالكـة والنبلاء باعتبارهم القدوة التى اعتاد المجتمع الاقتداء بها · وفى عالم صناعات السلع الاستهلاكية فى القرن الثامن عشر ، كانت المصانع تنتعش وترتقى أو تستمر فى البقاء أو تنهار تبعا لاسلوبها التسويقى · وكما بين ماككندريك وروبنسون ، فان ودجوود وروبنسون قد أدركا الى حد كبير تعقيدات أساليب تسويق السلع ، ورفعا من مستوى أساليب البيع بالتبعية ، ومن ناحية أخرى ، لم تتوافر لوات أية خبرة بالتسويق لا داخل انجلترا ولا خارجها ، ولكن بينما سـاهم بولتون اسهاما هاما فى تكنولوجية صناعة اللعب ، فانه أثبت مهارته كمهندس انتاج ، عنـدما وضع مخطط مصانع سوهو بل وأبدى اهتمامه بالمحرك البخارى ، قبل أن يتباحث هو ووات فى فكرة الاشتراك معه ، الا أنه لم يكن يملك أية خبرة فى الصناعة وتسويق السلع المصنوعة ·

وكانت استراتيجية التسويق خارج انجلترا فى بواكير عهدهـا ، « لبولتون ووات » من الأفكار الملهمة لبولتون ، وأثبتت بعض هـــذه الاستراتيجيات المنقولة عن تجارب تسويق اللعب عدم مناسبتها ، اذ كانت فرصة خلق طلب للطاقة البخارية أقل من فرصـة طلب السلع الشائعة (كاللعب) · وعلى الرغم من كل ذلك ، فان انتشار سلع بولتون ووات فى الدوائر الحكومية وعند النبلاء وعلية القوم داخل انجلترا وخارجها ، قد أوحى باستهواء منتجاتهما لقطاع كبير من الزبائن ممن يتأثرون بناحية الثمن مهما ارتفع ، ويضعون له أولوية متأخرة فى مشترياتهم ، وفضلا عن ذلك ، فقد أدرك بولتون أن فئة الزبائن المشار اليها آنفا ستكون أكثر تقبلا للطلبات التى تراعى فيها ناحية حماية الاقتصاد القومى ، والتجاوب معهـا ·

(١)

انشئت شركة بولتون ووات الاستثمارية بامتياز بريطانى · ولقد صيغت حقوق « وات » بمنتهى الدقة ، وباشراف السلطات القانونيـــة

(*) Josiah-Wedgewood (١٧٣٠ ـ ١٧٩٥) خزاف بريطانى مشهور وصاحب مصانع ما زالت تنتج افضل انواع الخزف فى العالم حتى الآن ·

الانجليزية . وبذلك اتخذت الصدارة في سياسة الشركة الداخلية ، مسألة حماية منتجاتها . ولم تقدم أية مبررات لتعديل هذه السياسة في عمليات التسويق خارج انجلترا ، وكانت المطالبة بشكل ما من حماية الامتياز هي الرد الثابت في معظم الحالات على استفسارات العملاء المتوقعين من خارج انجلترا ، لشراء المحركات خلال الحقبة بين سبعينيات القرن الثامن عشر وثمانينياته .

وجرت أول مباحثات جادة لبيع المحركات في الخارج مع عملاء من فرنسا . وأصر الشريكان على الحصول على رأى الخبراء والاستشاريين (*) قبل التصديق على موافقتهما على الطلبات . واستعان بولتون بالتقنيات البرلمانية البريطانية المؤثرة والمجربة ، فقام بجس نبض المسئولين في الحكومة ، وأحد الكونتات الفرنسيين وصاحب أحد المصارف الباريسية وغيرهم . وساعدت على تدعيم القضية طبيعة الطلبات الفرنسية ، اذ كان أحد العملاء من المنتمين للطبقة الارستقراطية ، وكان الآخر مفتشا في المناجم . أما الطرف الثالث فكان شركة للانشاء مؤسسة حديثا لتزويد باريس بالمياه . وصدر القرار الاستشارى في ابريل ١٧٧٨ . غير أن تنفيذ الشروط تطلب اجراء تجربة لمحرك بولتون ووات على احدى المعدات المستعملة في رصد أحوال الجو ، اما في باريس أو في ضيعة الكونت في نورماندیا . وعندما ألغى طلب الكونت دى هورنفيل ، حصل مفتش المناجم جارى على تصريح باجراء التجربة في منجم الشمال(**) في بريتاني ، بدلا من اجرائها في الضيعة . ووفق على القرار في أكتوبر ١٧٧٨ ، ومنح جارى الحق الأوحد لبيع محركات وات وتركيبها ، بغير موافقة الشريك (بولتون) في مقابل خدماته للحصول على حماية حقوق محركات وات في فرنسا ، بعد الاتفاق على عدم تركيب أية محركات أخرى بغير موافقة الشريك . غير أن اتفاق شركة بولتون ووات وجارى تعرض للانتهاك قبل أن يجف مداده .. عندما قبل الشريكان الانجلبزيان طلبى توريد محركين كبيرين للأشغال المائية في باريس ، وقيل في تبرير هذا العمل انه سيساعد على الدعاية « للمحرك » .

وجاء الرد على القرار بالاستعداد لقبول أدنى عرض . وخلال السنوات الثلاث التالية ، ظهرت بعض امارات الاهتمام . ولكن بولتون ووات لم يتلقيا بعد ذلك أية طلبات من فرنسا ، وخشية احتمال حصول المهندسين الفرنسيين على طلبات لاحقة للمحرك البخارى ، استشار الشريكان

(*) Arrêt de conseil.

(**) Minē dü Nord.

جينيه (*) ، وعملا على توكيد القرار استنادا الى براءة الامتياز • وأرسلت مذكرة الى «جينيه» فى فرساى ، تحمل تبرير بولتون ووات لمطلبيهما اعتمادا على خبرتهما كمهندسين « لأنهما يتصوران أنهما أقدر على المساعدة فى تحقيق ما تريده السلطات الفرنسية فى مسعاهـا لتدعيم الصناعات والأشغال العامة • وجاء رد جينيه مشجعا فى يوليو ۱۷۸۳ ، وفيه يؤكد : أنه قد فوض « للتأكيد لكم بالحصول على أكبر قدر من الحماية فى وزارتنا عندما تحتاجون اليها » (**) • ولكن بعد زيارة بولتون ووات لفرنسا ١٧٨٦ ، توقفت الاستجابة للمطالب مرة أخرى ولم يلتفت اليها •

ولم يحـل سـوء استجابة أسـواق فرنسـا ، دون قيام بولتون ووات بمحاولات أخرى للحصول على امتيازات فى أسواق أخرى خارج انجلترا ، ولقد استحوذت فكرة وجوب الحصول على الحماية على أمخاخهم حتى تصورها الموظفون فى سوهو (مقر الشركة) كسياسة لا تتزعزع • وعندما فعلوا ذلك كادوا يفقدون عميلا روسيا ذا مكانة مرموقة • وعندما أقدم فان ليندر من روتردام على محاولة للتعاقد مع بولتون ووات ۱۷۸۳ ، استشار بولتون شريكه وات متناسيا روح الزمالة فى المعاملات : « أعتقد أن أفضل رد يمكن الاجابة به هو أن تخطره أننا غير متلهفين على شرف الحصول على ميداليات ذهبية أو على ذيوع صيتنا فى الجمعيات الفلسفية • اننا لن نكتفى بمجرد الدردشة ، ولكننا سنقدم على تنفيذ شىء فعلى ، شريطة حصـولنا على امتياز قاطع فى طول البلاد وعرضها » ، وبدأت المفاوضات فى ١٧٨٥ مع فان ليندر للحصول على امتياز باسم الجمعيـة الباڤارية لصالح بولتون ووات • ومنح الامتياز لمدة خمس عشرة سنة فى يناير ١٧٨٦ •

وكان ما ساعد على منح الشريكين امتياز الحماية خارج انجلترا هو اتصالات بولتون الدولية التى وثقت صلته بعملاء المصنوعات المعدنيـة والتجار ، واللقاءات الاجتماعية التى جرت أثناء زياراته لأوربا • وساعد على ذلك أيضا وجود معجبين « بوات » من أعضاء الجمعيات العلمية الدولية والعلماء والفلاسفة ممن لم تدفعهم الحدود الدولية الى التعصب ضد أى شخص غريب عنهم ، فمثلا قام ماجيلان ، الى جانب نهوضه بدور الوسيط بين بولتون ووات من جهـــة ، وهيرونفيل وجينيه من جهـــة أخرى فى المباحثات الفرنسية بالدعاية لهما فى البلدان الواطئة الخاضعة للحكم النمسوى • وحاول الحصول على طلب حكومى لتوريد محركات ، وسأل

(*) Genet.

(**) Je crois être autorisé à vou assurer que vous trouverez la protection la plus signaleé dans note Ministere lorsque vous en aurez besoin.

الشريكين : « هل ما زلتما فى حاجة الى امتياز احتكارى فى هذا البلد ؟ » ، ولكن لا شيء قد تحقق من ناحية المطلب أو الامتياز • وبعد أربع سنوات ، بدأت المفاوضات للحصول على امتياز فى اسبانيا • وكما حدث فى فرنسا مع جارى ، فان مانح الامتيـاز والعميل الأول دون باسكوالى منسا اى مارش (*) قد كوفىء باعطائه امتيازا احتكاريا لبيـع محركات بولتون ووات • ولكن بينما ساد الكثير من الاهتمام بمحركات وات على المستوى الحكومى فى فرنسا ، فاننا نرى « منسا » يخشى من عدم الاكتراث فى اسبانيـــا : « لأنه فى الوقت الحاضر مازال لا يوجد أحد يعرف أهمية محركاتكما أو فائدتها ••• » وفى التو ، أرسل بولتون مذكرة الى ملك اسبانيا شرح فيها موضوعه طالبا منح الامتياز لمدة عشرين سنة ١٧٩٠ •

وألزمت شروط توريد المحـركات لاسبانيا بولتـون ووات بتوريد المحركات بأسعار محددة متفق عليهـا ، وبتقديم النصيحة حـول طريقة استعمال القوى البخارية ، والتزويد برسومات للتوربينات وتقديم عمال ميكانيكيين وشحن البضـائع • ووافق الوكيل المعتمد على عـدم صنع محركات أو شرائها من أى مورد آخر • ورئى أن يتحمل الوكيل ما تستطيع السوق الأسبانية تحمله ، ولكن قبل أن تتم الاتفاقية ، تلقى بولتون ووات طلبا مستقلا بتوريد محرك آلة نشر للخشب من أسبانيا • وثار جدل طويل لأن الحجم المطلوب يتجاوز بكثير الأحجام المنصـــوص عليها فى التعريفة الأسبانية ، ولعدم التصديق على اتفاقية احتكار الوكالة لاستيراد المحركات ، ووافق بولتون ووات على هذا المحرك ، مثلما حدث فى حالة الأشغال المائية فى باريس •

ودارت المفاوضات أيضا فى النمسا مع صاحب الامتياز الاحتكارى لانشاء محركات بخارية فى الامبراطورية النمسوية (**) • وأشار بولتون ووات ببقاء الامتياز باسم كمبلين ، وبتوريدهما المحركات البخارية وفقا للتعريفة الثابتة • وعلى الرغم من احتمال حصول بولتون ووات على بعض المميزات ـ وان كان هذا لم يكن مؤكدا بأى حال ـ الا أن الأرباح التى كان من المنتظر أن يحققها فون كمبلين كانت ضئيلة ، وكما حدث فى حالة الامتيازات التى اقترحت فى وقت أبكر فى بروسيا ـ وعلى ما يحتمل فى ايطاليا ـ فان الاتفاق لم يتم •

وحاول بعض الرواد الأوائل للقوى البخارية فى الولايات المتحدة الحصول على شكل ما من حماية الدولة ، أو الحماية القومية لمصالحهم •

(*) Mensa y March.

(**) W. Von Kempelin.

ففي ١٧٨٨ ، أجرى جيمس رامزاى مشاورات هو وبولتون ووات قبيل تقدمه بطلب للحصول على امتياز في الولايات المتحدة • وتمركزت الشروط موضع البحث على عبارة تنص على الاقتصار على توريد بولتون ووات المحركات لرامزاى ، وأن يعمل على الحيلولة دون اقدام أى شخص آخر على صنع محركات في الولايات المتحدة ، وجرت محاولة للوصول على امتياز في الولايات المتحدة ، يشترك فيها بالاسم كل من بولتون ووات ورامزاى • على أن يدفع الطرف الأول ثلثى الثمن ، وتقسم الأرباح بالتساوى ، ويحصل رامزاى على الثلث الى جانب جميع الأرباح المكتسبة من محركات السفن البحرية • غير أن رامزاى اعتبر الشروط المقترحة مقيدة الى أبعد حد ، واعتقد أن الأسعار التى يطالب بها بولتون ووات مبالغ فيها • ولم يتحقق أى اتفاق •

ولم يتصف أى امتياز أو اتفاق بالارغام ، من الناحية العملية ، كما كانت الشروط الأمريكية للاتفاق غير قابلة للتنفيذ • وكان بالمقدور المحاجاة بالقول بأن الحماية التى يطالب بها بولتون ووات بعيدة عن الواقع الى حد كبير ، ولن يستطاع اكسابها الفاعلية الا في جو تسوده الثقة المتبادلة ، وتعرضت هذه الحالة لصعوبات جمة داخل السوق الداخلية ناهيك عن امكان تقبلها خارج انجلترا ، وكما لاحظ بولتون فيما يتعلق بالاتفاقية النمسوية المقترحة : « عندما يتخذ شخص ما شريكا ، فانه يظن أن في مقدوره جره الى التهلكة ، ومن ثم فبالاستطاعة تشبيه مثل هذه الشركة بعملية الرواج ، من حيث تعرضها للخطر » •

ويكمن وراء المطالبة بالحماية في الأسواق الأجنبية افتراض احتمال أن لا تكون المبيعات خارج البلاد مجزية • وعقب بولتون فيما يتعلق بصفقة المحركات البخارية الأسبانية بأنه يحتاج الى امتياز أو مكافأة تقدر بزيادة ألف جنيه على كل محرك • ولابد أن الشريكين كانا يأملان من وراء الامتياز الحصول على المزيد من الطلبات • غير أن هذا التصور قد اتضح أنه تفاؤل لا يستند الى أى أساس • فلم يتلق بولتون ووات الا القليل من الطلبات بعد الاتفاق الفرنسى • وسرعان ما قامت المصانع المحلية للمحركات بسرقة أسرار اختراعهما • ومع هذا فقد جدا في السعى للحصول على الحماية في الأسواق الأجنبية الأخرى حتى ١٧٩٠ • وفيما بعد تأكد عدم جدوى حماية محركهما في الخارج ، بعد الصعوبات التى تعرضا لها في سبيل حماية اختراعهما حتى في انجلترا ، وهكذا سرعان ما وهن اهتمامهما بالامتياز الأجنبى •

ولقد حصل بولتون ووات على شكل ما من الحماية (*) فى ثلاثة بلدان خارج انجلترا (فرنسا وأسبانيا والبلدان الواطئة) ، ودارت مباحثات حول الشروط فى أربعة بلدان أخرى (بروسيا والبلدان الواطئة الخاضعة للنمسا والولايات المتحدة وايطاليا فيما يحتمل) ولم تكن الحماية ، حتى عندما تحققت ، جامعة مانعة ، وشرعت المصانع فى انتاج محركات عن طريق القرصنة فى فرنسا دون أن يعترض أحد سبيلها • واذا رئى أن الهدف الأول كان ضمان التسويق خارج انجلترا ، سيصبح القول آنئذ باخفاق السياسة المتبعة ، لأن عائدها لم يزد عن طلبات قليلة أثناء فترة الامتياز • وحقق قبول بولتون لطلب كبير من كل من فرنسا واسبانيا ، مع تخطى وكالات المبيعات التى حددتها سوهو فى هذه البلدان أرباحا فى المدى القصير ، ولكنه لم يحقق أى ربح للوكلاء يدفعهم الى السعى للتقدم بطلبات أخرى ، ويتساوى هذا الفعل هو والاعتراف بعدم توقع أن يحقق احتكار حقوق البيع أى تعزيز لمصالح بولتون ووات خارج انجلترا ، وأنه قد قدم كمجرد مكافأة على الامتياز • غير أن بولتون ووات لم يتكبدا أى نفقات لتحقيق الحماية خارج انجلترا ، ومن ثم فانهما لم يخسرا أى شيء فى محاولتهما الحصول على احتكارات ، ومن المؤكد أن سعيهما للحصول على الامتياز قد ساعد على نشر الدعاية لمحركات وات ، واذا نظر اليها على هذا الوجه سيكون من الميسور اعتبار مفاوضات الامتيازات شكلا ملهما من أعمال الدعاية والاعلان •

(٢)

زهاء عشر سنوات من المشاركة بين بولتون ووات ، كانت القوة الدافعة لوات وراء جانب كبير من السعى للبحث عن أسواق خارج انجلترا ، وزيادة المبيعات ، وان وجب علينا أيضا أن لا ننسى دور ممثلى المصالح الأخرى لبولتون • فلقد كلف القائمون بالأعمال الكتابية والوكلاء المتجولون من شركته الخاصة بالمصنوعات المعدنية والبيت التجارى ، بالنهوض بمهام خاصة بتسويق المحركات دون تقاضى أى أتعاب من شركة محركات « وات وبولتون » • فقام على سبيل المثال أحد الوكلاء أثناء زيارته لروسيا ١٧٧٧ بتوزيع بعض النشرات الدعائية لمحرك بولتون ووات فى البلاط الروسى • غير أنه أخطر « بعدم جدوى هذه الأشياء فى هذا البلد •• بالنظر الى أن أحد الأهداف وراء محركك توفير العمالة •• والعمال (فى روسيا) جميعا من العبيد ، ومن ثم تكون الميزة غير ذات موضوع » • وأعطيت لوكيل آخر كان يوشك على السفر الى ألمانيا والبلدان الواطئة

(*) Coverage.

١٧٨٧ ، توجيهات مماثلة ، وقدم بعض المتصلين الآخرين بعالم التجارة والسياسة خدماتهم لبولتون اعتمادا على دوافع وطنية ، فمثلا تطوع اللورد ماكرتنى بالدعاية لمحركات بولتون فى الصين ١٧٩٢ ٠

ومع هذا فقد استطاع بولتون ووات تحقيق أول مبيعات لهما خارج انجلترا ١٧٨٦ ، ووجها جهودهما الى فرنسا ، باعتبارهـا سوقا واعدة بأفضل المغانم ٠ وفى هذه المناسبة أيضا ، أدت المصالح التجارية الأخرى لبولتون دورا هاما ، فعلى سبيل المثال فانه كلف من قبل الحكومة الفرنسية بالتوصية باجراء تحسينات كبيرة فى أحد مصانع اللعب الفرنسية (*) ، وبذلك تحقق له الاتصال والاقتراب من الوزراء المهمين ٠ ووفقا لما ذكره وات ، فان الوزارة الفرنسية « قد أبدت استعدادها لتكليفنا بمهام تتوام وما نهدف اليه هناك » ٠ وبعد ذلك بقليل من الوقت بدأ بولتون محادثات مقنعة مع وليم ولكنسون لانشاء مصنع للمحركات فى فرنسا ، من خلال تطوير احدى منشآت المشغولات الحديدية ، واقترح جون باومجارتنر ـ وهو تاجر من معارف بولتون ـ أن ينشىء الشريكان وكالة للمحركات بمارسيليا ، سيتسنى لها تحقيق الأرباح ٠٠ الا أن الثورة الفرنسية اندلعت وعطلت المشروع ، وبعد بضع سنوات ، أعاد بولتون توجيه اهتمامه بروسيا ٠ عن طريق أحد ممثلى بيته التجارى ، وكما حدث من قبل ، ولعل الدافع الذى شجعه على اجراء هذه الصفقة الثانية من المبيعات الروسـية هو المبادرة المشجعة التى ظهرت فى طلب الحـكومة الروسية آلات لصـك النقود ، بالاضافة الى « أنهم عندما يسمعون عن أى شىء جديد ولطيف فانهم يهللون له ، ويصرون على الحصول عليه » ، وهنا ـ كما يبدو ـ ربما تماثلت اجراءات تسويق السلع الرأسمالية هى وأحوال سوق السلع الاستهلاكية ، التى يتمتع بولتون بخبرة كبيرة بها ٠

وكان ووكر العميل المسئول لبولتون للبحث عن توكيلات فى روسيا شديد الاعتقاد « بأن الافتقار الى الدراية بالمسائل الميكانيكية ، سيصعب النجاح فى أية بقعة من بقاع العالم فى تعريف أى مستفسر سعر المحرك البخارى وحجمه المناسب بالدقة المطلوبة ، حتى يتسنى له النهوض بمهمته المكلف بها » ٠ وأدرك أن مهمته تتلخص فيما يأتى : « تحديد أساس عام دائم وثابت يعتمد عليه مستقبلا فى المعاملات ، بغض النظر عن التوكيلات العرضية التى تحدث عن طريق المصادفة ، وبذلك تتهيأ السبل السليمة التى لا تخطىء ، والتى يتيسر اتبـاعها فى جميع الأوقات للحصـول على التوكيلات التى تستحق القبول دون تكبد أى مصروفات لانجازها » ٠

(*) فى La Charité.

والحروب النابوليونية وما جرته فى ذيولها من أخطار : « ان القادرين على تركيب (المحركات) نادرون ، حتى أصبحنا مرغمين على أن نكون خدما لهم بدلا من أن نكون أسيادا • وعلينا أن نساير نزواتهم ورغباتهم مهما بدا فيها من جوانب مستهجنة » • وعندما بحث بولتون ووات : « هل سيتحمل الرجل الذى ينوون ايفاده الى أسبانيا (١٧٩١) مخاطر سوء المعاملة أثناء رحلته ، تلقيا تأكيدا بأن الأمر سيكون عكس ذلك ، لأنه سيتلقى رعاية كاملة » • ووصف وات أحد الميكانيكيين « بأنه خادم أمين » ولما وصل هـذا الميكانيكى الى ايطاليا « عومل معاملة عظماء الرجال ، وكانوا يمطرونه بالعلاوات لاغرائه على الاستمرار فى البقاء هناك » •

وحاول بولتون ووات الحيلولة دون قيام العملاء الانجليز بتقديم عطاءات للميكانيكيين التابعين لهم ، فادخلوا نظام التعاقد لمدة ثلاث سنوات لمعظم من يتولون تركيب المحركات البخارية • غير أن السوق خارج انجلترا كشفت بعض مشكلات ذات طابع خاص • اذ ظهر أنه من المتعذر تتبع خطوات الميكانيكيين الهاربين ، ناهيك بامكان استعادتهم • وربما دفع تركيب أى محرك بخارى فى مكان قصى الميكانيكى الى البقاء مدة أطول من ثـلاث سـنوات ، وكانت الأجور التى تقدم للميكانيكيين المصاحبين للمحركات البخارية فى الخارج تفوق بوجه عام أجورهم فى بريطانيا • وبالاضـافة الى ذلك ، فقد جرت العادة على توقع اهداء الميكانيكى «هدية لطيفة» بعد اكتمال المهمة بنجاح ، وكان الأجر الأعلى هو الاغراء الأوحد للعمل فى الخارج عند بعض الفنيين المتخصصين فى الطواحين والميكانيكيين • وأدرك آخرون أن المدة التى يحصـل فيها العامل على أجر مضمون بحكم العقد ستيسر له الاتفـاق على جملة تعاقدات أجنبية تسـاعده اما على الاستقلال بعمله الفنى فى اصلاح المعدات ، أو على الاهتداء الى وظيفة دائمة مناسبة ، تبشر بتحقيق تطلعاته ، واستوطن أحد الميكانيكيين من سوهو ايطاليا ، وأنشأ عدة مصانع هناك ، وأشغالا أخرى ، قبل وفاته فى ظروف غامضة قبل الغزو الفرنسى لايطاليا بقليل ، وتولى آخر عملية تركيب محرك بخارى فى البلدان الواطئة ١٧٩٣ ، ثم اختفى بعد ذلك • ولما أخفقت محاولات تتبع آثاره ، سلم وات باحتمال ذهابه لاسبانيا « لعل ما يؤيد هذا الرأى اعرابه الدائم عن الرغبة فى العمل خارج انجلترا ، حتى يعيش بعيدا عن زوجته ، التى كانت تقدم أحيانا على بعض التصرفات العنيفة بحكم تعلقها الشديد به ! » • وذكر فيما بعد أنه شوهد فى أمستردام يعمل فى شركة يملكها أحد الأمريكان • وفى أواخر تسعينيات القرن الثامن عشر ، حل بالولايات المتحدة ، وعمل بمكتب نقولاس • أ • روزفلت للأعمال الهندسية ، وفى ١٨٠٠ كان بمقدور روزفلت الزعم « بأنه لا يفتقر الى الفنانين القادرين على تركيب المحركات طبقا لأفضل المخططات تصميما

التى وضعها السيدان بولتون ووات ، لأننا لسنا مدينين لكما فقط بقدرتنا على استخدام امتيازكما وفق مشيئتنا ، ولكننا مدينون بالفضل أيضـا للمهندسين الذين قاموا بتنفيذها ، وأغلب الظن أنهم أدخلوا تحسينات على هذه المخططات » ٠

وبعد أن تكررت أحداث عدم رجوع الميكانيكيين الى سوهو ، نزع بولتون ووات الى الارتياب فى ارتغاب قبول الطلبات من العملاء خارج انجلترا ممن يحتاجون الى ميكانيكيين لمرافقة المحرك ، اللهم الا اذا ظهرت بشائر تدل على اقتراب التعاقد على صفقات أخرى ٠ ففى ١٧٩٣ ، مثلا ، رفض طلب أجنبى كان مقدما من قبيل اختبار النوايا : « لصعوبة توقع ايفاد عامل لتركيبه ، وغير ذلك من المشاق ذات الأهمية البسيطة » ، وليس من شك أن هذا السبب بالذات كان وراء الموافقة على تلبية ثلاثة طلبات بتوريد محركات للمجر والنمسا بعد أن أقر شرط عدم المطالبة بايفاد ميكانيكيين لمرافقة المحركات ، فكما أوضح بولتون لأحـد العملاء الفيناويين : « يسعدنا أن نزودكم بالمحركات ٠٠ أما فيما يتعلق بالتعهد بايفاد أشخاص لتعريف الآخرين كيفية تركيب محرك واحد فقط فى مثل هذه البقعة القصية ، فانه سيكون من ناحيتنا ضربا من الحماقة البالغة » ٠

وفيما بعد ، وكلما سمحت الظروف ، كان بولتون ووات يرشحان أحد الخبراء أو الميكانيكيين للعميل الأجنبى المميز فى حالة تلقى أى مطلب جاد ، مع توقع احتمال استمرار بقاء الشخص فى الخارج ٠ وعندما قدم أحد العملاء خارج انجلترا طلبا لصفقة انجليزية تضم الى جانب المحرك مصنوعات من تشغيل دار أخرى للصناعة ، استطاع بولتون ووات أحيانا تحويل مسئولية العثور على الميكانيكى المناسب الى احدى الشركات المشتغلة بتدريب العمال الميكانيكيين المهرة ٠ فمثلا سافر صمويل جراى ــ وكان من العاملين الميكانيكيين السابقين للآلات عند « رينى » ــ الى البرازيل للاشراف على تركيب آلة صك نقود وآلات أخرى هناك ٠

ومن حيث المبدأ ، فهناك احتمال تأثر موقف أى ميكانيكى للآلات ينوى السفر للخارج بالتشريعات التى تحرم خروج العمال المهرة والأدوات والمعدات ٠ وعلى الرغم من أن التشريع لم يحظر تصدير المحركات البخارية ــ بصفة خاصة ــ الا أن هذا اللبس فى تفسير التشريع قد زاد من عدم اطمئنان صناع الآلات لموقفهم ، فمثلا سعى بنجامين هانتسان للحصول على نصيحة بولتون ١٧٨٩ : « أرجوك أن تفيدنى هل يبـاح تصـدير المحركات البخارية ؟ أرجوك لأننى مطالب بتوريد أحد هذه المحركات » ٠ وفى ١٧٩٢ ، عندما طلب منهما الرأى أجابا بأنهما يعتبران ايفاد أحد الميكانيكيين الى الخارج لتركيب آلة مصنوعة فى انجلترا شيئا ، وايفاد

ميكانيكي لتصنيع منتجات انجليزية في الخارج شيئا آخر • ودار جدل بين الطرفين مؤداه أن أهمية الميكانيكي ترجع الى أنه اذا صدر أمر بتحريم مغادرة المشتغلين بتركيب الآلات في انجلترا ، فان هذا سيكون مساويا لحظر تصدير المحركات البخارية من صنع بولتون ووات ، وما يستخلص من رأى بولتون ووات هو وجوب ترك الأمر لهما لاختيار القرار الأصوب ، بعد مراجعة مزايا كل حالة من الحالات ، ومن ثم ففي ذات السنة اعتذر بولتون ووات عن ايفاد أحد الميكانيكيين الى أسبانيا لتركيب آلة ذات محرك لنشر الخشب (وقاما بدلا من ذلك باقناع أحد العاملين الميكانيكيين السابقين ــ وكان آنئذ في ايطاليا ــ بتركيبها) ، وصدرا مطحنة غلال وبعض الآلات الى نانت بفرنسا ، كما أوفدا العمال الميكانيكيين اللازمين لتركيب هذه الآلات •• وقدم العملاء الفرنسيون طلبـــا لتوريد ثلاثة محركات أثناء بلوغ الحرب الأمريكية للاستقلال ذروتها ، غير أن بولتون بعد تقديمه جملة التماسات وقيامه ببعض الضغوط الشخصية على أعضاء المجلس الخاص ، استطاع الحصول على جوازات سفر لتصدير السلع ، وحصل أيضا على تصريح برفع الحظر المفروض على السفن التى ستقوم بشحن هــذه السلع • ولاحظ جون ولكنسون ــ وهو صــاحب مصنع للحديد : « ان بمقدور المستر بولتون الاضطلاع بمهام فيمثل هذه الحالات تفوق المهام التى ينهض بها فارسان في الايالة » (*) ، ورغم كل هذا فقد أمر مفتشو الجمارك ايقاف تصدير المحرك (**) • وفي حوارهما أثناء هذه المداولات تدخلت قوة خفية من الدوافع الوطنية فحجبت الصالح الشخصي • وفي مثل آخر ، اشترت شركة المياه في باريس محركا واحدا ، بالاضافة الى قطع غيار لمحرك آخر ، وبعض أدوات التركيب من الصلب ، بدلا من شراء محركين كاملين • وتبين مدى دراية بولتون ووات من عدم شرعية هذا الاجراء من تصميمهما على وصف الأدوات « بقطع غيــار للمحرك » ، وأثناء تفاوض بولتون من أجل التعاقد لتوريد آلة لصك النقود الى سان بطرسبورج في روسيا ، صــدر اليها نموذجا لهذه الآلة ، وزيادة في الاحتياط والحذر ، التمس من ايفان سمرنوف التأكد من عدم وجــود عقبات تحول دون اتمام عملية الشحن ، وحذره من عدم التوجه الى الجمارك بشخصه حتى لا يثير الشبهات • وعندما قبلت الطلبات بصفة نهائية ، تم الحصول على قرارات شخصية لتصدير آلات صــك النقود الروسية والدانمركية ، بالرغم من وجود معارضة شديدة لذلك ، وليس من شك

(*) Shire.

(**) "by a proper dose of the golden power the eye sight had been cleared.

« لو امكن قطر العين القطرات المناسبة ذات المفعول الصحيح ، سيتسنى لنا ازالة الغشاوة من العين » •

أنه من المتعذر وصف هذه الناحية من السياسة التسويقية لبولتون ووات بأنها خالية من التناقض ، فيما عدا عدم سماحهما أطلاقا بحيلولة التشريعات دون اقدامهما على تصدير النماذج والمحركات (وفنيين لتركيبها) بل وأقدموا فى مناسبات خاصة على تصدير مصانع كاملة .

وبدت المفارقة أوضح فى نظرة وات الى زوار سوهو من البلدان خارج انجلترا . وربما رجعت حيرتهم الى ادراكهم قيمة الجانب الترفيهى فى تقنية المبيعات . وربما رجعت أيضا الى حساسيتهم المفرطة من الاشتباه فى عمليات التجسس الصناعى . ومن المحتمل أن لا تكون النية قد توافرت لبعض الزوار لشراء محرك بولتون ووات . وبينما اتخذت عملية التجسس الصناعى داخل انجلترا بين الفينة والأخرى طابعا مثيرا للضحك والسخرية ، الا أن بعض المؤامرات المتعددة الألوان لجواسيس الصناعة من البلدان خارج انجلترا قد اقتربت من الهزليات ، كتنكر الجواسيس فى شخصيات أخرى أو تسميهم بأسماء مختلفة ، وحذر جورج وأرنست وولف «بولتون ووات» ١٧٨٧ من دانمركى ذى ملامح شاحبة دائم النظر الى الأرض ، ويتمايل فى مشيته » ، ومن رفقائه بولاندى اتخذ اسما مستعارا (*) . وحتى بعد اقفال الورش الهندسية فى سوهو ، فانه كان من المتعذر الحيلولة دون مشاهدة زوار البلدان الأجنبية محركات بولتون ووات أثناء تشغيلها فى أماكن أخرى . وليس من شك أن الضرورة قد اقتضت تشجيع مثل هذه الأعمال . وحصـــل البارون شتاين على ما يريد من معلومات عن معمل للتخمير « بركلاى وبركينز » بعد أن دفع رشوة لأحد الميكانيكيين . وبعد وقوع هذا الحادث ، التمس الشريكان النصح من السير جوزيف بانكس ، الذى ألقى عظة جاء فيها : « عليكم أن لا تأتمنوا أجنبيا . فأنا لا أعتقد أن أحدا منهم سيعجز عن محاولة سرقة المخترعات » .

أما الى أى حد أثبتت الجاسوسية الصناعية فاعليتها عند البلدان التى قادت النهضة الصناعية فمسألة تستأهل النقاش ، فلقد حاول باكلنج صنع محرك على غرار محرك بولتون ووات ، ولكنه لم يثبت فاعليته على النحو المرغوب . واضطر الى العودة الى انجلترا حتى يزداد استنارة . وتؤيد هذه الواقعة اصرار بولتون على ضرورة الاستعانة بالعمال الميكانيكيين الانجليز لاصلاح المحرك المصدر ، لاتساع الفجوة التقنية بين الصادرات الانجليزية وطريقة استعمال البلدان المستوردة لها . على أن الميكانيكيين أو المهندسين عندما اضطلعوا بدور الجواسيس فان النتيجة جاءت غالبا مثمرة . وعلى الرغم من استبعاد احتمال السماح لهؤلاء الأغراب بزيارة

(*) البـــارون Richagenius.

داري الشريكين ، وافتقارهم الى اتقان اللغة المعسولة أو الألقاب الحقيقية أو المنتحلة ، الا أن ملاحظاتهم كانت فى أغلب الظن أشد فاعلية ونفاذا ، وحاول أول عميلين لبولتون ووات الحصول على معلومات عن محركات وات عن طريق القرصنة · واشترى الاثنان فى نهاية المطاف محركات من سوهو بتسهيلات وتخفيضات كثيرة فاقت ما حدث فى صفقات العملاء الذين جاءوا فيما بعد ، ولم يوفق الميكانيكيون فى تركيب هذه المحركات · ولا يرجع ذلك الى اشتعال الحرب بين بريطانيا وفرنسا · فلقد أصر العميلان على عدم حاجتهما الى مساعدة أى ميكانيكيين · وعندما ظهرت بوادر سفر بعضهم الى باريس برفقة آلات الأشغال المائية ، اعترض المهندس المسئول بربيه متذرعا بأن هذا الاجراء سيسبب احراجا له فى فرنسا ، وأرسلت لوحات التصميم والأدوات برفقة الآلات عوضا عن ذلك ، وهكذا تيسر صنع محركات وات فى فرنسا ، وكانت هذه النتيجة هى الغاية التى سعى اليها بلا شك بربيه ·

(٤)

وهناك مؤثر هام له تأثير أبعد لآليات اجتذاب الزبائن فى الأسواق خارج انجلترا · انه جانب اسداء النصح فى مسائل هندسة الانتاج · واذا استثنينا بعض المرموقين مثل فان ليندن من البلدان الواطئة وروبرت فالتون فى الولايات المتحدة ، سنرى أن عملاء بولتون ووات خارج انجلترا كانوا أقل دراية بالمسائل الميكانيكية من أقرانهم البريطانيين · وحتى فى منشأة مثل مطحنة الغلال فى نانت حيث عهد بالمسئولية الى مهندس فرنسى قدير ، فان بولتون ووات كانا من الثقات التى يوثق برأيها فى الخدمات الهندسية الانتاجية ، وكثيرا ما أسديا النصح فى مرحلة وضع التصميمات · وفضلا عن ذلك ، فان الاتصالات بين بولتون ووات وبين جون رينى (وهو من الموظفين السابقين) وأيضا مسبك م · بولتون وشركاه قد يسرت للشريكين التزويد بشحنة كاملة للعملاء خارج انجلترا بالمعدات الموصى عليها والمجهزة تجهيزا خاصا ، بالاضافة الى بعض المصانع الصغيرة والآلات من حين لآخر ·

وكانت المشورة فى المسائل الهندسية الانتاجية لبولتون ووات مطلوبة بقدر كبير فى مسائل تشغيل القوى البخارية فى صناعتين : طحن الغلال والسباكة ، وكان لكل من بولتون ووات خبرة عملية فى احدى الصناعتين ، وساعدت التجربة المكتسبة من المطاحن التجريبية فى مصنع سوهو ، وفيما بعد من مطحنة البيون التى تدار بالبخار بلندن على اعتبار بولتون ووات من الثقات فى مسائل تكنولوجية المطاحن والادارة ، وان كانت مطحنة البيون قد طرحت مشكلات فى الناحية التقنية والناحية

الادارية لم تصادف فى التجربة الأضيق نطاقا التى تمت فى سوهو . وطالب ما يقارب ثلثى العملاء المتوقعين للمحركات البخارية فى صناعة المطاحن بمعلومات تفصيلية عن انتاجية محركات المطاحن وتصميمات المصانع ، ومخططات الأبنية ، وان كان لم يظهر فى أية حالة من الحالات تمتع المدير المسئول بما هو أكثر من الخبرة الهينة بطحن الغلال ! ويصح القول بأن مطحنة اليون قد حققت نتيجة اعلامية قوية ، وعمل بولتون ووات فى خمسة مشروعات من سبعة أجريت فى ميدان طحن الغلال باستعمال المحركات البخارية كمهندسين استشاريين للانتاج ، وفى حالتين (فى طاحونتى نانت بفرنسا وقادس بأسبانيا) تضمنت الاستشارة مسائل الحزم والرزم وطريقة ادارة المصنع وتشغيل الآلات المستوردة من رينى . وعندما بحثت فكرة انشاء مطحنة بخارية دانمركية ١٧٩٤ ، طلب من بولتون ووات النهوض بكل ما يتعلق بهذه المطحنة ماعدا مسئولية انشاء المبنى . وبعد ان التهمت النيران مطحنة البيون ودمرتها قدم وات النصح للمسئولين فى نانت عن طريقة الوقاية من النيران .

وأثناء الحقبة التى شعر فيها الشريكان بالغبطة لما انجزاه فى مطحنة البيون ، لم يقتصر الأمر على اسداء النصح للعملاء المتوقعين للآلات فى مسائل الانتاج والهندسة الميكانيكية للطواحين المدارة بالبخار ، فقد سعى هؤلاء العملاء للتعرف على أسعار المستحدثات فى طواحين الغلال . وقبل أن يشتهر بولتون ووات ، ويصابا بحالة انبهار ، بدت أسعارهما متواضعة ، وأرباحهما مشجعة . وفى ١٧٨٥ ، اشترك وات فى مباحثات خاصة بمشروع لاستعمال القوة البخارية فى طحن الغلال فى ليون ، ووضع مخططا اشتمل على بيان تفصيلى بالتكاليف الثابتة والسنوية لطاحونة تضم ستة أزواج من حجر الرحى تعمل بلا انقطاع (يحتمل أن يكون مجموعها ثمانية أزواج) لطحن ٧٢٠ بوشيل من الدقيق يوميا ، ولم ترسل هذه المقايسة ، وقيل انها تحتوى على تفاصيل أكثر من اللازم ، وعدلت صورتها المختصرة فيما بعد لتخفيض تكاليف الفحم الى ٩٩٩ جنيها انجليزيا ، وبذلك انخفضت التكاليف السنوية الى ٣٨٧ جنيها وأربعة بنسات . وازدادت مزايا عملية الطحن بالقوة البخارية بعد أن بلغ ثمن الحمولة خمسة شلنات وخمسة بنسات .

وحوالى ١٧٨٩ أجريت مقايسة تفصيلية أخرى لتكاليف انشاء معدة لاطفاء الحرائق ، وتناظرها مطحنة لطحن الدقيق على أن تكون عمليات الانشاء والتشطيب والاقامة فى مقاطعة أندلسيا فى أسبانيا . وتجهز المطحنه بحيث تتمكن من طحن ١٢١٠ بوشيل يوميا . ولكى يتعرف الأسبان على مزايا المصنع الذى يدار بالبخار عقد بولتون ووات مقارنة بينه

وبين ما تتكبده المصانع المدارة بالبغال (*) من نفقات لانتاج مقدار مماثل من الطحين ، ولكن وبعد أن تزايد وضوح الخسارة المترتبة على مخاطرة بولتون ووات فى عالم الطحن فى لندن أصيبا باحباط دفعهما الى عدم التحمس لتقديم النصح والمشورة فى المسائل الخاصة بانشاء المصانع ٠

وأثبتت دار سك النقود والميداليات التى أنشأها ماتيو بولتون فى سوهو بعد سنوات قليلة من تشغيلها كفاءتها ودقتها فى سك النقود والميداليات التذكارية ٠ ولمس هذه القدرة الملوك وأصحاب المقام الرفيع من الأرستقراط وأيضا أعضاء الحكومة والتجار فى البلدان الأجنبية ٠ وأدركت قيمتها فى الدعاية ٠ وبعد أن ذاع صيت بولتون كمخترع لآلة السك ، الى جانب تصميماته المبتكرة فى نظام الانتاج المتدفق فى المسابك ، أدى ذلك الى سعى الآخرين لطلب مشورته فى شئون هندسة الانتاج والهندسة الميكانيكية ، وقرابة انتهاء حياة بولتون ، خصص بعض وقته للاهتمام المتزايد بأعمال السباكة ٠ وهكذا أثبتت الناحية الاستشارية الهندسية عنده فى جملتها انها أكثر واقعية من المشورة التى كان يقدمها بالاشتراك مع وات فى مسائل الطحن ٠ وكان يتجنب الانزلاق الى الحديث عن الجوانب المالية فى السباكة التى لم تكن ذات أولوية كبرى عند عملائه من الأجانب على أى نحو ، وكان العمـلاء المميزون المحتملون والعمـلاء الفعليون فى البلدان الأجنبية ـ من حكومات وملوك ونبلاء ـ يتحرون تحريات عامة ويقدمون الطلبات للحصول على ما يجرى فى عمليات السبك من بولتون مباشرة خلال مباحثاتهم لانشاء مشروع متكامل للسباكة ، واضطلع ماتيو وبولتون ـ ثم بعد ذلك ابنه ـ بمسئولية انتاج الآلات الهندسية والسبك على نفس النحو الذى اتبعه عندما اشترك مع وات فى صناعة المحركات ٠

وساعدت قدرة بولتون على التخطيط وتحمل المسئولية لانشاء مسابك كاملة فى نجاح التباحث لانشاء محركات للسبك فى روسيا والدانمرك والبرازيل والهند :

« لا أزعم اننى مهندس ، ولكن خبرتى قد مكنتنى من تنظيم وتنسيق مسبك امبريالى عظيم ٠ (ومن الضرورى) أن تنظم غرف دار السك على نحو يساعد على تدفق النقود الى الأمام من غرفة لأخرى الى أن تتم تعبئتها وتقديمها للتداول ، وأن لا يتجه خط الانتاج مرة الى الأمام وأخرى للوراء ، ولابد أن أتقدم بالرجاء بعدم احداث أى تغيير فى أية غرفة من الغرف

(*) atonas.

التى يتوقع أن توضع فيها الآلات لتشغيلها ··· لأن هناك وحدة لا تنفصم الى حد ما بين تصميم البناء والآلات ···

وأردف قائلا : « لعل ارتيابى فى الأولويات التى يضعها بعض العملاء تدفعنى الى تفضيل البناء المتواضع المريح المنظم والمزود بآلات حسنة على البناء الذى يجمع بين الفخامة وعدم الصلاحية » ·

وأدى استعداد بولتون ووات الواضح لاسداء النصح للعملاء فى المسائل الهندسية الكبرى والمشكلات المالية الى اعتبارها من المصادر المبشرة لرؤوس المال القابلة للتصدير ، وسعى كثيرون من المسئولين عن الادارة الى اشراك الشريكين ماليا فى المشروعات الصناعية خارج انجلترا ، من خلال عروض الاسهام فى السندات أو الاشتراك فى المشروع ، فلقد طلب من بولتون الاسهام المالى فى مشروعات تصنيع الاسطوانات المعدنية والشرائح المعدنية فى روسيا ، وفى أحد المناجم بالمانيا ومطحنة بباريس ، والملفات النحاسية وسك النقود فى باريس والتنجيم فى الولايات المتحدة وفى مشروعات مختلفة فى المقاطعة الكندية (نوفا سكوتيا) وشارك الشريكان بأدوار منفصلة فى مباحثات المشاركة ماليا فى مشروعات صناعية أجنبية (بولتون فى مشروع الأخوين مانيرونز فى باريس لانتاج الملافت النحاسية وسك النقود ـ ووات فى مشروع المطحنة البخارية فى ليون) غير أن جميع هذه المشروعات لم تحقق النجاح المنشود · وبوصفهما شريكين فانهما اشتركا كحملة للاسهم فى المشروعات المائية بباريس ، بالرغم من أن هذه المشاركة لم تحدث الا بعد أن تزايد ادراكهما عدم احتمال حصولهما على ثمن فورى لمحركاتهما ، ولم يبد قبول بولتون ووات للاسهام فى شركة الأعمال المائية فى باريس فى نظرهما عملا بعيدا عن الوطنية ، أو لا يتواءم هو والاتجاه العدوانى نحو المصالح البريطانية فى المصانع الأجنبية للمصنوعات المعدنية واللعب · كما أن بولتون بعد أن تقيد بالارتباط فى مشروع مغترب لصنع اللعب ، لم يبال بما ظهر من تعارض بين استشاراته الهندسية فى أعمال المسابك الفرنسية ، وما يتقاضاه من عائد مالى : « أعتقد أننى منحت فرنسا اختراعى ·· والى جانب ذلك ، سأقدم كل عون ميسور لى لهذا البلد (فرنسا) لصالح المشروع » · لقد كان بولتون رجل أعمال فى المقام الأول ، وانجليزيا فى المقام الثانى ·

(٥)

ظلت أسعار المحركات البخارية لبولتون ووات ثابتة بدرجة ملحوظة فى السوق الانجليزية فى الحقبة الواقعة بين منتصف عشرينات القرن

الثامن عشر وعشرينات القرن التاسع عشر ، واستوعب أصحاب المصانع التقلبات فى أسعار العمولة الى حد كبير · وعلى الرغم من أن جداول الأسعار لم تنشر قط ، الا أن الأرقام التى استشهد بها عند التعامل والعملاء المتوقعين قد كانت قريبة من الأسعار داخل انجلترا المتفق عليها التى وضعت بمعرفة الشركة ·· ولم تكن هناك قوائم عامة بالأسعار للسوق الأجنبية ، وكانت اسبانيا هى البلد الوحيد التى قدمت قائمة بالتعريفة الجمركية ، وتمثل هذه القائمة ارتفاعاً ملحوظا عن الأسعار الانجليزية ، التى سمحت لأصحاب المصانع بالحصول على ربح اضافى يتراوح بين ٢٠٪ و ٣٠٪ بالرغم من انكارهما وتنصلهما من فرض أى مكاسب أو تامينات · ولم يحدث أى التزام دقيق بالقائمة حتى فى أسبانيا ، وان كانت أغلبية الأسعار التى استشهد بها ، ودفعت للأسواق الخارجية بين ١٧٩٠ و ١٨١٠ قد سمحت لنفسها بنفس نسبة التعريفة الأسبانية ، على أن هذا التحميل بالزيادة لم يؤثر على مبيعات المحركات البخارية ، لأن أسعار المحركات لم تتخذ ذريعة للاخفاق فى تلبية الطلبات أو رفض أى طلب ·

ان النسبة العالية من مشروعات الأشغال العامة الى جانب العملاء المرموقين وأوائل من تبنوا المحرك لمشروعاتهم الخاصة والتى تمثل ٤٢ر٧٪ من العملاء الأجانب لبولتون ووات قد تفسر جزئيا أسباب تساهل المشترين فى مسألة السعر ، وعندما اكتشف البائعون مجالا يسمح لهم بالمناورة ، تحولت أسعار المحركات البخارية الى مسألة مرتبطة بما يستطيع السوق تحمله · فمثلا دفع ملك نابلى مبلغ ألف جنيه مقابل مكونات المحرك ، بالاضافة الى ألف جنيه أخرى مقابل الخدمات والرسومات والربح عندما كان سعر المحرك ٧٧٨ جنيها ، واعتبر وات ما حدث ربحا ضخما بدون وجه حق ، وحذر بولتون الذى كان حينذاك منشغلا بالتفاوض مع الكونت الفرنسى « لعقد أفضل صفقة بالمقدور انجازها وقال له : عليك أن تراعى انك لا تبيع الآن اختراعا لأحد الملوك ولكنك تصنع محركا لأحد التجار » · وكانت آلات السبك التى اشترتها الحكومة الدانمركية أغلى بمقدار ٥٠٪ من الأسعار المدرجة فى قائمة بولتون ووات ، البريطانية ، وكان المسئولون الماليون فى سوهو يتمتعون – كما يبدو – بقدر ما من من الحرية فى تحديد أسعار العملاء الأجانب ! وعقب وات (الابن) على ذلك بالقول بأنه اكتشف ان تقدير المسئول المالى لشركة خليج هدسون (١٨١١) كان باهظا للغاية ، ولكنه تجاوز عن هذه المسألة ، وحصلوا على الصفقة · وعندما تقدمت الحكومة الهولاندية ١٨٢٥ بطلب محركات بحرية (قوة ٧٠ حصانا) حدد وات الابن مبلغ تسعة آلاف جنيه ثمنا لها ، ولاحظ : « أنهم كانوا مستعدين تماما لدفع هذا الثمن ··· بالرغم

من أنه يتجاوز بكثير السعر الذى تعاقدنا عليه مع مكتب البريد بمبلغ سبعين شلنا • وأردف قائلا ان فاوسيت من ليفربول قد تعاقد هو وأحد العملاء على توريد محركين بحريين (قوة ٧٥ حصانا) بمبلغ ٨٨٠٠ جنيه ، وكان بولتون ووات يتوقعان تحقيق ربح يتراوح بين ٧١٪ و ١١١٪ من بيع المحركات فى الخارج ، بالمقارنة بالربح الذى يحصلون عليه من المبيعات داخل انجلترا ، والذى يتراوح بين ٥٢٪ و ٨٧٪ • وجرت محاولات لتوحيد المصاريف الاضافية بالنسبة للعملاء من خارج انجلترا ١٨٢١ ، عندما اقترح وات (الابن) اضافة ٢¼٪ للأسعار البريطانية ، ولكن وحتى ١٨٢٥ لم يطبق الاقتراح تطبيقا كاملا •• وكانت السوق الهولاندية استثناء فى الأسعار ، اذ طلب من البيت التجارى القائم بالتفاوض لجعل الأسعار تقترب كثيرا من أسعار المحركات البخارية فى انجلترا • غير أن هذا البيت التجارى قد عومل بصفة استثنائية فى مقام آخر • اذ تخلى بولتون ووات عن مطلبهما المعتاد بضرورة وجود أحد الضامنين من لندن لاعتماد الطلبات •

والحالة الوحيدة التى يقر فيها الشريكان التنازل عن الحصول على أرباح طائلة من المحركات المباعة خارج انجلترا هى الحالة التى تجرى فيها الصفقة مع بلد يتوقع عقد صفقات مبيعات لاحقة فيها • فلقد تباحث جارى (أول عميل لبولتون ووات فى فرنسا) من أجل وضع سعر محدد مع الاعفاء من دفع التأمين ، « لأن الواجب يقضى ايثار فرنسا فى المعاملة باعتبارها كانت أول زبون للمحرك » ، وباختصار وكما لاحظ ويلكنسون : « ان جارى من الشخصيات العارفة بالأمور •• وهذه الميزة تزكيه لعقد أية صفقات أخرى » • وكان أول محرك بخارى تم توريده للبلدان الواطئة بسعر التكلفة المحرك الذى بيع الى الجمعية الباتافية • غير أنه عندما جرى بعد ذلك بحث من قبل الهولانديين عن محرك (١٧٩١) طلب بولتون ووات مبلغ ٣٠٠ جنيه انجليزى ، وبررا ذلك بقولهما : « نعم لقد وردنا محركا واحدا بلا ربح لاقناع أهل هولاندة • ولكننا لن نستمر على هذا الحال • ان ما طالبنا به يمثل أدنى سعر يمكننا تقاضيه فى مقابل مثل هذا المحرك • ومن جهة أخرى ، دفع عميل كندى مبلغ ألف ومائة جنيه (١٧٨٩) مقابل توريد محرك قوة ١٦ حصانا وهو سعر يزيد عن السعر المثبت فى التعريفة الأسبانيــة فى نفس التاريخ ، وسمح بربح ١٣٩٪ بالرغم من مزاعم الصانع : « بأنه لم يربح الا أدنى ربح ، باعتبار هذه الصفقة هى الأولى مع هذا البلد » •

يتعذر تقدير الوقت والجهد الذى بذله بولتون ووات فى متابعة عملهما فى الخارج • وأيضا يتعذر ـ باستثناء حالات قليلة ـ تقدير المبالغ التى أنفقاها للترفيه عن العملاء الأجانب وتقديم الهدايا ، وبلغ مجموع

بايطاليا ابتداء من تاريخ الاتفاق على السلام بين نابلي وفرنسا ١٨٠١ ونهاية الحرب · وبالاستطاعة ملاحظة وجود نمط مماثل في أسبانيا والبرتغال · وازدادت الطلبات الآتية من خارج انجلترا انتظاما وتوافقا ابتداء من ١٨١٦ · ولم يهبط هذا المستوى اطلاقا عن طلبين ، وارتفع من أربعة طلبات الى تسعة سنويا فى بعض المناسبات ·

ولقد لوحظ اخفاق آليات « الدفعة » فى الأسواق خارج انجلترا · وليس من شك ان هذا هو ما خطر ببال مستر ر· بولتون عندما عقب فى سياق حديثه عن السوق الروسية ، فقال ان تبديد أى وقت آخر أو جهد آخر ، سيكون عملا بعيدا عن الحكمة ، اذا راعينا أن بولتون ووات كان بمقدورهما الحصول على طلبات أكثر من جيرانهما الأثرياء بأعداد تفوق القدرة على تنفيذها ، ولربما صحت هذه الملاحظة على المدى القصير ، ولكن بعد التزويد بالخدمات الفنية الاضافية المتخصصة التى أثرت فى آليات الاجتذاب ، يصح القول بأن الزيادة التى حققها بولتون ووات من الأسواق خارج انجلترا قد بررت الجهود التى بذلت من أجل المبيعات ، وأثبت صحة ما قاله ماتيو بولتون عن نيته تقديم خدماته لجميع ربوع العالم بتزويده بمحركات من أصناف مختلفة الأحجام ، وذكر هذا القول قبل شروعه فى انتاج المحرك بالاشتراك مع وات ·

المراجـــع

I. T. Berend and G. Ranki, The European Periphery and Industrialization 1780-1914 (1982).

F. Braudel, Capitalism and Material Life 1400-1800 (1944).

F. Braudel, The Structure of Every Life (1982).

P. Deane, The First Industrial Revolution (1979).

E. L. Jones, Agriculture and Economic Growth in England (1950-1615), 1968.

D. Landes. The Unbound Prometheus : Technological Change and Industrial Development in Western Europe from 1750 to the Present 1969.

J. Lord, Capital and Steam Power 1750-1800, (1966).

N. McKendrick, The Birth of a Consumer Society, (1982).

P. Mathias, The First Industrial Nation : An Economic History of Britain (1700-1914), 1969.

A. Musson, and E. Robinson, James Watt and the Steam Engine, (1969).

S. Pallard, The Genesis of Modern Management, (1965).

S. Pollard, Peaceful Conquest : The Industrialization of Europe, (1981).

R. E. Schofield, The Lunar Society of Birmingham (1965).

« حــروب الموسوعة »
فى فرنسا ما قبــل الثــورة

روبرت دارنتــون

ربما كان للكتب التى تصنع التاريخ تاريخ مهم هى نفسها ٠ وهذا ما حدث فى حالة « الانسكلوبيديا » أشهر مانشر فى عهد التنوير ٠ وعندما اقدم ديدرو على تنفيذ هذا المشروع فى خمسينات القرن الثامن عشر ، واجه الكثير من المعارضة من السلطات السياسية والدينية ابان حكم الملك لويس الخامس عشر ملك فرنسا ٠ بيد انه نجح فى اخراج السفر العظيم المؤلف من عدة أجزاء ٠ وانهى العمل فيه ١٧٧٢ ٠ ويحتوى السفر على مقالات فى الأدب والفلسفة والدين ، أبدعه يراع عظماء كتاب عصر التنوير ، الى جانب مقالات عن الحياة الاقتصادية المعاصرة ، ما برحت تعد المصدر الرئيسى لمعرفتنا باحوال الزراعة والصناعة والأساليب المتبعة فيهما فى منتصف القرن الثامن عشر ٠

لعل هذا الجانب من القصة معروف الى حد ما ٠ ولكن بعد ان انتهى تاليف الانسكلوبيديا (ولنستعمل من الآن فصاعدا كلمة موسوعة بدلا من انسكلوبيديا) وطبعها ، كيف أمكن توزيعها ؟ وما الذى تعرضت له بعد ظهور طبعتها الأولى ؟ ومن استفاد من هذه المخاطرة ؟ ومن اشترى المجموعة، وأين يقطن المشترون ؟ ان الردود على هذه الأسئلة الخاصة بسفر « التنوير » تدفع المؤرخ الى خوض أغوار عميقة من التاريخ الاجتماعى « للنظام القديم » ٠ انها تكشف عن معاملات مالية امتدت الى نطاق واسع ، وعن محاولات للغش والابتزاز وتهريب الكتب خارج حدود فرنسا ، وعن جهود بذلت للتغلب على النقص فى الورق والمداد وآلات الطباعة ، وعن صراع شرس فى عالم المنافسة الفظة التى لا ترحم ، اذ يكمن وراء اشعاع

The Encyclopédie Wars of Prerevolutionary France

بقلم Robert Darnton فى American Historical Review

الجزء ٧٨ (١٩٧٣) من ١٣٣١ ـ ١٣٥٢ ٠

نور العقل الذى اشعته الموسوعة عاملان متضاربان ! الجرأة الفكرية ، والممارسات العملية المشبوهة • غير ان المؤرخ عندما يتابع تاريخ نشر الموسوعة ، فانه يلاحظ تغيرا مهما فى توجهات الحكومة الفرنسيه نحو المشروع ، ويدرك أيضا صورة واضحة رائعة لنوعية الأشخاص الذين اقتنوا الموسوعة ، ولا يستبعد ان يكون بينهم من قراها •

نظر الى نشر الموسوعة فترة طويلة من الزمان على أنه نقطة تحول في حركة التنوير • فعندما سمح لسفر ديدرو بالظهور فى صورة مطبوعة ، فان الدولة بغض النظر عن ابتعادها عن الكمال ، وعدم رضائها عن الفكر الحر ، قد أتاحت الفرصة للفلاسفة لاختبار سلعتهم في ميدان الافكار • ولكن ماذا كانت عواقب هذا الاختراق للحواجز التقليدية للكلمة المطبوعة في فرنسا ؟ عندما ركز العلماء الباحثون على المبارزة بين الموسوعيين والسلطات الفرنسية ، فانهم لم يذكروا أكثر من نصف القصة • أما النصف الآخر فيخص المسائل الأساسية في التاريخ الاجتماعي للأفكار ، فكيف كان الناشرون يخططون وينفذون عملية الطبع والنشر في القرن الثامن عشر ؟ وكيف كان مدى الاقبال على أعمال مثل الموسوعة ؟ • ومن كان المشترون ؟ هذا المقال يعنى بهذه المسائل • فنحن عندما نعيد رواية قصة دورة الحياة لكتاب من الكتب ، فاننا نقصد بذلك الاشارة الى جانب من الامكانات في تاريخ النشر • وهو ميدان ظل دون أى التفات اليه رغم ما فيه من جاذبيـــة في مفترق طرق التـــاريخ الفكرى والاجتماعى والاقتصادى والسياسى •

وعندما أخرج ديدرو وناشروه المجلد الأخير من الموسوعة ١٧٧٢ ، فانهم ظفروا بما هو أكثر من الانتصار المعنوى على نظـام السيطرة على النشر في فرنسا • ومن المحتمل أن تكون الطبعة الأولى قد ضمت مليونا ونصف المليون من الكتب التى حققت ربحا هائلا • غير أن الدولة منعت تداول الكتاب علنا وصدرت معظم المجموعات (٤٢٢٥ مجموعة) الى عملاء خارج فرنسا • والظاهر أيضا أن الطبعة الثانية قد اعتمدت الى حد كبير على اعداد غير فرنسى ، اذ كانت اعادة طبع على صفحات فوليو (١) للنص

---

(١) تشير مصطلحات فوليو وكوارتو واوكتافو الى حجم صفحات الكتـــاب • وترجع التسمية الى عدد الصفحات التى تطبع على فرخ ورق الطباعة الجاير • ففى حالة الفوليو (¼ جاير) تطبع صفحتان فى كل وجه ، وبذلك يصل عدد الصفحات المطبوعة الى أربع صفحات • أما الاوكتافو فيضم ثمانى صفحات تطبع على كل وجه ، وبذلك يصل مجموع الصفحات الى ١٦ صفحة • ويطوى الفرخ المطبوع ، ويؤلف ملزمة من الكتاب • وكلما زاد عدد الصفحات المطبوعة على الفرخ صغر حجم الصفحة المطبوعة وصغرت حـروف الطبـــاعة •

الأصلى ، وقام بطبعها فى جنيف اتحاد من الناشرين بالاشتراك مع شارل جوزيف بانكوك فى باريس . ولم يكتب البقاء لسجلات المبيعات ، ولكن ناشريها كانوا يأملون فى الأصل تسويق نصف مجموعاتهم (٢٢٠٠ نسخة) فى فرنسا ، وباعوا ١٣٣٠ مجموعة فى شتى أنحاء أوربا كما ظهر عند تصفيتهم لحساباتهم النهائية فى يونيو ١٧٧٥ ، وبذلك يكون عدد النسخ التى بقيت فى فرنسا فى هذا التاريخ ٣٠٠٠ نسخة فقط من الطبعتين الأوليين ، على أكثر تقدير . وبذلك لا تكون الموسوعة قد غمرت البلاد رغم الاعتراف شبه القانونى بها .

بيد أن نشر الطبعتين التاليتين (طبعة ¼ كوارتو و ٢ أوكتافو) للنص الأصلى له قصة جد مختلفة ، عن نشر الطبعتين الأوليين ، وبالمقدور روايتها بالتفصيل بفضل البحوث التى جرت فى سويسرا (*).وتبدأ القصة بالادارى الفذ بانكوك المعروف « بأطلس تجارة الكتب » ، وأسلوبه المشهور فى عقد التحالفات واثارة الخصومات فى عالم النشر والسياسة .

ففى ١٧٦٨ ، اشترى بانكوك من الناشرين الأصليين الأصول الزنك للموسوعة ، وحقوق نشرها . أما ماهية هذه الحقوق ، فمن المتعذر معرفتها على وجه الدقة.واستعمل بانكوك فى مراسلاته بعض المصطلحات(**).ولكن الحكومة تنكرت للامتياز الذى سبق أن منحته للموسوعة ١٧٥٩ ، ولم يوضح مسجلو الامتيازات فى المكتبة الوطنية بباريس حدوث أى استرداد لهذا الامتياز ، وبينوا أن بانكوك قد منح امتيازا عاما لمدة ١٢ سنة فى ٢٩ مارس ١٧٧٦ « لتجميع لوحات خاصة بالعلوم والفنون والحرف » ، مما يؤيد زعمه الحصول على نوع ما من حق النشر . وعلى العموم ، فلقد أكد بانكوك هـذا الزعم بمغـالاة شـديدة . فلم يكتف باظهار العقد الذى اشترى بموجبه حقوق الناشرين الأصليين ، ولكنه أبرز أيضا ترخيص الحكومة الفرنسية ، وباع حصته كاملة من امتيازه لحفنة من الشركاء ، لمدة محدودة ، اذ كان يعيد البيع والشراء ، لشركاء جـدد ولاصدار طبعـات جديدة .

وأول موسوعة يصدرها بانكوك هى الطبعة الثانية (وكانت اعادة طبع فى حجم الفوليو ١٧٧١ ـ ١٧٧٢) . وتعد هذه السنوات من السنوات العصيبة فى تاريخ تجارة الكتب من تأثير الاجراءات القمعية التى اتخذتها حكومة الثالوث (ميرابو ـ وتيراى وأجيلون) ، ومن ثم رأى بانكوك طباعتها

(*) Société Typographique de Neuchâtel.
Recueil des planches sur les sciences, arts et metiers.

(**) استخدام مصطلحى droit و Privilège .

فى جنيف بمعرفة شركائه السويسريين ، ومن بينهم ناشر فولتير (الملك جبريل) كرامر . وكانت عملية الطباعة عاصفة حفلت بالمشاجرات مع الشركاء ، وبالصراع مع موسوعة « بروتستانتية » منافسة ، وتخللتها معركة خاسرة مع الحكومة الفرنسية التى صادرت ستة آلاف مجلد كان بانكوك قد طبعها فى باريس أصلا . وأما هل ساعده النجاح فى اصدار هذه الطبعة على احداث « فرقعة » فى السوق الفرنسية فأمر غير معروف، الا أن الصعوبات التى واجهته لم تثبط عزيمته . وكانت الابواب تفتح على مصراعيها عندما يدخل بوابة دار الحكومة بفرساى « وكأنه أحد كبار الوزراء » أما رسائله فكانت مرصعة بعبارات الحمـاية من كبار رجال الشرطة ، والمختصين بنشر الكتب والوزراء .

وفى ٣ يوليو ١٧٧٦ ، باع بانكوك نصف أرباحه من ملكيته لامتياز اصدار الموسوعة مقابل ١٤٣٫٠٠٠ لاحدى دور النشر (*) ، التى تعد من أهم دور النشر الفرنسية خلال العشرين سنة السابقة للثورة . وبعد أن أضاع الوقت فى التخطيط لنشر اعادة طبع أخرى ، قرر هذا الاتحاد الجديد اصدار طبعة مزيدة منقحة ، ورئى أن يتولى اعادة كتابة النص نخبة من الفلاسفة الجهابذة من بينهم مارمونتيل وموريليه ولاهارب ودارنو وسانت لامبير وتوماس وتحت اشراف سويار ، ويساعده دالمبير وكوندورسيه ، ولم يضم بانكوك اليهم ديدرو « لأنه عنيد (**) ويطلب مبلغا خرافيا ، وربما أشعرنا بالاحباط » ، ولكنه اعتمد اعتمادا كبيرا على دالمبير بحكم قدرته على التأثير على الملك فردريك الثانى ملك بروسيا . ولعله يقنعه بقبـول اهدائه العمل الجـديد . وبحث دالمبير أيضا فكرة كتابة تاريخ للموسوعة فى الطبعة الجديدة . غير أن هذا المقال مات قبل أن يرى النور ، مثل الكثير من الكلاسيكيات الأخرى التى لاقت نفس المصير كتاريخ الحركة البروتستانتية الفرنسية لراينال وتاريخ وزارة تيرجو لفولتير . فلم تتجاوز هذه الأعمال مرحلة المشروعات التى تلقت ضربة قاضية عند عرضها على بساط البحث على الكتاب والناشرين . وفى آخر الأمر أحبط مشروع انتاج هذه الموسوعة رغم الخطط الهائلة التى أعدها مساندوها ، بعد أن ظهرت طبعة منافسة برخص ثمنها . انها الطبعة الكوارتو ، التى أصدرها جوزيف دوبلان من ليون ١٧٧٦ ، والذى قام بدور الخصم فى هذه الرواية ، ويعد واحدا من أجرياء القراصنة فى عصر « الأسلاب الرأسمالية » .

(*) أصدرها Barthelemy de Félice فى Yverdon
Société Typographique de Neuchâtel.

(**) Une mauvaise tête.

وخصص دوبلان دار نشره علي غرار كثيرين من المشتغلين ببيع الكتب ونشرها فى الأقاليم لنشر الكتب الرخيصة أو المنقولة عن طبعات أخرى من انتاج دور النشر التى انتشرت خارج حدود فرنسا ، هربا من قيود « الامتياز » والرقابة على الفكر التى خنقت دور النشر المستحدثة داخل فرنسا · واشتم دوبلان رائحة الكسب من امكانية اصدار طبعة من الحجم الكبير للموسوعة ، وأعلن افتتاح باب الاشتراك فى الطبعة الكوارتو الرخيصة التى تتالف من خمسة أجزاء من الأجزاء التى ظهرت فى النص الأصلي · ولجأ فى سبيل حماية نفسه الى نسبة الطبعة لجان ليونارد بيليت ، وهو من أصحاب المطابع فى جنيف ، وكافاه بثلاثة آلاف نسخة نظير قيامه بدور خيال المآته · وعندما اطمأن الى زيادة الاقبال على حجز نسخ من الموسوعة ، تعاقد دوبلان على الطباعة هو والعديد من المحلات فى جنيف محتفظا بالأعمال المالية والادارية لنفسه ، وعول على امكانية نقل الكتب الى فرنسا اما بالتهريب ــ اذ كان يتمتع بنفوذ كبير عند نقابة بائعى الكتب فى ليون ، بالرغم من قوة أعدائه فى نقابة باريس ــ أو بالحصول على التزام السلطات الفرنسية للحياد ، ولكنه لم يعمل حسابا لبانكوك ·

وكان أمام بانكوك احتمالان : اما أن يصرع دوبلان ، أو ينضم اليه واستهوى الحل الأول بانكوك ، لاقتناعه بامكان الاستناد الى الحماية بطريقة فعالة تمكنه من سد قنوات التجارة فى الكتب فى السوق السوداء · غير ان نجاح « الاشتراك » فى الحجز ، زاد من اغرائه · وكان بانكوك يعرف كل خطوة يخطوها دوبلان بفضل التقارير السرية التى كان يتلقاها من أحد باعة الكتب(*)·وكان رجنولت يعرف أن الاشتراك يعنى البيع عن طريق المضاربة ، وأثبتت المعلومات المتلقاة « من شتى الأنحاء » ، بأن الطبعة الكوارتو من الموسوعة ستحقق أعظم ربح حدث خلال القرن·ومن ثم طرح رجنولت جانبا مشروع اصدار طبعة منقحة ، وتباحث هو ودوبلان فى وسيلة أخرى ، فباع احتكاره للامتياز القانونى الذى يبيح له النشر مقابل وقف الاشتراكات · وفى ١٤ يناير ١٧٧٧ ،وقع الاثنان (بانكوك ودوبلان)، ما أصبح يعرف فيما بعد «بمعاهدة ديجون» واتفق الاثنان على أن يتقاضى كل منهما نصف الربح فى مشروع الكوارتو الذى قسماه فيما بعد على شركائهما (وانتهى الأمر بحصول الجمعية الطباعية(**) على خمس المشروع الكلى لصالحها) والتزم دوبلان بادارة الانتاج والتوزيع والتمويل للطبعة تبعا لشروط حددت تفصيليا فى العقد ، وتعهد بانكوك بالتزويد بنصف رأس المال ، وبثلاثة أخماس الزنك وبتغطية المشروع بحماية امتيازه · ولم يكن البند الأخير ميزة هينة ، ففى أغسطس ١٧٧٧ ، كتب بانكوك

(*) Gabriel Regnault.

(**) Societe Typographique.

« سيحمى مدير المكتبة (*) مشروعنا » ، بل ومنح بانكوك تصريحا بتوريد الكتب الى مخازنه فى باريس مباشرة ، متخطيا الجمارك ونقابة بائعى الكتب والرقابة • وفى ذات الوقت ، كتب توجيها للمسئول عن رقابة الكتب المصدرة فى ليون بالتصريح بمرور الصناديق المشحونة من سويسرا ، وكأنه وزير من الوزراء ! • والواقع أن بانكوك قد أحكم تمثيل دوره حتى انخدع أصحاب المطابع السويسرية ، وأقدموا على تعبئة شحناتهم من كتب الموسوعة المحظورة ، وبدلا من أن تضطر السلطات المسئولة الى استخدام قوتها ، كما فعلت فى خمسينات القرن الثامن عشر ، فقد وزعت الموسوعة تحت اشراف المسئولين وحمايتهم • وساعدت هذه الحماية على التمويه ، وتوزيع الكتب التى أرادت الدولة مصادرتها •

ولم يخطر ببال بانكوك ودوبلان أن مثـل هذه العملية التهريبية البسيطة ستجر فى ذيلها ابتزازا • فقد وجها كل عنايتهما للحصول على الحد الأقصى للربح ، وأثبتت الطبعة الكوارتو أنها عمل مربح الى درجة غير مألوفة • فلقد تدفقت الطلبات من كل حدب وصوب ، وجنى البائعون ثمارا لم يسمع عنها من قبل ، ودهش البائعون لما حدث من نهم لاقتناء الموسوعة ، فقبل ذلك ، كان الاقبال خامدا عند الزبائن الذين عجزوا عن شراء الطبعات الفوليو•وكتب أحد الزبائن من مستريخت(**) : « لم يسبق ظهور كتاب انتشر مثل هذا الانتشار » وكتب رسبلاندى من تولوز « لقد ملأت الموسوعة شوارعنا » مرددا نفس الملحوظة التى رددها أحـد باعة الكتب فى ليون « كأن مدينتنا قد أصبحت مرصوفة بالموسوعة » • وقال بانكوك مبتهجا : « تجاوز نجاح الطبعة الكوارتو كل توقع » • وعند فتح باب الاشتراك ، كان دوبلان يحلم أحلاما بعيدة المنال ، اذ كان يأمل فى بيع أربعين ألف نسخة • وامتلأ باب الاشتراك حتى فاض بسرعة مذهلة • ومن ثم فتح دوبلان بابا آخر للاشتراك ، بلغ عدد ما حجز فيه ثمانين ألف مجموعة (تحتوى كل مجموعة على ٣٩ مجلدا) وهذا عدد غير عادى فى عصر كانت فيه طباعة المؤلفات المكونة من مجلد واحد لا تبيع أكثر من ألف نسخة •

ويفسر ما حدث من تعاقب للاشتراكات سر اختفاء الطبعة الثانية الكوارتو ، وبذل كتاب الببليوجرافيا جهودا مضنية بحثا عن هذه الطبعة

(*) Le Camus de Neveille.

(**) Dufour – وميستريخت Maestricht وهو اسم البلدة التى وقع فيها الاتفاق الشهير لتوقيت الاتحاد الدولى الأوربى والذى ما زال يشغل بال الأوساط العالمية، وتجرى الاستفتاءات الشعبية للاطمئنان الى حسن تقبل مختلف الأقطار الأوربية له قبـل وضعـه موضع التنفيذ •

الثانية،ولكنهم لم يهتدوا الا للطبعة الأولى أو طبعة بيليه(*)، أو الطبعة الثالثة للموسوعة الكوارتو • والتزم دوبلان بطباعة النسخ المطلوبه للاشتراك الثاني،الى أن وصل عمال الطباعة الى الفرخ T من المجلد السادس ، وجرى ذلك باستخدام آلة طباعة طاقتها الانتاجية أربعة آلاف نسخة • وأصدر دوبلان توجيهات باعادة طبع ألفي نسخة من كل ما أتموا من طباعة ، على أن يواصلوا العمل بعد مراعاة زيادة طاقة الانتاج الى ستة آلاف نسخة • وهكذا لا يصح القول بوجود طبعة ثانية قائمة بذاتها • وتوافق فتح باب الاشتراك للمرة الثالثة هو والطبعة الثالثة المنفصلة ، بعد اعادة صف كل فرخ،وانتاج ألفي نسخة • ويتم المظهر العام لكل صفحة ، وطريقة توضيبها على ان هذه الطبعة هي بعينها الطبعة الثالثة الصادرة في نويشاتل بمعرفة « الجمعية الطباعية » • وليس من شك أن هذه الطبعة كانت مجرد حيلة ابتكرها دوبلان لتضليل المشـــتركين الذين شعروا بالامتعاض من الطبعة الرديئة التي أصدرها بيليه • والواقع أن الجمعية الطباعية لم تتول طبع أكثر من مجلد واحد في طبعتهـــا ، وأنتجت أربعة مجلدات من تلك التي ظهرت باسم بيليه • وفي كل حالة ، كان دوبلان يجري تعاقدا فرعيا للطبع، ويتخفى وراء اسم الجمعية الطباعية الزائفة •

واستعان دوبلان بعمال طباعة من نويشاتل وجنيف وليون وتريفو وجرينوبل ، وشغل أكثر من أربعين مطبعة لاخراج حوالي ربعمائة ألف مجلد • وتطلب انتاج مثل هذا القدر من الكتب ، وتوزيعها ، حشد أكبر عدد من عمال الطباعة لانجاز أضخم عملية طباعة في العهد السابق للعصر الحديث • وتكبد النشر تكاليف باهظة•فقد احتكرت الموسوعة زهاء سنتين ونصف عمليات الطباعة في جميع المنطقة المحيطة بليون ، واقتصر الأمر على طبعها هي وحدها باستثناء بعض المؤلفات الكنسية • هكذا ذكر أحد العملاء ١٧٧٨ ، واستغرقت جمعية الطباعين خمسة شهور لطباعة ستة آلاف نسخة من أحد الأجزاء الضخمة التي تحتوي كل صفحة من صفحاتها على عمودين • واحتاج تمويل ثمانمائة نسخة من كل مجلد من المجلدات الى رأس مال ضـــخم ســـاق بانكوك ودوبلان الى الالتجاء الى اتحاد البنوك الفرنســـية والسويسرية • ولاحظ العميل ذاته في ليون : ان كل من امتلك قليلا من المال ، واستطاع تخصيص جانب منه لشراء الكتب كل شهر أو كل سنة قد استثمره في مشروع اخراج الموسوعة الكوارتو • واستهلكت الموسوعة مقدارا كبيرا من الورق مما أدى الى تعذر عثور أحد البائعين على فرخ واحد يبيعه « للجمعية » لمواصلة الطباعة مما دفع هذه الجمعية الى ايفاد مبعوثين لها في شتى أنحاء فرنسا وغرب سويسرا بحثا عن كل رزمة ورق من القطع المربع مقاس ٥٠ في ٦٤ المعنب • ولم يتمكن عمال الزنكوجراف من ملاحقة

(*) Pellet.

المطابع وتزويدها بما يكفي من الحروف (وكانت أنسب حروف واصت الورق الكوارتو هي الحروف المسماه حروف الفلسفة) • وهكذا أخفق بعض العاملين بالطباعة في جنيف في بدء العمل وفقا للخطة الموضوعة • ١٧٧٧ ، واضطر العاملون بمطابع نويشاتل الى التوقف عن الطباعة في أحرج اللحظات بعد استلامهم برميلا من المداد الرديء ، بينما قام صانع الأحبـــار ــ وهو من البـاريسيين ويدعى لانجلوا ــ بندب حظه لارتفـاع التكاليف ، ولم يحصـــل على الأرباح التى كان سينفقها كأجـور لعمـال جنى محصول الزيتون الهزيل فى ميدى • واستغل « العربجية » الموقف بعد تلاحق الطلبات ، وطالبوا بزيادة أجورهم • وأحدثت الموسوعة حالة من الفوضى فى سوق الطباعة • ولم يقتصر الأمر على اضطرار المشتغلين بالطباعة الى السير مئات الأميال بحثا عن العمال ، ودفعهم شح الموارد الى شن الحملات للبحث عنها فى مختلف المحلات ، مع الاستعانة بجواسيس متخصصين فى الصناعة من أمثال أحد « الساعاتية » المعلمين فى جنيف (لويس مارسينيش) الذى كتب لجمعية الطباعين فى يوليو ١٧٧٧ :

« لقد أفسد بيليه وباسومبير بوعودهم المبالغ فيها الكثير من العمال، واستنفدوا كل ماعثر عليه فى محلات الطباعة القريبة،ولكنهما لم يرغبا دفع ما هو أكثر من ١٥ فلورين و ١٥ سول من استحقاقاتنا عن كل فرخ ورق • ومن هنا صمم عدد لا بأس به من العمال على تركنا لأنهم يطالبون بمبلغ ١٧ فلورين عن كل فرخ • والرجل الذى سيتركنا هذا الأسبوع قاصدا نويشاتل واحد من هؤلاء ، واسمه كايزل • وهناك اثنان من المشتغلين بالطباعة وعدانى بالحضـــور للتباحث ، وفى نيتهم الرحيل أيضـــا • ولن أتردد عندما تسنح الفرصة فى موافاتك بأسماء الساخطين من محلات بيليه وباسومبير ونوفر » •

وباختصار ، لقد أحدثت الموسوعة الكوارتو ردود فعل حتى فى القطاعات الاقتصادية البعيدة عن الطباعة • فلقد استدعى الموقف شغل عالم بأسره من جامعى « الخرق » وزارعى الزيتون والممولين والفلاسفة الذين تعاونوا لخلق عمل مكافىء للجهود المادية التى بذلت فيه ولرسالته الفكرية• فبوصفها شيئا ماديا ، فلقد اشترك فى انشاء الموسوعة استجابة لمتطلباتها المادية وكأداة للفكر ألف من العلوم والفنون والحرف ، ولعلها مثلت عصر التنوير روحا وجسدا •

ولا يستبعد أن يكون ناشرو الموسوعة قد أمضوا وقتا طويلا ، واجروا عمليات حسابية عديدة لتقدير التكاليف والارباح لتحقيق مثل هذه الفكرة السامية•وقدرت جمعية الطباعين الايراد الكلى للمشروع بمليونين وربعمائة وخمسين الفا واثنين وتسعين جنيها،أما التكاليف فكانت مليونا ومائة وسبعة

عشر ألفا وثلثمائة وأربعة وخمسين جنيها • وبذلك يكون الربح الصافى قد ناهز مبلغ مليون وثلثمائة وستة وثلاثين ألفا وسبعمائة وثمانية وثلاثين جنيها • وبعبارة أخرى فقد حقق المشروع عائدا يقدر بمائة وعشرين فى المائة من التكاليف الفعلية • فلا غرو اذا اعتبروا هذه العملية أروع عمل يمكن أن يجرى فى عالم النشر ، أو اذا اشتعلت بسببها نيران مريعة من الحروب التجارية •

ولم يبق أمام دوبلان الذى قدم الطبعة الكوارتو كمغامرة شخصية ، وبعد أن اعترف ـ شرعيا ـ بمغامرته غير دفن ما اقتنى من ثروات • وظهر قراصنة آخرون سايروا الربح السائدة ، وتسابقوا فى هذا المضمار • فأولا حملت الأنباء خبر ظهور طبعات مزيفة منافسة من جنيف وأفينيون • وبعد أن اطلع بانكوك على هذه الأنباء ، اعتقد أنها مجرد خدع ، واستشار رفاقه فى طريقة الخروج من المأزق ، وأخطرهم أنه رتب الأمور للحيلولة دون دخول أى كتاب من هذه الطبعات الى فرنسا : « وهل يتحقق أى نجاح بغير نساء » ؟ ولقد أصاب القول • وجاء اعلانه كوسيلة لايقاف ناشرى الكوارتو عند حدهم وارغامهم على دفع فدية ، وهدد باضطراره الى المضاربة وبيع الموسوعة بالخسارة ما لم يدفعوا مبلغا من المال من قبيل التعويض وحماية حقوق النشر • ويكمن الخطر فى الحكم على هذه المباراة فى تعذر التفرقة بين الهجوم المخادع والهجوم الحق ، حتى يتضح موقف من هاجمهم• وبعد أن اختفت من الأفق طبعات الكوارتو فى جنيف وأفينيون ، أعلن « جرابيت » و « باريت » من ليون خططا لنشر موسوعة أخرى فى حجم الكوارتو ، وأثبتا أنهما لم يقصدا أى استغلال بدليل طبعهم مجلدات قليلة• ورأى دوبلان وبانكوك ان الأحكم فى هذه الحالة هو الاستسلام ، وقررا تعويض جرابيت وباريت بمبلغ ٢٧٫٠٠٠ جنيه لتسوية هذه الأزمة ، وهو مبلغ يتساوى تقريبا مع أجر العاملين معهم فى الطباعة طيلة حياتهم ، وتلقيا فى المقابل وعدا موثقا بالامتناع عن أية أعمال تزييفية أخرى ، ثم عرفا اعتزام اتحـاد الناشرين فى لوزان وبرن اخراج طبعة ربما كانت أصغر وأرخص من الموسوعة (الحجم الاوكتافو) يمكن أن تباع بحوالى مائتى جنيه ، وصمم دوبلان وبانكوك هذه المرة على الصمود والقتال •

وفى البداية كان ناشرا الطبعة الكوارتو يأملان فى تعرض مغامرة الاوكتافو للخسارة ، وتنذرا على ما سيحدث لقراء هذه « الطبعة المنمنمة» وتنبآ بتعرضهم لفقدان الابصار ، وأعلن بانكوك : « ان هذه الطبعـة الاوكتافو قد تحدث بعض الفزع ، ولكنها لن تضرنا •• فمن الحماقة طبع الموسوعة فى مثل هذا القطع الصغير • وفضلا عن ذلك ، فاننا سنهتدى الى من يدافع عنا هنا • وأنا فى انتظار عودة الحاكم(*) حتى أوضح له كل شيء •

(*) Le Camus de Neveille.

وأعدكم بأغلظ الايمان بعدم دخول هذه الموسوعة الى فرنسا قط » • وأجابت الجمعية الطباعية : « انك تحمل مفاتيح المملكة » • ولكن التقارير التى جاءت من بائعى الكتب فى الأقاليم أفادت بأن اشتراكات الاوكتافو تباع على نحو مذهل يتماثل وما حدث فى حالة الكوارتو • ومن ثم بدأت جماعة الكوارتو فى التشاور ، لا بغرض المصالحة ، وانما لتأخير تنفيذ الأوكتافو الى أن يكتمل « الكوارتو » ، ويعلن عن ظهور الطبعة الجديدة المنقحة ، وبذلك يقطعون الطريق أمام سوق الأوكتافو • وأدرك ناشرو لوزان وبرن هذه الخطة — وكانوا من المحنكين فى النشر على طريقة القراصنة — بعد قليل من المفاوضات ، وصمموا على المضى قدما فى طباعة الاوكتافو • وحاول دوبلان اكتساحهم بعملية هجوم بالمواجهة ، فنشر اعلانا يفيد احتمال اصدار جماعة الكوارتو طبعة جديدة بسعر أرخص من طبعة الأوكتافو فى لوزان وبرن • وفى أول نوفمبر ١٧٧٧ ، هددت لوزان وبرن بالثأر : اسحبوا تصريحكم فى غضون خمسة عشر يوما،والا سنضطر لتخفيض السعر الخاص بالاوكتافو الى مستوى سعركما ، وسنقضى على طبعتكما الكوارتو باصدار طبعتنا بسعر أرخص :

« عليكم أن تقبلوا عرضنا ، وأن تخفضوا سعركم • فبهذه الطريقة سيذبح كل منا الآخر • ولكنكم كنتم البادئين ، (والبادى أظلم) • وقد فرضتم علينا هذه الضرورة ولا تظنوا أن هذا التهديد تهديد أجوف • فالبرامج جاهزة ، ولدينا نفس الحروف وآلات الطبع الضرورية تحت امرتنا فى ايفردون » •

وارغمت هذه المناورة دوبلان على التراجع ، ولكنها أسفرت أيضا عن اشتعال الحرب سافرة • فعلى الرغم من استمرار المفاوضات بلا توقف — وهذا أمر مألوف فى حروب القرن الثامن عشر — فان كل طرف قد استمر فى حملته بلا هوادة ، محاولا تحطيم سوق الطرف الآخر •

واعتمدت جماعة الاكتافو على استراتيجية التهريب ، وجمعوا الاشتراكات المطلوبة ، وارتكنوا على امكان الاتصال بزبائنهم من خلال السوق التحتية لتجارة الكتب فى الخفاء (السوق السوداء) • ورسمت جماعة الكوارتو خططها على أساس اقامة تحصينات ضد هذه السوق ، فوعد بانكوك شركاءه : « أؤكد أنهم لن يحاولوا اقتحام فرنسا • ولقد وعدنى الحاكم بذلك • ولعلكم تعرفون أيها السادة أن التسلح بالامتياز يساعدكم على عدم التنازل عن حقوقكم مثلما فعلت • فدوبلان مضطر الى الاتفاق معنا ، لأن لدينا عقودا وامتيازا ، وسيسعى فريق لوزان للقيام بنفس الشيء » • ان امتلاك الامتياز والحماية ، الذى كاد يقضى على الطبعة

الأولى من الموسوعة قد استغل كخط دفاع أساسى فى محاولة انقاذ الطبعة التالية • فلقد حدثت عدة ظروف غيرت الحال عما كانت عليه فى عهد لويس الخامس عشر ، وظهرت أوضاع جديدة فى عهد لويس السادس عشر ، دعت الحكومة الى اعتبار الموسوعة صفقة تجارية أكثر من كونها مسألة أيديولوجية • ويوحى هذا التوجه الجديد بتغلغل معتقدات التنوير فى الحكومة ذاتها ، ولكنها لا تدل ـ حتما ـ على حدوث وهن فى الهمة • والواقع أن الصراع بين استراتيجية التهريب والاستراتيجية البوليسية قد جاء بمثابة اختبار لقدرة الحكومة على السيطرة على الكلمة المطبوعة •

وفى منتصف ١٧٧٨ ، أوفدت جمعية المشتغلين بالطباعة فى نوبشاتل مبعوثا(*) فى جولة فى جنوب فرنسا ووسطها•وكلف المبعوث بادىء ذى بدء بالتحقق من خطوط الامداد على الحدود الفرنسية السويسرية • وعرف عندما وصل الى سانت سولبيس (وهى آخر مدينة على الطرف السويسرى من الحدود) أن أدوات التهريب لميرون وشركائه قد تحفظت على خمسمائة قفص يتسع كل منها لحمولة قدرها خمسمائة رطل انجليزى) تحتوى المجلد الأول من الموسوعة الأوكتافو • ولقد أبلغه الاخوان ميرون ذلك بأنفسهم ، وهم يشعرون بما هو أكثر من الزهو بمهنتهم ، لا لأنهم أسلموا المجتمع ما هرب ، وانما كتعويض وقتى لبيون من بونتارلييه أول خطوط التهريب الذين يرغبون فى الحلول محله • وعلى الطرف الآخر من الحدود فى بونتارلييه ، أبلغ بيون « فافارجار » أنه شاهد خمس شهادات للاعفاء من الجمارك ـ أى من الضريبة الجمركية التى تستعين بها الدولة الفرنسية للتحكم فى الواردات من الكتب الأجنبية ـ حررت بمعرفة كابيل عن طريق الغش • وكابيل هو نقيب باعة الكتب فى ديجون • ولما كان كابيل مطلوبا للمساءلة بعد مصادرة الكتب التى صدرها ، فقد وعدت ديجون الآن بتخطى بيزانسون بوصفها المستودع الرئيسى لهذا الطريق التحتى ، كما أفصح فافارجار بلهجة المنتصرين عندما أخطر موظفيه بنقل « الاوكتافو » من برن الى سان سولبيس الى ديجون ، وأنها فى طريقها الآن الى باريس رأسا • وأخفت جمعية المشتغلين بالطباعة اسم كابيل آملة « أن يقدم لنا خدمة مماثلة مقابل مبلغ من المال » وروى باقى ما عنده من معلومات لبانكوك الذى نبه السلطات الفرنسية ، التى انتهى بها الأمر الى مصادرة الأقفاص ، ووضعت السلطات خطة أخرى لعملية مصادرة أخرى فى تولوز على سبيل المثال حيث ألحقت احدى المشاجرات الكبرى خسائر ضخمة بجماعة الاوكتافو • ولما جاء شهر أغسطس ، أورت التقارير الميدانية لفافارجار بتخلى المشتركين عن الاوكتافو ، واندفاعهم نحو ميدى • وفى بواكير

(*) Jean-François Favargar.

١٧٧٩ ، تقدم ناشرو الاوكتافو بطلب للمصـالحة مقابل دفع التعويض المناسب ٠

واستمرت المفاوضات طـوال العام ، بينما أنهت جماعة الـكوارتو تسوية أوضاعها فى فرنسا ، وحاولت جماعة الاوكتافو تعويض خسائرها عن طريق تسويق الموسوعة وسط أوربا ، وشرقها ٠ وأخيرا فى فبراير ١٧٨٠ ، باع بانكوك ترخيصه للنشر فى فرنسا الى اتحاد لوزان ــ برن لقاء ٢٤٫٠٠٠ جنيه انجليزى ، واعتبرت هذه الصفقة عملية بخسة ، لأنها تعادل ٨٪ من سعر الانتاج الجارى تقريبا ٠ وهذا يثبت الى أى حد استمرت قوة الطلب على الموسوعة ، فى حسابات الناشرين ، على أقل تقدير ، الذين اكتشفوا جماهير جديدة من القراء لم تبلغ حالة التشبع ٠ وفى آخر المطاف ، وبعد أن شعرت جماعة الاوكتافو بالامان ، زادت مطبوعاتها الى ستة آلاف نسخة ٠ وهذا يفسر سر فقدان الطبعة الأخرى ٠ وبذلك وقعت فى التو فى فخ آخر من فخاخ بانكوك ٠ ولما كانوا عاجزين عن الدفع الفورى له ، لذا أقنعوه بقبول فدية نوعية ، يعنى ما قيمته أربعة وعشرون جنيها انجليزيا من الموسوعة الاوكتافو ٠ وأغرق بانكوك السوق الفرنسية بالنسخ الاوكتافو ، بسعر مخفض ، ثم ربط الخسارة بمبيعات جماعة الاوكتافو مستقبلا ، بأن أشاع قرب اصداره موسوعة أخرى تجب جميع الموسوعات ٠ ولن تكون هذه الموسوعة الجديدة مجرد طبعة منقحة ــ كان قد خطط لها بالاشتراك مع جمعية المشتغلين بالطباعة ــ ولكنها ستكون موسوعة منظمة بطريقة علمية ٠ وكان عاكفا آنئذ على ترتيبها بمعاونة اتحاد من لييج ٠ ولم تكن هذه الضربة هى الضربة القاضية فى المعركة (تحت الحزام) ٠ فبعد ذلك بأربع سنوات ، اجتمع الأعضاء القدماء فى جمعية الاوكتافو ٠ ومن الغريب أن ينضم اليهم حليف بانكوك السابق ، يعنى جمعية المشتغلين بالطباعة ، التى أعلنت عن خطة لسلب الموسوعة التى وعد بها ٠ ولم تذهب هذه الخطة الى ما هو أبعد من مرحلة التخطيط ٠ ومع هذا فيمكن القول بأن حرب الكوارتو والاوكتافو قد انتهت بهزيمة لوزان وبرن ٠

لم تتسبب معارك النشر فى انقطاع تزود فرنسا بالموسوعات الرخيصة نسبيا ٠ والأمر عكس ذلك ٠ فقد أثبتت مدى شراسة كفاح الناشرين لاشباع حاجة السوق الفرنسية ، ومدى أهمية هذه السوق،وصورت أيضا الطابع العدوانى للمسئولين الاداريين عن النشر فى عهد التنوير بالمقارنة بصناعة النشر ذات الاتجاه المحافظ التى كانت خاضعة للروح النقابية داخل فرنسا٠ وأخيرا فانها كشفت عن عدم كفاية النظرة العامة ، التى اعتقدت أن التنوير و « الرجيم » كانا محصورين فى قتال حتى الموت ، لأن جماعة الكوارتو قد استطاعت السيطرة على السوق ، عندما تبنت الدولة استراتيجية تجمع بين

الحماية والامتياز ، وتمثل أساليب «النظام القديم» ، وتوحي بحدوث تحول في اتجاه الحكومة في منتصف سبعينات القرن الثامن عشر · فالكتاب الذى يصعب القول باستطاعته النجـاة من الاضطهاد على عهـــد لويس الخامس عشر ، قد أصبح الأفضل مبيعا ابان حكم لويس السادس عشر ، بعد رضاء الحكومة عنه ·

ودارت آخر معارك الموسوعة داخل فرنسا · انها معركة أهلية بين دوبلان ورفاقه · ففى فبراير ١٧٧٩ ، تقابلوا فى ليون لتقييم موقفهم · وعلى نقيض كل التوقعات ، ذكر دوبلان أرقاما متشائمة عن حركة البيع ، وأوضح رأيه بالقول بأن أوائل المشتركين قد « أحسنوا التعامل معنا » · ولعل هذا النجاح هو الذى أغرى الرابطة بالتوسع ، وربما تعد الطبعة الثالثة للموسوعة كارثة·وقد يستطاع انقاذها لو أمكن توزيع الألف مجموعة التى لم تبع ، على أن تتولى كل رابطة تسويقها فى الأماكن التى ارتفعت فيها المبيعات الى ذروتها ، وأيد بانكوك هذا الاقتراح ، لأن منطقة باريس كانت محجوزة له ، وكان بمقدوره توزيع حوالى نصف المجموعات الخمسمائة على « جمعية المشتغلين بالطباعة » · وبعد ذلك بستة شهور ، وفى تقرير اتسم بشدة الجهامة ، حذر دوبلان من عدم كفاية هـــذه المناورة ، لانقاذ الطبعة الثالثة · وأخبرهم أن مئات المجلدات ستصاب بالعطب بالمخازن ما لم تتخذ اجراءات حاسمة ، وأنه اكتشف لحسن الطالع تاجرا يدعى بيران · وهو من مجانين الموسوعات ، ومن ثم بات بمقدورهم اغراقه بالنسخ غير المباعة · على أن بيران طالب بشروط غير مألوفة كتخفيض يبلغ خمسين فى المائة · ولكن الحظ سيكون بجانبهم اذا نجحوا فى التخلص من فائض المخزون لديهم بأى سعر · وقد أبدى بيران استعداده للحصـــول على عدد ضخم ، يقدر بربعمائة واثنين وعشرين مجموعة ، بالاضافة الى ١٦٠ مجموعة من نصيب بانكوك (الف مجموعة) التى تقاسمها هو ودوبلان فى فبراير · واقر بانكوك الاقتراح · ولكنه فور توقيع عقد بيران ، شرع فى الكشف عن ارتيابه · فلقد سمع أن دوبلان قد حاول توريط صديق مشترك فى مؤامرة سرية لاغراق ســـوق باريس بنسخه من الكوارتو · واكتشف ما يكتنف رسائل دوبلان من غموض يدعو الى القلق ، فيما يتعلق ببيران الذى وصف بأنه « عميل تجارى من ستراسبورج ، ولديه أعمال فى ليون ـ أو ربما فى باريس بمعنى أصح ـ وأنه شديد الثراء ، مما يعنى امكان التجاوب معه » · وفى سبتمبر ١٧٧٩ ، أسر بانكوك الى جمعية المشتغلين بالطباعة ! « انى جد مقتنع بأن هذا (البيران) لا يزيد عن مخلوق من صنع الخيال ، أو على أقصى تقدير انسان هش ، والعوبة · فهو بخيل ، واصطناعه الرقة لا يخفى على أحد » · فقد أصـــبح مقتنعا بأن دوبلان « شخصية شريرة » ، وشره ويعبد المال الى درجة شعوره بالغضب من كل

ما يمس هذه الناحية » · وليست هناك أية حدود لضراوته ومطامعه·ونصح «جمعية المشتغلين بالطباعة» بايفاد جاسوس الى دكان دوبلان ، وان كانوا لم يشعروا بأية حاجة الى التشجيع على القيام بذلك لأنهم كانوا قد أقدموا على هذه الخطوة منذ أمد بعيد · والواقع أن جميع أعضاء الرابطة كانوا يتبادلون التجسس · فخصص بانكوك رجلا لمراقبة دوبلان ، وتلقى مواطنو نويشاتل تقارير سرية عن بانكوك ، وخصصوا عميلا لهم فى جنيف ، ونصب عميلهم فى ليون فخا من الجواسيس المندسين فى المصانع ، وتسنى لهم ايقاع دوبلان فيه فى فبراير ١٧٨٠ ·

وجدت شبكة ليون لاقتفاء أثر المراوغ بيران ، الذى اتضح أنه العوبة وعميل أجير لدوبلان · ثم أوقعته الشبكة فى فخ أكبر ، بعد أن عثرت على نسخة من قائمة سرية بأسماء المشتركين ، وتتضمن أيضا مقادير المبيعات الفعلية للموسوعة · ولم تشر القائمة الى مبيعات بيران ، ولكنها احتوت — بدلا من ذلك — على عدد من الاشتراكات يزيد بمقدار ٩٧٨ عن العدد الذى أبلغ عنه دوبلان فى آخر تسوية للحسابات فى فبراير ١٧٨٠ · وكانت جمعية المشتغلين بالطباعة قد ارتابت فى حدوث غش ، قبل هذا الاجتماع ، وتحققت من وقوعه ، بمجرد تقديم دوبلان لتقديره ، وكتبت الى بائعى الكتب الذين زيف عـــدد ما لديهم من مشـــتركين ، بعـد مقارنة الاشتراكات المبلغ عنها ، بما جاء فى القائمة السرية · وبذلك اكتشفت عدم توقف سيل الطلبات قط ، كما زعم دوبلان · وعلى العكس ، فقد بيعت الطبعة الثالثة عن بكرة أبيها بالسعر العادى ، باستثناء خمسمائة مجموعة استودعها « دوبلان » بانكوك · وهكذا اتضح اخفاء دوبلان حقيقة المبيعات حتى يستولىَ عليها بأكملها ، دون أن يدفع مقابل لخمسمائة نسخة من الموسوعة ، اشتراها وباعها للباقين بنصف السعر اعتمادا على الوسيط الزائف: بيران ·

وبدلا من أن يقنع دوبلان بهذه العملية المنحلة من الغش المزدوج ، التى تربح منها ما ينوف عن المائتى ألف جنيه ، تمادى فى عمليات الغش ، حتى أصبحت العملية جمة التعقيد ، بحيث يتعذر تفسيرها بالكامل · وأتاح له دوره كمدير عام للمشروع فرصا عديدة للاختلاس ، لأن رابطة الكوارتو منحته مبالغ طائلة لتغطية نفقاته · ، ومن ثم تعاقد على الطباعة هو والمتقدم بأدنى عطاء « ولهف » فى جيبه الفارق بين ما منح (بضم الميم) وما دفع·وغش أيضا فى تقدير أثمان الورق وتكاليف النقل ، بل واشترك فى تقنية تنسيق « الماكيت » والترقيم التى صممها أحد المختصين فى الطباعة من جنيف · وكشف فى هذه النواحى عن مهارته فى حيل الغش والتدليس · وهذه ناحية ربما بدت تافهة فى نظر أى نصاب مبتدىء ، ولكنها ساعدت على تضخيم الجزء التاسع عشر ، الذى أضيفت اليه ست وتسعون

صفحة بلا أدنى حاجة ، وقدر ثمنها بسبعمائة وأربعة وأربعين جنيها ، وقدر بانكوك وجمعية المشتغلين بالطباعة ما نال دوبلان من ردود الفعل القوية والعمولة المحرمة بمقـدار ١٢٧٫٠٠٠ جنيه ٠ وان كان هذا مجرد تقدير تقريبى ، لا أظنه يتوافق مع عبقرية دوبلان ٠ ولربما تجاوزت أرباحه ثلاثة ملايين من الجنيهات بفضل حساباته الغامضة ــ بقصد ــ والتى تخفت فى ثناياها اختلاساته ، التى اشتملت على بعض المصروفات النثرية والايرادات المشبوهة ٠ ولعل دوبلان قد احترف الغش فى كل صغيرة وكبيرة ٠ فمثلا نسب ٤٩٤ اشتراكا لمصنع ليون : أودانبرون وجوسينيه بالسعر المخفض (الذى يمنح عادة لباعة الكتب) بمقدار ٢٩٤ جنيها يضاف اليها مجموعة مجانية لكل ١٢ اشتراكا ، مما جعل المجموع الكلى يصل الى ٥٣٥ اشتراكا٠ واكتشفت الشبكة المناهضة لدوبلان أن « أودانبرون وجوسينيه » ما هما الا جهات زائفة نسبت اليها هذه القصص للتمويه ، بينما قام دوبلان فى الحقيقة ببيع هذه المجموعات (٥٣٥) بالسعر الكامل للاشتراك (٣٨٤ جنيها) وبذلك سلب الرابطة ما قيمته ٥٦٠٢٠٤ جنيهات !

ولما كان مشروع الكوارتو قد أدير بأسلوب المؤامرات من البداية ، لذا فقد انتهى بالتفجر وكأنه احدى نهايات الدراما البورجوازية ، أو « صراع الديوك عند الانجليز » على حد قول جمعية المشتغلين بالطباعة ٠ ولقد أخفت القوى المعادية لدوبلان شكوكها ، بينما كانت تجمع قدرا من المتفجرات يكفى لنسف دوبلان فى اللقاء الأخير لاجتماع الحسابات الختامية فى ليون (فبراير ١٧٨٠) ٠ ولم تكن عملية مواجهة المواربة سهلة ، كما اعترفت جمعية المشـتغلين بالطباعة لبانكوك : « لقد كنت حكيما عندما استشرتنا ، وطلبت موافقتنا على مداهنته وعدم اظهارنا لأى ضيق من مسلكه حتى ينكشف أمره،غير أنه بعد أن تدخل الشيطان،ازدادت صعوبة الموقف يوما بعد آخر » ٠ فعندما تكشفت الحقائق ، فاجأت الرابطة دوبلان بوابل من الاتهامات التى أعدوها فيما يقرب من السنة ٠ وقدموا صورة صحيحة من الحسابات ، وكشفوا عن تسلسل مذهل لعمليات الاختلاس ، وأماطوا اللثام عن مسألة بيران ، وانتزعوا علامات التمويه التى أحاطت « بأودانبرون » و « جوسينيه » ، وعرضوا القائمة السرية للاشتراكات مصحوبة برسائل من باعة الكتب تشهد بوفرة احداث الغش فى المبيعات٠ ولكن رغم كل ذلك ، فقد رفض دوبلان التداعى والاعتراف ، ومن ثم شنوا حملة على مكتبه ، بمرافقة مندوب من الشرطة والمدعى العام وأحد المحضرين، وطالبوا بجرد أوراقه ، وأثاروا أسرته وأصدقاءه ضده ، وهددوا بتحطيم اسم الأسرة بالكشف عن المسألة برمتها للكافة ٠ وأخيرا استسلم دوبلان ووافق على تعويض شركائه بمبلغ مائتى ألف جنيه ، اذا واروا كل شىء عن الأنظار ، ومازالت المسألة مستترة حتى اليوم ٠

فأى نوع من الرجال كان هذا الدوبلان ؟ وللسؤال جاذبية خاصة تهم التاريخ الاقتصادى ، وتاريخ النفس الانسانية على السواء · لقد كان دوبلان من « شيوخ المنسر » فى تجارة الكتب ، ومقامرا يغامر بالتعرض لأخطار فادحة فى سبيل الحصول على أرباح عالية ، واستطاع أن يجعل من « التنوير » موردا للاستغلال · فلقد صمم على المجازفة بكل شىء فى سبيل الموسوعة الكوارتو · فباع محله ورصيده من الكتب وبيته ومفروشاته ، وانتقل للاقامة فى غرفة مفروشة حتى يتفرغ لمهمته الكبرى · ثم حالفه الحظ فى أوراق لعبته ، فقد نجحت هذه المقامرة فى اثرائه ، الذى لم يتأثر حتى بعد أن أجرى تسوية المائتى ألف جنيه · وبمجرد أن أدرك ما أصابه من ثراء ، بدأ فى تخطيط خطوات حياته · فحصل أولا على زوجة جميلة من ليون أسرت لب بانكوك ، ثم حصل على صنعة فى الريف ، وأخيرا حصل على وظيفة رئيس الخدم الخاص بالملك (*) ، وهو ما يعنى انضمامه الى طبقة الاشراف · وكان يخدم الملك فى أوقات العمل الرسمية فى فرساى ، ويعيش برفقة زوجته حياة مترفة بغيضة فى باريس ، قبل أن ينتقلا منها للاقامة فى قصره ·

فما هى العبرة المستقاة من هذه القصة ؟ انها دراما تذكرنا ببلزاك · قصة رجل أعمال بورجوازى شق طريقه الى القمة ، ثم استهلك ثروته فى المظاهر ، وفى حياة ارستقراطية ، بعيدا عن الناس · انها قصة أسطورية للثروة المقتناة من عمليات النشر ، وما يصحبها من أوهام ضائعة (**) · ويصح أن توصف أيضا بقصة الرأسمالية الفرنسية · وأعظم ما فيها من سخرية أن تكون الوسيلة التى اعتمد عليها دوبلان فى تسلقه الى قمة النظام البالى للطبقات فى فرنسا قبل أن يقضى عليه بسنوات قليلة ، هى موسوعة ديدرو · ولعل باستطاعتنا الاستناد الى قصة دوبلان كتحذير ضد الافراط فى الوثوق فى التحاليل الاجتماعية من النوع الذى سيجىء ذكره · فحتى اذا أمكنك ادراج شخص ما ضمن فئة اجتماعية واقتصادية ما · فلربما يكون قلبه فى موضع آخر · نعم لقد اتضح أن الرأسمالى البورجوازى الكامل دوبلان من النبلاء الزائفين ، أو هل يصح القول بأن الطبعة الثالثة المنتحلة للموسوعة كانت هى جوهر البورجوازية الفرنسية ؟

وربما استطاع التاريخ « الجوانى » للحرب بين من أصدروا الموسوعة أن يكشف شيئا ما عن روح الرأسمالية وطبيعة رجال الأعمال فى بداية عهد فرنسا الحديثة · غير أن هذا التاريخ لن يجيب على التساؤل الاكبر حول ماهية ما دار من معارك · بطبيعة الحال ، لقد كانت رأسمالية الأسلاب

(*) Maitre d'hôtel du Roi.

(**) illusion perdues.

تشن من أجل الأسلاب · فقد أدرك بانكوك وغيره من القراصنة من أمثال دوبلان والسويسريين ، ومن سار على هديهم من مموليين ومهربين وبائعين متجولين ، أن باستطاعتهم اقتناء ثروة ضخمة ان هم تجاوبوا والمطالبة الرهيبة للسوق فى فرنسا بطبعة شعبية لهذا العمل الجبار الذى ظهر فى عصر التنوير · وتوحى شراسة المنافسة لتحقيق هذا المطلب بشيوع الاهتمام بمعتقدات التنوير وذيوعها على نطاق واسع فى فرنسا بين الجماهير العريضة ، ان لم يصح تسميتها بطبقة عامة الناس ، ولكن ما هو طابع هذه الجماهير ؟ يتماثل هذا السؤال هو والكثير من مشكلات سوسيولوجية الأدب فى صعوبة اجابته ، وان كان بمقدورنا تحديد المظاهر الخارجية لطبيعة قراء الموسوعة · فاولا لابد أن نستعرض الحقائق الأساسية المتعلقة بطبعات نص ديدرو · ولعل هذا الغرض سيساعدنا على التعرف على المستويات الاقتصادية لمختلف أنماط المستهلكين · وأخيرا فبمقدورنا أن نحاول بيان التوزيع الجغرافى والاجتماعى للطبعات الكوارتو ، والتى كانت الى أبعد حد الأكثر عددا فى فرنسا ما قبل الثورة · واذا صرفنا النظر عن الطبعات الايطالية التى نشرت (بالفرنسية) فى لوكا ولجهورن والموسوعة البروتستانتية المنقحة التى نشرت فى ايفردون بوساطة بارتليمى دى فليس والموسوعة المنهجية ـ العمل الذى أعيد ترتيبه بالكامل ويقع فى اثنين وعشرين مجلدا ولم يكتمل حتى ١٨٣٢ ـ فاننا سنرى أن نص ديدرو قد مر بمراحل أربع أساسية :

١ ـ الطبعة الأولى (١٧٥١ ـ ١٧٥٢) وهى طبعة فوليو مكونة من سبعة عشر مجلدا ، وتحتوى على متن و١١ لوحة متبوعة بملحق(*) من خمسة أجزاء ، وبعض الجداول التحليلية فى جزءين · وطبع منها ٤٢٢٥ مجموعة ، لم يبع منها أكثر من نصفها ، أو ربما ربعها فىفرنسا · وكانت قيمة الاشتراك ٨٩٠ جنيها وتراوح سعرها فى السوق فى سبعينات القرن الثانى عشر بين ١٢٠٠ جنيه و١٥٠٠ جنيه ·

٢ ـ الطبعة المعادة فى جنيف (١٧٧١ ـ ١٧٧٦) وصدر منها نفس عدد مجلدات الطبعة الفوليو ، وطبع منها ٢٢٠ مجموعة · وكانت قيمة الاشتراك ٧٩٤ جنيها ، ولكنها كانت تباع سنة ١٧٧٧ بمبلغ سبعمائة جنيه بعد منافسة الطبعات الكوارتو لها ·

٣ ـ الطبعات الثلاث الكوارتو (١٧٧١ ـ ١٧٨١) وتناظر الاشتراكات الثلاثة لدوبلان · وظهرت بمعرفة بيليه وجمعية المشتغلين بالطباعة فى نويشاتل ، كما ذكر آنفا · واشتملت الطبعات الكوارتو على ستة وثلاثين

(*) Supplément.

مجلدا تحتوى على المتن ، وثلاثة أجزاء تضم اللوحات • وتشتمل هذه المجلدات فى جملتها على ٨٠١١ مجموعة • وقد بيعت بأكملها تقريبا بقيمة الاشتراك (٣٨٤ جنيها) • ثم خفضت قيمة الاشتراك للأفراد وبائعى الكتب الى ٢٩٤ جنيها ، مع اهداء نسخة مجانية لكل ١٢ طالبا •

٤ ــ الطبعتان الأوكتافو (١٧٧٨ ــ ١٧٨٢) • ويعدان بالفعل طبعة واحدة مزيدة مقابل اشتراكين ، ونشرت فى لوزان وبرن • وتضم الطبعة الأوكتافو ٣٦ جزءا من المتون وثلاثة أجزاء من اللوحات • وقد ظهر منها ستة آلاف مجموعة بيع كل منها بمبلغ ٢٣١ جنيها •

وتستخلص من هذه الوقائع والأرقام احدى النتائج المدهشة وهى وجود أعداد من الموسوعة فى فرنسا ما قبل الثورة الفرنسية تجاوز كل ما يخطر ببال البشر باستثناء الناشرين فى القرن الثامن عشر • وعلى الرغم من تعذر اجراء حسبة دقيقة لعدد ما بقى من نسخ اعتمادا على معرفة أعداد المشتركين التى وردت فى مستندات الناشرين ، الا أن هذا لن يحول دون اجراء مثل هذا التقدير على نحو بعيد عن الزلل • فقد وجد فى فرنسا ما بين أربعة عشر ألف مجموعة وستة عشر ألف مجموعة من الموسوعة قبل ١٧٨٩ ، ولن يتعذر تتبع آثار نصفها ، ومن ثم فبغير ادعاء معرفة كل من مجموعات الموسوعة قد قرئ ، أو على أى نحو استجاب القراء لها ، فان بوسعنا حقا أن نزعم انتشار التعلق بالموســوعة فى المجتمع الفرنسى على نطاق أوسع مما يعتقد بوجه عام •

وبعد أن تطورت طباعة الموســوعة من طبعة لأخرى ، تناقص حجم صفحاتها ، وقل عدد اللوحات ، وانحط مستوى الورق ، وانخفض سعرها• وبعد أن تناوبت دور النشر اخراج الموسوعة ، فانها مدت شباكها لاجتذاب جماهير جديدة ، مما أدى الى وصول الطبعات الجديدة الى قطاعات قصية من جماهير القراء • ويبين من تنوع أسعار الموسوعة ، على نحو دفع من يقتنونها الى المفاضلة بين مختلف الطبعات ، الحدود التقريبية لما حدث من اتساع فى نمط المبيعات • اذ كانت الطبعة الكوارتو تتكلف أكثر من ربع سعر أول طبعة فوليو ظهرت فى سبعينات القرن الثامن عشر ، بينمــا لم تتكلف الطبعة الاوكتافو ما هو أكثر من الخمس • ولكن ما هى الحدود الاجتماعية « لاستهلاك » الموسوعة ؟ • ربما بدا هذه السؤال غير مناسب لأن علم الاقتصاد لا يقدم تفسيرا لما يعنيه مصطلح « استهلاك الكتاب » ، لأن عملية شراء الكتاب شيء ، وعملية قراءته شيء آخر • ومع هذا فان بيع الكتاب اجراء مهم اذا نظر اليه من الناحية الثقافية والناحية الاقتصادية معا ، لأن هذه الظاهرة تزودنا ببعض دلائل عن مدى انتشار الأفكار خارج الوسط الفكرى ، الذى جرت العادة على تركز التاريخ الحضارى أو الثقافى.

عليه • ولما كان لم يسبق على الاطلاق اجراء دراسة لمبيعات أى كتاب فى القرن الثامن عشر ، لذا يعد تحليل مبيعات أهم سفر ظهر فى عصر التنوير مسألة فائقة الأهمية •

وبمقدورنا أن نقيم مدى اقتراب « الموسوعة » من الاحتكاك بالطبقات الدنيا ، اذا ترجمنا قيمتها الى خبز ، يعنى الى السلعة الرئيسية فى مائدة « النظام القديم » والعنصر الأساسى فى غذاء معظم الفرنسيين • وسنرى آنئذ أن أول موسوعة فوليو تعادل حوالى ٢٥٠٠ رغيف من الخبز • وتعادل الموسوعة الكوارتو ٩٦٠ رغيفا من خبز الشيلم على أساس ثمانية « سو » لكل أربعة أرطال فى خبز الشيلم فى باريس ما قبل الثورة • ولما كان العامل غير الماهر المتزوج ولديه ثلاثة أولاد يحتاج لشراء مالا يقل عن ثمانية أرغفة لتغذية أسرته ، وينفق فى أوقات اليسر نصف دخله على الخبز ، لذا تحتل الطبعة الرخيصة من الموسوعة الكوارتو ما ينوف عما يحتاجه اقتيات أسرة فى سنة على وجه التقريب • ويبدو بعيدا عن التصور احتمال شراء عاملنا للموسوعة ـ بفرض تمكنه من قراءتها ـ فلعل هذه الصفقة أقرب شبها باحتمال شرائه لقصر من القصور ! وربما تكبدت أسرة العامل فى سبيل شراء نسخة من الفوليو أجر ٩٣ أسبوعا • وتعادل الطبعة الكوارتو أجر ٢٦ أسبوعا والاوكتافو أجر ١٥٪ أسبوعا • ومن ثم كان من المستبعد أن تقدم الشريحة العليا من الطبقة العاملة والحرفيين أى أولئك الذين اشتركوا فى طبع الموسوعة ، على تحمل تكاليف شرائها •

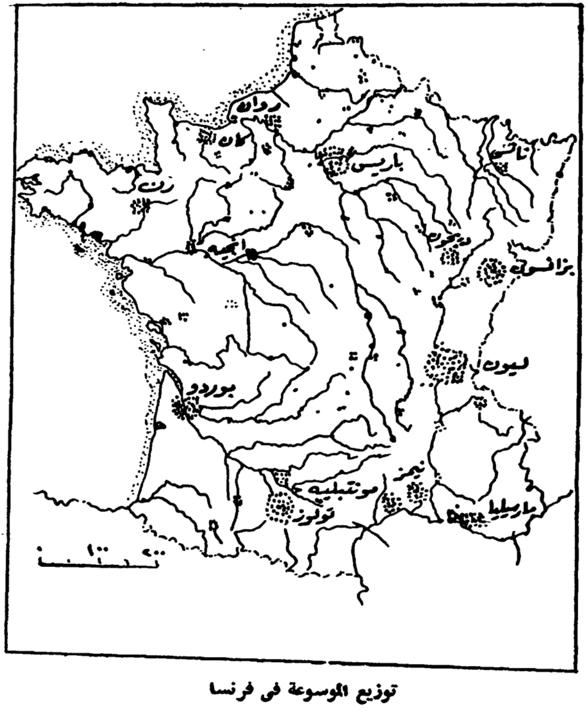
أما من اشتركوا فى تحريرها من صغار الكتاب(*) المدرجة أسماؤهم فى صفحة العناوين ، فقد كان باستطاعتهم شراء الطبعات الأرخص • وحدد ديدرو بالذات متوسط ٢٦٠٠ جنيه سنويا مقابل جهده لمدة ثلاثين سنة فى الموســوعة • ولعل الطبعة الكوارتو كانت ســتكلفه ٧٪ من أتعابه والاوكتافو ٤٪ وهذا التقدير لا مغالاة فيه ، اذا راعينا اعتماده على مصادر دخل أخرى • وكان هناك كتاب كثيرون أغنى من ديدرو يتقاضون ما يكفى لسد الرمق من أولياء نعمتهم ومعاشهم • ومن نمــاذج ميسورى الحال الجديرين بالتنويه ساورين (**) وقد نسى أمره الآن وكان دخله يناهز ٨٦٠٠ جنيه سنويا من معاشــه وأتعــابه • وقد أدرج اسمه ضمن فئــة الكوارتو باعتبار ثمنها يعادل ٢٪ دخله فى أسبوع • وعبر كاتب على قدر الحال (***) ـ وهو من الكتاب المغامرين الذين كانوا يقتاتون على فتات مائدة فولتير ـ عن شدة تحمسه لطبعة الاوكتافو فى رسالة الى جمعيــة المشتغلين بالطباعة فى نويشاتل بقوله :

(*) Gens de lettres.
(**) B. J. Saurin.
(***) Durey de Morsan.

« ان عدد الأدباء المساكين يتجاوز كثيرا القراء الأثرياء • وكم أشعر بالغبطة لأن سعر هذا السفر - الذى ما زال مرتفع الثمن حتى الآن - مازال مناسبا لدخل الغلابة أمثالى • وكم أتمنى أن يفتح باب العلوم والفنون والحقائق النافعة على مصراعيه ليلا ونهارا لكل قادر على القراءة » •

ومن المتعذر ذكر أرقام دقيقة عن شتى الدخول المتفاوتة بين أبناء الطبقة المتوسطة فى الاقاليم • وان كانت التقديرات تثبت لنا مدى ارتفاع ثمن الموسوعة بالنسبة للأشخاص الذين تقل مرتباتهم عن دخل أى نبيل من النبلاء أو ثرى من الأثرياء ممن يرتفع دخلهم عن دخل عامة الناس • وعلى الرغم من أن القسس كانوا يتقاضون قرابة خمسمائة جنيه فقط ، وهو راتب لا يقيم الأود بعد ١٧٦٨ • الا أن دخلهم السنوى كثيرا ما ارتفع فبلغ ما يتراوح بين ألف وألفين من الجنيهات • ويحتل قضاة المحاكم الاقطاعية قمة السلم الوظيفى بين رجال القانون من البورجوازيين فى الاقاليم • وكثيرا ما كانوا يتقاضون ما بين ألفين وثلاثة آلاف جنيه سنويا • وبذلك تمثل الموسوعة الكوارتو ما يعادل أجر من ستة الى سبعة أسابيع من دخلهم• وكى يعيش البورجوازى فى مستوى النبلاء ، كان عليه أن يدبر أموره بحيث يحصل على ايراد يتراوح بين ثلاثة آلاف وأربعة آلاف جنيه سنويا ، وبذلك يحتاج الى أجر خمسة أسابيع من دخله لشراء نسخة كوارتو من الموسوعة •

وهكذا يتضح ، اذا سايرنا علماء الاقتصاد فى دقة استخدامهم لمصطلحاتهم مدى ارتفاع ثمن الطبعة الأولى والطبعة الثانية من الموسوعة ، مما جعلها صعبة المنال خارج دائرة رجال البلاط ونجوم الصالونات والبرلمانيين التقدميين ، الذين كانوا يؤلفون كوكبة الطليعة الثقافية (الأفان جارد) • وتعد الطبعات الأرخص من مواد الترف ، وان كان بمقدور كثيرين من أبناء الطبقة المتوسطة - لو راعوا الكثير من التدبير - اقتناؤها.كما يحدث فى عالم الموسوعات اليوم • ولقد تجاوب ثمن الموسوعة الكوارتو والموسوعة الاوكتافو مع دخل نخبة متنوعة من صغار المرموقين من أهل المدن وأعيان الأقاليم ، وتجاوب بالمثل مضمونها معهم • ولكن هاتين الموسوعتين كانتا خارج حدود تطلعات من هم أدنى مرتبة من البورجوازيين • وكما لاحظ الناشرون - وهم خير من يعرف زبائنهم - فان الحجم الفوليو قد ناسب عنية القوم والمكتبات ، بينما اعتبر الحجم الكوارتو فى متناول الأدباء والشغوفين من القراء « ممن يتمتعون بالستر فحسب » • وأدرك الاداريون من العاملين بالموسوعة ان بمقدورهم زيادة هامش أرباحهم اذا زادوا من اتساع السوق • فلقد اكتشفوا منجما من الذهب لم يطرقه أحد من الأدباء ، وبدل تهافتهم على استغلاله على مدى تقدم الثقافة ، وانتشارها بين عامة القراء • ولكن أين كان يعيش هؤلاء القراء ، ومن هم ؟ •



توزيع الموسوعة فى فرنسا

ان الخريطة (شكل ١) المنقولة عن قائمة دوبلان السرية للمشتركين تبين التوزيع الجغرافى لجميع نسخ الكوارتو على وجه التقريب ، يعنى ما يقرب من نصف الموسوعات التى كانت موجودة فى فرنسا قبل ثورتها · ومنها يبين أن الموسوعة ، قد وصلت الى كل شبر من أرض البلاد ، وتوافق توزيعها على خير وجه ـ بقدر ما نستطيع أن نعرف ـ هو وتوزيع السكان · وكانت الاشتراكات فى منطقة باريس والشمال الغربى شحيحة · ويرجع ذلك ـ فى أغلب الظن ـ الى اكتظاظ هذه الأسواق بطبعات أخرى · واذا تجاوزنا مدينة ريم ، سنرى أن بريتانى تكاد تشبه صحراء قفراء فكريا ، وربما صح هذا الحكم · ولكننا نشاهد منحنى أشبه بالهلال الخصيب لتوزيع الموسوعة عبر ميدى من ليون الى ميمس ومونبلييه وتولوز وبوردو · وحتى وسط فرنسا الكثيف السكان ، يبين وجود كثافة عالية نوعا للاشتراكات · ومن ثم يبين ضعف الدليل القائل بانقسام فرنسا الى جنوب متخلف ثقافيا وشمال متقدم ، ويفصل بينهما حد فاصل ، يجرى بين تلال سان ميشيل الى جنيف · والظاهر أن مبيعات الموسوعة كانت أفضل حالا فى المدن ، حيث توجد البرلمانات والأكاديميات ، ولكن مبيعاتها فى شتى الانحاء كانت لا بأس بها · ولعل هذه النتيجة يمكن استخلاصها من الخريطة · وبمجرد اعادة اصدار الموسوعة فى طبعة رخيصة نسبيا ، انتقلت كتابات ديدرو الى أنحاء قصية فى جميع الجهات الأصلية ، أكثر مما توقع (لوحة ١) ·

ولم تحدد القائمة السرية لاشتراكات دوبلان جميع المشتركين · فهى لا تحتوى على غير أسماء باعة الكتب ، الذين كانوا يشترون عادة بضع عشرات أو يزيد من المجموعات ، ثم يقومون ببيعها «بالقطاعى» بين الزبائن المحليين· ولكن هناك قائمة فريدة بالمشترين من الأفراد لطبعة الكوارتو(*) ولقد ترجمت الى رسم بيانى (لوحة رقم ٢) يضم بيزانسون واحدى الوحدات الادارية والقضائية والكنسية وأحد المراكز الحربية ، حيث ارتفعت المبيعات الى درجة كبرى · ويبين الرسم البيانى مدى ارتفاع نسبة المشترين للموسوعة بين العاملين بالشئون القانونية من محامين وأعضاء البرلمان ببيزانسون · ولقد بيع من الموسوعة نسخ عديدة فى القطاعين الأولين ، وبخاصة بين كبار قادة الجيش · وهذا أمر متوقع فى مدينة تضم حامية عسكرية · واشترى الاداريون فى الخاصة الملكية ـ ويكاد أغلبهم ينتمى لطبقة النبلاء ـ الموسوعة بأعداد كبيرة · وفعل الشىء نفسه البورجوازيون من المهنيين ، خصوصا الأطباء · وان كان هذا بقدر محدود · واقتنى أربع عشرة مجموعة من المجموعات المائة سبعة وثلاثون من التجار

(*) Franche Comté.

والمشتغلون بالصناعة ـ وهي نسبة عالية بالمقارنة باحصائيات دانييل روش للاكاديميين فى الاقاليم ، وتحليل جاك بروست للمساهمين فى تحرير الموسوعة·واقتنى ما يقرب من نصف فى المائة من أهل بيزانسون الموسوعة الكوارتو · وهى نسبة عالية لا تستبعد صحتها ، بعد الاطلاع على التحليل المذكور آنفا عن الحالة الاقتصادية للعملاء ، وتحليل تكاليف الموسوعة · ولم يتوقع البائعان الأساسيان فى المدينة بيع أكثر من عشر نسخ أو يزيد من المجموعات ، وشعرا بالاندهاش لما صادفته الموسوعة من اقبال،خصوصا بعد أن تعرضت تجارتهما للكساد بعد ١٧٧٧ وكتب أحدهم الى جمعية المشتغلين بالطباعة : « أرجو أن لا تعتقد اننى استطعت ترويج ما لدى من كتب كما أتمنى · وأقسم لك اننى بعد توزيع كتب التاريخ العالمى والتاريخ الكنسى (كنيسة الغال) وأحد الاناجيل والموسوعة وروسو · لم أحصل على أى كسب آخر فى السنتين الماضيتين » ·

وربما لا يصح اعتبار نمط المبيعات فى بيزانسون ممثلا دقيقا لفرنسا فى جملتها ، وان كانت البينات غير الاحصائية تبين وجود حماسة مماثلة للموسوعة فى مراكز أخرى · ففى تولوز ، فى الطرف الجنوبى من المملكة ، باع صاحب محل تجليد يدعى جاستون ١٨٢ نسخة من الموسوعة الكوارتو فى ثلاثة أسابيع ، وكان يتوقع تلقى ربعمائة نسخة من حجم الأوكتافو · وبوجه عام عندما تحدث باعة الكتب الفرنسيون عن الزبائن الذين اشتروا الكوارتو ، فانهم ذكروا المحامين وموظفى الخاصة الملكية والنبلاء المقيمين فى الاقاليم ، وبذلك اختلفوا عن أقرانهم فى شمال أوربا ووسطها وشرقها ، الذين لم يشيروا الى غير رجال القصر والبلاط · وهكذا تشير جميع الدلائل الى الاتجاه نفسه · ففى فرنسا ما قبل الثورة استطاعت موسوعتها ، شق طريقها بين عالم الصفوة فى الاقاليم ، الذين تزعموا الثورة الفرنسية ، وواصلوا الهيمنة على أهالى الأقاليم ابان القرن التاسع عشر ·

فلا أحد يستطيع ادعاء معرفة الرسالة التى حققتها الموسوعة ، والأثر الذى تركته فى عقول هؤلاء القراء · ولابد أن يكون كثيرون قد اشتروا الموسوعة تأثرا بما زعمته عن نفسها ، أى كخلاصة للمعرفة بأسرها ، أكثر من كونها دعاية فلسفية · وكما عبر عن ذلك بانكوك : « سوف تغدو الموسوعة دوما الكتاب الأول فى كل مكتبة أو مكتب » · ولكن لم يخطر ببالهم احتمال تحول الموسوعة الى سفر استعراضى يودع رفوف المكتبات للزينة ، وليس للقراءة ! · فعلينا ان لا ننسى أن بانكوك قد وصف بعض المشتركين فى ليون بأنهم كانوا عاجزين تماما عن القراءة · ولكن من الصعب الاعتقاد بعدم تجاوز بعض أصحاب الموسوعة ، قراءة بحثها التمهيدى ،

والذى تضمن مقدمة صافية عن خصائص عصر التنوير • ولابد أن يكون جمهور أوسع قد قرأ الموسوعة أكثر من كونه قد اقتناها • وهذا احتمال متوقع فى عصر كان يبيح استعارة الكتب بلا قيد أو شرط • وكان هناك انتعاش للمكاتب الأدبية(*) ، ومن ثم يصح القول بأن المقومات الرئيسية لقصة سيرة هذا السفر هى الحماية التى وفرتها لها السلطات الفرنسية ، والصراع لاستقلالها بين عملاء الكتاب ، وانتشارها بين زبائن من المرموقين من متوسطى الحال فى شتى أنحاء البلاد ، ونقول ان هذا النجاح منقطع النظير لهذه القصة قد كشف عن انتشار التنوير وبلوغه مجالات تتجاوز صفوة رجال البلاط والعاصمة ، وانها انتشرت بين أقطاب « النظام القديم » كما يبين من رسـالة جمعية المشتغلين بالطباعة الى أحد العمـلاء فى أغسطس ١٧٨٩ :

« لم يسبق أن حقق مشروع من هذا القبيل نجاحا أعظم ، أو تم تنفيذه بمثل هذه السرعة • ففى أقل من سنتين ونصف السنة ، وبعد أن تجدد الاشتراك مرتين قمنا بطباعة ثمانين الف نسخة من هذه الموسوعة ، والتى لم يبق لدينا منها غير عدد قليل من نسخها • والظاهر أن الجماهير قد انتظرت بصبر نافد أن يظهر ناشرون أقل شراهة من مخرجى الطبعة الأولى (وهذا قول مشكوك فيه) • اننا نفخر نحن وشركاؤنا أننا وفقنا الى ارضاء الجماهير فى هذا المضمار • وستلاحظ يا سيدى أن هذا العالم الذى يعتبر أفضل العوالم الممكنة لو افتقر الى التنوير (**) فان الخطأ لن يكون خطأنا » •

(*) Cabinets littéraires.

(**) Lumières philosophique.

المراجع

T. Besterman, Voltaire (1969).

E. Cassirer, The Philosophy of the Enlightenment (1951).

H Chisick, The Limits of Reform in the Enlightenment. Attitudes toward the Education of the Lower Classes in the Eighteenth-Century France (1981).

R. Darnton, The Business of Enlightenment : A Publishing History of the Encyclopedia 1775-1800 (1979).

P. Gay, The Enlightenment : An Interpretation (2 Vol.) 1960-1969.

N. Hampson, A Cultural History of the Enlightenment. (1969)

M. C. Jacob, The Radical Enlightenment : Pantheisty, Free masons and Republicans (1981).

J. Lough. The Contributors to the Encyclopedie (1973).

F. Manuel, The Eighteenth Century Confronts the Gods 1959.

A. M. Wilson, Diderot (1979).

الدستور المدنى لرجال الدين
فى الثـورة الفرنسيـة

ميكائيـل كنـدى

ابتداء من أواخر ربيع ١٧٨٩ ، تعرضت فرنسا لما يصح أن يوصف بعهد الهزات الثورية السياسية والاجتماعية ، التى اسفرت عن قلب النظام الملكى وانشاء النظام الجمهورى • وعلى الرغم من أن الحكومة الثورية قد اعادت انشاء جميع المؤسسات الفرنسية ، فانها اقدمت أيضا على احداث اعظم تغيير جذرى لها فى نطاق الدين •

ولقد مرت السياسة الدينية للحكومة الثورية فى عدة أطوار ، وعلى الرغم من تأييد القسس للكثير من اكبر منجزات الجمعية الوطنية ، الا أن هـذه الجمعيـة صـادرت معظـم ممتلكات الكنيسـة فى خريف ١٧٨٩ . وما لبث أن قمعت الأديرة ، واتجه مختلف رجال الدين وعامة الناس من المحـافظين ، فيما بعـد ، الى معارضة الثـورة باسم الدين ، وحدثت مصـادمات محلية عديدة بين أنصـار الكنيسـة والحكومة • وفى يونيو ١٧٩٠ ، أقرت الجمعيـة الدستورية أخطر التشريعـات الدينية للثورة : الدستور المدنى لرجال الدين • وحول هذا القانون الكنيسة ـ فى واقع الأمر ـ الى سلاح الدولة • ومنـذ ذلك الحين ، اصبح تعيين الأسـاقفة والقسس فى مناصبهم يتم عن طريق الانتخابات العامة ، وطلب من جميع القساوسة أن يقسموا بالولاء للدسـتور المـدنى لرجال الدين ، ورفض أساقفة وقسس عديدون هـذا القسـم ، وأصبحوا يعرفون باسم « رجال الدين المشاكسين » ، أما من اقسموا هذا اليمين ، فعرفوا برجال الدين « الدستوريين » ، وكما حدث انقسـام بين رجال الدين ، جرى انقسـام

(★) نقلا عن The Jacobin Clubs in the French Revolution : The First Years. — Michael. L. Kennedy. (١٩٨٢)

مسائل بين عامة النـاس ، الى فريقين ، وانحاز الملك الى جانب القسس المشاكسين .

وبينما اقرت الحكومة التشريعـات الخاصة بهذه المسائل ، نشطت أندية اليعقوبيين فى الاقاليم ، واتخـذت انديتها صـورة مطابقة للنادى الرئيسى فى باريس ، وتمثل الحد القاطع للثورة . وفى البداية ، لم يتخذ اليعقوبيون (مثل باقى الجمعيات الثورية) ، موقفا عدوانيا صريحا من الكنيسة ، ولكن اتجاههم تغـير بعـد ظهور المقـاومة الكنسية والانتخابات الكنسية ، وما اكتنفها من مشاجرات ، وما صحبها من عنف محلى متفاقم . وفى أواخر ١٧٩١ ، وعلى مشارف حكم الرعب ، تصدر اليعقوبيون حركة المطالبة بتخلى الدولة عن المسيحية بعد أن التزموا زهاء سنتين الاعتدال فى مسائل الدين .

وتعرض هـذه المختـارات من كتاب ميكائيل كندى تحليلا موجزا للتفاعل بين سـلطات باريس والثوريين اليعقوبيين فى الأقاليم ، وكيف تحولت الثورة بمرور الأيام تحولا متزايدا تجاه التطرف .

يصعب القول بشيوع الكفر والالحاد فى صميم الأندية اليعقوبية ، فقد لاحظنا استهلال كولمار الذى سجله بعبارة لاتينية « باسم المخلص يسوع المسيح (*) » . ونصـــادف فى مذكرات مختلف الطوائف ورســـائلها استعارات ومقتبسات من الكتاب المقدس . وربما تدد أعضاء « الأندية » باستغراق الهيرارشية الكنسية فى الدنيويات .غير أنهم أجمعوا على الاعتراف بدور الدين فى خلق المواطن الصـــالح ، ووجـوب الاستعانة به لخلق فرنسا جديدة ، ومنذ البداية ، اتبعوا عادة طبع العظـــات الدينية على نفقتهم ، وكانوا يحيون ذكرى الانتصارات الثورية والمناسبات المأســوية باقامة طقوس مسيحية ، وقام الاكليروس الكاثوليكى بدور مهم فى هذه الأندية ، وفى بعض أجزاء من فرنسا ، شارك الرعاة البروتستانت فى هذا المضمار أيضـــا . وساعد الاحترام الذى يلقـاه رجال الكنيســة من اليعقوبيين على استمرار انتخابهم لشغل بعض المناصب بما يتجاوز العدد المتكافىء مع أعدادهم .

ومع هذا فقد أثمرت البذور التى بذرت داخل الأندية ثمرة وحشية ادت الى الابتعاد عن المسيحية ابان عهـد الرعب ، وبدأ عهـد جديد من الاضطراب الدينى فى فرنسا فى نوفمبر ١٧٨٩ عنـدما صودرت أراضى

(*) In nomine redemptoris jesu Christi.

الكنيسة لتسديد الديون • واقترن بهذا القرار اعلان « الجمعية الوطنية » تخصيص اعتماد لدفع نفقات الشعائر العامة ، ومرتبات الاكليروس وغوث الفقراء ، وأدى المشروع وما تضمنه من خفض لدخل رجال الدين الى ايغار صدورهم • وزاد من حالة التبرم القرار الصادر في ١٩ ديسمبر باعلان بيع ما قيمته ربعمائة مليون جنيه من الممتلكات المنتزعة من الكنيسة ، وأحدث الأثر نفسه قانون ١٣ فبراير ١٧٩٠ ، الذى تمم التنظيمات الكهنوتية ، وما لبثت الصيحات أن تصاعدت من اليمين محذرة من مشروع الجمعية القضاء على الكنيسة •

ووقع أحد أعضاء المجلس الكنسى (الدوم جيرل) فى شباك هذا النقد ، وارتقى المنبر فى ١٢ ابريل مدافعا عن سياسة الجمعية • ودفعه الأمل الساذج فى ازالة التوتر الى دعوة زملائه الى اعلان « الدين الكاثوليكى والرسولى هو دين الأمة ، وسيظل كذلك ، ولن يصرح بدين آخر غيره » ، وطالب المحافظون على الفور ، بقبول الحركة ، ولكن اليساريين عندما أدركوا تهديد هذا الاتجاه للحرية الدينية ، التى منحت بمقتضى البند العاشر من اعلان حقوق الانسان ، نجحوا فى تأجيل هذا الاعلان ، وفى تلك الليلة ، حدث اجتماع صاخب فى نادى اليعقوبيين فى باريس وفيه اعتذر جيرل ــ العضو فى النادى ــ بطريقة خسيسة عن اندفاعه (رعونته) وفى اليوم التالى ، وبعد مشاحنة حادة ، أزاحت الجمعية المشكلة جانبا : باعرابها عن تمسكها بالكاثوليكية ، ولكنها رفضت مراعاة لحرية الضمير اتباع حركة جيرل • ومن قبيل الاحتجاج ، التقت أقلية مؤلفة من ٢٩٧ من أنصار الملك بالمبعوثين الكاثوليك (الذين أطلق عليهم منذ ذلك الحين اسم السود) (*) فى دير الكابوشين ، وحرروا بيانا ينبه الى تعرض الدين للخطر •

وتعد الأسابيع الستة التى أعقبت نشر احتجاج « الكابوشين » أسابيع مصيرية • فلأول مرة يتفق على رأى واحد فى مشكلة ذات طابع قومى ، ونشرت اللجنة المناظرة لليعقوبيين فى باريس نشرة خاصة عن حادث دوم جيرل كتبها البارون دى مينو (**) • بيد أن التراجع العاطفى للأندية لايصح أن يرد الى تأثير المنشورات الصادرة من الجمعية الأصلية ، والأصح هو أنه كان دليلا على المشاعر الجياشة التى عانتها فرنسا من أهوال حكم «الطاغية لويس الرابع عشر» • ورئى أن من حق البروتستانت أن يتمتعوا بحرية العبادة ، ويسمح بقبولهم فى المدارس والكليات ، وبالمشاركة الكاملة فى الحياة المدنية ، كما يستأهل اليهود التسامح بالمثل •

(*) Noirs.
(**) Menou

وعندما استمع الحاضرون فى النادى الوطنى ببوردو الى قراءة احتجاج الأقلية فى ٩ مايو ، تفجرت صيحاتهم الفورية (*) ، واقترح الحاضرون « طبع البحث المتهجم مصحوبا بالملاحظات الشائنة الموجهة ضد المبعوثين الذين وقعوا عليه » . وفى ١٠ مايو ، أحرق الأصل أمام المدخل الرئيسى للمقهى ، وشنقت دمى تمثل المبعوثين المذنبين الخمسة من بوردو ، وعلقت فى أعمدة النور فى شارع القبعة الحمراء (**) ، وكتب على ظهر الدمى « خانوا الوطن » .

ونشر النادى الوطنى بيانا عن هذه الأحداث ، وبذلك شجع الجمعيات الشقيقة ، على توجيه ضربات ضد عدم التسامح . وفى ١١ مايو ، رفضت جماعة أنصار دستور بوردو – فى غضب – احتجاج « المواطنين الأردياء » ، وفى ٢٥ مايو ، أعدت خطابا تمحور حول شعار « الكنيسة فى الدولة ، وليست الدولة فى الكنيسة » . وفى الجلسة الافتتاحية فى ١٥ مايو ، هاجم نادى بيرجيراك الوفود المعارضة « لمحاولتها تعكير صفو السلام » . وفى اليوم التالى ، تمكنت من اقناع موظفى البلدية بارسال خطاب لوم الى الجمعية الوطنية(***) ، وفى أول اجتماع معروف عقد فى ٢٠ مايو ، تمسك أنصار دستور تول تمسكا وقورا بجميع القوانين . وفى النسخة المقدمة الى باريس اتهموا « السود » بالرغبة فى « زج الامبراطورية الى الفوضى » ، وزعموا أن هذا الانحياز والملحوظ بدرجة كبيرة لدين من الأديان السماوية سيؤدى بالضرورة الى عدم التسامح ، وفى مدينة فوا (****) فى ٢٨ مايو عقد الرئيس جلسة خاصة لاستبعاد أحد الأعضاء المبعوثين ويدعى فونت وقال للحاضرين : « لقد سمعتم بالجريمة الخطيرة التى ارتكبها هذا المبعوث ، ورأيتم توقيعه أسفل هذا التصريح ، وما ترتب على ذلك من تعصب ونفع شخصى » ، ولكن بالرغم من هذا الدليل الساطع ، فقد رأى أنصار الأندية صعوبة تصور ارتكاب هذا « الفونت » لمثل هذا الخروج عن القانون ، وأجروا عملية اقتراع عن احتمال تزوير ما نسب اليه ، أو احتمال أن يكون قد خدع فانضم « الى المحرضين من الارستقراط » ، الذين يتمنون أن نغرق فرنسا فى دماء أبنائها .

وخلال شهر يونيو ، صبت الأندية لعناتها على « السود » ، ونقشت مدينة مونبلييه أسماءهم « بحروف حمراء على سطح أسود » .

(*) à la lanterne et au feu. (الى عمود النور حيث جرى شنق الخصوم) .

(**) Chapeau — Rouge.

(***) Tulle.

(****) Foix.

للتذكرة بعار الـ ٢٩٧ الذين نقشت أسماؤهم باللون الأحمر على الصفحة السوداء ، وتماثلت هى ونادى مارفجول ، فتزلفت الى الجمعية المنتخبة ، ودعتهم الى التعهـــد بمعاداة المتمردين على القـوانين الى الأبد · ودعت مدينة أخرى (*) الى « وجوب تطهير الأسـماء والأشخاص الذين وقعـوا أو تمســكوا بهذه الاهانات المشاغبـــة ، وتنصلهم من هذه الحماقات والسفالات » · وقامت مدينة آراس أيضـا « بتأنيب المنافقين والحانثين فى القسم » وأعلنت استحقاق الشعب المتدين الحر لفرمان ١٣ ابريل · أما مدينة أمبير فقد سلمت بابتعاد القانون تماما عن الاساءة للدين ، لأنه يمثل « أجمل مظهر من مظاهر الخشـــوع بالمقدور التعبير عنها » · واعربت مدن أخرى عن مشاعر مماثلة فى رسائلها الى الجمعية الوطنية ، وطالبت بلورة هذه المشاعر فى اقدام المجتمع على استصدار قانون يرغم المحتجين على الاعتذار ، أو تحمل فقدانهم لحقوقهم كمواطنين عاملين ·

وكان مازاد انزعاج الأندية الاضطرابات الدينيـــة ، التى أثارها «السود» فى الأقاليم ، ووقع حادث خطير فى احدى المدن (**) . ففى هذه البلدة التى يبلغ تعداد سكانها خمسة وعشرين ألف نسمة ، انقسم غلاة الحاقدين الى اغلبية كاثوليكية وأقليـــة بروتستانتية (تمثل ســـدس السكان) وسيطر الكاثوليك على بلدية المدينة على الرغم من عرقلة ضغوط الحرس الوطنى لتطبيق القرارات الخاصة بمصادرة ممتلكات الكنيسة وحل التنظيمات الكهنوتية · وفى ١٠ مايو ، أى اليوم الذى حـدد فى نهاية المطاف لجرد الكنائس والأديرة وانتزاع ممتلكاتها ، اندلع القتال المسلح ، وقتل العديد من المواطنين ، وأسر آخــرون · وبعـد هذه التطورات ، حث فريقـــا بوردو جميـع أصـحاب النـوايا الطيبة على التطوع للحملة العسكرية التى ستشن ضد « مون أوبان » · وبعد ذلك بفترة وجيزة ، شن رجال الحرس الوطنى حملة انقاذ ، ولم تنجح الدعوة الى الكف عن سفك الدماء ، الا بعد أن عرف الجنود غير النظاميين المهلهلين (***) باطلاق سراح الوطنيين فى مون أوبان ، فعادوا الى قواعدهم ظافرين ·

واشتعلت مدينة نيم (تضم أربعين ألفا من الكاثوليك و١٣ ألفا من البروتستانت) بنيران الكراهية الدينيـة أيضا · وتجمعت فى أحـــد المعسكرين زمرة من رجال الدين والأرســـتقراط ، تساندها قواتهـــا المسلحة ، وتعمل مستقلة عن الحرس الوطنى · وفى المعسكر الآخر ، جناح وطنى مناهض للقسس ، يقوده جمعية أنصار الدستور التى أنشئت فى

(*) Charolles.
(**) Montauban
(***) rag-tag.

١٤ ابريل • وفى ٢٠ ابريل ، وبعد أن شعر المناضلون الكاثوليك بوجود تهديد للدين والنظام الملكى ، قدموا التماسا الى الجمعية الوطنية يحمل توقيعات ٣١٧٢ من المواطنين ، ويدعو الى الاعتراف بالكاثوليكية دينـــا للدولة ، وعدم اجراء أى تعديل فى الهيرارشية الكنسية ، ويسمح للملك بالقـــاء نظرة على القرارات التى صـــدرت من الجمعية الوطنيـــة منذ ١٩ سبتمبر •

وأغضب هذا الالتماس أندية « ميدى » ، وعلى الفور أعد الأعضاء المائة والاثنان والستون لجمعية نيم بيانا مضـــادا ، وأصدرت أيضـــا مدن أخرى (*) بيانات تستنكر فيها ابتعاد المتعصبين عن الدين ، وتتساءل : هل يصح القول بأن روح عدم التسامح « التى ألحقت العار والتعاسة بآبائنا ، مازالت قائمـــة فى القـــرن الثامن عشر ، أى فى عصر بزوغ الحرية ؟ » •

وســعى نادى نيم للتحــالف فى وقت الشــدة هو وشقيقته فى مارسليا ومونبلييه ، ونشرت مارسيليا رسالة تتعهد فيها بالدفاع عن « نيم » حتى الموت ، وأوفدت اليهــا مبعــوثين فى ١٠ مايو للتعهـــد بالمساعدة العسكرية ــ لو اقتضت الحاجة ــ لتوطيد سلطانها ، استنادا الى تصريح بلديتها باقامة نظام كونفدارلى من وحدات الحرس الوطنى فى بروفانس ، غير أن هذه التدابير لم تحــل دون نشـــوب العنف ، وفى ١٣ يونيو ، شن الأرستقراط هجوما مسلحا على الوطنيين • وبعد يومين من القتال ، هزم الوطنيون أعداءهم بمساعدة متطوعين من المدن المجاورة ، ولكنهم شوهوا انتصارهم عندما أعدموا عدة أشخاص من « أعداء الثورة » ، وأرجفت الأحــداث المأسوية فى نيم ، ونشرت الفزع فى مختلف أرجاء الشبكة ، ودعت مونبلييه الى عقــد اجتماع غير عادى فى ١٤ يونيــو ، وأوفدت مبعوثين الى قادة الحرس الوطنى ، وفتحت باب التبرع للمساعدة فى تمويل الحملة ، وأرسلت مارسيليا خمسين عربة محملة بالدقيق الى «نيم» لاطعام عائلات المواطنين الجائعين ، واقامت فالينس قداسا تذكاريا فى ٢ يوليو • وفى ١٠ يوليو ، طبعت ستراسبورج أربعة آلاف نســخة فى بيان يروى ما حدث من قلاقل (كتب بالألمانية) كتحذير لمن تسول له نفسه اشعال نار التعصب فى الألزاس •

وقبل انتفاضة نيم بيوم واحد (١٢ يونيو) أقرت الجمعية الوطنية الدستور المدنى لرجال الدين ، وألغى هذا الاجراء الشهير ميثاق المصالحة

(*) مثـــل Marvelols Pontoise, Valence, Grenoble, Crest, Vienne, Montpellier.

(١٥١٦) مع البابوية ، وأعاد تنظيم الكنيسة الفرنسية ، وزادى أن يكون تعيين الأساقفة والقسس من الآن فصاعدا بالانتخاب ، وتدفع الدولة رواتبهم ، وتعرضت للقمع جميع المجالس الأسقفية بالمعاهد الدينية والكاتدرائيات ، وخفض عدد الأسقفيات من ١٣٩ أسقفية الى ٨٣ ، كما استبعد ما لا حصر له من الابرشيات الصغيرة ٠

ولقد سبق أن تمتعت الكاثوليكية الفرنسية بالاستقلال الوطنى ، وكان مبعوثو الكنيسة يتفادون بكل دقة اى اخلال بالعقيدة ٠ غير ان المعارضة بزغت على الفور ٠ فقد رفض عدة مبعوثين للكنيسة الاقتراع فى ١٢ يونيو ، وازداد تصلب المشاركين فى المعركة ، عندما أصدر ثلاثون من الأساقفة فى الجمعية الوطنية النشرة الشهيرة (*) التى تضمنت مبادىء الدستور المدنى لرجال الدين ، وتحدت حق الدولة فى الانفراد بالرأى فى مسألة تغيير تشكيل الكنيسة ، واعترضت على اشتراك البروتستانت فى اختيار الاساقفة ، ورفضت رفضا باتا أن يكون تعيين القسس بالانتخاب ، وتساءلت لماذا لم يؤخذ رأى البابا ، الذى كان يعين الأساقفة زهاء قرنين من الزمان ؟ ٠ فلقد التمس لويس السادس عشر موافقة البابا ليوس السادس ، عندما أقر مرسوم ٢٤ أغسطس ، ولكن هذا البابا بالذات قد شجب بالفعل السياسة الدينية للثورة فى حديث الى مجمع الكرادلة فى ٢٩ مارس (وعقد هذا الاجتماع بصفة سرية) ٠ وعلى الرغم من احجامه عن التصريح بذلك علنا حتى ربيع ١٧٩١ ، الا أنه أكد من جانبه قراره بالاعتراض ٠

واعلن اليعقوبيون فى الأقاليم عن تأييدهم الذى لايتزعزع للدستور المدنى لرجال الدين ٠ والحق ، وكما يبين واضحا من المذكرات المعبرة عن آراء مختلف الأندية ، فلم يحدث من قبل أن ثارت ثائرتهم بمثل هذه الشدة ، وبدأ تدخل الأندية فى الخلاف فى سبتمبر ـ أكتوبر ١٧٩٠ عندما نشر القانون فى الدوائر الحكومية ، وأعلن بعض الأساقفة والشماسين عن شكاياتهم ٠ وفى ستراسبورج ، وبعد أن كانت موضوعات النقاش تتركز فيما سبق على الاقتصاد والسياسة ، بغتة رأينا الدين يتخذ الصدارة ، ويشد انتباههم ، وفى ٥ أكتوبر ، استهجن أحد الأعضاء قسا من القسس الكابوشين ، لأنه دعا الى الفسق فى كنيسة القديس بطرس العجوز ، وفى جلسة ٩ أكتوبر ، استدعى راهب كنيسة القديس بطرس العجوز للادلاء بأقواله عن أسباب عدم تلاوته لقرارات

(*) Exposition des principes sur la constitution civile du Clergé.

الجمعية الوطنية ، واستمعت الجمعية الى تقرير عن أحد القسس فى سان ليونار بالقرب من أوبرناى ألقى بيانا شديد الحماسة ، وفى ١٥ أكتوبر ١٧٩٠ ، تناول النادى مسألة تنظيم الاكليروس البروتستانتى ، ونوقشت فى اليوم التالى مسألة رواتب رجال الكنيسة ٠

وكشف على التو السماح للقسس الوطنيين بالانضمام عن أهميته الخاصة ٠ وشاع نزوع الكهنة المشاكسين الى سلاطة اللسان فى أحاديثهم، وتزايدت الشكايات المرسلة الى لجنة التحريات (*) ، وبلغ عددها رقما خرافيا ٠ ولامت بعض المدن (**)رسائل القسس التى يشكون فيها من أساقفتهم (٢٢ أكتوبر و ١٢ نوفمبر) وأدانت تولوز وفردون افتقار الهيرارشية بوجه عام الى الولاء (نوفمبر ١٠ ـ ١٣) وابان الحقبة نفسها ، أرسلت تورز ستين مستندا يثبت تورط الاكليروس الكاتدرائية فى اثارة الفتن ٠

وفى ٣ نوفمبر ، نشرت مدينة اكس رسالة مهمة تعلن تحديد الجمعية الوطنية موعدا يقسم فيه رجال الكنيسة اليمين للدستور ، ويحرم الممتنعون من جميع وظائفهم الدينية ورواتبهم ومقار اقامتهم ، وتلقت تولوز وبوفيه(***) نسخا من هذه الرسالة ، والتزمتا بما جاء فيها التزاما حماسيا ، وانضمت رينيه أيضا ، وحررت التماسا حارا تبناه بعض الأعضاء (****) ، ممن أعربوا عن توددهم للجمعية الوطنية ، وتعهدهم باهدار دم المشاغبين من رجال الكنيسة : « لقد أدت المؤامرة الخطيرة الى ظهور تيار متعصب ، أشبه بالوحش الضارى فى نهمه وتعطشه للدماء ، وما أشبهه بابن شائن للدين ، وهو يلوح بيديه بشعلة الانشقاق ٠ ان كلمات الله على شفاههم فحسب ، بينما يكمن الغضب واليأس فى سخائم أفئدتهم » ٠

وعززت هذه الصيحات من قبضة المبعوثين الوطنيين بين الناخبين . واستثارت مشاعرهم المعارضة للكنيسة ، فأقروا قرارا فى ٢٧ نوفمبر زاد الهوة اتساعا بين الكنيسة والدولة ٠ وفيه يطالب جميع الأساقفة والقسس والشماسين والاكليروس بممارسة وظائفهم العامة ، والتعهد بالولاء للدستور فى حضرة المحلفين المسئولين الرسميين فى دوائرهم ، أما من يرفض ذلك ، فيعتبر تلقائيا متخليا عن وظيفته ٠ ولا يستبعد حرمان

(*) Comité de recherches.

(**) أمين و Béziers

(***) Beauvaix

(****) تبناه Quimper, Guingamp

رافضى قسم الولاء ممن يحاولون ممارسة وظائفهم على الطريقة القديمة ـ وهو ما يعد انتهاكا للقانون ـ لا يستبعد حرمانهم من حقوقهم كمواطنين صميمين • أما اذا أقدموا على أى فعل تضليلى صريح ، فانهم سيكونون عرضة لتوجيه الاتهام الجنائى اليهم •

وفى ٢٧ ديسمبر ، وبعد أن وقع لويس السادس عشر هذا المرسوم• ظهر جريجوار على منصة الجمعية الوطنيـــة ، وألقى خطابا دافع فيه عن الدستور المدنى لرجال الدين ، وأقسم يمين الولاء للدستور ، واقتدى به مائة وثمانية من المبعوثين فى الأسبوع التالى • وعلى الرغم من تعرضهم لتهديد الحشود فى مقصورات الجمعية الوطنيـــة ، فان ٤٢ من ٤٤ من الأسقفة ، وآخرين من مراتب أدنى فى هيرارشية الاكليروس رفضوا الاشتراك فى القسم • وأثناء تطبيق القرار فى باريس فى ٩ ينـــاير ، ثار الشغب (*) • وطبقا للمعلومات التى جمعتها الجهات الادارية ، والمشكوك فى صحتها ، فان عدد المؤيدين لم يتجاوز ٦٠٪ من رجال الدين فى العاصمة •

وتحدثت امين نيابة عن أغلبية أندية الأقاليم عندما عبرت عن اغتباطها بمرسوم ٢٧ نوفمبر،وحظى اقتراح تورز بالتأييد من «الشبكة» لالتماسها فى بواكير ديسمبر الاصرار على اعتماد الملك لويس السادس عشر للقرار على الفور ، وقبل أن يضع الملك ختمه بالموافقة اقترعت احدى المدن(**) فى ١٢ ديسمبر على ايفاد مبعوثين الى كل الابرشيات للتحقق من قيام رجال الكنيسة بالتعهد المطلوب ، وطالبت مدينة أخرى فى يناير أبناءها بحضور حفلات حلف اليمين ، « وهم مسلحون بالرماح والسيوف » ، وتماثلت مع باقى الجهات ، فأثنت ـ تارة ـ على الاداريين المحليين ، ولعنت سنسفيل جدودهم ـ تارة أخرى ـ على الاجراءات التى اتخذوها لتطبيق الطقوس وحماية السلام •

وهبت الحملات الاستنكارية لمؤامرات الأساقفة الداعيه لافساد مظاهر الابتهاج لحلف اليمين فى شتى أنحاء الشبكة فى شهر ديسمبر وبداية شهر يناير ، بل وذهبت مدينة أوتون بعيدا الى حد اتهامها قس كاتدرائيتها بدفع رشوة لرجال الدين لتشجيعهم على الرفض•وردت الجموع على الدعاية الأسقفية باطلاق منشورات فى الهواء تحمل عبارات التهجم على القسس ، ومن يناصرونهم • ووزعت ميتز ألف نسخة من الدفوع التى أعدها أحد

(*) St-Sulpice

(**) مدينة Charolles

المبعوثين (*) عن الدسائس الزائفة لأسقف تريف ، وطبعت « كان » خمس نسخ تضمنت تأييدا أعده من يدعى كولوبيه فى سان ماسيلان ، وأذيع فى ٣ ديسمبر • وانتشر المديح الأريب للقوانين الدينية فى شتى نوادى وسط فرنسا • وأصدرت مدينة جرينوبل كتابا دحض فيه الاعتراضات الأخيرة لأعضاء كثيرين من الاكليروس (**) • وأعادت مدينة « بوم » وبيزانسون طبعه ، وكلفت ليموج أستاذ اللاهوت فى كلية سانت ماريا تأليف بحث عن الدستور المدنى ، وبلغ حدا كبيرا تقدير « أوش » وبوردو وكاستر للعظات التى وضعها القس بول بنوا بارت من نادى تولوز ، مما دفعها الى اصدار أمر باعداد الفى نسخة منها •

وركزت منشورات الأندية فى هذا العهد على المحنة الموحشة لصغار رجال الدين ، والتفاوت الكبير فى الدخل والثروة فى ظل « النظام القديم » ، وبورك القسس الطيبون • وبدلا من أن ينظر الى الأعضاء غير المتجاوبين فى الهيرارشية على أنهم مدافعون عن العقيدة وصموا بالأنانية ، لعدم اهتمامهم بأى شىء سوى صالحهم الشخصى ، ولأنهم لا يأسفون لأى شىء غير فقدانهم للدخول الكبيرة التى ليس لهم حق فيها بوصفهم آخر القسس ، وتركز الالحاح على الزعم بعدم حدوث مساس بالعقيدة والقيم الأخلاقية والسلطة الروحية للكنيسة • وكما قال أحد المشايعين للأندية : « لقد التزمت الجمعية الوطنية بالروح الدينية الصحيحة ، فحصرت نشاطها فيما يملكه قيصر وأعطت الله كل ما ينتمى لله » •

وبدأت اجراءات قسم اليمين فى المقار الرسمية من ٩ الى ١٦ يناير ، واستمرت عدة أسابيع ، ولم يتجاوب معها غير سبعة أساقفة من مجموعهم الاجمالى (١٣٩ أسقفا) • وقدرت أفضل الاحصائيات النسبة المبدئية بعدد يتراوح بين ٥٠٪ و ٦٠٪ من جميع أعضاء الاكليروس ، وقامت بعض الأندية بجدولة النتائج ، وأخطرت بها اليعقوبيين فى باريس وأيضا الجمعية الوطنية • وأعلنت بعض المدن ، مزهوة ، بانصياع جميع القسس فى مقاطعاتها للقرار ، أما بعض المدن الأخرى فندبت حظها لضآلة عدد من أيدوا القرار • وأعلنت بوزج عن استجابة مؤسستين كنسيتين منهما للقرار ، ونسب البال الأغلبية فى المناطق الريفية لاقليم الشير الى النداء الذى وجهته المدينة اليهم •

(*) François-Xavier Laurent.

(**) Réfutation des principes contenus dans les dernières protestations de plusieurs membres du clergé.

كتبه Joseph-Vincent Dumolard

والتزم قسس عديدون التحفظ فى خضوعهم ، كما أن سلطات البلديات تحدوها الرغبة فى السلام كثيرا ما أعربت عن استعدادها قبول قسم اليمين ، ولكن بشروط • بيد أن الأندية طالبت بالانصياع بكل دقة ، وتأففت تول (*) من باريس لأنها لم تتخذ أى اجراء ضد قسين استهلا القسم بالكلمات الآتية : « بعد أن آكدت الجمعية الوطنية بقرارتها احترام الديانة المسيحية والحفاظ عليها فاننى أقسم •• » • فقد أدت مثل هذه المراوغة الى اشاعة الحيرة ، وعندما راوغ أحد القسس(**) على هذا النحو فى ٢ فبراير فسر مسلكه بالقول بأن الدستور المدنى يهدد السلطان الروحى للكنيسة ، فردت عليه جماعة من نادى كويمبر بازدراء : « لعلك ترغب فى تهذيبنا ! ليس أمامك غير طريق واحد : طاعة القانون ، الذى كان عيسى عليه السلام نفسه سيتبعه » •

واعتاد القسس اليعقوبيون القاء عظات وطنية أثناء القائهم للقسم• وما من شك فى وجود مبادىء سامية الهمت اتجاههم • وكان من بين المنتمين للنوادى سان ساردیس ، وكان الأوحد بين ١٧ قسا فى مدن أوبان الذى ارتضى القسم ، واشتهر منذ أمد بعيد بالتواضع ، وبأنه وهب الفقراء الجانب الأكبر من دخله • وزعم الأب كيريه (***) بأن ما فعله كان « واجبا مقدسا ليس مستلهما من الطموح والصالح الذاتى أو الخوف ، ولكنه أقدم عليه طوعا ، وباملاء من العقل » • غير أن الأوغاد يميلون الى الزعم بأن الكثير من القسس كانوا ينشدون اجتذاب الانتباه ، ويأملون من وراء المسايرة الحصول على المناصب التى خلت بعد أن استبعد رؤساؤها • وكما أشار أحد النقاد (****) : لا جدال أن الكسب المادى كان من بين عوامل تقييم القسس للدستور الكنسى الجديد ! » •

ونشرت الأندية ووزعت وفرة من العظات التى ألقاها من أقسموا اليمين ، فجلبت لهم الشهرة على الفور ، وطبع فى روان وكان بحث لأحد قسس الابرشية (*****) وتلى تلاوة حماسية فى أماكن قصية كتولوز ، وطبعت جرينوبل حديثا لقس آخر (******) ، وأخطر برجروك جميع البلديات عن تعاطفه على قس من سانت فوا ، وعلا صوت كلود دوبرتيبه

(*) Tulle

(**) Loberhet

(***) Quéré .

(****) Timothy Tackett

(*****) Le Verdier

(******) قس Congis بالقرب من Meaux

اسقف أفيرون ، وبلغ مكانة مرموقة عندما أرسل عدة تعقيبات على القسم الى جمعية أنصار الدستور فى روديه ·

وانبعثت أبعد العظات قبولا للاستحسان من شـفاه قس نويزى لى سـك (*) ، ونشرت فى باريس وشارلفيل ومونبلييه وايروميتز · واستشهد تيموريه بآباء الكنيسة وبالأسماء المسيحيه الشهيرة من امثال صمويل وأرميا وجريجورى الأكبر والقديس أغسطين وفنلون كمصادر موثوقة ، وقال : « لو كانت هناك حقيقة كاثوليكية معترف بها عالميا من الكنيسة ، ومدونة فى الأسفار المقدسة · ولو كان هناك شعار تتبناه جميع المذاهب ، وتردده جميع المنابر المسيحية ، فانه سيمكن القول بأنه ليس بمقدور قسس الكنيسة التراجع عن ممارسة سلطة من التشريعـات على الأرض دون أن يتهموا بالفتنـة » · وبعـد أن أضفى على قسمه صفة القداسة ، أعاد احياء الحجج التى استعان بها أنصار التشريع فى الجمعية الوطنية فى يونيو السابق : ان التقسيم الادارى الجديد لا يمثل ما هو أكثر من الرجوع الى الأيام الباكرة للمسيحية ، عندما كان هناك تعايش بين الأسقفيات وولايات الامبراطورية الرومانيـة ، وابان هذه الحقبة البدائية ، انتخب المؤمنون الأساقفة والقسس · وترجع القيـود المؤقتة التى فرضت على سلطات البابوات الى فسوقهم وجشعهم فى حقب مغايرة، فهل بمقدور أحد فى قرن التنوير المناداة باعادة احياء هذيان العائشين فى تيه الجبال ؟

وبدءا بشهر ينـاير ١٧٧١ ، سادت حالة أشبه بالحرب الدينية فى الأقاليم الفرنسية ، ففى بروفانس ولانجدوك والالزاس ، حدثت مواجهات عنيفة بين أنصـار الكنيسة الجديدة والكنيسة القديمة ، ولأول مـرة انقلب نفر كبير من صغار الكهان والقسس على الثورة الفرنسية · وأصدر الأساقفة الذين لم يبارحوا فرنسا بيانات ملتهبة ، ومنعوا المحلفين من الاشراف على المقدسات·أما من هاجروا فانهم تركوا تعليمات « للقسس المشاكسين » بالتزام البغـاء فى أبرشـياتهم ـ ان أمكن ـ وأن يؤدوا واجباتهم الدينيـة فى العلن والسر وأن يعاملوا القسس الدسـتوريين كدخـلاء ·

ونزع المحلفون الى الاعتماد على اليعقوبيين لحمايتهم من الاضطهاد · وعمل نادى أنصار الدستور ـ من ناحيتهم ـ من أقسموا اليمين معاملة الملوك ، وأغدقوا عليهم المدائح والهدايا · وكانوا يحفونهم بمظاهر الجلال فى الطرقات ، وينظرون اليهم بعين العطف عندما يرون قسس الأبرشـية يتقربون منهم سعيا وراء بركتهم ، ويركعون لتقبيل أطراف ثيابهـم ،

(*) Noi-y-le-Sec.

ونادرا ما سمعت كلمة تنضح بالمرارة . واذا اعترفنا بصحة هذه الرسالة (*) ، سنرى أن مونتارجيه كن يطالب بما هو أكثر من القسم . فلو جاء اليوم الذى يتعانق فيه القسس هم والهراطقة ، ونقشت حقوق الانسان على جدران المعابد ، آنئذ فقط سيعترف بهم كمواطنين حقا .

وتكاد جميع النوادى أن تكون قد تعرضت لفقدان أحد المواطنين والقسس الكاثوليك فى بدايات ١٧٩١ ، كنتيجة للعصيان وحركات التطهير . ولكن على أية حل ، فيصح تشبيه الإنشقاق الدينى برصاصة أصابت ذراع الحركة اليعقوبية . فالجمعيات الأقدم التى أصيبت بالعرج(**) ١٧٩٠ ، بدات تلتقى الآن بانتظام أكبر ، وتعقد جلسات علنية وتضم أعضاء جددا . وتفرغت بعض الدوائر الوطنية المتنافسة لعمليات الدفاع عن النفس . وارتفع معدل انشاء الأندية وبلغ رقما قياسيا ، وشارك اليعقوبيون فى باريس (بهذا المعنى الجديد لرسالتهم) باصدار منشور دورى فى ٩ يناير طالبا من المنضمين اليهم استعمال جميع السبل ما عدا العنف لتهديد الكنسيين الذين يدعون الى « الحرب باسم اله السلام » . وطبعت فرساى ألفى نسخة من هذه الرسالة ، واستجابت جمعيات كثيرة بارسال نشرات الى المواطنين تدعو الى تحقيق السلام والوئام وسط نيران التعصب . وتحدت تول فى ٢ يناير أسقفها المنشق ، ودعته الى الاشتراك فى مناظرة رسمية حول مزايا الدستور المدنى لرجال الدين ، وتجسمت جمعيات الحراسة (***) فى عدة تنظيمات ، واتخذت عدة أندية شعار « العين الساهرة » وأعلنت جمعية ليموكس قيام ثلاثين من أعضائها بالتجوال كل يوم أحد فى الأقاليم للدعوة الى اتباع القانون ، وأنشأ الوطنيون فى فنديه « جمعية (****) متنقلة » من مدينة أخرى لمحاربة التعصب .

وتولد عن الرقابة المزيد من الشكايات ، ففى الشهور الأولى (١٧٩١) قلما مر يوم بغير ظهور اتهامات جديدة بالتعصب ، وفى احدى المناسبات ، قدمت تورز لمجلس مدينتها نشرات ملتهبة كانت منتشرة فى حوض نهر الاندار واللوار ، وأخطرت مدينة برست لجنة التحريات (*****) فى الجمعية الوطنية بأن القسس المتمردين قد هددوا بشطب أسماء الشماسين غير

(*) نشرت فى Patriote française فى ٢٣ فبراير

(**) جمعيات Artonne, Angoulême, Rodez, Le Mans

(***) Surveillance

(****) Societé ambulante

(*****) Comité des recherches

المتعاونين من سجلات المعمدين ، وأبلغت مدينة تانيت عن حدوث ضغوط سرية في أحد الأديرة ، وشعرت مدينة أخرى (*) بازدراء لرجال الكنيسة الذين استشاروا الشعب واعتبروا « القسس المحلفين غير جديرين بالقدسية » وندبت مدينة أمين تمرد كليتها • وكشفت أوتون عن شروع نائبها الأسقفي (**) في جمع تبرعات مالية لمعارنة من امتنعوا عن حلف اليمين ، وشرلى لانجروبورج بالغضب لاخفاق مقاطعتين من مقاطعاتها في اسكات غير المحلفين ، وشكت مونفور من « القسس المشاكسين » الذين استمروا في حرق البخور • وشجبت كليرمون فيران الرهبان الذين يرتدون رداءهم الرسمي من أثر الجهل أو ازدراء للقانون •

ومن الموضوعات المتكررة في وسائل النادى في بواكير ١٧٩١ ، التأثير المزدوج للقسس غير المحلفين على النساء ، ففي ستراسبورج ، دفع تمرد النساء المجتمع الى اغلاق المعهد اللاهوتي ، واقتحم حشد من الأمهات والأطفال فندق المدينة (***) لمنع عمدتها من تطبيق قانون ٢٧ نوفمبر ، واضطر نادى بورج الى اتخاذ اجراءات ملحة لتهدئة مخاوف الريفيات • وفي سانت فوى ، تجمهرت شرذمة من المتعصبات دفاعا عن قس رفض تلاوة أوامر صادرة من الجمعية الوطنية ، وشعرت مدينة أخرى (****) بالازدراء لاشتمامها عجز نسائها الطيبات عن الكتابة ، وان كن تعرفن كيفية صب الشتائم على الكاهن الدستورى • وشعرت لى مانس بالأسى ، لأن النسوة « كن تحرمن من الاعتراف ، وتتلقين تهديدات بالحرمان من رعاية الكنيسة ما لم تبعدن أزواجهن عن « مدرسة ابليس » ، يعنى جماعتنا » •

وفي المدن التى امتنع فيها رجال الدين عن التعهد بالولاء للدستور ، عكفت الأندية بكل جد وعزم على الاطمئنان الى أداء شعائر العبادة دون مقاطعة • وتطوع محلفان بملء المحلات الشاغرة في كنائس الابرشية بالمدينة الى أن يعين قسس جدد ، وعهدت تورز للكنسيين الموالين في مقاطعتها بمهمة تلقى الاعترافات والاشراف على المقدسات في ثلاثين أبرشية خالية من القسس • غير ان هذه الاجراءات لم تزد عن اجراءات وقتية ، اذ كان الحل الدائم الأوحد والمشروع ــ كما أدرك أنصار الأندية ــ هو دعوة من يحق لهم الانتخاب بالمجالس الدينية الى جلسة لاختيار من

(*) Aigues - Vives
(**) Vicaires-généraux
(***) Millau
(****) مدينة Yessengeaux

يحلون محل القسيس ، وحدث التجاء الى الضغط لارغام الموظفين في المقاطعة والادارات على استدعاء الناخبين على الفور ، وتعالت صيحات الاحتجاج عند حدوث أي تأخير ٠

وبدأت الانتخابات في أواخر يناير ، وسارت في طريقها زهاء أربعة شهور ٠ وكما لاحظ أحد كتاب النشرات من أنصار الملكية : « لم يسبق قط ان بدا تأثير الأندية ملحوظا الى هذا الحد » ، وبدىء بالاقتراع على وظائف الأسقفية ٠ وفي ليلة الادلاء بالأصوات ، اشتبكت الجمعيات في كفاح مرير ضد القسس والشماسين السابقين(*) ٠ ونشرت بورج دفوعا بليغة (**) لمؤازرة أسقف بوسيميه ، وذكر أن محله ليس شاغرا وعندما أعلن رئيس الجلسة (***) أن الكنيسة قد تعتبر كل من يدلي بصوته من الهراطقة ، هدد أوش بنشر أسماء جميع الخونة ، الذين غابوا عن عملية الانتخاب ٠

وخشي بيروجيه (****) من حيلولة المشكلات المالية دون استطاعة الناخبين السفر الى مقار الانتخابات ، ومن ثم وزعت قائمة بأسماء الأعضاء الذين أبدوا استعدادهم لتدبير أماكن ايواء مجانية ، وفتح برجراك اعتمادا لدفع نفقات السفر ، واشترك هو وسان برييك في كتابة التماس للجمعية الوطنية بتحمل جميع النفقات ، وكان من واجب الجمعية التشريعية الاتصاف بالحكمة والموافقة على هذا الطلب ، لأن عدد الحاضرين كان ضئيلا الى درجة مخيبة للآمال ٠ ففي بورج لم يلب النداء سوى ١٩٨ ناخبا بالمقارنة بثلثمائة وخمسة وعشرين في السنة الفائتة ، وفي فنديه ، لم يظهر من الناخبين المستوفين للشروط أكثر من ١٧٣ ، من عددهم القانوني (٤٧٦) ، وامتنع ٢٨ منهم عن التصويت ٠ وانتخب كلود فوشيه أسقفا لكالفادوس بعد حصوله على ٣٥٪ من أصوات المجلس الديني ٠

واشتبكت الأندية في حملة إنتقامية مع الممتنعين عن التصويت ، وسعت من وراءها الى اعادة تجديد شاملة للناخبين ٠ ولكن من سخريات القدر أن يؤدي تقلص جماعات المنتمين الى تضخيم التأثير « اليعقوبي » ، وترأس الجمعية المنتخبة رئيس نادي آراس ، وافتتح أعماله باقامة قداس حضره أعضاء النادي كتلة واحدة ٠ وفي بورج ، انتخب أعضاء

(*) على تراس الجلسات

(**) الاسقف Perigueux

(***) La Tour du Pin Montauban

(****) Perigueux

الجمعية كسكرتيرين ومسئولين عن عد الأصوات ، وأوفدت بعض المدن (*) بعض المبعوثين لتسليم التعليمات ، وعقدت الأندية القائمة فى مواقع الكليات المنتخبة اجتماعات عامة يوميا وتولى تطييب خاطر المنتخبين المدعوين لجمعية كاستر (من ١٣ ـ ١٦ مارس) متحدثون من المدافعين عن الدستور المدنى لرجال الدين · وطبقا للبيانات التى وردت فى الجرائد اليومية ، فان « كان » استطاعت جمع ألف ومائتى عضو وزوار من الناخبين فى قاعة اجتماعها فى ١٤ مارس ، وهو اليوم المحدد لاختيار الأسقف الجديد ، وورد فى أحد المجلات (**) أن عددا يناهز ٢٣٠ من الناخبين قد هرع الى اجتماع النادى فى نانسى فى ١٣ ـ ١٤ مارس ، وأدرجت ستراسبورج ١٣٣ ناخبا كأعضاء فى الجلسة المنعقدة من ٢٦ فبراير الى أول مارس · ويقال لنا ان كثيرين من الناخبين قد جاءوا لجمع المعلومات التى سيكون بوسعهم الاستعانة بها فى اختيار الموظفين المسئولين » ، وقامت مدن أخرى (***) بتعريف من يحق لهم الانتخاب الصفات التى يراد تحلى الأساقفة المأمولين بها ·

ووجه المعاصرون الاتهامات لتدخل النادى لصالح بعض مرشحين بالذات ، واعترفوا بوجود أدلة مؤيدة لهذا الادعاء ، ويبدو أن هناك مدنا معينة قد خضعت للايحاء بانتخاب جريجوار · وشنت بورج فى البداية حملة لانتخاب لويس شاربيه من لاروش ، ولكنه عندما رفض المنصب اختارت بيير أناستاس تورنيه ، وهو قس بالغ اليعقوبيون فى الاشادة بمناقبه فى باريس · وعندما طلب ريوم ترشيح بعض من يستأهلون الارتقاء الى منصب الأسقفية رشحت مدينة أرتون أربعة أسماء (لم ينتخب أحد منهم) · وأعدت الجمعيات الشعبية فى ليون وسان اتيين قوائم بأسماء بعض رجال الكنيسة التى تزكى للقبول ، وادعت الفضل فى ترشيح اسم الأب أنطوان لاموريت أسقفا للرون واللوار ·

وكوفىء ١٩ من المبعوثين بمنصب الأسقفية ، وزكى الناخبون أيضا بعض أعضاء الأندية ، واختار الدروم (****) زعيما لجمعية أنصار الدستور فى فالينسى ، وزكت تولوز ترشيح أساقفة للجارون الأعلى (*****) · وأعلن بعض الفائزين الآخرين عن ترشيحهم للأندية ، بنشر مقالات تدافع

(*) مدن مثل Gueret, Foix, Coutances ونانسى

(**) Journal de Meurthe.

(***) Le Mans, Cherbourg, Soissons.

(****) Drôme تنظيم ادارى قديم فى فرنسا كان يجمع بعض المدن المهمة ويقصد الكاتب المنطقة المحيطة بمدينة Valence

(*****) Haute-Garone.

عن الدستور المدنى ، أما بارت الذى انتخب أسقفا لجيرس ، فقد اكتسب شهرة فى الجنوب بفضل عدة مؤتمرات عقدها ، وأرسل لى فيرديه (*) مبحنا لنادى روان قبل أيام قليلة من انتخابه أسقفا • وهكذا دواليك •

وبغض النظر عن هل كان الأساقفة مدينين بمناصبهم للناخبين اليعقوبيين ، أم غير ذلك ، فانهم حظوا بالمساندة من الأندية بعد توليهم أعمالهم • وفى الحالات التى كان الزعماء الجدد يقيمون على مقربة ، كانت الجمعيات تبلغهم بحظهم الموفق وتصحبهم فى موكب ظافر الى الكنيسة الكاتدرائية ، أما المقيمون فى باريس أو فى مناطق نائية ، فقد أرسلت لهم رسائل التهنئة على جناح الأثير • وأثناء رحلات الأساقفة الى مقار عملهم ، تقيم الأندية مظاهرات حافلة للترحيب بهم ، وتدعو لهم بالتوفيق فى نشرات مطبوعة أو تهديهم بعض الأسفار أو القطع الفنية المقدسة ، وتنصب للأساقفة عروشا ومنصات ، ويحيى مبعوثو الأندية عربة الأسقفية خارج البوابة ، ويقدمون شعائر التقدير والتأمين ، ولا ينسون القاء بعض الخطب المعسولة ، ثم يصحبون الموكب الرسمي فى طريقه الى المدينة ، وبعد التسبيحة أو القداس المختصر (**) يزور ضيف الشرف الجمعية ، حيث يعانقه الرئيس ويمتدح فضائله ، وغالبا ما تقام ولمة على شرفه ، ثم يرافق أعضاء النادى الكاهن وسط مظاهر الحفاوة بعض الطريق الى الوقفة التالية •

وأقيمت احتفالات مهيبة لدى وصول الأساقفة الى مقار عملهم ، ودعا أليبى كل جماعة فى اقليم التارن لارسال ممثلين لها فى حفل تنصيب الأسقف • وحتى تثبت بعض البلدان المنافسة ، عدم وجود من يبزها فى هذا المضمار ، أثبتت كاستريز(***) وجودها باقامة عرض حافل ، وأثناء الحفل الدينى الذى أقيم لأسقف ماين ، احتشد ألفان من المواطنين فى نادى لافال واجتمع قرابة ألفين وخمسمائة فى جمعية مارسيليا لاستقبال أسقف حلق حوض الرون • وأمرت بلدية بورج المواطنين ، بناء على طلب النادى بانارة بيوتهم • على أنه فى بعض الأحيان حدث عدم تعاون من السلطات كما رأينا أمين تتخلى عن بعض الاداريين ممن تخلفوا عن الحضور فى حفل تنصيب أسقفها • واشتكت جمعية لانجريه لأن موظفى الاقليم بذلوا قصارى جهدهم لافساد الحفلات البهيجة التى أقيمت هناك ، الى حد اقدامها على تنفيذ حكم بالاعدام العلنى فى نفس اليوم •

(*) Le Verde Choi y Le Roi

(**) Missa breva

(***) Castres

وجمعت مظاهرات ربيع ١٧٩١ بين مظاهر التعبير عن الابتهاج والجهود المحسوبة للدعاية • وفى كالفادوس حيث هدد فوشيه (*) بالحرمان الكنسى من قبل الأسقف السابق ، عانت الجمعيات الأمرين لاثبات التأييد الشعبى • وأعدت مدينة أخرى (**) العدة لقدوم الأسقف ، وطبعت بعض أحاديثه التى سبق أن ألقاها ، وعندما وصل عومل كأنه « ملاك هبط من السماء » ، وفى « كان » منح عضوية مجلس المدينة ، وبالغ رئيس الجمعية فى امتداحه ، وقاد أنصار الدستور عرضا اتجه الى الكنيسة الرئيسية حيث أقيم احتفال لشكر الاله ، وفى هونفلور بارك فوشيه العلم ، وألقى خطابا طبعته الجمعية ، وقدم للصحفيين البارسيين ، وقرئ فى حضرة أعضاء جمعية فير مقاله عن النظام الاجتماعى ، ولقى اعجابا شديدا ، ثم حضر بعد ذلك وليمة حضرها مايتوف عن المائة شخص •

وبرز الأساقفة فى شتى الأنحاء كزعماء للجمعيات • ويصح هذا القول بوجه خاص عن الأسقفيات التى استمرت فيها أغلبية الاكليروس والشعب تدين بالاخلاص للنظام الأقدم ، ومثل اليعقوبيون العملاء الوحيدين الذين يمكن أن يعتمد عليهم الأساقفة الجدد ، وفى كالفادوس احتل فوشيه الصدارة شهورا قليلة ، فكان يحرر رسائل الأندية ، ويصدر تعليمات باسمها ، ونشر تورنيه الثورة من خلال جمعية بورج ، وأشعل الحماسة عند اكليروس شير • وارتقى بالمثل الأسقف بوفيه الى أعلى المراتب ، وان كان ذلك لم يدم طويلا ، وسعى النادى تحت قيادته لشن حملة لاستبعاد « المشاكسين » الذين أثاروا الشغب أثناء جناز ميرابو فى شهر ابريل •

وسخط سلف ماسيو على الانتخابات ، وفى أواخر ابريل اقترعت بوفيه على طبع ألف ومائتى نسخة من الرد ، وعكفت الجمعيات الشقيقة على اعداد دفوع لصالح الأساقفة السابقين أيضا ، وكان أكثر الملامح الجديدة ادهاشا المقالات المناهضة للهيرارشية فى ربيع ١٧٩١ عنف لهجتها ، وشبهت بلوا أسقفها السابق بوحش ينفث سمومه ، وفى احدى نشرات دويه (***) قورن بريمات الأسقف الدستورى للشمال بالأديب الحكيم

(*) Fauchet

(**) Cheylus

(***) Douai

فنلون ، وما عرف عنه من فضل • ومقابل ذلك ، صور الأسقف السابق لاراس كونزيه (*) كداعر كرس حياته للمتع الشهوانية •

وتعزز موقف الهيرارشية الفرنسية المنشقة في مارس ١٧٩١ ، عندما عاقب البابا لوفييه دي برين أسقف سنس ، لأنه أقسم اليمين للبرلمان المدنى ، وأثارت رسالة البابا الى نومينية زوبعة عاتية في النادى ، ورفع سنس شكايته الى الجمعية الوطنية ، وأبلغ سانت مارسلان اليعقوبيين غاضبا عن وجود أفراد من أصحاب النوايا الخبيثة قد أرسلوا بعض النشرات الى القسس الدستوريين فى دائرته وأحرق جيون دميتين فى الميدان الرئيسى : تمثل احداهما البابا ممسكا بمنشوره البابوى ، وتبين الدمية الأخرى الأب مورى السيىء السمعة جالسا تحت قدميه • غير أن هذه الأفعال بدت هينة الشأن بالمقارنة بالانفعالات التى ثارت عندما وزع أحد الصحفيين من أنصار الملك بعض الرسائل البابوية فى شتى أنحاء فرنسا فى أوائل شهر مايو ، وأعلنت الرسائل المشار اليها ، والمؤرخة فى ١ مارس و ١٣ مارس أن الاصلاحات الدينية للجمعية الوطنية خرق لتعاليم الكنيسة ، وتعنى الغاء الانتخابات الأسقفية ، وأنذر من أقسموا اليمين بوجوب سحب قسمهم فى بحر أربعين يوما ، والا واجهوا الايقاف عن أداء عملهم •

ولم يعترف أنصار النادى فى سيزان وبيتون (**) وجراى بمسئولية البابا عن هذه البيانات ، وعللوا ذلك فى البداية بتلفيق رويو لهذه الرسائل ، التى لا أصل لها ، على أنه بوجه عام يستطاع القول بقبول الجمعيات للمنشورات البابوية فى ظاهرها ، وأدانت الجمعيات البابا بيوس السادس ، وتساءل الأب فيارد من لينيه فى معرض حديثه عن بابوات روما : « عن مدى ما أثارته نزواتهم وكراهياتهم النابعة من الأنانية من اراقة لدماء آلاف البشرية ؟ » وأعدت جمعيات عديدة ردودا مطبوعة ، واكفهر جو فرنسا من غبار حرائق الاحتفالات المقدسة•وتلقى جنجام(***) الرسالتين فى ١٧ مايو ، وعكف على الفور فى البحث عن وسيلة « لجلب الاحتقار والسخرية من هذه الأعمال المظلمة التى اصطنعت لبث الرعب فى النفوس الحائرة ولشن حرب دينية فى المملكة » • وانتهى الأمر الى اتخاذ القرار باتباع الآتى : يقوم ٤١ من الأعضاء حاملى الوثائق بالتقدم فى خطوات وقور صوب الميدان الرئيسى ، حيث ينتظرهم موظفو البلدية

(*) Conzie

(**) Béthune, Sezanne

(***) Guingamp

بصحبة حشد من المواطنين • وبلغ غضب الجنود ذروته الى حد تمزيقهم للمنشورات البابوية ، أثناء سيرهم ، وتسلم العمدة الأجزاء المتناثرة من احدى الرسائل ، وتلقى رئيس النادى الرسالة الثانية ، وانتقلت أعداد نشرة رويو(*) من يد لأخرى ، وعند تلقى الاشارة ألقيت هذه النشرات فى النيران •

وجرت عمليات الانتخاب لاحلال قسس من غير المحلفين فى جمعيات الأقاليم ، لاسيما فى مارس وابريل ومايو ، وحاولت الأندية مرة أخرى تشجيع الحضور ، وأشارت فى تعليمات مطبوعة الى أن اختيار القسس حق للشعب منذ أوائل عهد الكنيسة ، وأرغم بيمبوف(**) جميع من يحق لهم التصويت على التعهد بالحضور ، ونظرت « برجراك » فى مسـألة تدبير أماكن للاقامة المجانية للناخبين فى مقاطعتها ، واقترعت على حصر أسماء المتخلفين عن الحضور ، ويصح القول بأن كل جماعة فى عواصم المقاطعات كانت تعقد اجتماعات يومية يحضرها العديد من الناخبين •

وفى اليـوم الأخـير لعقد الجمعيـة الانتخابية فى سيزان ، أعلن مبعوثون من النادى « كم هو رائع أن نرى بين الكنسيين الجـدد مواطنين اشتركنا معهم فى عقد أقدس تحالف » • وفى مواضع أخـرى أيضـا ، اتضح أن العديدين ممن حلوا محل القدامى كانوا أعضاء فى الجمعيات ، أو معينين من قبلها ، وفى « فير » حيث وزع النادى قائمـة باتبـاع المحلفين ، وبمن هـم ليسـوا أتبـاعا لهم ، للاسترشاد بها ، كان القسس الجـدد وجميـع الشمـاسين التابعين لهم من اليعقوبيين ، وقدم رئيس أساقفة برجراك شـكره لأعضاء الجمعيات : « لما أبديتموه من اهتمـام بانتخابى » ولمـا سمع لاروشيل عن وجـود زيادة فى رجال الدين من المحلفين (***) ، وطلب من ليموج ارسال قسس لشغل الأماكن الشاغرة فى الأبرشيات ، وكتب سان باولو الى جنجام طالبا ارسال قوائم بأسـماء بعض الأساقفة الطيبين ممن هم على استعداد للانتقال الى أماكن أخرى ، وزكت تورز لستراسبورج أسـماء اثنين من الرهبان من القادرين على التحدث بالألمانية ، وممن يرغبون انشاء أبرشيات فى الالزاس ، واشارت ستراسبورج على كولمار باسـم أحـد الصالحين الأطهار من القسس فى باتنهايم ، ممن كانوا ينوون الحط من مكانة الابرشية (****) •

(*) Gazette.

(**) Paimboeuf

(***) Haute Vienne.

(****) وجعلها مجرد مكان صغير لا يضم احدا غير الخورى •

وفى الأبرشيات التى حل فيها القسس المنتخبون محل غير المحلفين، ثارت المتاعب عادة ، وغالبا ما كان الخورى القديم يبقى قريبا من موقع الأحداث ، وكان الآباء والأمهات يصحبون أطفالهم اليه للمصالحة والتعميد ، ويسعى اليه أقرباء المحتضرين للاشراف على الطقوس الأخيرة ويطلب منه الشباب ترأس احتفالات زفافهم ، وفى المصليات الخاصة والبيوت والحقول وفى أى مكان متاح ، كان المؤمنون يلتقون للاستماع الى « المشاكسين » وهم يتلون القداس والعشاء الربانى • ووصف بيير دى لاجورس موقف القس الدستورى على هذا النحو :

« فى الابرشية التى ستؤول اليه ، لا أحد يرشده الى الطريق . ففى نظره ، لا حاجة لوجود من يدق ناقوس الكنيسة ، ويتحمل عبء وضع الكسوة للمذبح ، وتترك الأبرشية خاوية كأنها مكان جرد من محتوياته قبل تركه للوقوع فى أيدى الأعداء ، وفى المساء ، يجرد من كانوا رجال أبرشيته يوما ما الكنيسة من محتوياتها ، ويلقون القش فى البئر ويلطخون الأبواب بالأوساخ ، ويسدون الأقفال بالرمال • وعندما يبارح المكان القسس المحلفون يتبعهم الأطفال مقلدين صيحات الديكة ، كتلميح للخيانة التى تعرض لها القديس بطرس ، وعندما يمر فى الطريق ، يطلق الفلاحون كلابهم لاعتراض سبيله » •

وعندما تقع مثل هذه الأحداث ، كان القسس الدستوريون ينزعون لطلب المساعدة من الأندية التى تعهدت بمسئوليتها عن حمايتهم ، والتقى ممثلو جمع الجمعيات (*) فى مؤتمر بكليرمون — فيراند لبحث مشكلة المقاومة الشعبية للدستور المدنى ، وسبل العلاج الميسورة • وأصبح من بين الأمور المألوفة فى الأندية أيضا ايفاد مبعوثين لحضور حفلات تنصيب الخوريين الجدد ، وتطوع احد اليعقوبيين من فير باختيار طفل من أبنائه ليكون أول من يعمده القس المنتخب • واقترح سان بريه تأليف جيش من المتطوعين فى بريتانى للانتقال الى أى مكان يتعرض فيه القسس « الصالحون » للاضطهاد ، وأنشأ القسس المحلفون جمعيات أبرشية كوسيلة دفاعية اضافية ضد المتعصبين ، وأنشأ الأب ماسموريه(**) القس الدستورى ، وبالمقدور ذكر عشرات الأمثلة المماثلة •

وبمرور الأيام ، طالبت الجمعيات الجمعية الوطنية باستصدار قوانين جديدة صارمة ، وسعت جمعيتان لكى يشمل القسم جميع العاملين

(*) فى Puy de Dôme

(**) Masmoret • كما أنشأ أيضا Lemembre خورى Chavennes جمعيـة Chateauneuf sur-Cher

بالكنائس سواء أكانوا من الموظفين العموميين أم لا ، وألحت جمعيات أخرى على تخفيض مرتبات غير المحلفين أو وقفها ، أما جمعية بريود وبعض جمعيات غيرها فقد طالبت باستبعاد القسس السابقين من أبرشياتهم . بينما طالبت جمعيات أخرى بنفيهم الى مكان يبعد ثلاث مدن أو أربع . واقترحت مدينة كوندريو حشدهم فى الميادين الرئيسية للمقاطعات ، أما ستراسبورج فرأت اقصاءهم خارج الحدود ، بينما ارتأت مدينة بلوا تكليف جمعية ناشئة لتجميع جميع المشاكسين فى بعض السفن ثم شحنهم الى احراج افريقيا وأمريكا ! .

واقترحت فير فى سبتمبر ١٧٩٠ السماح لرجال الدين بالزواج « حتى يصبحوا مواطنين بالمعنى الصحيح للكلمة » واستفسرت ستراسبورج فى أغسطس من الجمعية الوطنية عن هل يحق للكنيسة الانفراد بالسيطرة على سجلات الزواج والتعميد . وعندما زادت صفاقة « المتعصبين » عن حدها ، تورطت بعض الجمعيات فى عمليات العنف . ففى حادثتين منفصلتين فى ليبورن فى مايو ، قبض على بعض القسس وهم يجوبون المدينة على ظهور الحمير ، ويرشقون الجماهير بالحجارة ، أما الأدهى من ذلك فهو البيان الحافل بالزهو الذى أرسله نادى لسورن الى اليعقوبيين فى باريس . وعلى الرغم من أن أحداث العدوان والقتل ظلت نادرة ١٧٩١ ، الا أن الوقت كان قد حان لكى يصبح الرعب مبدأ الممارسة المقبولة للتعامل مع القسس الأوغاد ! .

المراجــــع

A. Cobban, Aspects of the French Revolution 1970.

W. Doyle, Origins of the French Revolution (1980).

J. Egret, The French Pre Revolution 1787-88, (1978).

A. Forrest, The French Revolution and the Poor (1981).

J. Godechot, The Counter-Revolution : Doctrine and Action 1789-1809 (1971).

L. Hunt, Politics, Culture, and Class in the French Revolution

D. Johnson, ed. French Society and the Revolution (1976).

G. Lefevre, The Coming of the French Revolution (1947).

M. Lyons, France under the Directory (1975).

R. R. Palmer, Twelve Who Ruled : The Committee of Public Safety during the Terror (1941).

A. Saboul, The French Revolution (trans. 1975).

T. Tackett, Religion, Revolution and Regional Culture in Eighteenth-Century France : The Ecclesiastical Oath of 1681 (1986).

C. Tilly, The Vendée (1964).

أصل الاتجاه المحافظ فى ألمانيا

كلاوس ابشـــتين

من سخريات التاريخ ، ومفارقاته ، ان يكون الاتجاه المحافظ ، يعنى الأيديولوجية التى تسعى للحفاظ على حكمة الماضى ، ظاهرة فكرية عصرية • وما كان بالاستطاعة بزوغ هذا الاتجـاه الا بعـــد ان تعرضت المعتقدات الأوربية التقليدية فى الدين والسياسة للتحدى الشديد والانتقاد العدوانى من قبل كتاب عصر التنوير ، وبعد أن اعتنقت الحكومات جانبا من هذه الأفكار النقدية •

ولقد جرت العادة على الربط بين الاتجاه المحافظ ورد الفعـل ضد الثورة الفرنسية،غير أن العديد من معتقدات هذا الاتجاه ونظراته الأساسية تمت ابان العشرين سـنة التى سـبقت ١٧٨٩ كاعتـراض على النزعـة التنويرية المطلقة لحكام وسط اوربا ، وشرقها ، خصوصا فردريك الأكبر ملك بروسيا وجوزيف الثـانى ملك النمسا • اذ أحاط العاهلان نفسيهما بأناس من أرباب النظرة المتنورة ، واتبعا سياسات اصلاح عقلانية فى شتى الموضوعات وفى جبـاية الضرائب ، وكان الود مفقودا بينهما وبين المؤسسات الدينية فى بلديهما • وجرد جوزيف الثانى الكنيسة مما تمتلك من أرض •

وزعم لسان حال الموقف المحافظ ، الصاعد آنئذ ، أن المعتقـدات العقلانية للتنوير قد ادت الى الشك والانحلال الأخلاقى ، فبغير ايمـــان دينى تقليدى ، سيجنح السواد الأعظم من البشر الى العيش حياة فوضوية بعيدة عن الانضباط ، فالعقل وحده عاجز عن التزويد بأساس للسلوك الذى يتبع فى الحياة اليومية • واستعان « المحافظون » بهذه الحجة فى معرض الدفاع عن العادات الاجتماعية التقليدية ، والدور السائد للدين

(★) نقلا عن كتـاب The Genesis of German Conservatism
تأليف Klaus Epstein (١٩٦٦) ص ٦٥ ـ ٨٢ •

والكنيسة في الحياة الاجتماعية والسياسية ، وانكروا ـ بوجه خاص ـ مقـدرة البشر على تحقيـق أى نوع من التقـدم الأخـلاقى المهم • وكان المقصود من جميع هذه الحجج الدفاع عن الوضع الراهن (*) فى الناحيـة الاجتماعية والناحية السياسية •

ولجا المحافظون الجدد الى أنواع شتى من التكتيكات فى حربهم الصليبية ضـد التنوير ، وحرضـوا الحكومات على الالتجـاء للرقابة ، ما امكن ، او اقامة العقبات أمام الصحف الانتقادية ، وهاجموا شتى أشكال التعليم التقدمى التى يقصد بها ـ على ما يبدو ـ اثبات امكان رفع المستوى الأخلاقى ، أو مرغوبية الصعود الاجتماعى•وعلى الرغم من كراهيتهم لعالم الصحافة ، الا انهم اقتحموه ، فانشاوا جرائد لمناصرة قضيتهم • وحتى اندلاع الثورة فى فرنسا ، لم تحقق هذه الاتجاهات المحافظة ، وعقائدها الا نجاحا متارجحا • ولكن فيما بعد ، عمدت الحكومات والأرسـتقراط عبر أوربا الى تبنى نظرتها ، ونشرها زهاء نصف قرن من الزمان •

ظهرت الاتجاهات المحافظة طيلة عصور التاريخ المكتوب • ويعنى بهذا المصطلح الاتجاه الذى يشعر فيه الناس بمعاداة التغيرات التى تطرأ على ما اعتادوا من حيـاة ، وما تعلقوا به من معتقدات ، فثمة ارتبـاط وتداع بين هـذه الاتجـاهات ومعنى التغير ذاته ، وتمتـد جـذور هـذه الاتجاهات الى الخوف الآدمى من المجهول ، والرغبة فى الحيـاة فى بيئة بالاستطاعة التنبؤ بكل ما يجرى فيها ، ولقد حدثت جملة تغيرات طوال التاريخ لم يقتصر أثرها على تحفيز الشعور سيكلوجيا بعدم الارتيـاح • وانما ترتب عليها أيضا التعبير الصريح عن الدفاع عن الاتجاه المحافظ • فمثـلا اعتقد المتآمرون الذين اغتالوا القيصر أنهم يدافعون عن الدستور البرلمانى القديم ضد نوع جديد من الطغيان ، ودافع الفيدوكنج السكسون عن آلهـة جدودهم ضـد الدين المستحدث لشرلمان ، ودافعت محـاكم التفتيش الدومنيكية عن اتجاه الكاثوليكية المحافظة ضد الهرطقة (**) • كما دافع اليسوعيون المناهضون للاصلاح الدينى عن وحدة العالم المسيحى ضد غزو المصلحين البروتستانت ، ودافع جون هاميدن عن الحق الانجليزى العتيد فى عدم فرض أية ضرائب عليه دون موافقته فى معرض الاعتراض على المطالب الجديدة للامتيازات الملكية ، وفى ذات الوقت ، دافع النبلا الألمانى كالك شتاين عن الحقوق التقليدية للولايات البروسية الشرقية ضد الحكم المطلق للوالى الأكبر وما فيه من اجحاف •

(*) Status quo.

(**) Albigensian

وتعد جميع هذه الحالات ، التى اخترناها بطريقة عفوية أمثلة للدفاع عن وضع راهن خاص فى زمن خاص ضد زمان معين ، اما ماله أهميـــة ومغزى فى القرن الثامن عشر ـ فى ألمانيا حوالى ١٧٧٠ ـ فهو أنه بالرغم من أن الاتجاه المحافظ قد ظــل فى جوهره دفاعا عن المؤسسات الممثلة للأوضـــاع الراهنـة (*) ، الا أنه تبنى للمرة الأولى نظـرة عامة (**) لها شخصية مميزة ٠

فلم يخطر ببال بروتس وفيدوكنج وهاميدن انهم يدافعون عن نظام اجتماعى وسياسى وثقافى جامع ضد هجوم عام يتغذى من رؤيا تصورية جديدة تماما للمجتمع ، وكيف يتعين أن يكون ٠ ولا ريب أنهم شعروا ان ما يدافعون عنه له أهمية تتجاوز الوضع المباشر وما يترتب عن هزيمتهم فى هذه الناحية من ردود فعل بعيدة الأثر ، وانطلاقا من هذا الشعور ، بانت الخطوة قصـيرة للغـــاية للاقتراب من المنظـور المحافظ السافر ، ويالها من خطوة قصيرة حقا ، وان كانت حاسمة ، ولم يقم بخطوها أحد فى ألمانيا قبل يوستوس موزر (***) ولقد اتخذت آنئذ كرد فعل لا مناص منه لتحدى التنوير (****) ببرنامجه العام الذى يدعو الى احداث تحول فى كل قطاع من قطاعات الحياة ، وأرغم « التنوير » أصحاب الميول المحافظة على التخلى عن تقليديتهم التى تولدت عن عدم استبطانهم لذاتهم ، يعنى قبولهم الغريزى المدعم للوضع الراهن ، ايثارا للدفاع على نحو سافر عن المجتمع فى جملته ، والوعى الذاتى به ، ولعل ما هو أفدح من ذلك ارغام هذه النزعة التقليدية أنصار الاتجاه المحافظ على انتقاد ممارسة نقد عصر التنوير لذاته٠غير أن الرد المجزأ الذى يتناول كل قضية من قضايا البحث على حدة بالتحليل والفحص لم يحقق أكثر من انتصارات مؤقتة أو عابرة ، وقدر للاتجاه المحافظ من بدايته أن يضطر رغم شجبه للنقد والمحاجاة الى عدم الالتجاء الى السبيلين ٠ والواقع أن بزوغ الفكر المحافظ والمحاجاة المحافظة قد ساهما فى اشـــتعال المعركة الدائمة للأفكار التى اعتبرها المحافظــون ـ فى أغلب الظن ـ أكثر مظاهر روح العصر الحديث اثارة للأسف ٠

ولابد أن نكرر القول بأن التــورط المؤسف للاتجــاه المحافظ قد ظهر منذ اللحظة الأولى من مولده٠فالمحافظون يقدرون أى مجتمع بقدر ما فيه الكافة النظام الوطيد بلا اعتراض ، وحيث يكون النشـــاط الفكرى

(*) Status quo

(**) Weltanschauung

(***) Justus Moeser

(****) Aufklaerung

اما فى أدنى مستوياته ، أو يكون مكرسا لتهذيب النمط القائم للحياة ، بدلا من نقده ، وهم يمقتون ويستاءون من عادة النقد ـ والتى اتخذت صورة منهجية ابان عصر التنوير ـ والتشكك فى كل شىء ، والسخط على كل شىء ، ومع هذا فقد شعروا أنهم مرغمون بتأثير الروح النقدية الجديدة التى يتعذر كبتها على الدفاع عن المؤسسات التقليدية من كنائس وحكومات وأنظمة اجتماعية ، عند ما يوجه اليها أى هجوم ، ويشعرون غريزيا أن المعركة قد تعرضت لنصف خسارة ، بعد ارغامهم على خوضها • فلابد فى رأيهم ، رغم بغضهم للمحاجاة والمجادلة ، أن يدافعوا ، رغم شعورهم بأن الاكتفاء بالقبول بلا تساؤل أقدر على تحقيق الرضا الشعورى ، وارغامهم على الاقناع ، رغم كون الاقناع بلا ضرورة ، ولا يحتمل أن يعود بأى نفع • ان من يضع شروط المجادلة هو الفريق المؤمن بالحركة • ولقد كتب على الاتجاه المحافظ أن يحارب ـ بالضرورة ـ حربا دفاعية الى الأبد ، والانتصارات التى تتحقق عن طريق الجدل هى فى أفضل الأحوال من الانتصارات المثيرة للتشكك (*) ، لأنه حتى المؤسسة التى تنجح فى الدفاع عن نفسها ستتحول الى شىء مختلف تماما عن تلك التى لم تتعرض لأى تحديات تدفعها الى التزام الدفاع ، فالفضيلة النضالية لا تزيد عن عوض هزيل لسحر البراءة ، واذا تعرضت البراءة للضياع ، فلن يكون بالامكان استردادها البتة • ان هذا هو المعنى الأساسى للقول الذى ينسب الى تاليران : « ان من لم يعش قبل ١٧٨٩ لن يكون بمقدوره ادراك ما هى حلاوة الحياة » ، وتبدو ضرورة انماء إتجاه محافظ صريح عند المحافظين الصميمين علامة لا تخطىء فى دلالتها على اختفاء العصر الذهبى الى الابد •

نقد النزعة النقدية للتنوير

كان من الطبيعى أن ينطلق المحافظون من حصونهم الدفاعية لشن هجوم مضاد قوى ضد روح التنوير وأساليبه • وبالاستطاعة تحليل هجومهم المضاد تحليلا نافعا بعد ادراجه تحت عنوانين : أولا ـ نقد نتائج « التنوير » ، تمشيا مع النظرة التى ترى ان علينا أن نحكم على الشجرة من ثمارها • ثانيا ـ الهجوم على دوافع التنوير وشروره المزعومة •

ويؤكد المحافظون ان التنوير قد أدى ـ على نحو ملحوظ وملموس لا مفر منه ـ الى وقوع شرور ثلاثة : الشك ، واللا أخلاق واضعاف جميع

(*) Pyrrhic نسبة الى الفيلسوف اليونانى بيرو المؤمن بمذهب الشك المطلق •

السلطات القائمة ، فلقد أفسدت نظـرة العقلانيين الى الدين الايمـــان بالحقائق الأساسية للدين التقليدى ، وفى نظر المحافظين ، ليست هذه الحقائق متعارضة هى والعقل ، ولكنها ـ يقينا ـ لاترتكن الى العقـــل وحده ، ولقد ضل أنصار التنوير السبيل أساسا عندما اعتبروا العقل المقيـاس الأوحد للمصـداقية ، والواقع أن أنصـار التنوير كانوا معادين لدرجة كبيرة للمعجزات والغيبيات والقدرة الالهية · وكانت النظـرة التى ترتبت على رفض هذه العناصر الثلاثة الأساسية للمسيحية التاريخية هى احتمال نشوء دين « طبيعى » يحافظ على جوهر المسيحية (المتمثل فى تصورات الله الخالق ، والقانون الأخلاقى ، والخلود) مع التخلى عن كل ما يسمى بالعوارض التاريخية » ، على أن هذا الموقف لم يكن ملزما من الناحية المنطقية للمفكرين · كما أنه لم يجتذب السواد الأعظم من الشعب· فغالبا ما بدا هذا الحل مجرد توقف عند منتصف الطريق بين الشـــك الكامل والمذهب المادى الكامل ·

وكان الشاعر والعالم السويسرى ألبرخت فون هاللر (١٧٠٨ ـ ١٧٧٧)من أوائل منتقدى تيار الشك ، وتكتسب حججه أهميتهـا من كونها قد تركزت على أسس نفعية بحتة بدلا من اسـتنادها على العقيدة الدينية ، فلقد ذكر هاللر أن الشك يضعف ـ بالضرورة ـ الايمـان بأسس الأخلاق التى تساعد على بزوغ نوع جديد من الانسان : الانسان الذى يهب حياته للجرى وراء المتع الحسية غير المقيدة بتصور وجود اله منتقم فى الحياة الآتية · فمثل هذا الانسان لن يعترف بأى قيود أخلاقية اطلاقا ، وهذا الاتجاه يؤدى فى الحياة الخاصة الى العواقب الآتيـــة : ١ ـ احلال الصلات المؤقتة محل الزواج ٢ ـ اهمال الأبناء · أو ربما النظر اليهم كمصدر قلق وأذى ، ٣ ـ قتل الوالدين المسنين ، لأن بقاءهما على قيد الحياة لن يكون مناسبا ، ٤ ـ ولما كانت الصداقة تحتاج الى شىء ما من التضحية ، فان أمرها سينسى بالفعـل ، وستكون العواقب العامة جائحة بالمثل ، اذ سيختفى الشرف فى المعاملات التجارية ، وسيتوقف الخدم عن الولاء لأسيادهم ، وستنعدم قيمة التعهدات ، وسيصبح الخوف من العقوبة الوقتية الكابح الوحيد للجريمة ، وحتى هذا الكابح فانه سيتعرض للوهن من أثر فساد ذمة القضاة · ومن الآن فصاعدا ، لن يطمئن أى حاكم لمن يعملون تحت امرته ، ولن يثق حتى فى ايكال المحافظـــة على سلامته لحرسه الخاص · ان هذا الموقف سيكون حتما الموقف الذى تحدث عنه هوبز ، عندما وصفه وصفا دقيقا بحرب الكل ضد الكل ، وقدم هاللر الصورة الآتية للانسان انشاك الجديد :

« ان الشاك الذى ينكر وجود اله منتقم ، وينكر الحيـاة الأبدية الآتية يحصر سعادتنا فى الفترة الوجيزة لحياتنا فوق سطح الأرض من حيث الديمومة ، ويحصر متعتنا فى الاستمتاع ـ من حيث الجوهـر ـ بالمتع الحسية ، انه يؤكد أن لكل انسان الحق فى السعادة ، وأن عليه أن يهتدى اليها حيثما تـكون ، ويتساوى المجـرم هو والقديس فى استحقاقهما لهذه السعادة ، وينظر الى متعة الحب ـ وعلى الأخص الجانب الحيوانى من الحب ـ والى أكثر الأشياء اثارة لحواسنا على أنها أسمى خير يصيب الانسان ٠ فهى وحدها التى تحقق لنا السـعادة ، حتى اذا تحققت عن طريق غير شريف ، ولم يرض عنهـا أقراننا من البشر ، فلا يجب على الاطلاق أن تتقيد هذه السـعادة بالكلمة المتعالمة الباليـة المسماة بالفضيلة ، ان هذا المعنى بالذات من أوهام الخيال ومن الحيل التى اخترعها البشر ، انه حقـا نبت غريب لاينمو على نحـو طبيعى فى قلوبنا ٠ ان ما نشعر به من تأنيب للضمير أو احسـاس بالذنب يطاردنا بلا هوادة ، يجب أن يستبعد ، وينظر اليه على أنه مجرد فكرة مستحوذة علينا من تأثير الضربات واللطمات التى وجهتها الحياة الينا فى الطفولة ، نعم علينا أن لا نفكر فى الله قط ٠ وقد ثبت أنه لا وجود لآخرة ، ومن ثم فلا شىء يستحق أن يخشى سوى المخلوق الوحيد الذى يشوه سعادتنا ، يعنى الجلاد العام ، فحتى الفلاسفة الذين يخشون شيئا آخر ، أى لا شىء أعلى فى السماء أو تحتها ، فان عليهم أن يحترسوا منه ، ومنه فقط » ٠

ثم قارن بعد ذلك هالللر الفوضى الأخلاقية التى تنجم عن الشك ، وما يترتب عليها من حدوث حرب للكل ضد الكل ، بصورة حياة المسيحى التقليدى المتناغمة :

« تترتب على الايمان المسيحى نتائج متعارضة على طول الخط هى والنتائج الناجمة عن الكفر ، فالدين يوحد الجهود والارادات المتنافسة ، ويضمها فى جهد واحد وارادة واحدة تتركز حول الله ، فقانونه يطالبنا بحبه وبحب جيراننا أكثر من أى شىء آخر ، مثلما نحب أنفسنا ، فكم هناك من حكمة لا نهاية لها ٠ وكم هناك من قدرة لا متناهية على فعل الخير تكمن فى هذا الايمان البسيط ! ٠ ان الوحى يعلمنا أن مصيرنا لا يتبع هذا العالم وحده ، ومن ثم فلابد من الاستمتاع بخيرات الدنيا بتحفظ ، وأن لا تتعلق قلوبنا بها ٠ فنحن نعرف أن اقامتنا فى هذا العالم مؤقتة ، وأن الموت سيقبل علينا ، عندما ننتقل الى عالم روحانى تختفى منه متع الجسد ، ويفقد كل طموح معناه ، والحق أننا بحكم الطبيعة كائنـات متدنية ، تحتاج الى اعادة تشكيل عن طريق العناية الالهيـة ، قبل أن

تستحق عن جدارة الامتثال الى حضرته برفقة آلاف المخلوقات ذات الطبيعة التى تسمو على طبيعتنا (الملائكة) » .

ففى هذا العـــالم الراهن ، نحن جميعا اخوة مكلفون بالالتزام بأن نفعل للآخرين كل ما يتعين أن نقوم به من أجل اله يثيب بلا حدود ، اذا ظهر وسطنا متخفيا فى مظهر انسانى وطلب منـا العون ، ان هذا المعنى أبعد الزاما من أية شريعة أخلاقية تذاع اعتمادا على البلاغة الانسانيـة فحسب ، فمن هذه القوانين الأساسية القليلة تتدفق جميع الفضـائل المدنية ، واذا أطيعت فانها ستثمر ـ قطعا ـ سعادة البشر على الفور » .

ولكى يوازن بين صورته الأولى لرذائل الشاك ، خصص هاللر باقى مقاله للكلام عن فضائل المسيحى ، فباين بين الحياة الأسرية المسيحية ، وما يكتنفها من شعور بالارتياح ، والقلق المترتب على الصلات الجنسية المؤقتة ، وقارن بين تربية الأطفال على الطريقة المسيحية ، بمـا يحدث عندما يكون الأبوان مهملين لا يسعيان لغير البحث عن المتعة ، وقارن بين رضاء المسيحى عن كل موقع فى الحياة والواجب الأخلاقى الذى يدعو الى الالتزام بما يفرضه هذا الموقع . وبوسعك أن تقارنه بسعى الشاك وراء الطموح والاشباع الحسى بلا حــدود ، وأن تقـارن بين التزام المسيحى بالقانون الأخلاقى المفروض بحكم الوعى بوجود اله حاضر فى كل شىء ، وعدم التقيد بأية قاعدة أو أى قانون عند الشـــاك الذى لا يخشى غـير اكتشاف الشرطة له . وهناك اختـلاف بين التصور المسيحى للحكومة ، حيث تعد طاعة السلطة المكتسبة عن جدارة واجبـا مقدسـا ، وطرح هاللر الرأى المحافظ الكلاسيكى ، والقائل بعدم وجـود مجتمع متحضر بمقدوره الاستغناء عن الأسس الدينية . وأضاف أن هذه الأسس لا يمكن أن تكون غير مسيحية ، على الأقل فيما يخص المجتمع الأوربى . فمازال بالاستطاعة الحيلولة دون تفكك الحضارة الأوربية بفضل التأثير الباقى للمسيحية . وصور هاللر المجتمع الأوربى على أنه يحيا منعزلا عن الرصيد (الروحى) الذى تراكم عبر القرون التى سبقت « التنوير » ، وليس هناك سوى الرؤى القاتمة لما قد يحدث اذا لم يشرع فى التو فى تعزيز رصيد أوربا من المسيحية .

وانضـم كتاب محافظون آخرون الى هاللر فى تصـوره عدم قدرة العقل وحده الاتيان بأساس لأخلاقيـات تفى باحتياجات المجتمع ، وأكد بافارى محافظ مرموق : كارل فون اكارتسهاوزن (١٧٣٢ ـ ١٨٠٣) فى محاجاته على اعتبار الدين التقليدى دعامة ما اســتمر فى البقاء من أخـلاق فى أوربا ، كمـا أكد على عدم استطاعة الأخلاق الاستناد على غير

العادات الدينية والتقاليد ، وليس على المعتقدات العقلانية لأى أفراد مهما كانت هويتهم ٠

ويسـال هالر المتنور ، الذى لايكف عن نقد العـادات التقليدية ، ألا تدرى أن القانون الأخلاقى يفقد قدرا كبيرا من فاعليته اذا لم يتوقف عن الطنين فى آذاننا أثناء طفولتنا ، أى قبل مدة طويلة من بلوغ عقولنا مكانة تؤهلها للحكم على المصائب التى تلحق بالانسان من وراء الرذيلة ، ويتهم ايكارتسهاوزن « المتنـور » بالقضـاء على الاحساس بالخزى : ان الشعور بالخزى الذى نشعر به عندما نعاقب عقوبة منصفة من بين النعم النفيسة التى وهبتها لنا الطبيعة ، فلا وجود لبديل لخشية العقوبة الالهية لدفع الأخلاق ، ولاسيما عند أنصار المذهب المادى الذين يجنحون الى الظن بأن العقوبة الدنيوية التى تنفذ بوساطة « العجلة » أو « ربما بوساطة أدوات تعـذيب أقسى ، لا تختلف من حيث المبـدأ عن نزلة نقرس ثقيلة أو مغص كلوى موجع » ان هذه الأسباب النفعية جعلت من المحتوم على أوربا مواصلة التعلق بالتقاليد المسيحية ، حتى بغض النظر عن حقيقتها الدوجماطيقية ، وذهب ايكارتسهاوزن الى ما هو أبعـد الى حد اصراره على القول « بأنه اذا ظهـر عرضـا عـدم صحة المسيحية ــ وان كان هو بالذات من المؤمنين المتحمسين ــ فانها ستحتاج رغم ذلك للحفاظ عليها ، لأنها تمثل الأساس الممكن الوحيد للأخلاقيات الأوربية » ، وتوسل الى « المتنور » ان يلتفت الى المثل الذى ضربه سقراط الذى كثيرا ما هللوا له كرفيق روحانى ٠ فلقد كان سقراط حريصـا على مراعاة العادات الدينية الأثينية ، التى لم يتظاهر باحترامها بناء على أسس دينية ، لأنه أدرك أنها الأساس الممكن الوحيد للأخلاق الأثينية ٠

ومن بين النتائج الأبعد « للتنوير » القضاء على كل احترام للسلطة القائمة ٠ فلا وجود لأية مؤسسة مهما كانت درجة احترامها محصنة من النقد ٠ ولم يكتف « المتنور » بتحويل النقد الهدام الى عادة شخصية ، ولكنه عمد الى استحثاث الكافة ــ مهمـا كانت هويتهم ، أى كانوا من العوام أو من غير المتعلمين ــ الى مشاركته فى هذه العادة ٠ وكان الكاهن اللوثرى المدعو دانيل يواقيم كوبن (*) ــ من بوميرانيا ــ واحدا من العديد من الكتاب المحافظين ، الذين دافعوا عن الحاجة الى السلطة الدنيـوية والسلطة الدينية على أسس عامة ، وكتب ١٧٨٩ ــ دون تاثر بالثـورة الفرنسية ــ بان أحدا لم يبرهن حتى الآن :

(*) Daniel Joachim Koeppen.

« على أن عامة الناس ـ فى حالتهم الراهنـــة ، أو فيما يحتمل أن يصبحوا ـ قادرون على أن يكتشفوا بأنفسهم الحق والخير ، ومن السائغ أن عامة الناس ـ يعنى السواد الأعظم من البشر ـ يعنى الخدم وعمــال المياومة والكادحين والحرفيين الدارجين ، وغـيرهم ، الذين قد يكونون أصحاب مرتبة أسمى من الناحية الرسمية ـ وان كان مسلكهم مماثلا فى بداوته ـ عاجزون عن القيام بذلك ، نظرا لغبائهم الفطرى (البيولوجى) وأحوالهم الخارجية فى الحياة ، انهم يحتاجون قطعا الى الارشاد من عل ، وســـتظل هذه الحقيقة محتفظة بصحتها مادام عامة الناس يرزحون فى أوصاب حالتهم الدارجة • فما دام الناس قد ولدوا ولديهم طباع وحشية يرتعون فى الجهالة ـ وستظل هذه الحقيقة سائدة الى أن تختفى البشرية من فوق البسيطة ـ ويحصلون على التعليم الأخلاقى عن طـريق التعليم والتوجيه من مصدر خارجى ما • ومادام مضمون هذا التعليم ليس بالشىء المحايد ، ولكنـــه يشكل المسلك البالغ برمتـــه للشعب • لجميع هذه الاعتبـارات ، فلا مفر من وجود اشراف ما على المبادىء الدينية والأخلاقية التى تفرض على عامة الناس من خارج صفوفهم • ولكن من هو الذى يتولى هذا الاشراف الضرورى ؟ لايخفى أن هذا الواجب من اختصاص السلطة القائمـــة •

ولقد استعان المحافظون فى القرن الثامن عشر وحتى يومنا هذا المرة تلو الأخرى بالحجج التى تنسب الى أهل الصفوة والمسئولين •

ولا يقنع المحافظون بالاشارة الى العواقب الوخيمة التى ترتبت على « التنوير » ، عندما قضى على الدين والأخلاق والسلطة ، ولكنهم يلجأون الى المحاجاة (*) ضد الرذائل الشخصية « للمتنور » • ومن غير الانصاف اتهام المحافظين بأنهم أول من لجأ للتجريح الشخصى ، لأن مروجى الأفكار من الراديكاليين قد دأبوا على وصـــم أعدائهم بأنهم عصـبة من الأغبيـاء والأنانيين من أرباب العقول المستغلقة والأفظاظ المفتقرين الى الخيال ، ورد المحافظون على هذه الألفاظ المكررة ، التى تردد نغما واحدا بعيدا عن الاطراد ، بفضح المتنورين ، ووصفهم بانهم عصبة من المتعصبين والمتحمسين الجائرين الذين كرسوا أنفسهم للنقد السلبى المحض لأنهـم لايصلحون لأداء أى دور بناء ، وهوجموا أيضا باعتبارهم شخصيات تفتقر الى الاتزان، وينقصها الاحساس بأهمية المشاعر والروحانيات والتقاليد ودورها فى شئون الانسان ، ولأنهم أصيبوا بغشاوة فى أبصارهم حالت دون رؤياهم مطالب المشاعر القومية •

(*) غير المنزهة من الصالح الذاتى ad dominem

ولا يولع المحافظون بشيء مثل ميلهم لزجر التعصب وعدم التسامح عند المتنور ٠ وهذه اتجاهات تشهد بما لديهم من روح عدوانيـــة ، لأن المتنورين يزعمون ، زعما صائبا بأنهم يسعون لازهاق روح عدم التسامح والتعصب باعتبارها رذائل ٠ وخصص ايكارتسهاوزن جل أحد أحاديثه العامة (٥ ابريل ١٧٨٥) للتحدث عن عدم التسامح الأدبى فى عصرنا وقال متعجبا :

« أيها التسامح ! أيها التسامح ! ٠ يالهـــا من كلمة رائعة ! كثيرا ما تتردد على الألسنة ، وان كانت قلما تمارس فى قرننا المتنور ! فنحن نسمع الفلاسفة الزائفين يصيحون فى صلف : عليكم أن تفكروا مثلمـا نفكر ، والا فاننا سننعتكم فى كتاباتنا بالمعتمين أو المضللين ، وسنلهب ظهوركم بالسياط ، وننكل بكم فى نصف العالم ٠ هذه هى الصيحات التى تنطلق من أفواه من أزهقوا روح الأدب ٠ انهم لن يترددوا عن التشهير بالشرفاء الأمناء الى حد القضاء عليهم » ٠

وذهب ايكارتسهاوزن الى وصم التعصب للخرافات عند « التنوير » فى هذا النداء البليغ ، الذى وجهه لأعدائه :

« خبرونى ، متى كانت الخزعبلات مماثلة فى اثارتهـــا للسخرية لفلسفاتكم ؟ ومتى كشفت عن مثل هذه الحمية الانفعالية لكسب المشربن لدعوة خاصة ؟ ومتى غمرت الخزعبلات العالم بالكثير من النشرات الغاضبة المتناقضة والمثيرة للسخرية ؟ ومتى سعت الى تحيز العالم ضد من يناصبها العداء اعتمادا على العديد من الأباطيل والموسوعات والأشعار والحواديت ؟» ٠

ونسب ايكارتسهاوزن الشهرة التى تمتع بهـــا دعاة « التنوير » الى شين مسلكهم وأهوائهم وولعهم بالثار والتنكيل بالأشخاص ٠

ووجه المحافظون قدرا كبيرا من النقد الى الوسائل البشعة الجائـرة التى لجأ اليها « المستبدون المتنورون » ــ وبخاصة امبراطور الهابسبورج جوزيف الثانى ــ لدى عرضهم لقضية التنوير ٠ ولنكتف بمثل واحد : المؤلف المحافظ ابن هانوفر : ارنست برانديس ، الذى شن فى كتاباته هجوما شرسا ضد الطريقة التى اتبعها جوزيف فى اصـلاح الكنيسة ، ولابد من ملاحظة عدم شعور برانديس بأى تعاطف نحو الرهبانية بحكم كونه بروتستانتيا ، ولقد أدرك ادراكا كاملا الحاجات الماليـــة للدولة النمساوية التى دفعتها اضطرارا الى مصادرة بعض الأديرة ، ولكنه احتج على الطابع المتهور لأفعال الامبراطور والقســوة بلا مبرر التى عومل بها الرهبان والتنكيل بشخصهم ، والتدمير الهمجى للنفائس الفنية التى

لاتقدر بثمن ، والافتقار التام لتبجيل مؤسسات يزيد عمـرها عـادة عن مئات السنين ، والاخفاق في اعداد الرأى العام بتؤدة لمواجهة خطوات تبدو الحاجة ماسة اليها ، وهاجم براندیس الامبراطور « المصلح » لعدم اكتراثه الذى اتصف به ، بمشاعر الآخرين ، مما أدى الى اتسام نظراته حتى لأكثر الأفعال اتساما بالروح الخيرة ، بالحقد ، ووصفت بالنظرة المستبدة ، وبخاصة عندما اصطدمت بالحياة التى اعتادها عامة الناس ، ومن أمثلة ذلك ، الغاؤه لعطلات الرسمية الزائدة عن الحاجة ، وحملته ضد مراسم الدفن فى توابيت خشبية غير صحية وغير اقتصادية ، ومثل جوزيف أعظم تمثيل « المتنور » بحكم اعتقاده المتغطرس أنه يعرف على خير وجه ما الذى يعود بالخير على الآخرين ، ووجوب اعادة بناء المجتمع على أسس عقلانية ، وظنه أن كل عدو للاصلاح اما يتصف بالغباء ، أو من الحقودين الأراذل ، ولا يستبعد جمعه بين الصفتين ، واعتقاده بوجوب الاسراع بتطبيق برنامج التنوير دون مراعاة لأية عقبات تعترض طريقه ٠

وكثيرا ما هجا المحافظون أصحاب النشرات من أنصار « التنوير » ، ووصفوهم بزمرة من العاطلين المأجورين العاجزين عن الاشتغال بأى عمل محترم ، ورسم ايكارتسهاوزن هذه الصورة البعيدة عن المداهنة لمروجى معتقدات « التنوير » بلغة قوية ، اشتهرت بها مجادلات العصر :

« انهم اناس يفتقرون الى أية فلسفة حقة ، أدمغتهم مشحونة بما يدعى بالتصورات (المتنورة) التى بثت فيهـــم على نحو مهوش تماما ، ثم تقيئوها لعجزهم عن هضمها ، انهم يفتقرون الى أية معرفة بالطبيعة البشرية ، لأن حياتهم اقتصرت على الدراسة ، أو ارتياد المقاهى فى أكثر تقدير ٠ انهـــم فى واقع الأمر عباقرة مزعومون ، بسراويل مثقوبة (*) او اوباش ، أو أعضاء فى جمعيات سرية ، أو من ثقال الظل الذين يتصورون انفســـهم ندماء ظرفاء (**) ، وممن ينفسون عن حقدهم وضغينتهـــم ، وينفثونها فى وجه كل من يفتقر الى تصورات مهوشة مثل تصوراتهم ، ان اعوانهم واتباعهم منتشرون فى طول ألمانيا وعرضها وتضم طوائفهم فى كل مكان الساخطين الدائمين ، والكثير من المخدوعين فى أنفســـهم ممن يتوهمون أنهم الحكماء الوحيدون ، بينما الحقيقة هى أن كل ما يسعون اليه هو العثور على وعاء يصبون فيه غائطهم الفكرى (***) ٠ فهم يظنون أن لديهم القدرة على تسيير دفة الحكم ، بينما والحق يقال ، هم يتسمون

(*) Meistenheils Genies in lerri senen Hosen.

(**) Witzlinge

(***) die dann froh sind, wenn sie einen Topf aben, wo sie ihren Urath ausleeren Koennen.

بالعجز حتى عن تدبير شئونهم الخاصة ، وغارقون حتى آذانهم فى ديون لايستطيعون الوفاء بها » .

وأكد المحافظون أن « المتنورين » اناس يعوزهم الاتزان ، ويغفلون جوانب عديدة مهمه فى حياة البشر ، وأدى تشبثهم بمعتقداتهم وعقلانيتهم الى ضمور ملكاتهم الشعورية (*) ، ويتفق على هذا الرأى رواد الاتجاه المحافظ وشعراء حركة « الانتفاضة العاصفة » (**) سحرة الشمال . لقد روجوا الزعم بأن التنوير ينزع الى تنامى مطالب المشاعر والتوقير والتبجيل والعاطفة ، لأنهم يرون الحياة بمنظور نفعى متعصب ضيق ، وجنحت عقلانيتهم - فوق ذلك - الى ابعاد نظرتهم للعالم عن الاحساس التاريخى بشكل خطير ، فهم لا يبالون كثيرا بدور الفرد ، الذى يعد من أهم سمات التطور التاريخى . أما ما شغل أذهانهم فكان البحث عن مبادىء تصلح للتطبيق فى جميع المواضع والأوقات ، وتطبيقها على نحو يناسب هذا التصور ، وهكذا غدت الحركة التاريخانيــة التى وصفها المؤرخ الألمانى فردريش ماينكه « بأنها واحدة من أعظم الثورات الفكرية التى أقدم عليها العقل الغربى » حليفا قويا للنزعة المحافظة ، وان كان روادها وكثيرون من أوائل أنصارها ، خصوصا يوهان جوتفريد هردر (١٧٤٤ - ١٨٠٣) قد تعاطفوا بشخصهم مع الكثير مما جاء فى برنامج « التنوير » .

واعترض المحافظون على الايمان « بالقبليات » عند المتنورين كايمانهم بأن الكون لا يتصف بخفاياه الروحية المستغلقة - كما اعتقد طويلا - لأنه ميســور الفهم ، وكان ايكارتسهاوزن من بين الكتاب المحافظين العديدين ، الذين لم يكتفوا باثبات اعتقادهم بتعذر فهم الكثير من جوانب العالم ، ولكنه طرب لهذا الاعتقاد . فلا أحد غير الله بمقدوره فهم خفايا الكون الذى خلقه ، فأنى للعقل المتناهى للانسان الاهتداء الى فهم كامل للكون اللامتناهى ، والذى لايتطابق - كما لا يخفى - هو والطابع المحدود للتناهى ؟ . ولقد أكمل الله بحكم رحمته أوجه النقص التى لا مفر منها للفهم الانسانى بالوحى ، وان كان حتى الوحى نفسه يحتوى على عناصر خفية عديدة ، ولو كان ذلك ليس كذلك - كما يجادل ايكارتسهاوزن - فان الايمان لن يزيد عن حالة من الرضوخ الآلى ، ويتوقف عن الاتصاف بالفضيلة المسيحية ، فلابد لكل ناضج أن يتعلم التعايش مع الأسرار الخفية وأن يتشبه بها . وعليه أن يتفادى الخطأ الساذج الذى وقع فيه

(*) Gefuehl

(**) Sturm und Drang

«المتنورون» عندما اعتقدوا تشابه كل حقيقة نافعة وضرورية بالبلور فى الصفاء والشفافية ، لأن العقيدة « قد تحتوى على الكثير مما يصعب فهمه دون أن توصم لهذا السبب بأنها غير ضرورية أو من الحقائق التى لانفع لها » ٠

لقد استند اعتقاد مفكرى التنوير بالتقدم الانسانى أساسا على ايمانهم بالنتائج النافعة للمعرفة العلمية التى تحقق الارتقاء للرفاهية المدية والسعادة الانسانية ، ولكن ما القول اذا كانت المعرفة فى المجالات الأساسية الحقيقية للحياة (الدين والأخلاق ٠٠ الخ) ثابتة فى الواقع ، لعدم صلاحية المنهج العلمى للتطبيق عليها ، وأنها من الناحية العملية ربما تعرضت للنكوص بعد ارتفاع تيار الشك ؟ وكان برانديس من بين من رفضوا الظن بحدوث تقدم حقيقى فعلى فى القرون القريبة العهد ، وليس هناك من ينكر حدوث بعض التقدم فى مستوى المعيشة ، وان كان هذا التقدم لم يؤد الى ما هو أكثر من زيادة الترف والاسراف والابتعاد عن الأخلاق ، نعم لقد حدث بعض التقدم فى التعليم ، وان كان أثر ذلك قد ادى فقط الى تعريض العقليات اللانقدية لاصابة المذاهب المدمرة « للتنوير » ، ومن ثم فقد انتهى بهم الأمر الى وقوعهم فرائس للاغراءات التى كان الأفضل تجنبهم لها ٠ ان التقدم الحق لن يعنى الا التقدم الأخلاقى للفرد وحسب ، وزيادة عمق ادراك حقائق الديانة المسيحية ٠ ومن أسف لا يوجد ، ولو أوهى دليل ، على أن شيئا ما من هذا القبيل قد حدث٠وعلى العكس ، فان ما بات واضحا للعيان هو انتشار الابتعاد عن الأخلاق ، والوقوع فى براثن الشك ، ان أصحاب العقول المتعصبة الضحلة هم الوحيدون الذين يعتقدون في حدوث تقدم ثقافى منذ عهد الاغريق القدامى ، فهل استطاع « التنوير » انجاب فيلسوف أعظم من أفلاطون ، أو مؤرخ أعظم من توكوديد أو كاتب سير أعظم من بلوتارك ، أو رسام يتماثل فى عظمته هو ورافايلو ؟ ان أسوأ أثر ترتب على مذهب « التنوير » ــ فى اعتقاد براندیس ــ تزويد ــ البشر ببديل سيكلوجى للاعتقاد فى الخلود الشخصى ، مما ساعد على اضعاف المذهب المسيحى الضرورى للأخلاق الشخصية والاستقرار الاجتماعى ، لقد زود البشر أيضا برؤيا يوتوبية للمستقبل ، يبدو فيها كل شيء ممكنا ، وأدى أيضا الى شل المحافظين وما يلازمهم من ايمان واه بالقدرية نابع من اعتقادهم أنهم يحاربون حربا ميئوسا منها فى نهاية الأمر ضد عجلة التاريخ التى لا مناص من دورانها ٠

أما آخر اتهام وجه « للمتنورين » فهو افتقارهم الى الشعور الجرمانى القومى ، فأفكارهم كلية (عالمية) فى مضمونها ، ويرجع أصلها الى أوربا

الغربية ، مما يوحى بوجوب تعرضـــها لهجوم مضاد ذى طابع قومى ، ألا يجب على الألمان أن يؤمنوا ويتشبثوا بالمعتقدات والمؤسسات الألمانية التى نبعت من الموروثات الجرمانيـــة المميزة ؟ ولم تستطع هذه الفكرة أداء أكثر من دور صغير نسبيا فى القرن الثامن عشر ، لغلبة الروح العالمية (الكوزموبوليتانية) على هذا القرن ، ولكنها بشرت ومهدت لما اتضح أنه أعظم الحجج المؤيدة للاتجاه المحافظ فى القرن التاسع عشر ٠

يكفى القول فى هذه النقطة بأن الاتجاه الجرمانى المحافظ لم يكن بمقدوره الاكتفاء بالاعتماد ــ سوسيولوجيا ــ على مقومات المجتمع الجرمانى ، كمـا أجملناها فى القسم السابق ، ولكنه كان قادرا على الاستناد أيضا فكريا على الكثير من أقوى تيارات الحياة الثقافية فى ألمانيـا ٠ اذ كان باستطاعة الاتجاه الفكرى المحافظ فى هجومه على « المتنورين » و « التنور » الارتكان الى أفكار مثل التعلق بالعاطفة (*) فى حركة الانتفاضة العاصفة ، وعلى النزعة الغيبية لهـامان ، والتاريخانيـة (**) لهردر ، والتبرم من الحضارة ، كما عبر عنه برانديس ٠

منهج الدفاع عن الاتجاه المحافظ

اعتمد الدفاع العام عن المجتمع الألمانى فى سبعينيات القرن الثامن عشر ، وثمانيناته ــ أساسا ــ على قمع أصوات النقد الراديكالى ٠ وزاد من صعوبة هذه التعددية فى نظام الدولة بألمانيا ٠ بيد أنه حدثت عدة محاولات لفرض الرقابة بررتها تبريرا راسخا حجة ترى عـدم أهلية الأشخاص العاديين للتصدى بالنقاش فى المسائل العامة على نحو ناضج ٠ واتكأت أحيانا حتى الحكومة البروسية ــ رغم ما عرف عنها بوجه عام من نزوع نحو الليبرالية ــ على هذه الحجة لاخراس ألسنة رؤساء التحرير الذين سعوا لمهاجمتها ٠ ولنكتف بمثل واحـد للتدليل على ذلك : انه جريدة جوكنج (***) الجريدة التى يكتبها الألمان للألمان) والتى تسببت فى شكاية بعض الدول المجاورة من بروسيا ، لما وجه فى هـذه الجريدة من نقد لحكامها ٠ وقام فى التو وزيران بروسيان (****) بارسال توبيخ شديد اللهجة لحكومة هالبرشتات (المقاطعة التى تصدر فيها هذه الجريدة) فى ١٣ ديسمبر (١٧٨٤) جاء فيه ما يأتى :

(*) Gefuehl

(**) Historicism

(***) الجريدة التى كان يصدرها : Journal von und fuer Deutschland Goking

(****) الكونت Finkenstein والثانى الكونت Hertzberg (وكان معروفا بايمانه بالتنوير) ٠

« ليس من حق أحد اصدار أحكام عامة على الأفعال والاجراءات والقوانين والتصريحات ، والقرارات الصادرة من الحكام أو وزرائهم ، أو من المكاتب الادارية أو المحاكم ، بما فى ذلك ـ بوجه خاص ـ الأحكام غير المستحبة . ويصح هذا القول أيضا ـ بطبيعة الحال ـ فيما يتعلق بنشر الأخبار المتلقاة بصفة شخصية عن أمثال هؤلاء الحكام وأفراد حاشيتهم ... الخ . فلا يخفى أن أى شخص بمفرده يفتقر ـ بالضرورة ـ الى المعرفة الوثيقة بالسياق العام للأحداث ودوافع الشخصيات العامة ، سيعجز عن اصدار أحكام تخص هذه المسائل ، وتستحق الالتفات اليها ...

لن تستنير الأمة فكريا ولن ترتقى أخلاقها ، اذا دار نقاش متهور حول شئونها ، ولكنها ستزداد تعرضا للفساد . لقد انزلق الدافع الأرعن للتنوير ـ سمة عصرنا ـ الى حالة من التطرف والخلاعة البعيدة عن اللياقة . لقد داس المتنورون جميع الأشياء التى تتصف بالقداسة بالأقدام ، وجعلوا كل القيم الراسخة موضع ازدراء فى نظر الشعب ، وأحدثوا بلبلة فى تصوراته ، وأشاعوا الشغب والفتنة والعصيان والضجر والتمرد ، دون أن يساعدوا على تهذيب الشعب أو النهوض بمستواه » .

كانت هذه الحجة العامة هى التى يتذرعون بها فى الأغلب عندما يطالبون بقمع جرائد بالذات قد أقدمت على احداث أية اساءة . ولم يتردد المحافظون عند شعورهم بالغضب عن التوصية بالالتجاء الى الضغوط الاقتصادية وغيرها من السبل لحث الرافضين من أهل الحكم على اسكات المحررين « الداعين الى الفتنة » . ومن الأمثلة التى كثر الحديث عنها الكونت أوجست فون ليمبورج ـ شتيروم الأسقف الجسور لشباير ، الذى اتسمت عظاته بشدة النزوع نحو الاتجاه السياسى المحافظ ، وسخر منها شلوتسر (*) على نحو أساء للأسقف بالغ الاساءة ، وكتب شلوتسر بوصفه أحد رعايا هانوفر ، مما جعل حكومتها مسئولة ـ على الأقل فى نظر شتيروم ، عن الآراء التى نشرت . ولما لم تسفر الشكوى الموجهة لحكومة هانوفر ـ بطريقة مباشرة ـ عن أية نتيجة ، لجأ الأسقف الى « الدايت » أو برلمان المقاطعة فى ريجنسبورج لتوقيع عقوبة على هانوفر . وعندما رفض البرلمان اتخاذ أى اجراء ، دعا أقرانه لشن الحرب على مصالح هانوفر (كأن يقاطعون جامعة جوتنجن التى ينتمى شلوتسر اليها) ولكن زملاء الحاكم رفضوا هذا الاقتراح غير العملى ، ويدلنا هذا المثال على مدى استعداد المحافظين للتمادى فى معارضة « التنوير » ...

(*) Schloezer فى جريدة Staatsanzeigen.

وأسف المحافظون فى أغلب الأحيان لما كان ينشر ويذاع فى الجرائد اليومية (*) · وفى كثير من الحالات لم يبتعدوا عن النظرة الدارجة التى أسفت لاختراع الطباعة الذى طالما هللت له حركة التنوير ، واعتبرته من آيات العصر التى ستساعد على تحقيق التقدم الانسانى ، ولكن المحافظين اعتبروه مصدر متاعب للبشرية ، وتبعا لذلك ، ساد الأسف أيضا لما حدث من تقدم فى انتشار التعليم بين الكافة الذى بدأ يزحف حثيثا لمحو أمية الكتل البشرية · وتساءلوا ألم يؤد هذا الاجراء الى اتاحة الفرصة لاصابة عامة الناس بالتسمم الفكرى ، والشعور ــ تبعا لذلك ــ بالتبرم من نصيبهم التقليدى فى الحياة ؟ وعبر الفيلسوف الشعبى (**) جارفه فى كتاب تحدث فيه عن حالة الزراعة فى موطنه شيليزيا ، وعما شعرت به طبقة الأعيان بخصوص هذه المشكلة ، عبارات مؤداها :

« لم تسنح الفرصة قط لجدودنا للعراك هم وعبيدهم الأميين · على أن مثل هذه الأمية لم تمنعهم من زرع الأرض على نحو مماثل لما يحدث الآن فى أقل تقدير · وكانت الآداب المرعية حينذاك أفضل بما لا يحتمل الشك · واليوم لم يعد الأمر يقتصر على اتقان الفلاحين القراءة والكتابة ، ولكنهم شرعوا أيضا فى الالمام بالحساب ، بل ونزع بعضهم الى تثقيف نفسه بالاطلاع على الكتب ، فهل سيساعد هذا حقا على ارتقائهم ؟ هل ستصبح حياتهم أقل انحلالا ؟ وهل سيصبحون رعايا أكثر انصياعا وولاء ؟ أو مزارعين أفضل للأرض ؟ ان ما حدث كان عكس ذلك · ألا يصح القول بأن آداب السلوك قد تدهورت بدرجة ملحوظة ؟ وأن الأعيان قد أصبحوا يعانون الأمرين فى سبيل الحفاظ على تحكمهم فى عبيدهم أكثر مما كان الحال عندما كانوا أميين ؟ ولو أحصينا من كانوا مصدرا للمتاعب فى القرية (فلقد شهدت شيلزيا بعض اضطرابات بسيطة) ، ومن جنحوا الى تضليل الشعب ، فاننا سنكتشف دوما أن هذه الفئة قد انحدرت من صفوف من أمضوا وقتا أطول فى المدارس ، ومن انبهروا بادعائهم الحكمة ··· ومن القواعد العامة حاليا ان أكثر الفلاحين اتصافا بالأمانة هم الأغبى والأجهل ، ويصادف ضابط الجيش فى أرض الطابور نفس تجربة المالك على أرضه · ولن يختلف اثنان على القول بأن أجهل الفلاحين واخشنهم طباعا هم الذين يشكلون أفضل الجنود · فبالاستطاعة معاملتهم كأنهم آلات · واذا عاملناهم على هذا النحو سيتسنى لنا الاعتماد عليهم بصفة مطلقة » ·

(*) Publizitaet

(**) Populärphilosoph Christian Garve.

وهاجم المحافظون هجوما ضاريا التعليم التقدمي الذى أدخله بازيدو (*) وأتباعه ، ووصفوا أنصار النزعة الانسانية (**) بأنهم مفسدون للشباب ، نعم لقد جاءوا باناس أفضل تنورا ، ولكنهم عديمو الفائدة فى اى نوع من الأعمال البناءة فى المجتمع ٠ وأثار المثل الأعلى لبازيدو الذى سعى لخلق الانسان « الشامل » ، بدلا من التشجيع على التخصص ، وتعليم الأطفال بروح تشعرهم بعدم وجود فارق بين ما يعشقون من لعب ، وبين التعليم ، وأنهم لن يتعلموا الا ما يحبون تعلمه عندما يجدون أنفسهم على استعداد لذلك ، شعورا امتزج فيه العداء بالسخرية ٠ وطرح شلوسر (***) قضية التخصص المبكر فى العبارات الآتية :

« فى أغلب الأحيان ، لا تكون مهنة الشخص متوافقة هى وما يجرى للكاته الذهنية من تطور شامل (تحمس بازيدو لهذه الفكرة) مما يدفعنى الى القول بأنه فى غير مقدور المرء البدء منذ وقت مبكر كاف لتنشيط ضمور ثلثى هذه الملكات ، لأن الأغلبية تهيأ للنهوض بمهام لا يتوقع استفادتهم منها فى مستقبل أيامهم ، فلماذا يخصى الثور والمهر حتى نؤهلهما لتحمل مشاق جر العربات ٠ ومع هذا فاننا نعمل على انماء القوى الانسانية فى شمولها مع علمنا بالمثل بأنها قد حكم عليها تحمل مشاق النير وجر العربات ؟ ٠٠ انهم سيسقطون فى الأخاديد ، اذا لم يعدوا اعدادا صحيحا ، أو يرفسون بحافرهم علامات الارشاد حتى يصابوا بالتهلكة » ٠

واعتقد شلوسر ان مهمة التعليم ليست تخريج أشخاص شاملين متعددى المهارات ، وانما بالأحرى هى اعداد أفراد قادرين على أداء دور اجتماعى (مهما كانت درجة تواضعه) لم يتعرض للمسخ من جراء التوقعات المغالى فيها ٠ « فمن اليسير صبغ أسمى درجات الكمال بالروح المثالية ، ولكن ما أصعب تحديد الدرجة المناسبة من الخير » ٠ وأدان شلوسر ولع بازيدو بالألعاب الرياضية كمثل لخطورة الاسراف فى السعى وراء الكمال ٠ فهل هناك هدف وراء تحويل الأطفال الى أبطال رياضيين ، بينما سيرغم معظمهم بعد البلوغ على ملازمة مكاتبهم ، وقد لا يحتاجون لتحريك أطرافهم ؟ ان مكمن أكبر خطر هو ما يتصف به الانسان الشامل من حياة متنوعة تجمع بين اللعب والمتعة (ألم يعتقد بازيدو فى وجوب تنويع أنشطة الأطفال بحيث لا يستمر أى نشاط أكثر من نصف ساعة) ٠ ان مثل هذا

(*) (Johann Bernard) Bassedou, (1790 - 1723)

(**) Philanthropine.

(***) J. G. Schlosser (١٧٣٩ ـ ١٧٩٩) وهو من الموظفين البارزين فى بادن والف الكثير من الكتب السياسية والاقتصادية والتربوية ٠

الاسلوب هو أسوأ اعداد للحياة الحقة . « ألم يخطيء أنصار الدعوة لخلق الانسان الشامل عندما أخفقوا فى تعويد سجنائهم منذ وقت مبكر على الالتزام بعمل مستقر ثابت ، خصوصا العمل الذهنى المتواصل الشاق الذى يستغرق مدة طويلة ؟ » نعم ان الحياة تتطلب الانتهاء من انجاز الحصة المخصصة من العمل للشخص ، قبل أن يفكر فى الترويح عن نفسه ، غير أننا نرى بازيدو على عكس ذلك ، يعلم تلامذته خليطا مؤسفا من العمل والترويح عن النفس . ومن أمثلة ذلك طريقته فى تعليم اللغات الأجنبية التى يتبع فيها أسلوبا شبيها باسلوب المباريات الرياضية ، بدلا من اتباع الطريقة التقليدية التى تعتمد على تحفيظ الكلمات عن ظهر قلب . وارتاب شلوسر فى النتائج الجوهرية للطريقة الجديدة ، وكان على يقين من تمتع الطريقة التقليدية « بقيمة أكبر فى بناء الشخصية ، وتشجيعها على الجد والاجتهاد والجلد والانتباه : « ان من أمضى طفولته فى الملاعب لابد — من ناحية أخرى — أن يظل ولدا (لعبيا) طيلة حياته » .

وانتقد أرنست برانديس مبدأ الاكتفاء بتعليم الأطفال المواد القابلة للفهم ، عندما يكونون مهيئين لذلك ، لأن هذا المبدأ يتجاهل حقيقة مهمة وهى ان بعض الأشياء المهمة لا تتبع الفهم على الاطلاق ، ولكنها بالأحرى تتبع الوجدان والاعتياد ، كالدين مثلا ، الذى استخف به بازيدو ، لأن مبادئه تعلو على مستوى الفهم عند الأطفال ، واستفز بازيدو شعور الغضب عند برانديس برفضه تعليم النشء الذى كان مسئولا عن رعايتهم أى درس فى الصلاة قبل بلوغهم سن العاشرة على أساس أن صلواتهم الباكرة لن تزيد عن تمتمة بكلمات غير مفهومة لهم .

وأصدر ايكارتسهاوزن هذا الحكم النهائى على ممارسات المصلحين التربويين الذين يسيرون على نهج بازيدو :

« انهم يفتقرون الى صبر الانتظار حتى يحل الخريف ، فهم يرغبون فى ازدهار الأشجار واثمارها فى نفس الوقت ! انهم يدعون امكانهم ادراك صورة الرجل الناضج من خلال مظهر الطفل ، ولكنهم فى الحق يحولون البالغ الى طفل دائم . انهم قد زودونا بنباتات أرغمت على الاخضرار فى بيوتهم الزجاجية . وتحمل نكهة المستنبتات (*) طيلة ما بقى لها من حياة ، وتحدث ضررا بالغا للثة أى انسان سليم البنية . انهم يتوقعون تعلم أطفالنا كل شيء باسلوب المباريات الرياضية ، ومن يتخرج على أيديهم من شباب يظل طول عمره (لعبيا) يعتقد أن كل نشاط جاد وشاق مجرد مظهر من مظاهر الهمجية » .

(*) Mistbetengeschmack

وعلى الرغم من أن المحافظين كثيرا ما أسفوا لانتشـار التعليم بين الكافة (وبخاصة التعليم التقدمي) وانتشار محو الأمية ، وغلبة جمهور قراء الصحف ، الا أنهم أدركوا بالرغم منهم ، أن كل خطوة من هـذه الخطوات المتطورة لها طابعها الذى لا يقبل الارتداد ، فلن يؤمل أى خير اذا نحن اكتفينا بالأسف والحنين للماضى ، واستنكرنا الحاضر استنكارا عقيما ، اذ انصبت مهمة المحافظين على « نشر رسالة المحافظين وتعاليمهم فى شتى الأنحاء » ، لكى تنافس مؤلفات أدباء حركة التنوير · وعكف المحافظون على نشر كميات هائلة من الكتب التى تعرض المبادىء الدينية والسياسية المحافظة فى ثمانينيات القرن الثامن عشر ، ونشر على سبيل المثال أحد وعاظ الكاتدرائيات (*) كتابا بعنوان : « كتاب مسيحى عن التعاليم الأخلاقية لأهل المدينـة والريف » · وطبعت منه عشرات آلاف النسخ بناء على طلب الملك كريستيان السابع ملك الدانمرك · واستخدمت فى الكتاب عبارات سهلة مفعمة بالأمثلة المألوفة المنقولة عن الحياة اليومية الدارجة فى وصف واجبـات المسيحى فى الزواج وتربية أولاده ، وكسب العيش والمواظبة على الذهاب الى الكنيسة والولاء السياسى الخ · وحث « فيدرزين » قراءه من أبناء الطبقة الدنيا على الالتزام بفضائل المسيحية التقليدية ، وأثبت أن هذا النهج سيعود بالخير على صـالحهم الدنيوى الأبدى ···

وحوالى ١٧٨٠ ، بدأت فى الظهور طائفة من الجرائد المحافظة ، كانت تهدف الى الحد من تأثير « التنوير » على عقول الطبقات المثقفة فى ألمانيا ، واقتصرت فى البداية على اختيار الموضوعات الدينية اللاهوتية ·

وسعى أستاذ للاهوت يدعى كوستر (**) وهو من الشخصيات التى لم يصعب على المتنورين التندر عليها والسخرية منها ، بعد أن كتب دفاعا عن وجود الشيطان ، لعله ساعد على رواجه وسرعة ظهور طبعته الثالثة ! وعمد كوستر الى الهزء من جميع البروتستانت أعداء التنوير فى كتاب أحدث الأحداث الدينية (***) (١٧٧٧ ـ ١٧٩٦) ، واقتدى به جولدهاجن (١٧١٨ ـ ١٧٩٤) ولكنه وجه سخريته الى دور الكاثوليك فى ألمانيا فى مجلة الدين (****) ، وكان جولدهاجن من الأعداء الأشداء لأنصار الامبراطور جوزيف امبراطور النمسا ، وساندته جماعة من اليسوعيين فى أوجسبورج

(*) Jacob Friederich Feddersen

(**) H. Koester أستاذ اللاهوت بجامعة Giesser

(***) Die Neuesten Religions begebenheiten.

(****) اليسوعى Hermann Goldhagen فى مجلة Religionsjournal

تحت زعامة يوزيف أنطون فايسنباخ (١٧٣٤ ـ ١٨٠١) ٠ وهو كاتب غزير الانتاج ، عرف بوجه خاص من كتاب « نذر الوثنية الجديدة »(*) ونشر اليسوعيون فى أوجسبورج عددا خاصا من احدى المجلات عن « نقد بعض النقاد والصحفيين وأصحاب النشرات (**) (١٧٨٧ ـ ١٧٩٦) ٠ وهدف هذا العدد الى دحض جميع الكتابات والنشرات التى أصدرها كتاب التنوير فى ألمانيا ، وأكد اليسوعيون أيضا الحاجة لمحاربة النشرات عن طريق انتقادها واصـــدارها نشرات يعاد طبعهـا أكثر من مرة وتكتب باسلوب شعبى بسيط ، وتوزع على نطاق مماثل لما تفعله دعاية حركة التنوير ، وألفوا هم بالذات جملة نشرات ، وأعادوا طبع العديد من غيرها ، وبخاصة الأبحاث المناهضة للامبراطور جوزيف فى سلسلة بدأ ظهورها ١٧٨٣ ٠

وشعر المحافظون بشىء أشبه بالعجز فى مواجهة نزوع أشخاص مثل جوزيف الثانى نحو « الاتجاه المتنور المطلق » ٠ ولم يكن بمقدورهم الدعوة بسهولة الى العصيان ضد الملك الشرعى (رغم ما فى سياسته من انحراف عن الطريق السوى) ، بينما أصبح نسيا منسيا المذهب اليسوعى الذى كان يحض على اباحة دم الطغاة ، والذى ظل أمدا طويلا يتخذ كذريعة لقمع اليسوعيين ٠ وتركز الأمل الأوحد للمحافظين فى قوة المعارضة الجماهيرية العامة كرد فعل ضد المبادىء النظرية الصارمة لجوزيف وعدم الحرص على الاعتراف بحقوق رجل الشارع ٠ وكان من الطبيعى أن يبذل المحافظون قصارى جهدهم لاثارة هذه المعارضة الموجهة ضد اصلاحات جوزيف ٠ وفى البلدان والمقاطعات التى استمر فيها بقاء الاقطاعيات (***) ، وعلى الأخص فى المجر وبلجيكا ، حاول المحافظون تعبئة المواطنين ضد تهديد الأوضاع الراهنة ، أما فى الحالات التى اختفت فيها الاقطاعيات أو أصبح أصحابها بلا حول ولا قوة ، فلم يكن أمام المحافظين فيها أى خيار غير المعاناة والاستسلام ، الى أن يتخلى الملوك عن برامجهم الاصلاحية ، متأثرين بما ساد من ذعر فى اعقاب الثورة الفرنسية ٠

(*) Die Vorbothen des neuen Heidenthums.

(**) Kritik ueber gewisse Kritiker, Rezensenten und Broschuerenmacher.

(***) Staende

المـراجـع

P. P. Bernard, The Limits of Enlightenment : Joseph II and Enlightened Despotism (1979).

M. Butler ed. Burke, Paine, Godwin and the Revolution Controversy, (1984)

T.C.W. Blanney, Joseph II and Enlightened Despotism (1970).

D. Cameron, The Social Thought of Rousseau and Burke 1973.

O. Chadwick, The Popes and European Revolution, (1981).

J. C. D. Clark, English Society 1688-1832 (1985).

R. Cobb, Reactions to the French Revolution (1972).

A. Cobban, Edmund Burke and the Revolt against the Eighteenth Century (2ed) 1960.

M. Freeman, Edmund Burke and the Critique of Political Radicalism (1980).

G. B. P. Gooch, Germany and the French Revolution (1923).

I. Kramnick, The Rage of Edmund Burke Portrait of an Ambivalent Conservative (1977).

F. O'Gorman, Edmund Burke. His Politial Philosophy (1973).

R. Pauslon, Representations of Revolution 1789-1820 (1963).

J. D. Popkin, The Right-wing Press in France 1792-1800 (1980).

E. Wangermann, From Joseph II to the Jacobin Trials Government Policy and Public Option in the Haspurg Dominions in the Period of the French Revolution 2ed (1969).

سادساً :

القرن التاسع عشر

شهد القرن التاسع عشر تغيرات ملحوظة فى الحياة الأوربية والمجتمع الأوربى ، فلقد تزعمت القوة الصناعية لأوربا الغربية باقى العالم • ونزح الأوربيون فى عملية هجرة واسعة من الريف الى المدينة • وفى أواخر القرن ، هاجروا من أوربا الى شمال أمريكا وجنوبها • وساعد المد الجارف للروح القومية وجيوش بيلمونت وبروسيا على خلق دولة ايطاليا ودولة ألمانيا الحديثتين • وساعدت مثل القومية وضرورة انشاء دولة قوية على زيادة الوعى الذاتى عند « الأمم ـ الدول » القائمة بالفعل ، وعلى تعزيز مبدأ القومية •

وازداد الفكر الأوربى فى القرن التاسع عشر تعقدا فى أعقاب ربع القرن الذى شهد الثورة الفرنسية والحروب النابوليونية • ويكشف بحث فرنكلين جاومر عن كيف اتخذت الاهتمامات اللاعقلانية الصدارة فى هذا القرن • ويتحدث أيضا عن الوعى الجديد بالتاريخ ، الذى سيلعب دورا مهما فى نزوع أوربا فى القرن التاسع عشر نحو الاتجاهات القومية ، ويبحث كيف اتجه الكتاب الرومانتكيون الى الحث على ضرورة تصور المجتمع كأنه كائن حى يواجه مواجهة متزايدة عملية تفسخ اجتماعى •

وأحدثت النهضة الصناعية والهجرة تغيرا فى الأوضاع الاجتماعية فى أوربا ، وظهرت أدوار جديدة وأشكال جديدة للعمل ، استلزمت مشاركة المرأة فى هذا المضمار • وتحلل جوان سكوت ولويزا تيللى كيف اختارت بعض الفتيات القادمات من الريف اسلوب حياتهن ، وما صادفن لدى قدومهن للعيش فى بيئة مدنية • وتوضحان كيف نقلن عاداتهن القروية التقليدية وتطلعاتهن الى حياتهن فى المدينة • ويتحدث أنطونى وول بدقة وحيوية عن الأمراض التى توطنت فى المدن ، وجهود الحكومة والمهن الطبية للتغلب على المشكلات الفتاكة المترتبة عليها •

وتعززت مكانة الدول المستندة على فكرة القومية على أنحاء شتى فى منتصف القرن • ولم تكن حروب « الوحدة » الا وسيلة من جملة وسائل ، ويكشف فيبر النقاب عن بعض السبل التى كانت تتبع فى تعليم النشء القيم التى تتركز حول دور المواطن فى الدولة العلمانية والحضارة العلمانية عوضا عن القيم الدينية • ويرى أن أساتذة المدارس كانوا من جملة نواح أعظم من شارك فى بناء الأمم • وكانت أقوى دولة جديدة هى ألمانيا الامبريالية ، التى اشترك فى توحيدها الجيش المحافظ والنظام الملكى البروسى • ويحلل جوردون كريج دستور هذه الأمة الجديدة ، ويوضح كيف استطاعت المؤسسات المحافظة الامساك بزمام الأمور ، وتحديد اتجاه التاريخ الألمانى مستقبلا الى حد كبير ، حتى فى ظل الحكومة الدستورية ، التى طالما طالب بها الليبراليون فى القرن التاسع عشر •

العـالم الرومانتيكى

فرانكلين · ل · باومر

لم يختلف المؤرخون بشان القليل من حركات الفكر بقدر اختلافهم حول تقييم الحركة الرومانتيكية·فثمة اتفاق عام على انه فى الحقبة الواقعة بين ١٧٧٥ و ١٨٥٠ ، احتلت الصدارة معتقدات معينة عن الطبيعة البشرية والمعرفة والدين والمجتمع والتاريخ فى أوربا ، وأثبتت هـــذه المعتقدات اختلافها عن المعتقدات التى تميز بهـا منتصف القرن الثامن عشر ابان حركة التنوير · بيد أن هناك اختلافا بين المؤرخين حول : هل كانت هناك حركة رومانتيكية واحدة ضمت جميع هذه الأفكار المتنوعة ، ام أن كل امة أوربيـة مرت بتجربة رومانتيكية مختلفة عن تجربة الأمم الأخرى ؟ وفضـلا عن ذلك ، ولما كان الكتاب الرومانتكيون كثيرا (وان لم يكن دائما) ما ينتقدون مقدرة العقل على تفسير الموقف الانسانى ، ويمجدون الملامح غير العقلانية فى الطبيعة البشرية ، الا أن هناك قدرا من الاختلاف بينهم حـول هل عاد تراث الرومانتكية على الحياة الأوربية والحضـارة الأوربية بالخير أم بالشر ؟ ·

ومن بين وسائل التحليل التى تسعى لتوضيح العديد من المشكلات المتصلة بالرومانتكية ، النظر اليها كرد فعل رحيب متعدد الوجوه ضد كثرة من الأفكار الرائئة فى عصر التنوير · هنا تصادفنا مجموعة من المتباينات المهمة · فبعد ان أثنى كتاب التنوير على انتشار نور العقل ، جنح الكتاب الرومانتكيون الى الانبهار بالموضوعات القاتمة وبعالم الأحلام ، وبينما اعجب فلاسفة القرن الثامن عشر بتصـورات نيوتن الميكانيكيـة للطبيعة ، فاننـا نرى الرومانتكيين كثيرا ما ينتقدون نيوتن ، وتصوروا الطبيعة كائنا عضويا حيا · ولقد أرتبط عصر التنوير بنقد الدين ، وبالنظر

(★) نقلا عن كتاب Modern European : Franklin L. Baumer Thought : Continuity and Change of Ideas 1600-1950 (1977).

وقد ترجمت هذا الكتاب للهيئة العامة للكتاب كاملا وصدر فى أربعة اجزاء ·

الى الله على أنه بعيد عن الحياة اليومية • أما الرومانتيكية فتبنت حركة تسعى لاعادة احياء الدين وتصور الله مصدر الالهيات حاضرا فى الطبيعة • وبمقدورنا الاقتراب منه من خلال المشاعر الانسانية الذاتية • وأعجب كتاب القرن الثامن عشر « بالعالم القديم » ، بينما كشف الرومانتكيون عن تحمسهم من جميع النواحى للقرون الوسطى •

ولقد استند على جملة عوامل فى تفسير ما حدث من تحول فى الذوق والفكر • ولكن كان أحد هذه العوامل المهمة ـ يقينا ـ الاضطراب الذى صاحب الثورة الفرنسية والحروب النابوليونية ، والقت هذه الأحداث ظلال الشك على اعتقاد القرن الثامن عشر الذى ذاع على نطاق واسع باحتمال الاعتراف بكفاية العقل الانسانى كمرشد أولى للشئون الانسانية• فى هذا الجو من البلبلة والمعاناة والتحولات الجذرية ، اتجه مفكرون كثيرون الى اعادة توكيد القيمة الموجبة للمشاعر والدين والتكوين الاجتماعى العضوى ، وتبجيل الماضى •

تمتد جذور العالم الرومانتيكى امتدادا عميقا فى القرن الثامن عشر ، بل ربما فى القرن السابع عشر أيضا • وجرت العادة على تمثل العالم الرومانتيكى كحركة مضادة للتنوير ، مثلما يقال ان التنوير مذهب معارض للمسيحية وايمانها بالخوارق • وعلى الرغم مما يبدو فى هذا النظرة من صدق ، الا أنه يتعين ادراك تعذر اتخاذ الحركة الرومانتكية هذه الصورة بغير «التنوير» ، ويصح القول بأنها نبعت ـ من جانب ـ من التنوير ، « وأنها لا تمثل بأى حال مجرد ارتداد لعالم تجاوزه التنوير » •

والحق أن الحركة الرومانتيكية كانت ثورة بقدر كونها ثورة مضادة أيضا • وليس من شك أنه ربما صح النظر اليها على أنها أول احتجاج كبير على «العالم الحديث» ، يعنى الحضارة العقلانية العلمية التى بدأت تتشكل فى القرن السابع عشر ، وامتدت أبعادها فى القرن الثامن عشر • غير أن احتجاجها قد جاء باسم الروح العصرية الجديدة ، اذ اعتقد بعض الرومانتكيين أنهم محدثون أو عصريون ، بمعنى أنهم مسيحيون ، ومناهضون للكلاسيكية فى ذوقهم الفنى • ولكن بمعنى آخر ، بوسعنا القول بأنهم كانوا عصريين أو محدثين ، أو أكثر حداثة مما ظنوا ، وبخاصة عندما اكتشفوا جانب الليل فى الحياة والأحلام واللاوعى ، ولأنهم جاءوا بالأساس النظرى للنزعة القومية الحديثة • وفى هذه الجوانب من بين مجالات أخرى ، لا يخفى أن الرومانتيكيين قد أثاروا موجات من الفكر ، لم يبق أثرها كاملا الى أن جاء القرن العشرون •

على أن هناك صعوبة ستعترضنا اذا حاولنا تعريف الرومانتكية • ولا يرجع ذلك الى « تعدد الرومانسيات » التى نبهنا اليها أرثر لوفجوى ، والذى كان باستطاعته اكتشاف عدم وجود « فكرة رومانتكيه أساسية واحدة » فى الخليط المضطرب من الحركات القومية التى تعرف اليها الآخرون ، ووصفوها وصفا بعيدا عن الدقة بالرومانتيكية ، ولاحظ لوفجوى أيضا انشقاقا بين «ألمانيا والغرب» ، ثار حول الجدل ابان الحرب العالمية الاولى ، واستمر على هذا الحال خلال الحرب العالمية الثانية ، ورئى رد هذا الانشقاق الى الحركة الرومانتكية ، التى زعم ارنست ترولتش (*) وآخرون أنها تتميز بجرمانتيها ، أو على أقل تقدير قد اختلفت فى ألمانيا اختلافا جذريا عن صورتها فى البلدان الأخرى • غير أن تعدد تصور أيه حركة ، ونسبة الاختلاف الى النواحى الاسمية بقدر ما ، مسألة تشترك فيها جميع الحركات الفكرية • وربما أخفقنا فى ادراك كيف تنطبق هذه الحالة على الرومانتيكية ، أكثر مما تنطبق على عصر النهضة أو عصر الاصلاح الدينى ــ مثلا • ان صعوبة تعريف الرومانتيكية ترجع أساسا وبالأحرى الى طبيعة الحركة ذاتها ، اذ كان لدى الرومانتيكين أيا كان البلد الذى ينتمون اليه ، ولع بالجوانب الخفية ، واعطاء الصدارة للمشاعر الفردية والتعابير الفردية • كما نجحوا فى خوض غمار عالم المفارقات • ومن ثم فليس من الميسور دائما معرفة ما الذى كان الرومانتيكيون يتحدثون عنه ؟ • وما الذى عناه شلايرماخر بالضبط عندما قال هذه العبارة الغامضة : « التحليق الممتد فى الكل وفيما لا يستنفد ؟ » • أو ماذا قصد الفيلسوف فردريش فون شلنج بمصطلح « المثالية الواقعية » !؟ وتزداد المشكلة تعقدا اذا تمعنا فى كلمة « رومانتكية » ذاتها ، فقد اتصفت هذه الكلمة بغموضها الى حد غير مألوف فى نظر الجميع ماعدا الألمان • ولم تقبل بالاجماع حتى بين الرومانتيكيين أنفسهم ، وفهمت وفسرت على أنحاء شتى• وفضلا عن ذلك ، فلم يكن « للرومانتكية » منظمة أو مؤسسة أو مشروع جسور يعبر عن غايتها ، كالموسوعة الشهيرة فى القرن الثامن عشر ، ولم يكن لديها مذهب محورى ، أو حتى مرجع موثوق به ، مثلما بدا الكتاب المقدس فى الحركة البروتستانتية والاصلاح الدينى •

فما هى الرومانتكية أساسا ؟ لعل الأسهل هو القول ما الذى لم يتصف بالرومانتكية ، أو ما الذى اعترض عليه الرومانتكيون الأوربيون ، لقد وضع الفيلسوف الانجليزى جون ستيورات ميل ــ الذى لم يكن هو بالذات رومانتكيا ، ولكنه كان ملاحظا متعاطفا عليما بالأمور ــ اصبعه دون خطأ على مواضع كراهية الرومانتكيين ، وقال عندما كتب عن أرمان

(*) Ernst Troeltsch.

كارليل (١٨٣٧) : ان الرومانتكية تمثل رد فعل « ضد ضيق أفق القرن الثامن عشر » . وعلى الرغم من أن ميل كان يتحدث فى هذه الكلمات أساسا عن الأدب ، الا أنه من الواضح مما جاء فيما بعد فى مقالات أخرى ، وعلى نحو جلى فى مقاله الشهير عن كولريدج ، انه قد تصور الرومانتيكية كتمرد ضد الضيق فى عدة جهات : فى الفلسفة والعلم والفكر التاريخى والسياسى ، وأيضا فى الشعر والدراما . اذ كان من بين الصفات التى استعملها توماس كارلايل فى معرض حديثه عن أحد أقطاب حركة التنوير : « ديدرو » (١٨٣٣) : « انه لا يدرك غير الجزئيات » ، و « هامشى » و « تافه » و « هزيل » . ورفض كارلايل العالم المألوف لديدرو ، ووصفه بأنه «نصف عالم قام ديدرو بمطه حتى يبدو كأنه عالم كامل » . بطبيعة الحال ، كانت الاشارة فى الحالتين الى التنوير الأوربى ، الذى اتخذ حينذاك مظهرا متجمدا ، وأصيب من ناحية أخرى بالهزال . واعتقد الرومانتكيون أن عالم التنوير ضيق الأفق ، لأنه أولع الى حد الادمان بالتفكير الهندسى ، وبالمذهب الكلاسيكى الجديد المحالف له ، وبالمذهب التجريبى للوك . فالروح الهندسية رغم جرأتها الميتافزيقية قد حاولت اخضاع الحياة بأسرها للعقل ، وبذلك « ميكنتها » ، وحطت من شأنها تبعا لذلك . ونزع المذهب الكلاسيكى الجديد بحكم طموحه المماثل وسعيه للبحث عن أنماط مثالية للطبيعة الى فرض قواعد كلية على الفن والفنان ، بدت أشبه بالأصفاد الحديدية . وهوجم المنهب التجريبى لسبب مقابل ، يعنى لأنه يبالغ فى الشك ، ولأنه قصر المعرفة الانسانية ــ بصرامة ــ على عالم الحس والمظاهر ، ونظر الى نيوتن على أنه الممثل الرمزى لهذا الضيق .

وكان عالم الرومانتيكيين على عكس عالم نيوتن المخضب بالضوء عالما ليليا ، ويدل الليل بتباينه هو والنهار والضوء على « القدرة على التحليق والارتفاع بالأجنحة الثقيلة للروح الى آفاق لا متناهية تتجاوز عالم المكان ــ الزمان » . وقال الشاعر الفيلسوف الألمانى نوفاليس (فردريش فون هاردنبرج) : « كم يبدو لى النور الآن تافها وصبيانيا » . وفضل نوفاليس على « النجوم المتوهجة التى ترى فى السماء » « العيون اللامتناهية التى فتحها الليل لى » . ان هذه الظاهرة واحدة من أعظم السمات الموجبة للعقل الرومانتيكى وميوله : التعلق باللامتناهى الذى يتمثل على أنحاء شتى ، دنيويا ودينيا . وعلى الرغم من وجود أوجه قرابة بين جوته وبعض ملامح من الرومانتكية (وان كان هذا الشاعر العظيم لم يعترف بها دائما) ، فاننا رأيناه يقول فى بعض الأحيان ، « ان أعظم سعادة للانسان بوصفه كائنا مفكرا هى قيامه بسبرغور ما هو معروف ، وتقديره الرصين لما هو غير معروف » . ولعل هذه القاعدة أقرب الى الروح الكلاسيكية منها الى

الروح الرومانتكية ، لأنها وضعت حدودا لما بمقدور العقل الانسانى معرفته والتطلع اليه ، مثلما سبق أن فعل كانط ، غير أننا نرى جوته فى « فاوست » يتطلع الى اللامتناهى بطريقته الخاصة ، مثلما فعل بعض الرومانتيكيين الآخرين ، الذين لم يتماثل سمو علو احساسهم الميتافيزيقى بالعلو الذى سما اليه نوفاليس ....

وأقدمت الرومانتكية على محاولة لاعادة احياء الدين . واتخذت هذه الحركة جملة مظاهر ، لم يكن أقلها شأنا النزعة الصوفية لاضفاء الروحانية على الطبيعة . وكما لمح كارلايل ، لم تكن جميع هذه المظاهر مستلهمة من الاحساس العميق بالضياع الميتافزيقى نتيجة لحركة التنوير ، وما أحدثته من تأثيرات ثورية . وشاع الاعتقاد بفقدان العالم لركيزتيه الميتافزيقية والدينيـة فى القرن الثامن عشر ، وبأن البشر فى حاجة الى استعادة ذاتيتهم ، لو أريد مرة أخرى ظهور أبطال وأعمال فنية عظيمة . ووصف كارلايل بطريقة شائقة هذا الشعور بالضياع فى فصل سماه « لا الباقية » فى كتاب سارتور ريزارتوس (١٨٣٣ — ١٨٣٤) بقوله : « فى القرن الذى اختفى منه الايمان » ، لم يعد لله وجـود ، بل أصبح على هامش العالم ، ومقيدا بقوانينه العقلانية ، وفى هذا الكتاب الذى يعد من أعظم مصـادر نظرة كارلايل الى الله والدين ، يتحدث على لسـان الأستاذ تويفلسدريغ (*) عن الأزمة الروحية التى مر بها (من تأثير الأثر الأكال لشك عصر التنوير) ، وكيف بعد أن هيمنت عليه روح البحث ، انتقل من الشك الى المروق ، وانغلق فى وجهه باب الأمل تبعا لذلك ، واعتقد أن الله فى أفضل الأحوال « ربما كان غائبا عن الوجود » جالسا بلا عمل منذ أول سبت ، مكتفيا بالتفرج على الكون من خارجه لكى يدرك ما بداخله.

ولكن كيف يسترد الايمـان الحيوى ؟ ان بعض الرومانتكيين لم ينجحوا قط فى تحقيق هذه الغاية ، وكان اخفاقهم سببا فى اصـابتهم بالاكتئاب . ومن ناحية ثانيـة رأينا كثيرين يعتنقون الكاثوليكية ، أو يرتدون اليها ، وان كانوا قد برروا فعلتهم بمبررات جديدة ، اتسمت بروحها الرومانتيكية أيضا . وظل آخرون يتبعون البروتستانتية ، ولكنهم نظروا الى الدين نظرة رومانتكية . غير أن هناك آخرين أيضا — لم يكن عددهم قليلا — خلعوا رداء الكنسية ، واخترعوا آلهـة جديدة وأساطير جـديدة ، وأحد هـؤلاء وليم بليك الذى ارتضى فى قصـيدته الملحمية « أورشليم » الايمان بخليط مبالغ فيه من المسيحية والأساطير الشخصية ، ولعل نوفاليس كان من أتباع هذا الاتجاه . فرغم استمراره فى اعتناق المسيحية ، الا أنه آثر الباس دينه زيا غيبيا وخرافيا ، فرأينا « صوفيا »

(*) Teufelsdroeckh.

« التى ترمز للحكمـة » فى احدى حكاياته الخرافيـة (*) تقول : « لقد انكشف السر الأعظم للكافة ، وان ظل خافيا الى الأبد » · بيد أن علينا أن لا ننسى أن مثل هذه النزعات كانت تمثل المؤمنين بالخوارق الطبيعية ، يعنى من تماثلوا هم وكارلايل نفسه ، الذى اكتشف نوعا جديدا من الاله يعمل فى العـالم والطبيعة · والحق أن هذا الاله لم يوصف بمجاوزته للعالم فحسب ، لأنه يظهر فى شكل ما أو هيئة ما ، فيما يقارب جميع التجارب الرومانتيكية على اختلاف صورها ·

ويعـد الفيكونت دى شاتوبريان مؤلف كتـاب عبقرية المسيحية (١٨٠٢) الذى يوصف بانجيل الرومانتكية مثلا حسنا للنوع الجديد من الدفاع عن الكاثوليكية · واقترح شاتوبريان لاعادة الحياة لعقيـدة يفترض أنها ووريت التراب النزوع الى استهواء الوجدان الانسانى عوضا عن البراهين العقلانية لاثبات وجود الله ، أو اعادة طرح العقيدة وقال : « ان الديانة المسيحية ذاتها نوع من المشاعر لها غمرة أفراحها وأشواقها وتنهداتها واتراحها ودموعها وولعها بالمجتمع والوحدة »·وأوضح شاتوبريان مدى تمتع المسيحية بالشاعرية ، والروحانية ، ومدى اشباعها للاحساس الفنى ـ وبخاصة عن طريق كنائسها ـ التى يظهر التباين بينها وبين المعابد الاغريقية (مهما كانت درجة أناقتها) مما تحدثه من اثارة لمشاعر التهيب والتذكرة باللامتناهى · وكم فى منجزاتهـا التاريخية من آثار خلابة ، فلم تكن المسيحية معادية للحضـارة مثلما ظن المؤرخ الانجليزى جيبون (وكم حفل كلامه بالتناقض) ، ولكنها زودتها بأخلاقيات سامية وفن عظيم وأدب رائع ، وبكل سبل الارتقاء بدءا بالزراعة حتى أبعد العلوم تجريدا ، وقال شاتوبريان فيما بعد فى مذكراته : لو أنه أعاد تاليف كتابه ، فانه سيبين فيه كيف أرست المسيحية أسس التماسك الاجتماعى الحق والمساواة والعدالة · وهذا تضرع محسوب لاجتذاب أفئدة الكافة بما فى ذلك الشباب فى حقبـة انهيار ذهنى أخلاقى (كمـا تصـور شاتوبريان) ·

وفى ذات الوقت تقريبا ، حاول قس شاب من أبناء برلين ، ممن تعلموا عند التقويين المورافيين اعادة احياء البروتستانتيـة اعتمادا على مخاطبة الناس بصفتهم الفردية ، بدلا من الاستناد على النفع الاجتماعى · وظهرت جميع أسس البروتستانتية الرومانتكية فى تصور شلايرماخر للاهوت المشاعر ، خصوصـا فى كتابه الباكر « رسائل عن الدين الى محتقريه من المثقفين » ، الذى ألفـه ١٧٩٩ بنـاء على اصرار أصـدقائه الرومانتكيين فى العاصمة البروسية · ودافع شلايرماخر عن الابتعاد عن الثقافة الفرنسية ، التى لم تعد تكترث بالدين ، والابتعاد أيضا عن المذهب

(*) Klingsor.

المؤله للطبيعة (*) واللاهوت العقلاني بوجه عام ، وبعد أن تناوله هو وكانط منذ أيام دراسته ؛ رفض ما قاله كانط عن « الدين في حدود العقل وحده » ، وتصوره اعتماد وجود الله والأخلاق على الوعى الأخلاقي عند الانسان • ففي اعتقاد شلايرماخر : الدين شيء ، والأخلاق أو الفلسفة شيء آخر ، وتماثل هو والكثير من معاصريه في شوقه للامتناهي • وهذا اتجاه بعيد الاختلاف عن محاولة التوفيق بين الدين والعقل ، أو رد الدين الى الأخلاق • وقال في تعريفه المشهور : « الدين الحق يعنى الاحساس باللامتناهي وتذوقه » ، ولكن أين يستطاع الاهتداء الى اللامتناهي ؟ • ورد على ذلك : في صميم روح الانسان ، يعنى في المشاعر • ورغم اعتراضه على كانط ، الا أنه تعلم من الفلسفة النقدية عدم الوثوق في البراهين العقلانية لاثبات وجود الله ، وبذلك رجع بالدين الى حالة ما قبل الادراك والمعرفة •• فالشعور شيء فردى ، حتى وان كان ملكة من ملكات الروح الانسانية • ويناظر على نحو ما الواقع الموضوعي ، وان كانت هذه الفكرة لا تبدو واضحة •• وأعرب شلايرماخر عن عدم ثقته في نظرة عصر التنوير الى الدين التى جنحت الى صبغه بصبغة كلية تعميمية ، وقال انه ظل أمدا طويلا قانعـا بما اكتشفه « العقل الكلى » • ولكن شلايرماخر ارتأى فيما بعد وجوب « ارتقاء الانسان الى المستوى الأعلى للفردية • فلم أعـد أقنع بالنظر الى الانسانية على أنها كتل وحشية هلامية ، متماثلة في داخلها تماثلا كاملا » • وهكذا يكون قد أضفى على الدين الطابع الفردى، ونظر اليه نظرة سيكلوجية شعورية • فكل فرد عبارة عن تجسيم متفرد للكل ، ويجرب الكل بطريقته المتفردة • واذا كان اله شلايرماخر ليس اله أنصار مذهب وحدة الوجود ، الا أنه ـ يقينا ـ اله كامن يمكن الاهتداء اليه في العالم ، وبخاصة داخل روح الانسان ، وبوصفه عميدا فيما بعد لكلية اللاهوت في جامعـة برلين الجديدة ، اسـتطاع التأثير بعمق في اللاهوت البروتستانتى ، ودفعه الى هذا الاتجاه « الرومانتيكى » الجديد •

واهتدى الرومانتكيون الى الله في الطبيعة ، في صورة احتسبت من مميزاتهم ، ولم يهتدوا اليه جميعا بطبيعة الحال • فلم يكن بين هؤلاء المهتدين الفرد دى فينيه(**) أو اللورد بايرون • وانما كان هناك بالتأكيد نفر ملفت • ولقد سعى هؤلاء الفلاسفة المؤمنون بخوارق الطبيعة ممن تمردوا ضد الآلية النيوتينية لجعل الطبيعة مكانا يستطيع الانسان معاودة العيش فيه والشعور بالاقتراب من الله ، وبذلك يحل مشكلة الثنائية التى نكب بها المفكرون منذ عهد ديكارت • وجاء دافع هذه الطريقة في التفكير في الطبيعة من روسو وأمثاله كثيرون ممن ساقهم تأمل الطبيعة الى الشعور

(*) Deism

(**) الشاعر الفرنسى Alfred de Vigny (١٧٩٧ـ١٨٦٣) •

بالانتشاء الصوفى (*) • ولقد حاول جوته دائما فى دراساته المورفولوجية اكتشاف المبدأ الجوانى الأصلى للأشياء ، أى الأبدى فى المتناهى عند (اسبينوزا المقدس) الذى أعيد احياؤه فى ألمانيا على أواخر القرن الثامن عشر ، وكان قد دعا الى اله كامن ، بينه وبين الكون هوية على نحو ما ، وازدهرت هذه الصوفية الطبيعية فى مذهب شلنج (**) الذى أعجب به ايما اعجاب صمويل تيلور كولريدج ، مثلما أعجب به الألمان ، وتمثل هذا الاعجاب فى شعر وردزورث عن الطبيعة ، وعند مصورى المناظر الطبيعية من أمثال جون كونستابل فى انجلترا ودافيد كاسبار فردريش فى ألمانيا •

فالانسان فى نظر الرومانتكيين ليس مقياس كل شىء ، كما هو الحال فى الفكر الكلاسيكى • واشتركوا فى رؤية الانسان فى سياق قوى كونية عظمى يختلط به فى « كل » أو « لامتناه » أعظم منه هو ذاته ، فقال الدكتور كاروس فى كتاب بعنوان « تسع رسائل عن تصور المناظر الطبيعية (١٨٣١) » : « عندما يتأمل الانسان الوحدة الرائعة للمنظر الطبيعى ، فانه يعى تفاهته ، ويشعر ان كل شىء عبارة عن جزء من الله ، وبذلك يشعر باستيعاب الله له ، وينبذ وجوده الفردى » ، ولا يتعارض مثل هذا التشديد على « الكل الأعظم » على أى وجه وأى توكيد مماثل للفردية ، يلاحظ بالفعل عند شلايرماخر ، أو فى عمليات الخلق الانسانى ، ولكنه يوضح الطبيعة الميتافزيقية — بالضرورة — للانسان الرومانتيكى ، ففى الأنثروبولوجيا الرومانتكية ، ليس الانسان مجرد « كائن منحن ناحية الأرض » كما تصوره فيكتور هيجو ، « ولكنه مقذوف متجه نحو السماء ، أى الى الأصل الذى بعث منه » •

ان هـــذا يفسر لماذا قام الرومانتكيون بثورتهم الكوبرنيقيــة فى الابستمولوجيا • فلابد أن يتزود الانســـان بالملكات العرفانية المكافئة لاحتياجاته الميتافزيقية ، وتطلعــاته ، ولا تخفى عدم كفاية ابستمولوجية لوك للنهوض بهذا الدور ، لأنها خصت انطباعات الحس بأكبر دور فى المعرفة • وحتى كانط ، فرغم أنه زاد من فاعلية العقل اعتمادا على مقولاته الشهيرة ، الا أنه جعل المعرفة قاصرة على الظاهرات فى عالم الظواهر • ومن هنا وضع كولريدج ، الذى كان شديد الاعتراض على لوك ، وان كان شديد الامتنان « لحكيم كونجزبرج » (يقصد كانط) — ولعله لم يفهمه على خير وجه ! — ملكــة خاصة للذهن سماهــا على نحو مثير للدهشــة « بالعقل » للتفرقة بينها وبين « الفهم » • وكانت هذه التفرقة المشهورة

(*) كما حدث فى كتابه Rêveries du Promeneur Solitaire (١٧٧٦ — ١٧٧٨) •

(**) Naturphilosophie.

التى عبر عنها جميع الرومانتكيين تقريبا ، على نحو أو آخر ، معروفة بالفعل فى ألمانيا بفضل الفيلسوف جاكوبى وكانط بالذات ، فليس بمقدور الفهم (*) معرفة أى شىء خلاف الظاهرات ، وتبعا لتشبيه ينسب لشوبنهاور : يتشابه الفهم هو وانسان يدور ويحوم حول قلعة لرسم واجهتها ، ولكنه لا يهتدى قط الى أى مدخل . أما العقل (**) فباستطاعته اختراق حوائط القلعة ، يعنى النفاذ الى ما وراء الظاهرات ، الى الشىء فى ذاته ، وعلى حد قول كولريدج : « فانه يختار الحقائق الخفية والموضوعات الرومانتيكية العامة التى هدفت الى تحويل العقل من مرآة (***) الى مصباح قادر على تسليط أشعته للكشف « عن أرض جديدة وسماء جديدة ، لم يحلم بها الحسيون والفخورون بأنفسهم » .

وقارن كولريدج ايضا بالاستعانة بذخيرته التى لا تستنفد من التشبيهات ، العقل بنبات يمتص العناصر الخارجية ، ولكنه عندما يتنفس تساهم أنفاسه فى انعاش البيئة . وبعبارة أخرى ، فان العقل يتميز بالقدرة الخلاقة ، لأنه ليس قادرا فقط على النفاذ فى الغيبيات ، وانما لديه أيضا القدرة على تحويلها وبث الحياة فيها بخلق أعمال دالة على العبقرية الأصيلة . وبمقدور الانسان استحضار عوالم جديدة للحياة بالخلق والاختراع اعتمادا على الخيال شقيق العقل . وقد نسب اليه كولريدج القدرة التشكيلية (****) . ويصح هذا القول بقدر كبير عن الفنان ، الذى استحق عن جدارة فى العالم الرومانتيكى صفة المثل الأعلى للانسان ، وحل محل فلاسفة (*****) الموسوعة المشهورين . فرأى شيللى ، مثلا ، الشاعر شيئا أكثر من انسان ، لأنه صاحب رؤيا يشارك فى العملية الأبدية لاماطة اللثام عن « الجمال الخفى للعالم » وبالمثل رأينا شلنج يؤلف فلسفة كاملة النضج للفن يرى فيها الفنان وحده متفردا بين بنى البشر بفضل قدرته على حدس « المطلق » ، ومن ثم استطاع فى عمله أن يعرض « لا متناهيا ليس بمقدور أى فهم متناه الاحاطة به » .

على أن هذه النظرة الرومانتكية للعبقرية لا يمكن أن تفهم فهما كاملا بغير رجوع الى اللاوعى ، فليس من شك أن الانثروبولوجيا الرومانتكية — بوجه عام — قد افترضت وجود عقل لا عقلانى أو لا واع أو لا شعورى .

(*) Verstand.

(**) Vernunft وسماه Jacobi : "Glaube" أو الايمان .

(***) tabula rasa أو

(****) esemplastic.

(*****) les philosophes

وربما صح القول بأن الرومانتكيين ليسوا أول من اخترع اللاشعور ، الا أنهم كانوا أول من تحدث عنه بحرية وافاضة •واستعانوا باللاشعور لتفسير عملية الابداع الفنى ، وأيضا للتحدث عن « الجانب الليلي » لحياة الانسان ، يعنى عالم الأحلام والوحوش والأشباح والأطياف ، فهو تصور ميتافزيقى أكثر منه تصورا علميا • وتصوروا الفنان ـ بوجه عام ـ كأنه نبات ينمو لا شعوريا ، أو كوعاء يستعين به « الأبدى » فى فعله وتعبيره عن نفسه • واعتقد بعضهم كما فعل الشاعر الفنان وليم بليك فى الآلية الشاعرية (*) • وكتب عن كتابه « ميلتون » : لقد نظمت هذه القصيدة بفضل ما أملى على املاء مباشرا •• « دون تأمل مسبق ، بل وربما ضد ارادتى » وبطبيعة الحال ، يعبر اللاشعور عن نفسه على أفضل وجه فى الأحلام ••• وهنا يتكشف جليا الفارق بين الفكر الرومانتيكى وفكر عصر التنوير • فلقد حاول مفكرو « التنوير » رد الحلم الى ظاهرة طبيعية ترتد الى التجربة الحسية ، ويستطاع تفسيرها عن طريق القوانين الأولية • وتعد حالة اليقظة الحالة الأسمى ، لأن الروح أو النفس تفقد أثناء الحلم اتصالها بعالم الواقع • وقلب علماء النفس الرومانتكيون مثل الدكتور كاروس وفون شوبرت (مؤلف كتاب رائع عن رمزية الأحلام ١٨١٤) هذا الحكم رأسا على عقب • ففى الأحلام ، يتحدث الانسان لغة أسمى تمكنه من التنقل بنظره من الوراء الى الأمام بغير التقيد المعهود بالزمان ، ومن لم تتسن له القدرة على التنبؤ فى الأحلام ، وعندما تنقطع الروح عن عالم الانطباعات الحسية ، تتصل بالواقع الروحى ، وبذلك تساعد على انطلاق الشاعر المختبىء داخل الانسان • وتوضح العبارات الاستهلالية من قصة هينريش فون أوفتردينجن لنوفاليس (١٧٩٩) النظرة الرومانتيكية الجديدة • ففيها يتحدث هينريش وأبوه عن الأحلام • ويقول الأب الشاك : « الأحلام يابنى كلام فارغ • ولقد ولت الأيام التى كانت الرؤى تصادف فيها فى الأحلام » • ويعترض هينريش : « لعل الأحلام لم ترسل الينا من السماء مباشرة ، ولكن ألا يتعين علينا أن نتصورها رغم ذلك كنعم من السماء تزيح الحجب التى تخفى طبائعنا الداخليــة عن الأبصـــار . وتطلق عنان المخيلة المقيــدة بالأصــفاد وترشدنا فى حجيجنا الى القبر المقدس » •

وكما بينا آنفا فان اللاشـــعور أشبه بمفترق طرق • فبمقدوره هدايتنا الى عالم أسمى ، ولكن بمقدوره أيضا اطلاق سراح القوى الشيطانية الكامنة بداخلنــا • وكان الرومانتكيون على بينة بما تتصف به الطبيعة البشرية من تشتيت واضطراب ، وبالقوى الكامنة بالانسان التى قد تفصل

(*) Poetic automatism.

بينه وبين عالمه . وألقى فون شوبرت بنفسه محاضرات عن الجانب الليلى فى العلم ، ومحـذرا من المظاهر الشريرة للاشعور ، ومن مظاهره الخيرة أيضا . وحشد هينريش فون كلايست ، متأثرا بنظريات فون شوبرت ، دراماته فى نفس الحقبة (١٨٠٦ ــ ١٨٠٨) بشخصيات مثل كيتش فون هايلبرون التى صور فيها الحب قوة بدائية لا شعورية . وعلى الرغم من أن كولريدج قد أثنى على عقل الانسان وخياله الالهى ، الا أنه فى أعظم أشعاره دفع بطله لاقتراف جريمة لاعقلانية أساسا (لاشعورية) وهى قتل « القطرس » الطائر البحرى ، مما سيؤدى الى وجوب معاناته حتى يصبح على وعى بما اقترف ...

أما أرتور شوبنهاور فهو فيلسوف هـذا الجانب الليلى من الانثروبولوجيا الرومانتيكية ، واكتشف شلنج أيضا نوازع قاتمة ــ لاشعورية الى حد كبير ــ فى النفس ، ولكنه التزم جانب التفاؤل فيما يخص حرية الانسان ، وقدرته على التغلب عليها وتغيير طابعها . بيد أن شوبنهاور لم يؤمن بالحرية ، أو لعله آمن بها بقدر محدود . ففى كتاب « العالم ارادة وتمثلا » (١٨١٨) عرف الشىء فى ذاته (يعنى الحقيقة) « بأنها ارادة العيش أو الحياة » . وهـذه الارادة عمياء ، لا مخطط لهـا ، وبلا أساس ، وتمثل سيطرة القطيع على الانسان ، وتورطه ــ تبعا لذلك ــ فيما لا نهاية له من الصراعات والمعاناة والتصدعات : « يتميز الكشف عن الطبيعة الباطنية للارادة بالصيرورة الأبدية والتغير بلا حدود » . وليس باستطاعة الانسان تحقيق أى نوع من السلام الا اذا أوقف رغباته تماما ، أو عكف على التأمل الاستاطيقى . وتذكرنا ارادة شوبنهاور « بالهو » عند فرويد . وفضلا عن ذلك ، فقد استمر فرويد يردد القول « بأن البشر ليسوا فى حقيقتهم كما يتظاهرون » . انهم مجرد أقنعة : « اخلع النقاب ! . وانظر داخل اللاشعور (وان كان شوبنهاور لم يستخدم هذه الكلمة بالفعل) فما الذى ستراه ؟ انك سترى أنانية وغلا وحقدا بلا حدود ، مصدر شقاء النفس والنفوس الأخرى،من تأثير سيطرة ارادة الحياة » ، وكتب شوبنهاور فى مقال متأخر عن الطبيعة البشرية :

« من الحق اذن القول بوجود وحش قابع فى قلب كل انسان يتحين الفرصة للاندفاع كالعاصفة ، والغضب ، كما يبين من اشتهاء الحاق الألم بالآخرين . أما اذا اعترض أحد سبيله فانه يقتله ... وعندما يحاول العقل ترويضه وتلجيمه الى حـد ما ، فان حارس هـذا الوحش يعانى الأمرين . ولربما نزع الناس الى تعليل ذلك بالشر المتطرف الكامن فى الطبيعة البشرية .. الا اننى أنسب ذلك الى ارادة الحياة ، التى تزداد شعورا بالتنغيص والنكد من أثر المعاناة المستمرة للوجود ، ومن ثم فانها تسعى لتخفيف عذابها بتعذيب الآخرين » .

وليس بالمقدور فهم المعتقدات الرومانتكيــة عن التنظيم الاجتماعي والسياسي الا على ضوء هذه الانثروبولوجيا · وبالاضافة الى التاريخ العام للعصر ، فقد اتهمت الرومانتكية بجميع الخطايا السياسية تقريبــا في الكتاب ، يعنى بالثورة ، وأيضا بالرجعية ، وبتبنى النزعات الفاشية ، بل وحتى بالافتقار الى الاهتمام بالمشكلات الاجتماعية (*) · ويصح القول بمرور الرومانتكية خلال عدة أجيال بجميع ألوان العقائد السياسية المعاصرة على وجه التقريب بدءا من الاتجاه المحافظ ، الى الليبرالية والاشتراكية ، بل والفوضوية ، ومع هــذا ، وكمــا يفهم ضمنا من هــذا الرأى ، فان الرومانتكيين قد انحازوا الى مختلف المعسكرات في الصراعات السياسية للعصر · ولا يجوز القول بأنهم كانوا ينفرون من السياسة ، أو يرفضون التفكير فيها ، وان كان قلائل من الرومانتكيين قد شغلوا وظائف عامة بالفعل · وما من شك أن العالم الرومانتيكى قد أخرج عددا من الأفكار الأخاذة الجديدة والبعيدة الأثر عن تنظيم المجتمعات ·

ومن بين هذه الأفكار تبرز واحدة منها فوق باقي الأفكار · انها فكرة الكيان العضوى الاجتماعي ، ولم تكن هذه الفكرة ــ بطبيعة الحال ــ شيئا مستحدثا · وبالرغم من ذلك ، فانها أصبحت تعنى الآن شيئا جديدا ، أو حرفت تحريفا جديدا · وليس من العسير فهم سر استهوائها المعاصر لنا ، فهى تعكس الخوف من الفوضى والعار في عصر الثورة ، والضيق الذى تشعر به الكثرة ، وليس مجرد الارستقراط ، بعد انهيار المؤسسات وتفكك الروابط القديمة ، غير أنها حدثت قبل أوانها ، وبشرت بالثورة الفرنسية ، التي نستطيع اكتشاف ارهاصات فكرية مهدت لها عند روسو وبيرك (ولا تعارض بين الاثنين كما حاول بيرك الايحاء) وعند هردر أيضا · وهكذا مثلت فكرة الكيان الاجتماعي العضوى نفورا لا من التجاوزات التى حدثت في باريس أثناء الثورة فقط ، ولكنها مثلت أيضا نفورا من اسلوب التنوير بأسره في التفكير في المشكلات الاجتماعية ·

وضــرب كولريدج على الوتر الحســـاس في احـــدى « عظــاته » السياسية (**) ١٨١٦ ، والتى لخص فيها الى جانب أشياء أخرى ، نظرته الى أسباب الثورة ، وما أعقب ذلك من اقتصاص · ونسب التفجر الى حد كبير الى الأفكار الزائفة التي لم يكن أقلها خطورة :

« التصور القائم على الانخداع العام بامكان تشييد الدول والحكومات على النحو المتبع في صنع الآلات ، وأنه من الواجب مراعاة ذلك · وأيضا

(*) بل وحتى بال Weltpflucht

(**) Stateman's Manual (١٨١٦) ·

تصور امكان التكهن بأية حركة واحتسابها مسبقا · ان الثمن الذى دفع فى مقابل ذلك على حســاب ما لحق بالحقوق الوطنية للبشر ، وربما بأرواحهم هو ما ترتب على ذلك من ظهور عدد كبير من المخططات والدساتير والمخططات ومشرعى الدساتير ، والغطرسة الفظة التى أبدى كل داعية أو مبشر باقتراح جديد استعداده للتعبير عنه ··· » ·

ووضع كولريدج فى مقابل هذه «الآلة» المخدوعة فى نفسها ما اعتبره الفكرة الصائبة عن الدولة التى تراها أخلاقية ، أو «كل عضوى» ولقد اعتقد كولريدج أن الدولة ـ أو المجتمع ـ أقرب الى الكائن العضوى أكثر من قرابتها للآلة ، فمثلا لم يصنع الدستور الانجليزى على غرار الآلة · لقد « نما » كأى كائن حى عضوى فى حقبة من الزمان · وتتماثل الدولة ـ بعد ذلك ـ هى والكائن الحى فى كونها تتألف لا من ذرات مفردة تسعى كل منها لصالحها الأنانى ، وانما من أجزاء عضوية ، يعنى من أعضاء لها تاريخ كالملك والكنيسة والملكيات · ويساهم كل طرف من هذه الأطراف بطريقته الخاصة لصالح الكل ·

ولم تتصف النظرية العضوية التى جاء بها كولريدج بالأصالة ، كما أنها لم تكن قاصرة على انجلترا ، والحق أنها مثلت نظرة اشترك فيها رومانتكيو جميع البلدان ، وتمــاثل آكثرهم مع كولريدج ، أى ابتدءوا متحمسين للثورة ، ثم أصيبوا بالاحباط بعد ذلك · ولقد ورث كولريدج ذاته الفكرة عن ادموند بيرك ، الذى سبق له زجر الثوريين ـ قبل ذلك بسنوات ـ لأنهم نظروا الى السياسة كأنها تمرين هندسى · فلم يرجعوا الى الطبيعة البشرية أو التاريخ · وتغلغل تأثير بيرك فى ألمانيا ، مثلما فعل فى انجلترا ، وان كان الألمان لم يحتاجوا لبيرك لتعريفهم أن الزمان يدعو الى التشديد على دور المشاعر العامة (*) · فلقد هاجم الرومانتكيون الألمان علم السياسة الذى يستند الى نموذج هندسى مجرد ، واستعاضوا عنه بشىء أشبه بالبيولوجيا السياسية التى أكدت دور النمو «الطبيعى» ، باعتباره معارضا للتخطيط الواعى ، وأكدوا أيضا دور المشاعر الجماعية بوصفها مقــابلة للحقوق الفردية فحسب ، ويبدو شلايرماخر ، وكأنه اقترب من بيرك عندما نبذ فى بحث تلى على الأكاديمية الملكية للعلوم فى برلين ١٨١٤ المهندسين المعاصرين للسياسة ، لأنهم عاملوا الدول دائما كأنها اشياء ، « يستطيع الانسان اختبار براعته فيها ، ولم يعاملوهــا اطلاقا كتشكيلات تاريخية للطبيعة ، ولم ينتبهوا الى عدم ظهور أية دولة عن طريق الصناعة ، حتى ما لا يتمتع منها بالكمال » ·

(*) Gemeinschaft.

ورأى معظم الرومانتيكيين ، خصوصا بعد الثورة الفرنسية ، الدولة ، أو « الدولة ـ الأمة » أسمى صورة للكائن العضوى الاجتماعى ، وهكذا لا يعد تصور « الدولة ـ الأمة » بالضرورة تصورا رجعيا ، ويصح القول بأن الرومانتكية ساهمت بدور أكبر من دور اليعقوبيين أو نابوليون فى بزوغ الحركة القومية التى ما لبثت أن أصبحت واحدة من أكبر الأساطير الحديثة . ولابد أن ندرك عدم وجود تعارض بين هذه القومية الرومانتكية والنزعة الفردية الرومانتكية . فالواقع أن أحـداث الثورة ، والحركة الامبريالية الفرنسية التى جاءت فى أعقابها قد ولدت شعورا أقوى بالهوية بين « الفرد » و « الدولة » ، وعلى الأخص فى ألمانيا ، ولكن ورغم ذلك ، فلقد حرص الرومانتكيون ، حتى فى ذروة حرب التحرير الجرمانية على الحفاظ على كرامة الفرد ، وعلى الأخص من يتمتع منهم بالعبقرية . وتمثلت الفكرة الجديدة فى أن الفرد سيتمكن من النهوض بقدراته فى ظل المجتمع المتحد على نحو أفضل وبمعاونة الدولة التى أصبح ينظر اليها الآن على أنها تقوم بدور ريادى فى خلق الحضارة . غير أن أهم نقطة هى اتجاه الفكر الرومانتيكى الى تصوير الأمة فى شكل فرد كبير ، يتمتع بشخصية مختلفة عن شخصية الأمم الأخرى ، وان كان لا يلزم أن يكون معاديا لها ، يعني لقد عبرت الفردية الرومانتكية عن نفسها سياسيا أساسا فى فكرة الأمة . وتمثل هذه الفكرة مثلا آخر للتمرد الرومانتيكى ضد الاتجاهات التعميمية والنازعة الى « الكلية » فى فكر القرن الثامن عشر . ويتحدث الفيلسوف الألمـانى فيشته فى رسائل الى الأمة الألمانية (١٨٠٨) عن الشخصية الفردية للأمة ، وكان فيشته قد عدل عن نظرته العقلانية الباكرة واتبع نظرة رومانتكية الى المجتمع .

ولقد قام هردر بانماء هذه الفكرة قبل ذلك بسـنوات ، عندما اشترك فى شبابه فى رحلة بحرية من ريجا الى فرنسا . ولمح أثناء هذه الرحلة الخصائص المميزة لكل بلد ، واختمرت فى ذهنه فكرة الجماعة أو روح الجماعة (*) .

غير أن فكرة القومية تعرضت لتغير ملحوظ عند المفكرين الرومانتيكيين المتعاقبين . فبعد أن كانت فى البداية فكرة حضارية الى حد كبير ، اتخذت طابعا أكثر تأثرا بالسياسة ـ وبخاصـة فى ألمانيا من تأثير الامبريالية الفرنسية ، وبذلك بالاستطاعة وصف النزعة القومية عند هردر ـ مثلا ـ بأنها حضارية انسانية بحتة ، بينما اتصفت قومية فيشته التى ظهرت فى ظل اذلال فرنسا لبروسيا ، بأنها سياسية وحضارية معا ، وكان

(*) الجماعة Volk . روح الجماعة Volksgeist .

أعظم اسهام قدمه هردر لفكرة القومية هو تصور « الفولك » ، الذى كان مبنيا بدوره على فكرة الطبيعة . وكما يتعين أن نتذكر ، لم يكن ما تأثر به هردر فى الطبيعة هو انتظامها الآلى ، ولكنه تنوعها وثراؤها . وكتب يقول : « لقد وزعت الطبيعة خيراتها على أوجه شتى ، مرتبطة بالجو والثقافة . وعلينا أن نشعر بالرضا لأن الزمان ينبوع جميع الأشياء قد فاض الآن ببعض هباته ، ثم فاض بهبات أخرى من مكنوناته البشرية — على مهل — بكل مقوماتها وخصائصها العضوية » . ويمتد هذا التنوع فى اعتقاده — الى تاريخ الشعوب . ففى مجرى التاريخ ، اكتسبت كل « جماعة » طابعا فريدا أو روحا فريدة (*) ، تمثلت بصفة أساسية فى دينها ولغتها وأدبها . ولم تتألف الجماعة بناء على تعاقد ، أو تبعا لمشيئة انسان أو ارادته . لقد نمت كما ينمو الكائن العضوى ، وكما يتحول فى نهاية المطاف الى كيان حى مكتمل أعظم من الأعضاء التى يتألف منها . وعلى الرغم من تأييد هردر لمبدأ منح الحقوق الثقافية لجميع الشعوب — بما فى ذلك اليهود والسلاف — الا أنه وجه رسالته أساسا للجرمان ، فذكرهم بتراثهم الأدبى العظيم ، وضرب مثلا بذلك بما جمعه من أغنيات شعبية (**) ، وحث على التحرر من محاكاة النماذج الكلاسيكية والفرنسية، وأكد فتوة الحضارة الجرمانية ، وما ينتظرها من مستقبل باهر ، وباختصار لقد دعا الألمان لكى يعوا أنفسهم ويدركوا أنهم شعب فريد خلاق ، له دور مهم يشارك به فى صنع الحضارة .

تزودنا هذه الأفكار الاجتماعية والسياسية بمعبرة طبيعية الى التصور الرومانتيكى للتاريخ. ولم تبزغ التاريخانية الى الوجود متآنية مع الحركة الرومانتكية ، وان كانت هذه الحركة قد هيأت المناخ الصالح الذى تحتاجه لكي تنمو وتنتشر . ويصح القول بأن التاريخانية مظهر آخر للتمرد الرومانتيكى ضد النزعات التعميمية للتنوير .

وترجع كلمة تاريخانية (***) الى أواخر القرن التاسع عشر . فهى ليست كلمة رومانتكية ، ولكنها من قطافها ، ومنذ ظهورها ، اكتسبت العديد من مختلف المعانى ، بل المتناقضة . بيد أننا اذا أحسنا استعمالها ، سنرى أنها تعنى التغلغل المتعاطف الحق فى الماضى الى جانب الفكرتين التوءمين : التفرد فى الزمن والنمو . وفى أواخر القرن الثامن عشر ومشارف القرن التاسع عشر ، بدت هذه المعانى جديدة بالمقارنة بتصور التنوير للتاريخ .

(*) Geist

(**) Volkslieder

(***) Historismus وتترجم الى الانجليزية historicism .

ولا يخفى أن فكرة التغلغل الوجداني الرومانتيكي في التاريخ متضمنة في تصور المجتمع ككائن عضوى ، ولقد ذهب هذا التغلغل الى ما هو أعمق من مجرد الاهتمام بالتاريخ ، أو حتى بالاقتناع بوجود شيء ما في التاريخ يمكن أن يعلم . فلقد تساوى هذا التغلغل حقا هو ومعنى الورع والتقوى ، فلقد أدرك الرومانتكيون ، الذين كانوا يحيون في زمان سريع التغير ، حماقة الانقطاع كليا عن الماضي ، والوثوق في العقل المجرد أكثر من الاعتماد على التاريخ ، وتعلموا كيف يعظمون أسلافهم بدلا من الأسف لهم ، ورأوا في الأمة التاريخية مجتمعا باستطاعتهم تصوره كممثل لهويتهم ، حتى وهو مستمر في نموه ، وعرف عن ادموند بيرك هذا النوع من الورع ، فلقد انحاز لجانب « التواصل » و « ايثار العصور الغابرة » و « التقاليد العريقة » . وجميع هذه المصطلحات من الكلمات المحببة له . ولا وجود لامتداح للتاريخ يتماثل وهذه الجمل المقتبسة من كتابه عن الثورة الفرنسية (*) (١٧٩٠) :

« لعلنا نعرف نحن معشر الانجليز المحدثين أننا لم نكتشف شيئا ، وأنه من المتعذر اكتشاف شيء ما في الأخلاقيات ، أو اكتشاف الكثير في المبادىء الكبرى لفن الحكم ، أو تصور الحرية ، فقد أدركت هذه المعاني قبل مولدنا بأمد طويل ... فبدلا من أن نلفظ المعاني العريقة المستحوذة علينا ، فان من واجبنا أن نتعلق بها » .

وطرح هردر تصورا لهذه التاريخانية الجديدة في مقالين حظيا بأكبر قدر من الرواج . وفي المقال الأول الذى كتب ١٧٧٤ ، قارن التاريخ بشجرة تتفرع منها جملة غصون ، دائمة التجديد لنفسها . وكان هردر معنيا حينذاك بالتركيز على المواضع التى يزهو بها عصر التنوير ، والتى تزين منجزاته ، وأصدر أحكاما بالاطراء أو اللوم على العصور السابقة ، واستند في دفوع نقده على كاتب سويسرى مغمور (**) ألف قبل ذلك بعشر سنوات كتاب « تاريخ البشرية » ، ومجد فيه تقدم الانسان من الهمجية الى حضارة عصر التنوير ، وأعلن هردر « النسبية التاريخية » كمقابل للنظرة المؤمنة بالتقدم . واختلف عن الاتجاهات التعميمية للفلاسفة ، فاعتقد في تميز الحضارات والأفراد بالطابع الفردى . وقال : « لكل أمة . وأيضا لكل عصر ، مركز لسعادته مثلما يوجد مركز جاذبية لكل جرم سماوى » . وبناء على هذه الحقيقة ، لايصح القول بوجود معايير كلية للحكم . فاذا أردت حقا فهم أى بلد آخر ، أو قرن آخر ، عليك أن تتغلغل في أعماقه وأن تشعر به في داخلك . وهكذا رد هردر الاعتبار

(*) Reflections on the Revolution in France : Edmund Burke.

(**) Isaak Iselin.

لكل العصور والشعوب كالمصريين والفينقيين واليونان والرومان ، وأيضا للقرون الوسطى التى رفض أن ينظر اليها نظرة استعلاء وتباسط • وكان العصر الأوحد الذى لم يهتد هردر الى كلمة طيبة يقولها عنه هو عصره ، الذى رآه غارقا لأذنيه في الترف ، ومسرفا فى التعلق بالعقلانية والخضوع للآلية ، « التى يتوهم أنهـا مرادفة للحيوية » • وعندما كتب هردر هذه المقطوعة الباكرة لم يكن قد تحرر تماما من تأثير النزعة المتشائمة فى النظر للتاريخ عند روسو •

وكان أكثر عصور الماضى التاريخي استهواء للرومانتكيين هو القرون الوسطى • ولقيت عصور أخرى أيضا الثناء ، بما فى ذلك اليونان القديمة ، التى صبغها الشاعر الألمانى هيلدرلين مثلا بصبغة رومانتكية ، باعتبار اليونان من البلدان التى ما زالت قريبة الصلة بالطبيعة المقدسة • غير أن القرون الوسطى وحدها ـ التى تمتد حقبة طويلة وتضم فى صفوفها الشهداء المسيحيين في عهد ديوقليطس (*) في حد طرفيها ، وشكسبير وميلتون فى الطرف الآخر ـ هى التى بمقدورها الهام حركة حضارية فى حجم حركة الاحياء القوطى • وتضم هذه الحركة كل ميدان من ميادين الفكر تقريبـا : ١ ـ الفكر الدينى (المدافعون عن المسيحية من أقران شاتوبريان ، وحركة اكسفورد فى انجلترا) • ٢ ـ الكتابة التاريخية (كالدراسات الرائعة للغزو النورماندى ودوقات بورغونيا والصليبيين ، التى كتبها بعض المؤرخين الرومانتيكيين) (**) • ٣ ـ القصة والرواية (وعلى الأخص روايات والترسكوت وهيجو وشاتوبريان ، التى قـرأها الجميع بما فى ذلك المؤرخون) • ٤ ـ الفن والعمارة (بما فى ذلك دور البرلمان التى وضع تصميمها سير تشـــارلز بارى بعد نشوب الحريق ١٨٣٤ ، والكثير من الكنائس القوطية الجديدة التى أشرف على بنائها المهندس المعمارى الانجليزى ولبى بوجين) • وألهمت حركة اعادة احياء القوطية أيضا عملية ترميم العمارة الوسيطة ككاتدرائية كولونيا ومجموعات اللوحات الفنية الوسيطة والوثائق التاريخية • والدراسات الباكرة فى التاريخ الجرمانى (***) ، المشروع المعزز المحبب الذى ظهر حديثا (١٨١٩)، من أمثلة هذا الاتجاه الأخير•ولم تنفرد المسيحية بأسر انتباه هردر • فقد انبهر أكثر من ذلك بالعصور الوســطى الجرمانيـــة ، وبالحركة الفتية

(*) Gaius Aurelius Diocletianus واسمه فى الأصل Diocles صعد الى مرتبة قائد جيش الامبراطور الرومانى نومريان • واختاره الجيش بالقرب من نيقوميديا فى نوفمبر ٢٨٤ ق•م• للانتقام لمقتل مليكه • وانتصر فى معركة مارجوس ، وأثبت حنكـــة عندما عفا عن أعـدائه •

(**) كالأخـــوة Thierry و de Barante

(***) Monumenta Germaniae Historica.

التى ارتادها القوطيون والانجلوساكسون والفرنجـة وآخرون ، والتى نشطت وبثت روحا جديدة فى حضارة اعتراها الوهن • ولم يأت هردر بجديد عندما وصف العصور الوسطى فى المانيا « بالعصر المتفرد » ذاته فقد تميز نوفاليس بروح مثالية أعظم عندما تصور القرون الوسطى كمثل أعلى لجميع العصور باعتبارها العصر الأعظم للايمان ، ولما تمتعت به من وحدة ، وما اكتنفها من أسرار « واحساس بالقدسية »، وتبخرت كل هذه المميزات فى عصر التنوير الذى خلفها • وغالبا ما صورت العصور الوسطى كعصر ذهبى للفروسية ـ العصر الذى أصبح مهددا بالغزو الصناعى ـ وأيضا كعصر الحرفية والذوق السليم •

وركزت بقدر أكبر المقالة الثانية لهردر ، وهى الأطول ، ولم يتمها : تأملات فى فلسفة التاريخ (١٧٨٤ ـ ١٧٩١) ، وأفاضت الكلام عن معنى التقدم مثلمـا ركز المقال الأول على الاتجاه الجديد للنزوع نحو الروح الفردية (الفضـائل التى تتميز بهـا كل أمة ويتميز بهـا كل قرن) والنسبية ، وتحدث هردر فى هذا المقال « عن تربية البشر » • وتطلعه نحو الروح الانسانية (*) • ويقصد هردر بهذا المصطلح « الماهية الجوهرية للانسان » وتكوينه السامى ، الذى يضـم العقل والحرية والأحاسيس والنوازع الرفيعة المقام ، بما فى ذلك تعاطفه على الآخرين ، الذى وصفه هردر « بأنه ليس شـيئا جاهزا فى النفس ، ولكنـه قابل للتحقيق (بالقوة) » • وأخيرا استبعد هردر من مذهبه روسو ، واتجه بدلا من ذلك الى مقارنة التاريخ بسلسلة مؤلفة من حلقات مترابطـة بالضرورة « بملحمة الله عبر العصور وجميع القارات والأجيال » • ولا يصح وصف هذا التصور بمذهب فى التقدم ، بالمعنى الذى فهمه عصر التنوير على أقل تقدير • واستمر بقاء أثر من روسو لكى يدفعه للتشكك فى امكان التقدم نحو دولة ما فى المستقبل تتسم بالكمال ، « فالنزعة الانسانية » بمثابة قيمة أو مبادىء هادية ، تقترب منها كل حضـارة بالقدر الذى يناسبها ، ولعل هذا المثل لا يقبل التحقق بصورة كاملة عند أية حضارة على الأرض ، وفوق كل هذا ازداد هردر فى هذه الحقبة اتجاها نحو تصور وجود هدف ما ، وطريقة التقدم نحو هذا الهدف ، بعد أن أدرك بطريقة أكثر اكتمالا الجانب النامى (التطورى) فى التاريخ ، وكيف يبدل التاريخ من مظهره كانه « بروتيوس الأبدى » ، وكيف يحمل كل شعب فى جعبته ما حدث من قبل ، وان كان يحاول التفوق على ما يتعرض له من أحداث ، حتى يزداد اقترابا من غاية « الروح الانسانية » ، بما يتناسب معه • وكان هردر قد ذكر بالفعل فى المقال الأول ، وهو يشعر بالدهشة :

(*) Humanintaet

« ان ما يحدث يعد تقدما صحيحا وتطورا متواصلا ... ويصح أن يوصف بالصيرورة فى أوسع نطاق لها . وأثمرت «التاريخانية» عند من جاءوا بعده من مفكرين ، وبصورة واضحة عند هيجل . فبرغم اختلافاته الحقيقية والمهمة عن هردر الا أنه استطاع استيعاب نظرته ، وتقديمها فى صورة مذهب . ففى فصل بعنوان « مبدأ التطور » فى كتابه محاضرات فى فلسفة التاريخ ، عقد هيجل مقارنة بين التاريخ والطبيعة . فليس فى وسع الطبيعة الا تكرار نفسها ، بلا نهاية . (ولا يخفى أن هيجل لم يتبع أية نظرة رومانتكية الى الطبيعة) ، ومن جهة ثانية اعتقد هيجل أن التاريخ لا يتصف بالسكون اطلاقا ، فبحكم تميزه بالتغير ، وتجدده الدائم ، وتقدمه نحو تحقيق الكمال ، فان طبيعته ما زالت « لم تتحدد » . وعند هيجل ، تجسم الروح نفسهــا تاريخيــا فى الجزئى ، يعنى فى روح الجماعة (*) .

اعتادت التاريخانية الرومانتكية تفسير التاريخ بارجاعه الى الفاعلية « الروحانية » المقابلة للقوى المادية ، فقال كارلايل ــ مسايرا اعتقاده بان الروح تعمل من خــلال الأبطال ، وبذلك تشــكل مسار التاريخ : « ان الروحانى هو الذى يحدد المادى دائما . وما تاريخ العالم الا سير عظماء البشرية » ، الذين استمر كارلايل يصــفهم فى محاضراته عن « الأبطال وعبادة البطولة » (**) « بأنهم مبعوثون الى العالم » . ومع هــذا فلم يتماثل البطل عند كارلايل مع صورة الدمية عند هيجل ، أى لم يتخذ معنى « الفرد التاريخى العالمى ، الذى يدور حوله دائما موضوع التاريخ أكثر من كونه الذات الفاعلة فيه ، ويسخره (مكر العقل) لتنفيذ ما يريد وفقا لمشيئته » . فالبطل عند كارلايل يبرز كفرد خلاق ملهم من عل ، ولكنــه ليس خاضعا لحتمية ما ، لأن أفكاره وأفعاله تصــنع التاريخ أو توقفه . وكان رد فعل كارلايل أشـــد قوة ضد الحتمية المفروضة من الجوانب المتدنية . اذ أصر على القول : « بأن الانسان سليل قوة عليا ، وليس عبدا للظروف وللضرورة ، ولكنــه القــاهر الظافر بحكم انتمائه للسماء » . وليس لدى الرومانتكيين أى أثر من آثار النزعة البيئية التى روجها عصر التنوير ، والتى جنحت الى تشويه سمعة الأبطال ، ووصفتهم بأنهم « صنائع الظروف » أو المؤثرات الاجتماعية .

وعندما نتأمل ما جاء فى أعقاب الرومانتكية ، فاننا نرى أنها حققت دورا ربمــا فاق الأهمية التى تزعم عنهــا ، وعلى الرغم من محو بعض معتقداتها ، الا أنها وضعت خاتمها الدائم على العالم الحديث . وترجع

(*) Volksgeist.

(**) On Heroes and Hero-worship

عصريتها الى أنها فوق كل شيء قد كانت على دراية بالصيرورة · اذ كان الرومانتكيون يعون بقدر أبعد مما شعر به « فلاسفة التنوير » انهم يحيون في عـالم لا يكف عن التغير · ولقد قال كارلايل مستشهدا بشيللر : « ليست الحقيقة كينونة ثابتة · انها فعل مستمر » (*) ، غير أنه بالنسبة لكارلايل ومعظم الرومانتكيين لم يكن هذا التصور غالبا نذيرا مفزعا بقدر كونه نذيرا محذرا ، ويستطرد كارلايل ويقول : « لا شيء في التغير مصدر ازعاج · فالأمر على عكس ذلك تماما ، لأن التغير يكمن في جوهر نصيبنا في الحياة على هذا الكوكب » · فلم يكن التغير قد بدأ يتخذ مظهرا مفزعا ، لأنه كان بالامكان ربط الصيرورة بالكينونة ، وان لم يلزم أن يكون ذلك باتباع السبل التقليدية · أو لعل الأدق هو القول بأن ما حدث في العصر الرومانتيكي كان من بشائر الهوية بين الكينونة والصيرورة ، بمعنى عدم امكان تكشف الحقيقة الا في عالم دائم التغير ·

(*) :immer Wird, nie ist.

المراجع

M. H. Abrahms, The Mirror and the Lamp : Romantic Theory and the Critical Tradition (1958).

M. H. Abrambs, Natural Supernaturalism : Tradition and Revolution in Romantic Literature (1971) .

J . S. Allen, Popular French Romanticicm : Authors, Readers and Books in the Nineteenth Century (1981).

I. Berlin, Vico and Herder : Two Studies in the History of Ideas (1976).

K. Clark. The Romantic Rebellion 1863.

J. Engell, The Creative Imagination : Enlight-enment to Romanticism 19٢1.

H. C. Hatfield. Aesthetic Paganicm in German Literature from Winckelmand to the Death of Goethe 1964.

G. G. Iggers The German Conception of History : The National Tradition of Historical Thought From Herder to the Present Day (1968).

H. M. Jones, Revolution and Romanticism (1974).

J. J. McGrand, The Romantic Ideology : A Critical Investigation 1983.

H. Peyre. What is Romanticism ? (1986).

P. Santon, Pugin, 1971.

J. E. Toews, Hegelianism : The Path toward Dialectical Materialism 1805-1841. (1980).

W. Vaughen, German Romantic Painting (1982).

A. Walicki Philosophy and Romantic Nationalism : The case of Poland (1982).

C. Welch, Protestant Thought in the Nineteenth Century (1972-1985).

R. Welhk. Concepts of Criticism (1963).

المرأة ، عملها وأسرتها فى أوربا القرن التاسع عشر

جـوان • و • سكوت ـ لويز • أ • تيللى

يحيط بفهمنا لتجربة المرأة فى القوة العاملة فى القرن التاسع عشر قدر كبير من الاضطراب • وكثيرا ما يزعم أن النساء القابعات فى دورهن كن تشتغلن بأعمال غير منتجة ، وأن تحول المرأة من البيت الى نوع ما من اماكن العمل الرسمية قد أدى الى حدوث تغير اجتماعى حاد نسبيا ، والواقع ، أن الملامح البارزة للتجربة الاقتصادية والاجتماعية للنساء اللاتى اجتذبن اساسا للخدمة المنزلية وصناعة الملابس والمنسوجات قد تكشفت فى نقلهن مظاهر من التقاليد الريفية من قيم وممارسات وتراكيب اجتماعية الى الأوضاع المدنية والصناعية الجديدة •

وكانت اقتصاديات الأسرة هى اهم مجال مارست فيه المرأة نشاطها قبل نزوحها الى المدينة ، وما تلا ذلك • اذ كانت النسوة يمارسن فى المناطق الريفيه عددا كبيرا من المهام الاقتصادية داخل دورهن • ولربما عملن فى مرحلة صباهن وبلوغهن الى كسب العيش لكسب اجر يضـاف الى ايراد الوالدين • وقد يدخرن ايضا جانبا من اجرهن للاستعانة به فى دوطة الزواج • وبمجرد زواجهن ، كن غالبا تواصلن العمل فى دورهن وفى اعمال الحياكة والغزل ، الى جانب رعاية اطفالهن • وكثيرا ما اضطلعت المرأة بمسئولية ادارة المسائل المالية المنزلية •

ونقلت النساء بعض هذه المهام الى المدينة • اذ كانت اغلبية النسوة من المشتغلات بالخدمة المنزلية وحياكة الثياب وصناعة المنسوجات صغيرات فى السن ، ووحيدات • فقد كن من بنات أسر ريفية ، ومن ثم كان من السهل اعفاؤهن من اعمال الفلاحة ، وانتقلن عن طريق الأنواع الثلاثة للعمالة الى حياة تسودها الأوضاع السائدة فى « البيوت » • وكانت الفتيات

(★) نقلا عن Comparative Studies in Society and History (Vol. 17)
من ص ٣٨ ـ ٤١ ـ ومن ص ٤٢ ـ ٦٤ تأليف Joan W. Scott, Louise A. Tilly

اللواتى يكنفن بأعمال من هذا القبيل يحولن جانبا من اجرهن الى البيت لكى يضاف الى دخل الأسرة • ولربما ادخرن بعض المال ، استعدادا لمواجهة مطالب الزواج فى نهاية المطاف • أما نوع العمل الذى ينجز فى الخدمة المنزلية أو فى حياكة الثياب أو فى النسيج فكان من نوعية الأعمال التى جرت العادة على نهوض المرأة الريفية به • وعندما تتزوج الفتاة النازحة من الريف الى المدينة للعمل بها ، فانها تتخلى عادة عن العمالة • ولكنها لا تتوقف عن العمل توقفا تاما • فأثناء رعايتها لأطفالها ، فلا بأس من أن تشارك بالعمل نصف الوقت ، كان تشتغل فى معظم الأحيان بالحياكة ، مما يساعدها على الاسهام فى اقتصـاديات الأسرة دون انقطاع عن أداء واجباتها المنزلية •

وعلى نهاية القرن ، تأثرت التجربة الاقتصادية وعمل النساء بالكثير من القيم الفردية المنزع ، ولكن التجربة المبدئية للنسوة اللاتى اشتركن فى ميدان العمالة عكست قدرا ملحوظا من استمرارية القيم والممارسات التى انتقلت من الحياة الريفية الى حياة المدن •

كانت النساء اللواتى اشتركن بالعمل فى أعداد كبيرة فى القرن التاسع عشر ينتمين بأعداد كبيرة الى الطبقات العاملة والريفية • وشغلت معظمهن وظائف فى الخدمة العامة وحياكة الملابس ، أو صناعة المنسوجات • وفى انجلترا ١٨٤١ وحتى ١٩١١ ، عكفت معظم النسوة العاملات على أداء الأعمال المنزلية ، أو على خدمة أشخاص آخرين • وفى ١٩١١ ، بلغت نسبة المشتغلات فى الخدمة المنزلية (بما فى ذلك الغسالات) ٣٥٪ وفى صناعة النسيج ١٩٪ وفى تجارة الملابس ١٥٫٦٪ • وفى ميلانو طبقا لما جاء باحصاءات ترجع الى السنوات ١٨٨١ و ١٩٠١ و ١٩١١ ، تركز عمل النساء بالمثل على الاشتغال بالمنازل • وجاءت أعمال حياكة الملابس فى المرتبة الثانية ، وتركز العمل فى النسيج بدرجة أقل مما حدث فى انجلترا، وبالمثل فى فرنسا، مع استبعاد الاشتغال بالزراعة ،كانت الميادين الرئيسية لاشتغال المرأة هى العمل فى النسيج وحياكة الملابس والخدمة بالمنازل • وفى فرنسا ، شغلت ٦٩٪ من النساء العاملات ــ خارج الزراعة ــ هذه الميادين الثلاثة ١٨٩٦ فكانت نسبة المشتغلات خادمات بالمنازل ٢٨٪ ونسبة المشتغلات بالحياكة وصناعة الملابس ٢١٪ والمشتغلات بالنسيج ٢٠٪ • وحدث تحول فى النسب آنفة الذكر ١٨٩٦ • ولكن كان المجموع الكلى ٥٩ ٪ موزعـا كالآتى : المشـتغلات بالمنـازل ١٩ ٪ والحيـاكة ٢٦ ٪ والنسيج ١٤٪ •

وعلى الرغم من الاختلاف الكبير فى معدلات التصنيع بين انجلترا وفرنسا وايطاليا ، الا أن الدلائل تشير الى أن النساء فى الحالات الثلاث

لم تشتركن في أعمال المصانع (باستثناء مصانع النسيج) ـ بأعداد كبيرة ٠ والأرجح هو أن التغيرات الاقتصادية والاجتماعية التي صحبت التطور الذي نجم عن ازدياد المدن وانتشار الصناعة قد خلقت فرص عمل في القليل من القطاعات التقليدية ، التي شغلت فيها النساء أعمالا شبيهة بأعمالهن في المنزل ٠ وضمت التغيرات الاقتصادية التي أدت الى ارتفاع نسبة العمالة بين النساء ، ما حدث من تصنيع للمنسوجات ، والتطور الذي أدى الى الاكثار من انشاء المدن ، وما يصحبها من أوضاع جعلتها تعمل في أعمال الانتاج وتسويق السلع الاستهلاكية ، وكمواقع لتشغيل الخادمات بالمنازل٠ وتضمن التوسع في انتاج السلع الاستهلاكية تزايد الصناعات الكبيرة للملابس بالقطعة ، وانتقل الانتاج من ورش الحرفيين الى بيوت المشتغلين بحياكة الملابس « المفصلة » ٠ وخلق هذا التغير في عملية الانتاج فرص عمالة لأعداد كبيرة من النساء ٠ وأدى ما أعقب ذلك من تدهور لهذه الطريقة في انتاج السلع الجاهزة ، واحلال منتجات المصانع محلها ، بالاضافة الى تدهور صناعة المنسوجات وتقدم الصناعات الثقيلة ، أدى الى حدوث هبوط في اشتراك المرأة في القوة العاملة في البلدان الثلاثة التي أشرنا اليها ٠

ولم تكن الوظائف الميسورة للنساء محدودة في عددها ونوعها فحسب، ولكنها كانت أيضا منعزلة ، بمعنى أنها كانت تقتصر في شغلها على النساء على وجه التقريب ٠ وكانت النساء شاغلات هذه الوظائف عادة من صغيرات السن ، ومن غير المتزوجات ، ففي ميلانو ، كان ٧٥٪ تقريبا من النساء بين سن الخامسة عشرة والعشرين يعملن ١٨٨١ و ١٩٠١ ٠ وانخفض عدد الاناث اللواتي تجاوزن سن العشرين المشتغلات في صناعة النسيج ، والملابس الجاهزة ، ويفترض أن هذا يرجع الى زواجهن عند بلوغ هذه السن ، وتوقفهن عن العمل ٠ وكانت المهنة الانثوية الوحيدة التي بلغت نسبة لا بأس بها (٥٠٪ وأكثر) للعاملات اللاتي تجاوزن الثلاثين هي الخدمة بالمنازل ٠ وكانت معظمهن من العازبات ٠ وفي بريطانيا العظمى ، يلاحظ وجود أنماط نسبية مماثلة في البينات الميسورة المتفرقة ، اذ كانت سن أغلب النساء العاملات في مغازل القطن بلانكشير ١٨٣٣ (ما بين ١٦ و ٢١) ٠ ولم يتجاوز عدد المتزوجات بينهن ٢٥ ٪ في مقاطعات لانكشير ١٨٤١ ، ويزعم هويت حدوث زيادة في النسبة اما بين المتزوجات أو الأرامل بين العاملات في مغازل القطن ارتفعت أحيانا في تسعينات القرن التاسع عشر ، ثم انخفضت بعد ذلك ٠ أما العاملات الأقل تخصصا في لندن في ثمانينات القرن التاسع عشر ، فقد بلغت سنهن أساسا بين ١٥ ، و ٢٥ سنة ٠

وعندما اشتملت أعداد الاحصاءات في آخر الأمر على بيانات عن الحالة الاجتماعية (الزواج) لوحظ بعض اختلافات كبيرة بين مختلف

البلدان • ففي ١٩١١ ، بينما بلغت نسبة العاملات بين النساء العازبات في بريطانيا ٦٩٪ ، لم يزد عدد العاملات من المتزوجات عن ٩٫٦٪ • أما في فرنسا ١٨٩٦ ، فكان بها ٥٢٪ من النساء العازبات يعملن ، و ٣٨٪ من المتزوجات • وعلى الرغم من اتصاف الأدلة المتوافرة لنا بأنها انطباعات متناثرة ، الا أنه يبدو أن قلائل من النساء قد ظللن يعملن بعد انتشار التصنيع وتقدمه (على الأقل في الفترة السابقة لسنة ١٩١٤) • وهكذا كان في بريطانيا البلد الأكثر تقدما في الصناعة ١٩١١ أدنى نسبة من النساء المتزوجات العاملات • أما فرنسا ، وفيها كانت الزراعة والصناعة خاضعة للتنظيم على نطاق أضيق من الحال في بريطانيا ، فكان فيها عدد أكبر من النساء العاملات في سوق العمالة •

فلماذا كانت النساء تعملن في القرن التاسع عشر ؟ ، ولماذا كانت الغلبة للصغيرات في السن والعازبات في العمالة الأنثوية ؟ للاجابة عن هذين السؤالين لابد أولا أن نفحص العلاقة بين هؤلاء النسوة وعائلاتهن الأصلية (العائلات التي كن تنتمين اليها لدى مولدهن) ، وليس عائلاتهن بحكم الزواج ، أو العائلات التي تكونت بعد انجابهن • وعلينا أن نتساءل (ليس فقط عن طبيعة نظرة الأزواج الى اشتغال زوجاتهم) وانما أيضا عما دفع الأسر الى الزج بفتياتها الى سوق العمالة كعاملات في حياكة الملابس أو خادمات بالمنازل •

لقد كان آباء وأمهات أمثال هؤلاء الفتيات أثناء فترة التصنيع غالبا من القرويين والقرويات ، وفي حالات أقل من العمال بالمدن • وعندما نفحص الأصول الجغرافية والاجتماعية لخدم المنازل اللاتي تمثلن أكبر نسبة في مجموع النساء العاملات ، سيبين الأصل القروي واضحا • اذ كان ثلثا جميع خادمات المنازل في انجلترا ١٨٥١ ، من بنات عمال يعملون في الريف • وليس لدينا أرقام عن مجموع المشتغلات في فرنسا ، وان كانت الدراسات المحلية توحي بتماثل الأنماط • فمثلا لقد اهتدى شاتلين(*) في دراسة لميلون الى أنه ما بين ٥٤٪ من خادمات المنازل (١٨٧٢) كن اما نازحات من مناطق قروية أو أجنبيات • وقدرت احدى الباحثات في بحث أجرته عن فرساي في الحقبة الواقعة بين ١٨٢٥ و ١٨٥٣ ، عدد النساء الخادمات من بنات الفلاحين بـ٥٧٫٧٪ • وفي بوردو ، بينت دراسة مماثلة أن مجموعهن ٥٢٫٨٪ • وفي ميلانو في نهاية القرن ، كان الأبعد احتمالا هو أن تكون الخادمات منحدرات من أبوين ترجع أصولهم الى المدينة • ولنحاول الآن تمثل التجربة التاريخية للنساء العاملات ابان المراحل الباكرة للتصنيع • فلما كانت الاكثرية من المنتميات أصلا الى الريف ، فاننا سنبدأ

(*) Chatelain

بفحص اقتصـاديات القرية أو اقتصـاديات الأسرة التى دفعتهـا قيمهـا واحتياجاتها الاقتصادية الى الزج ببناتها الى سوق العمالة .

ولقد عرض المعقبون على أحوال العديد من مختلف المناطق فى أوربا أوصافا مماثلة للتنظيم الاجتماعى للقرى . والظاهر أن هناك اتفاقا بين علماء الانثروبولوجيا والمؤرخين الاجتماعيين على الاعتقاد بأنه بغض النظر عن ناحية الانحدار من الريف « فان الفلاحين يمثلون وحدة اجتماعية سبقت الصناعة ، ونقلت الى المجتمع المعاصر خصائص ترجع الى تركيبة ثقافية واجتماعية واقتصادية أقدم وأبعد اختلافا» .ويعد أصل التنظيم هو الأسرة، « التى ساعد تضامنها على التزويد بالاطار الأساسى للتعـاون المتبادل والتوجيه واعطاء الصبغة الاجتماعية » . ويتركز عمل الأسرة عادة فى الحقل الذى تملكه الأسرة ، ويعتقد أنه يخص جماعة من الأشخاص أكثر من انتمائه لشخص بمفرده . « فهناك وحدة خفية تجمع بين الفرد والأسرة والحقل . والملكية الفلاحى هى بحكم الواقع ملكية أسرية ، يقوم فيها رأس الأسرة بدور المدير أكثر من تمثيله دور مالك أرض الأسرة » .

ونحن نصادف ترديدا لأوصاف فلاحى أوربا الشرقية عند ميشيل أندرسون عندما قارن الحياة الفردية بلانكشير بالحياة الفردية فى ايرلاندة فى بواكير القرن التاسع عشر ، وأشار الى أنه فى كلا الحالين كان « أساس التضامن الأسرى الوظيفى هو تبادل الاعتماد المطلق بين أعضاء الأسرة ، بحيث لا يتصور الآباء أو الابناء وجود بدائل للأسرة كمصدر للتزويد بعدد مهم من الاحتياجات الضرورية . وتؤيد الأدلة المستقاة من ايطاليا هذا النمط . وعلى الرغم من أن لومبـارديا فى أواخر القرن التاسع عشر كانت تمثـل نوعا من الاخـوانية (*) (يعنى الحـالة التى يشترك فيهـا الاخـوة داخـل الأسرة فى العيش والعمـل فى الأرض سويا) التى كانت بمثـابة بديل شـائع لأصـغر صـورة من صـور الأسرة ، الا أن الأسرة المألوفة كانت هى الوحـدة الأساسية للانتـاج . ويساهم كل عضـو من أعضـاء الأسرة بما فى مقـدوره الاسهام به من عمـل فى الحقل . وفى حالة النساء والنشء ، بالعمل فى مناطق مدنية قريبة أو فى مصانع النسيج بالريف . وتحول أجورهم وأجورهن الى رأس البيت أو الأسرة . وفى حالة الاخوة الذين يعيشون فى بيت واحد ، يعهد للاكبر سنا بدور الرأس المدبرة ، والعناية بالمسائل المالية وعلاقات التعاقد ، لصالح الكل . ووصف جوبيس (**) فى دراسة حديثة للأوضاع فى نورماندبا فى القرن الثامن عشر التطور التدريجى للأسباب التى كانت تساق عند طلب الزواج ، عندما كانوا يلجأون الى اتمام اجراءاته فى الكنيسة . ففى نهاية

(*) Frererche

(**) Gouesse

هذا القرن ، ازداد شيوع عبارات مثل « سعيا وراء السعادة » أو الرغبة فى العيش حياة هنيئة • ويرى جوييس ان اختلاف الكلمات المستعملة ربما كان مسألة سطحية • أما ما عنته جميع هذه الاقوال ـ رغم أن قلائل قد بينوا ذلك صراحة ـ فهو أن الشخص يتزوج لكى يعيش• فالزوجان يمثلان جماعة عمل ، أى أصغر وحدات العمل • وفى بريتانيا فى القرن التاسع عشر « كان جميع العاملين فى الحقل يؤلفون جماعة عمل ، يرتبط كل منهم بالآخر برباط أشبه بالرباط الذى يجمع طاقم السفينة » •

وعلى الرغم من اختلاف أنظمة الميراث واختلاف مساحات الأرض الميسورة ، فان نظرية الاقتصاد الفردى التى وضعها شايانوف لروسيا فى القرن التاسع عشر مازالت صالحة للتطبيق فى حالات أخرى • وأساس هذا النظام هو الأسرة الروسية ، أو اذا توخينا الدقة قلنا انه بيت الأسرة فى روسيا ويعنى (جميع من يأكلون فى طبق واحد) • ولهذا البيت الأسرى دور مزدوج بوصفه وحدة انتاج واستهلاك • اذ تتركز دوافع أعضائه ـ بعكس الأهداف الرأسمالية ـ « على توفير احتياجات الأسرة أكثر من تركزها على تحقيق الربح » • وتدور المشكلة الأساسية للأسرة حول تنظيم عمل أبنائها لتدبير ميزانيتها السنوية وحول رغبة واحدة لادخار رأس المال، أو استغلاله ، اذا سمحت الظروف الاقتصادية بذلك •

ولأبناء الأسرة ، أو بيت الأسرة واجبات محدودة واضحة تستند أولا ـ على أعمار أبناء الأسرة وبناتها وموضعهم وموضعهن فى الأسرة • ثانيا ـ على ذكورتهم أو أنوثتهن • اذ لا يقتصر الأمر على تخصيص مهام مختلفة لهم ولهن • فهناك اختلاف فى مكان العمل الذى يخصص لكل جنس ، ففى أغلب الأحيان ـ وان كان هذا ليس دوما على الاطلاق ـ يعمل الرجال فى الحقول ، بينما تدير النساء البيت وتتولين تربية الأنعام ورعايتها ، وتشرفن على الحديقة ، وتتولين تسويق الفائض من الناتج اليومى والدواجن والخضروات • ولديهن عمل موسمى أيضا فى مواسم الزراعة والحصاد • وعبر أحد عمال البناء فى احدى قرى فرنسا عن الشروط التى يرغب توافرها فى زوجته فى العبارات الآتية :

« نحن نعرف أن هناك بلدانا تتزوج فيها المرأة ، وتأمل أن يقتصر عملها على العمل بالبيت ، غير أن فرنسا لا تعرف أى شىء من هذا القبيل ، والأمر على عكس ذلك ، فزوجتى تتماثل هى وباقى الزوجات فى الريف ، لانها نشأت على العمل فى الحقل من الصباح الباكر حتى المساء • ولم تتناقص مقطوعية عملها بعد زواجنا •• » •

وليس من شك أن زوجات البنائين من أمثال زوجة صاحبنا البناء الذى تحدثنا عنه ، كان لهن وضع خاص • فبعد أن رحل أزواجهن لفترات زمنية

طويلة لبناء المنازل فى ليون وباريس ، فلقد اضطررن لأداء جميع المهام الزراعية اليومية ، لأن نظام تقسيم العمل فى قريتهن كان يقضى بنهوض النساء بأغلب الواجبات الزراعية ، واشتغال الرجال بدور الحرفيين فى المدن ٠ وكان عمل النساء فى الحقول بالغ الأهمية مما دفع أسرة أحد سكان القرية فى مناسبة ما الى محاولة تزويجه بفتاة كانت أمها أرملة ، واعتقدت الأسرة أن تحقيق هذه الفكرة سيكسب حقلها جهد عرق اثنين بدلا من واحـدة ٠

على أنه رغم تفرد المثل الذى ذكرناه ، الا أن القاعدة السائدة فى الاقتصاديات القروية كانت تنص على اضطلاع النساء بالعمل فى الحقل ٠ ويبين من تقرير أعمال الفلاحة فى النرويج(*) فى منتصف القرن التاسع عشر عن الحاجة لجهود النساء كعاملات تتمتعن بخبرة فائقة ، وغالبا ما كان الشباب يختار نساء يكبرونهم سنا كزوجات٠وكتب زونت : « يعتمد التقدم المادى للأسرة على الزوجة بقدر اعتماده على الزوج » ٠ وعنـدما وصف فردريك لى بلاى(**) عادات الزواج عند القرويين السلافيين لاحظ : « ان الفلاح يراعى عند اختيار الزوجة صلاحيتها لزيادة عدد الأيدى العاملة فى الأسرة » ٠

ولم يقتصر عمل المرأة على الحقل ، بل كن تقمن بمختلف الأعمال التى تعتمد على ما باستطاعتهن تأديته ٠ وامتد نشاطهن فى أغلب الأنحاء فشمل مهمة توفير الغذاء أو القوت للبيت وتربية الماشية وصناعة الملابس ٠ وبالاستطاعة العثور على أسانيد مؤيدة لذلك فى جميع الدراسات المعتمدة على المشاهدات الخاصة ، والتى تحدثت عما يجرى داخل الأسرة مثل كتاب لى بلاى ، الذى روى حكاية زوجة عامل فى مزرعة للكروم « تركزت مهمتها الأصلية على رعاية البقرة التى تملكها الأسرة ٠ فكانت تجمع الدريس وترعاها ، وتحمل لبنها الى المدينة لبيعه٠وهناك زوجة أخرى « كانت تعمل مع زوجها أثناء مواسم الحصاد ، وتغسل الملابس ، وتشارك فى أعمال أخرى للفلاحين وملاك الأراضى فى المزارع المجاورة » ٠ وكانت تنسج الكتان أيضا لأسرتها ، وتبيعه فى السوق ٠ واتجهت نساء أخريات الى حياكة القفازات أو الملابس ، وركزت بعضهن على أعمال التمريض ٠ وفى المناطق المحيطة بمدينة ليون الشهيرة بصناعة المنسوجات الحريرية ، تولت المرأة عملية تربية دودة القز ، وشاركت فى غزل الحرير ٠ وفى لومبارديا بايطاليا شغلت المرأة بالمثل فى عملية تغذية دودة القز فى موسمها ، فى نفس الوقت الذى كانت تؤدى فيه واجبها فى البيت الأسرى ٠ وتعد الأعمال من هذا القبيل من الظواهر التقليدية لتعزيز دخل الأسرة ٠

(*) تقـرير Eilert Sundt

(**) Les ouvriers européans — Le Play. (٦ أجـزاء)

ويصر لى بلاى على ادراج جميع أنشطة أبناء الأسرة فى بحوثه الخاصة بمواردها المالية ، استنادا « الى اسهام جميع الأنشطة الصغيرة التى تنهض بها الأسرة فى استكمال دخل عمالتها الأساسية » • وكثيرا ما يلاحظ اضطلاع النسوة « بمهام أشق من المهام التى تعهد للرجال ، وحرصهن على تحقيق الرفاهية للأسرة » وغالبا ما يثبت وجود المرأة الفارق بين الاقتراب من الجوع فى حالة عدم وجودها ، وتوفير الحياة الكريمة نتيجة لمشاركتها • وقدم بنشبك(*) تقريرا أعدته احدى الابرشيات عن المرأة القروية،وعن كيف كانت تعجز عن العثور على عمل أثناء الأزمات « مما أصابها بحالة من اليأس والشعور بالعجز لعدم قدرتها على الاسهام بجهد يساعد على تعزيز دخل الأسرة ، والاحساس بالمرارة ، لأنها لم تقدم لزوجها أية خدمات خلاف رعايتها لأسرته فحسب » •

والظاهر أن موقفا مماثلا قد ساد بين الأسرة غير المشتغلة بالزراعة ، وبعض الأسر المقيمة فى المدن • والواقع أن ما ذكره شايانوف عن الاقتصاد الريفى يبدو مناسبا للتعريف بالخصائص المميزة لتنظيمات الطبقة الاجتماعية فى البيئات السابقة للصناعة • وتحدث بيتر لاسلت(**) عن بيت الأسرة كمركز للانتاج ، عندما لم يكن محل العمل منفصلا عن البيت ، وكان البيت هو المقر الدائم لجميع أفراد الأسرة • فمثلا فى بيت أحد النساجين ، كان الاطفال يتولون عمليات التمشيط والتنجيد ، بينما تقوم الفتيات الاكبر سنا والزوجات بعمليات الغزل ، ويتولى الأب عمليات النسيج • وفى بيوت العمال العاملين بالمدينة كثيرا ما يحدث تقسيم عمل مماثل • فمثلا عند عمال المغاسل فى باريس ، يتوقع قيام جميع أفراد الأسرة بالعمل ، وان كانت النسوة تنفردن بمسئولية « تحضير الصابون » والكى • والواقع أن هذا النوع من المهام ، كان يؤدى على خير وجه سواء تولاه الرجال أو النساء • وكثيرا ما كان الوالدان يوصيان فى وصيتهما بأن تؤول محالهم وزبائنهم لبناتهم ، مثلما يوصون بتوريثها لأبنائهم • وتساعد زوجات الحرفيين أزواجهن أحيانا فى عمليات الحياكة وصنع الأحذية والخبازة ، وأحيانا كن يدرن المحلات ويتولين بيع السلع واجراء الحسابات• وعملت زوجات العاملين المهرة فى أدوات القطع كوسيطات بين أزواجهن وأرباب عملهن • فلم يقتصر دورهن على التقاط الأدوات لأزواجهن عند عملهم بالبيت ، ونقلهن للمنتجات بعد انتهاء العمل فيها الى صاحب العمل ، بل كن تتولين عمليات مثل التفاوض فى أمور كشحن البضائع والأجور •

(*) Pinchbeck.

(**) Peter Laslett فى كتاب The world we have lost.

وعندما يكلف الزوج بعمل خارج داره ، كانت النساء تضطلعن بأعمال خاصة بهن • وتماثلت زوجات العمال فى المدينة هن ونظراؤهن فى الريف، فكن يساهمن فى اقتصاديات الأسرة ، كالعناية بزرع الخضروات وتربية المواشى ـ غالبا بعض الخنازير والدواجن ـ وتسويق الفائض • وأقامت بعض النسـوة مشـارب فى دورهن ، كمـا لجأت أخريات لبيع الأغذية والمشروبات من اعـدادهن خارج البيت • واتجهت زوجـة أحد صـانعى السكاكين فى مدينة شيفيلد «الى تحضير شراب مخمر» يدعى بوب « كانت تعبئه فى زجاجات وتبيعه خلال شهور الصيف لسكان المدينة » • هذه أمثلة من بواكير القرن التاسع عشر ، ولكن أليس كلارك اشارت الى وجود عمليات اشتغال بالبستنة وتجارة الثياب فى انجلترا فى القرن السابع عشر • وذكرت مثلا مناسبا آخر لامرأة فقيرة « كانت تبيع المواد الغذائية المعرضة للتلف أثناء انتقالها من بيت لآخر » • واستمرت هذه الممارسات فى القرن التاسع عشر • وذكر لى بلاى تفاصيل عن امرأة ألمانية متزوجة من أحد عمال المناجم ، كانت تحمل المواد الغذائية على ظهرها وتزور المدينة مرتين أسبوعيا ، حيث تشترى الدقيق والبطاطس •• الخ • ، ثم تحمل هذه الأصناف على ظهرها وتطوف بها فى أنحاء كثيرة (١٠ كيلومترات) ، وتخصص جانبا من هذه الأغذية لبيتها،وتوزع جانبا آخر على أثرياء المدينة، ثم تبيع ما تبقى فى السوق مقابل ربح بسيط • وابان القرن الثامن عشر فى باريس وبوردو وبين الطبقات الشعبية ، « كان الدور المهم للنساء فى الاقتصاد المنزلى مقبولا ومعترفا به • وامتهنت نساء كثيرات بعض المهن والحرف لكسب دخل اضافى • وكن يعملن كخادمات وغسالات وحائكات ، ويدرن الحانات ، ولا بأس من العمل أحيانا كعتالات تحملن أحمالا ثقيلة جملة مرات فى اليوم الواحد • ولم يكن لديهن أى مانع أيضا يحول دون اشتغالهن بالتسول والتهريب اذا دعت الحاجة لذلك » • وكان دور الأم فى اقتصاديات الأسرة بالغ الأهمية • « فلربما أدت وفاتها أو اصابتها بالعجز الى اضطرار الأسرة الى اجتياز الحاجز الضيق ـ وان كان عظيم الأهمية ـ بين الفقر والاملاق •• » وكانت الأعراف الشعبية التى تقدر قيمة عمل المرأة عظيمة الأثر خلال معظم القرن التاسع عشر •

وثبت دور المرأة وعدم امكان الاستغناء عنه من قدرة الأرامل فى عدة مجتمعات على الاشراف وحدهن على ادارة أية مزرعة (مع الاستعانة بأفراد قلائل لقاء أجر) ، فى الوقت الذى شعر فيه الرجال الأرامل بأن هذه المهمة تكاد تكون مستحيلة ! • وقد ثبت ذلك على نحو أوضح أيضا فى فترات الشدة المالية • وتصر هانتون(*) على القول بأن النساء كن أول من يشعر

(*) Hunton

بالآثار المادية للحرمان ، ويرجع ذلك أولا الى كونهن يحرمن أنفسهن من الغذاء فى سبيل اطعام باقى أفراد الأسرة · وتحدث آخرون عن مواقف مماثلة · ويمثل التقرير الذى كتبه أندرسون عن لانكشير ما حدث أيضا فى ايطاليا وانجلترا وفرنسا : « فمن المشاهدات التى رواها الأطباء حالة تعرض الأبوين للتدهور الصحى بصفة عامة أكثر من أطفالهما · وكانت الأمهات ـ بوجه خاص ـ يصبن بشحوب اللون وفقدان الكثير من أوزانهن نتيجة للجوع » ·

وساعد الدور الذى نهضت به النساء عادة فى اقتصاديات الأسرة على منحهن قدرا أكبر من القوة داخل الأسرة · وتكمل المصادر التاريخية المتناثرة أبحاث علماء الأنثروبولوجيا المعاصرين · ويبين من جميع هذه المصادر أنه بينما اتخذ الرجال الصدارة فى الأشغال العامة ، كانت الغلبة للنســاء فى المجــالات المنزلية الداخليــة ، بل وتشير هانتون الى تمتعهن بالسيادة الاجتماعية داخل الأسرة · وتعد اشارتهــا صدى لمشــاهدات لى بلاى الرائدة·ففى دراسته المستفيضة للأسرة الريفية والحضرية للطبقات العاملة (ما بين أربعينات القرن التاسع عشر وسبعيناته) شعر بالانبهار لدور المرأة : « النساء يعاملن بكل تبجيل واحترام · وكثيرا ما يتمتعن بنفوذ كبير فى المسائل الأسرية » (*) ولاحظ مدى جديتهن واجتهادهن فى العمل دون انقطاع أكثر من أزواجهن · ويستخلص من ذلك « مدى تأثير عملهن وجهودهن وذكائهن فى التأهيل لتحمل أعباء الأسرة ·· » ·

ويرجع سر نفوذ المرأة ، بعد قصرها بطبيعة الحــال على ميــدان الأسرة ، الى ادارتها لبيت الأسرة · وفى بعض المناطق ، كانت زوجات الحرفيين يمسكن دفاتر للحسابات ، مثلما تفعل زوجات أو بنات المزارعين، واكتسبن الدراية بلغة الأرقام من المامهن بعملية امساك حسابات بيت الأسرة ، وباعتبار المرأة كانت مسئولة عادة عن عمليات البيع الخاصة بالبيت فى السوق ، فانها كانت تتولى عمليات التجارة أيضا · وعلى الرغم من اتصاف عمليات الحساب « النسوية » ببداوتها ، الا أنها كانت وسيلة للتعامل مع العالم الخارجى · وكثيرا أيضا ما كانت الزوجات العاملات تسيطرن على محافظ الأزواج ، وتصدرن القرارات المالية ، بل وتقررن المقدار الذى يسمح به «كمصروف» للزوج للصرف منه على النبيذ والطباق، ولا يعد وصف لى بلاى لما كانت تفعله زوجة احدى النجارين الباريسيين خاصا بفرنسا وحدها :

(*) La communaute.

« كانت تقبض مرتبه الشهرى بمجرد استلامه له ·· وتتولى كل صباح اعطاء زوجها ما يلزم من مال لشراء ما سيتناوله من وجبات خارج المنزل · وتوكل لها وحدها عمليات ادارة البيت وطريقة التصرف فى موارد الأسرة طبقا للعادة السائدة بين العمال الفرنسيين » ·

والحق ، لقد كانت هذه الممارسة وثيقة الصلة بدور الزوجة · ويشهد بذلك أنه بعد حلول المصنع محل البيت كموقع لعمل الحرفيين دأب بعض أصحاب المصانع ـ أحيانا ـ على دفع أجور الازواج «لزوجاتهم» · « والظاهر أن الزوجات سواء كن فى اللورين أو بريتانى أو لانكشاير ، أو بين عمال المناجم فى شمال انجلترا أو الفلاحين أو عمال لندن كن يسيطرن على الموارد المالية للأسرة (*) ، ويتحكمن فى بعض جوانب من القرارات الأسرية» · فالرجل يزهو ويتبختر ويترأس الموائد ويصدر الأوامر ، أما القرارات المهمة كشراء مزرعة أو بيع بقرة أو دفع دعوى على الجار واختيار زوج الابنة ، فمن الأمور التى يجب أن تتم عن طريق (الباترونة) ! · أو كما لاحظ أحد المزارعين المتقاعدين فى قرية فرنسية لأحد علماء الأنتروبولوجيا الزائرين « العصمة دائما فى يد الرجل · ليس من شك أن هذا هو ما يقوله القانون · أما ما يجرى فى الواقع فمسألة أخرى · ولكنك لن تجد لهذه الناحية أى ذكر فى القانون المدنى » (**) ·

ومن المهم أن نؤكد هنا أننا نتحدث عن النسوة المتزوجات · فكل ما تمتعت به هؤلاء النسوة كان من نتائج اشتراكهن بحكم كونهن زوجات فى الجهد المتبادل والدور المميز الذى اضطلعن به اعتمادا على جنسهن · ولقد انحصر تأثيرهن على المجال المنزلى ، وان كان هذا المجال قد اتسع الى حد كبير فى الحياة الاجتماعية والاقتصادية للأسرة · وفى هذا الموقف ، يصح القول بأن النساء قد اشتركن بدور فعال بعملهن فى مؤسسة الأسرة ·

ولقد شاركت الفتيات فى الحياة الاجتماعية منذ وقت مبكرفى أسر الطبقات الدنيا ، للنهوض بمسئوليات الأسرة والعمل · « فالفتيات تبدأن المشاركة بمساعدة أمهاتهن فى كل أعمالهن بمجرد سماح قوتهن البدنية بذلك » · وكثيرا ما كن يخرجن من بيوتهن للخدمة فى أعمال الفلاحة أو للخدمة بالبيوت · وهناك أخريات تتلمذن على بعض النساء وتعلمن منهن الغزل والحياكة · وفى المناطق الريفية بسويسرا ، حيث كانت تمارس هناك أيضا صناعات الاكواخ ، كانت فالفتيات تنهضن بدور مساعد مرغوب

(*) Chef d'exploitation

(**) Code civil.

الى حد كبير . فكان بالمقدور اسناد عمليات الغزل والنسيج اليهن أثناء اشتغال الأم بأعمال البيت . « وكن يسلمن مستحقاتهن ــ كمسألة مفروغ منها ــ للوحدة الاقتصادية للأسرة » . « اذ كان الحفاظ على ملكية الأسرة له الصدارة على السعادة الفردية » . وتعلم الفتـاة منذ نعومة أظافرها شعارا يعرفها « أن عمل المرأة لا يمكن أن ينتهى أبدا » ، مهما كان العمل الذى ستتولى أداءه . ومن ثم كانت تبدى استعدادا للعمل بجد ونشاط طيلة حياتها تقريبا.ولابد أن تكون نصائح الأبوين قد رددت هذه الكلمات الموجهة الى فتاة صغيرة وكتبت ١٧٤٣ : « عليك أن لا تتوقعى الزواج اذا كنت فى حالة لا تجدين فيها أنت ورجلك فرصة للعمل ــ فالأحمق وحده هو الذى يرضى عن اتخاذ زوجة تعيش عالة عليه ، ولا تساعد بعملها فى سبيل الأسرة » . ومن هذا يبين أن ما كان يتوقع هو اشتراك النساء بالعمل ، وتمثل الأسرة وحدة قائمة على العلاقة الاجتماعية والاقتصادية معا . هذه اذن هى قيم الحضارة التى اعتنقتها العائلات التى كانت تزج ببناتها للعمل فى بواكير مراحل التصنيع :

ان عمل المرأة يعزز اقتصاديات الأسرة . وبالمقدور تعديل أدوارهن ــ مثلما يحدث فى حالة الأزواج والأخوات والآباء ــ وضبطه لمواجهة الظروف العصيبة وتبدل الأحوال . وهنا بوسعنا أن نستفيد مما ذكره شايانوف عن الأسباب التى تؤدى الى دفع المرأة للعمل :

« عندما لا يكون فلاحنا فى حالة تساعده على تدبير أموره بنفسه ، ولا يكون قادرا على تولى عملية بيع جهده نظير مقابل يفى باحتياجاته ، والحصول على ما يعتقد أنه أوفى ما يستحق ، فانه يتخلى مؤقتا عن عمله الخاص ، ويتحول ببساطة الى أجير يعمل تحت امرة آخرين ، وبذلك يتفادى التعرض للبطالة » .

ان هذا يعنى أن العائلات التقليدية كانت تستعين بشتى أنواع الاستراتيجيات للنهوض بصالح الوحدة الأسرية . فأحيانا كانت الأسرة عن بكرة أبيها تعمل كأجيرة للعمل فى مزارع الغير . وفى أحيان أخرى ، كان الرجال يضطلعون وحدهم بهذه المهمة . وفى حالات ثالثة ، كان يعهد بذلك الى صبى أو أكثر من صبيان الأسرة . وغالبا ما تكلف الأمهات فى أوقات الشدة أو الأزمات الاقتصادية بأعمال اضافية فى الصناعات المنزلية . وهذا يفسر لماذا كانت مثل هذه الأعمال فى الأغلب موسمية ، أو بصفة فردية . أما عادة ارسال الاولاد ذكورا واناثا للخدمة فى حقول أخرى ، أو للعمل فى مدن قريبة ، فانها وسيلة اخرى ظهرت فيما بعد ، أى وسيلة لمد نشاط الأسرة ــ بصفة مؤقتة ــ الى ما هو أبعد من مواردها المحدودة لزيادة دخلها ، وبذلك تحقق التأمين الاقتصادى الذى يساعدها على البقاء .

وتأثرت بلدان أوربا (فى أواخر القرن الثامن عشر فى انجلترا وبعد ذلك فى فرنسا وايطاليا) بما حدث من تغير كبير فى البنيان الاجتماعى ، مما أدى الى اتباع هذه الاستراتيجيات ، والى ابتكار سبل أخرى (لمواجهة الضغوط والفرص الجديدة) لتحقيق الأهداف التقليدية للاقتصاد الأسرى • ففى غرب أوربا فى القرن التاسع عشر ، أدى ازدياد عدد السكان الى حدوث انكماش فى مساحة الأرض فى بعض المناطق • وفضلا عن ذلك ، فقد ترتب على الزراعة على نطاق واسع ، وترشيدها ، تعريض المناطق المنتجة انتاجا عشوائيا لشدة الضغوط التنافسية • وأدت الأشكال والطرائق الجديدة للانتاج الصناعى أيضا الى احداث تحول فى موضع وطبيعة عمل الحرفى فى الريف والمدينة • وفى هذا الموقف ، تزايدت حاجة أبناء العائلات ــ وبصفة خاصة الصغار ــ الى العمل خارج البيت • وأدى تزايد الأشغال المنزلية المرتبطة بمصانع النسيج المحلية بالريف ، وازدياد عدد سكان المدن (وما صحب ذلك من ازدياد فى الحاجة الى سلع استهلاكية وخدمات داخلية) الى خلق فرص عمل جديدة •

ففى لومبارديا على سبيل المثال ، وهى مقاطعة فى شمال ايطاليا عاصمتها ميلانو ، مارس الفلاحون منذ أمد بعيد العمالة الزراعية المكثفة على أراض مستأجرة ، وابان القرن التاسع عشر ، تزايد عدد الفلاحين غير القادرين ، على اعالة أسرهم المتنامية على هذه الأرض المستأجرة ، فلجأوا الى خيارات مماثلة للوسائل التى اعتادوا اتباعها • فتوجهت النسوة والفتيات اللواتى كن أقل انتاجية من الرجال للعمل بمصانع الحرير القريبة من الريف،وقصدت أخريات ميلانو للعمل كخادمات بالمنازل ، أو بمصانع الملابس الجاهزة ، فيما كان بالضرورة أعمالا انتاجية هامشية قليلة الأجر ، واستغلالية • اذ كان الهدف هو الحصول على اى قدر من المال لارساله للبيت •

وظهر نوع آخر من الاستراتيجية فى زيورخ بسويسرا • تحدث عنه رودولف براون • ففى الأصل كان المتبع عند الفلاحين المقيمين بالأرض هو اشتراك جميع أبناء الأسرة فى العمل لتحقيق هدف واحد يلتقى عنده الجميع، أى كخدم أو جنود أو أشباه خدم فى بيوت أقاربهم الذين ورثوا الأرض ، ويضاف الكسب من حصيلة العمل الى دخل العائلة • والحفاظ على الملكية له الصدارة فوق تحقيق سعادة الأفراد • فلم تعد مسألة من يتزوج من ، وفى أى سن ، مسألة تخضع لقرار الفرد ، بقدر كونها من المسائل التى يجرى الاتفاق بشأنها داخل الأسرة • وتسببت الضغوط الديموجرافية والاقتصادية فى تجريد بعض العائلات مما تملك من أرض ، واضطر آخرون الى الاشتغال بأعمال اضافية الى جانب الاشتغال بالزراعة ، كالعمل مثلا فى الصناعات الريفية ، وبخاصة مصانع النسيج • وفى هذه المناطق ظهر

ما يدعى نظام «الراسست» (*) ، ويعنى هذا المصطلح ، دفع الأولاد قدرا من المال لذويهم نظير السكن والاقامة • وفى الحالات التى لا يعملون فيها فى البيوت ، ولكنهم يشتغلون بأعمال الغزل فى أحد البيوت الاخرى ، كان الأولاد يدفعون « الراسست » لربة البيت • ولقد نظر الى هذا المبلغ ، والى هذا الاجراء كمسألة مسلم بها • واستقر هذا النظام ، واتخذ صيغة ثابتة، وتغير حجم الاسهام المحدد بتغير علاقات العمل بين أبناء الأسرة ، ويخبرنا براون بحدوث تصدع فى التعاون الأسرى نتيجة لما حدث من تحولات من هذا القبيل • وليس من شك فى أنه أصاب الرأى • ولكن النقطة المهمة فى المثل الذى ضربته زيورخ ، وما أرادت اثباته ، هى ما يجرى عند حدوث تحولات فى القيم والممارسات القديمة من مؤثرات تستوجب احداث تكيفات استراتيجية تتوام والأوضاع الجديدة •

وبمقدورنا الاتيان بأمثلة مماثلة عن حالات الأسر غير المشتغلة بالزراعة أيضا • فلقد أدت الثورة الصناعية الأولى فى انجلترا الى احداث تصدع فى الوحدة المحلية للبيت ومقار العمل ، بعد نقل عمليات الغزل ، ثم النسيج بعد ذلك ، الى المصانع • غير أن دراسة سملسر(**) للتغير الاجتماعى فى الثورة الصناعية قد بينت أنه فى حالة المصانع الأولى للمنسوجات،انتقلت الأسرة بكاملها كوحدة عمل الى المصانع • وسمح الرؤساء للنساجين العاملين باستئجار معاونيهم • واختار النساجون زوجاتهم وأولادهم وأقرب المقربين وأقارب صاحب العمل • وانضم العديد من الأولاد ـ وبخاصة الاصغر سنا ـ الى المصنع بعد الحاح من آبائهم • وبطبيعة الحال ، لم يستمر اتباع اقتصاديات البيت فى المصانع فى بواكير التصنيع ، بعد عشرينات القرن التاسع عشر ، بالنظر الى ما طرأ على العمل من زيادة التخصص والتنوع • غير أن عملية التوافق المبدئى والتكوين الاقتصادى المتغير ، قد أدت الى اتباع القيم القديمة بعد تكييفها لكى تتوام هى والاوضاع الجديدة •

ومما يثبت ذلك على أفضل وجه فى حالة النساء العاملات ، العازبات اللائى مثلن السواد الأعظم من قوة العمالة والنساء المتزوجات العديدات أيضا • فقبل القرن التاسع عشر بأمد طويل ، كانت الأسر الدنيا ترسل بناتها للعمل • واستمرت هذه الممارسة والقيم والأسس التى ارتكنت عليها ، كما يبين من وجود أعداد كبيرة من النساء العازبات العاملات ، وأيضا من متوسط أعمار القوة العاملة من الاناث ، ومن أنواع العمل التى كانت تسند لهؤلاء النسوة ومن سلوكهن الفردى •

(*) Rastgeben

(**) Neil Smelser فى كتاب Social Change in Industrial Revolution

ويستدل من تكوين القوة العاملة للاناث فى أوربا بصفة أساسية من صغار النساء العازبات ـ أو الفتيات بلغة معاصريهم ـ على استمرار بقاء القيم الأسرية • فكانت الابنات تتكبدن نفقات طائلة للاقامة فى بيوت الريف والمدن ، ولعل هذه المبالغ كانت تفوق ما ينفق على الأمهات • وكن تعتمدن على عمل الأسرة واخواتهن • وعندما انتقل العمل الى خارج المنزل، ولم يعد استمراره مؤكدا ، اقتضى صالح الأسرة تشغيل بناتها خارج البيت • ونظر الى الخدمة بالبيوت ، أى الملاذ الرئيسى لمعظم القرويات كميدان تقليدى لممارستهن للعمل • وكثيرا ما بدت هذه الوسيلة آمن طريقة للهجرة ، لأن الفتاة تشعر بالاطمئنان الى وجود مكان يأويها ، يتوافر فيه الغذاء والجو الأسرى • غير أن هذا السبيل لم يخل من بعض المخاطر • اذ كانت بطالة الخدم واستقلالهم من الحقائق المعترف بها • ومع هذا ، ففى خلال القرن التاسع عشر . وعلى الرغم من أن العديد من الفتيات اللاتى كن يتزايدن عددا ، سعيا وراء الخدمة فى المنازل ، ويرغمن على الابتعاد عن بيوتهن على نحو فاق ما كان يجرى تقليديا ، الا أن هذا التحرك نفسه لم يبد أمرا مستغربا ، لأن الخدمة بالمنازل كانت عملا مقبولا لما لها من مزايا كتيسير الاحتماء باحدى العائلات . والانتماء لبيت من البيوت •

ولا يصح هذا الحكم عن الخدمة بالمنازل فحسب ، وانما أيضا عن صور أخرى من الأعمال الأنثوية • فلقد حاول أصحاب مصانع النسيج فى ايطاليا وفرنسا تهيئة جو « عائلى » للفتيات العاملات عندهم • وكانت هناك قواعد للسلوك تحدد أنشطتهن ، وعهد للراهبات بالاشراف على المنشآت التى تقمن فيها ، فكن بمثابة أولياء أمورهن ، بل وأحيانا اتجه بعض أصحاب المصانع الى ترتيب زيجات مناسبة للاناث العاملات عندهم • وحققت هذه الممارسات فى المصانع النفع لصاحب العمل أيضا ، لأنها ساعدته على رقابة ما عنده من عمالة ، وحدت من عمليات ترك العمل وتبديله • كما خدمت صالح عائلات الفتيات أكثر من عائلات العازبات ، لأن أجور الفتيات كانت تحول بطريقة مباشرة الى أولياء أمورهن • ولا نود التعرض هنا لما كانت تتبعه المصانع عندما كانت تحول عنابر نومها الى مؤسسات خيرية • غير أن علينا أن لا ننسى أهمية اقتدائها بالأسرة فى علاقات العمل والعلاقات الاجتماعية ، وما حققه هذا الاجراء من أثر لصالح الأسر لحد ما •

واتبعت ممارسات مماثلة فى صناعات «الابر» ، التى ازدهرت فى مراكز الحضر • فلقد ترتب على ارتقاء صناعة الملابس الجاهزة ، حدوث تحول مزدوج فى صناعة الملابس • فأولا ـ حل العمل بالقطعة فى البيت محل العمل بالورش • ولم يتحقق الا فى وقت متأخر فى انجلترا (١٨٥٠) وفى فرنسا فى سبعينات القرن التاسع عشر الاعتماد على المدينة فى

الصناعة (وتأخر حدوث ذلك في ايطاليا بعض الوقت) بعد أن ساعد التقدم في صناعة الآلات الحديثة على اعادة تنظيم صناعة الملابس في المصانع · وفي الفترة التي اتسع فيها نطاق العمل بالقطعة ، اهتدت النساء الى فرص كثيرة للعمل · وكانت النساء اللائي يعشن في المدن فعلا ، يصحبن عملهن معهن الى البيت بحكم العادة · أما النازحات الوافدات فقد احتجن الى بيوت ، ومن هنا نشأت فكرة تحويل بيوت بعض النساء صاحبات الذكاء الوقاد ، وبالاعتماد على رأس مال بسيط ، الى دور لايواء العاملات بالقطعة ممن يعملن معهن · وعلى الرغم مما أحاط هذا العمل في كثير من الأحيان من استغلال وأحوال معيشية بائسة ، الا أنهن استطعن خلق جو « بيتي » للفتيات يعني بيتا تستطعن العمل فيه على نحو مماثل لما كن يفعلن أو تفعله أمهاتهن في البيت ·

وتعد الخدمة بالمنازل ، وصناعة الملابس ، والعمل بمصانع المنسوجات، المجالات الثلاثة التي تركز عليها عمل النساء غالبا · وهذه المجالات جميعا من القطاعات التقليدية لعمل النساء · وبعبارة أخرى ، فان نوع العمل الذي كان الأبوان يرسلان بناتهما فيه للعمل لم يكن يستلزم ابتعادا جذريا عن الماضي ، فكثيرا ما كنا نصادف زوجة أمضت « بنوتتها » في بيت أحد الأشخاص الآخرين · وكانت الأعمال بالقطعة وعمليات الغزل والنسيج شائعة في البيوت التقليدية · وعندما حدث تغير في « موقع » العمل ، أدى هذا التغير في نهاية الأمر الى حدوث سلسلة كاملة من الاختلافات الأخرى · ولكن مبدئيا بوسعنا القول بأنه لابد أن تكون الأسرة قد شعرت بشيء من الارتياح عندما أرسلت ابنتها الى مدينة قصية ، واطمأنت الى أنها قد أرسلتها للعمل في مجال من المألوف اشتغال المرأة به ·

وكما أرسل الآباء والأمهات بناتهم وهم مطمئنون الى مصيرهن ، والى ما ينتظرهن من توقعات تقليدية ، كذلك حاولت الفتيات اثبات صحة هذه التوقعات · وبالاستطاعة الاهتداء الى دلائل تثبت استمرار بقاء القيم الأسرية ، كما يبين من مواظبة الفتيات العاملات على ارسال بعض المال الى عائلاتهن · وبينما اتجهت المصانع في بعض حالات الى ارسال أجور الفتيات ، الى آبائهن ، رأينا حالات أخرى حرصت فيها الفتيات على ارسال معظم ما توافر لهن من نقود الى البيت · وفي انجلترا ، لم يحدث قبل تسعينات القرن التاسع عشر اتجاه الفتيات العازبات المقيمات بمنزلهن الى الاحتفاظ ببعض المال لانفسهن · ومنذ وقت أبكر في أوربا ، كانت نظراؤهن يحولن أجورهن باكملها عادة الى دخل الأسرة · وقامت ابنة أحد صانعي الأقفال في بلجيكا بخدمة أسرتها في البداية بالاشتغال بأعمال الحياكة ، واعتادت تسليم أسرتها كل ما تكسب ، « مما أدى الى عدم توافر

أية مدخرات لديها عند زواجها » • وكانت النازحات الايرلانديات يرسلن نقودهن حتى عندما تعملن فى أماكن بعيدة مثل لندن فى انجلترا أو بوسطون فى أمريكا • وحتى فى الحالات التى كانت الخادمات الفرنسيات والايطاليات لا يتوقعن فيها الرجوع الى ديارهن للزواج ، والعيش فى موطنهن ، فاننا رأيناهن تحرصن على مواصلة ارسال المال الى بيوتهن • وكانت الفتيات الخادمات اللاتى تعملن عند احدى الأسر المرموقة(*) فى ريف فرنسا فى الحقبة ما بين ١٨١١ و ١٨٧٧ ، ترسلن نقودهن الى الوالدين • وجرت بعض ترتيبات تنظيمية ، فكان المسيو فلاهو يرسل أطعمة بدلا من المال ، أو يدفع الايجار المستحق نيابة عن والد الفتاتين الخادمتين اللتين تعملان عنده، أو يرسل اليه بعض الملابس والفحم • وفى بعض الأحيان ، كان الاخوة الذكور والاناث من صغار السن أو المتعطلين عن العمل ، يتلقون هذه العطايا التى كانت تخصم من استحقاقات الخدم • ويذكر لنا هوبشر(**) أن بعض المزارعين المستأجرين لأرضهم ، « كانت مساهمات بناتهم لا غنى عنها فبغيرها كانت ستتعذر فلاحة الحقول المؤجرة لهم » • ويردف قائلا : « بأن المعونة المقدمة من الفتيات لأولياء أمورهن بدت طبيعية تماما للطرفين »• فقد مثلت « تضامنا عائليا قويا كان يتطلب وجود ابن ناضج ومستقل اقتصاديا لكى يشارك فى تقديم المعونة لأقربائه » • وكانت الفتيات العاملات فى مصانع لومبارديا تسهمن بارسال مال لعائلاتهن • وفى حالة اقامتهن على مقربة ، كانت العائلات ترسل اليهن سلالا من المأكولات بصفة منتظمة • وطبقا لتقرير ورد فى احدى السير الذاتية ، فان صاحب العمل كان يحرص على ايفاد رجل وعربة للمرور على قرى الفتيات العاملات — أسبوعيا — لجمع سلال المأكولات المقدمة من العائلات •

وفى لانكشاير فى انجلترا ، كان هناك حرص على « الحفاظ على الاتصال » بين النازحات وعائلاتهن • فكانت النقود ترسل للأهل ، وكانت بنات الأسرة تستدعين الى المدينة للعيش وسط أبناء من عائلاتهن ممن سافروا ، وحدثت فى أحيان أخرى عمليات « نزوح عكسى » • فمثلا أرسل أبناء البنات المتزوجات اللاتى تعملن فى مدن النرويج كخادمات الى بيوتهن لكى يتولى جدودهم كفالتهم • وفى هذه الحالات ، يواصل الزوج الشاب وزوجته العمل منفصلين كخادم وخادمة للادخار تمهيدا لانشاء بيت الزوجية • وحتى فى الحالات التى نزحت فيها عائلات بأكملها الى الولايات المتحدة ، فانها واظبت على اتباع هذه الممارسات • ولاحظت ويلاكاثر (***)

(*) أسرة Fiahaut

(**) Hubscher

(***) Willa Cather فى كتاب My Antonia

قيام الفتيات النازحات ممن سبق لهن الاشتغال خادمات أو فى أعمال معاونة للمزارعين ، بالمشاركة فى فك رهن المزارع الخصيبة التى أنشأها آباؤهن فى نبراسكا .

وكشفت القيم الحضارية التى دفعت صغار الفتيات للعمل فى سبيل أسرهن عن أنواع مختلفة من السلوك الشخصى . فليس من الغريب ادراك ما لاحظه المؤرخون وعلماء السكان من تزايد فى عدد معدلات المواليد غير الشرعيين فى العديد من المدن الأوربية فى الحقبة الواقعة بين ١٧٥٠ ، و ١٨٥٠ . ومن المفارقات أن يحدث ذلك الى جانب استمرار بقاء التقاليد العريقة فى أطر جديد . فلربما كان دافع الفتيات لمغادرة بيوتهن والاقامة فى المدينة هو اقامة صداقات مع الشباب ، سعيا وراء احتمال الزواج من أحدهم ، وأملا فى تحقيق ارتباط أسرى . وليس من شك أن ما حدث من اختلاف فى القيم ، انما يرجع الى احتمال أن لا تكون العادات الاجتماعية التى تفرض فى البيت ، مناسبة للمدينة .

فعندما تبتعد الفتاة عن بيتها ، لن تقدر أسرتها على فرض رأيها الا قليلا على من ستتزوج ومتى ؟ . ولم يكن باستطاعة الضغوط التى حافظت على استمرار الابنة السويسرية فى ممارسة الغزل فى بيتها حتى بلوغها الأربعين من عمرها أن تؤثر على الابنة بعد نزوحها الى المدينة . والواقع أن النزوح نفسه يدل على أنها لم تعد ترغب استمرار الوضع الذى كان سائدا فى بيتها . ولا يخفى أن الشعور بالوحدة والانعزال فى المدينة كان من بين عوامل الضغط التى حثت على الزواج . والأمر بالمثل فيما يتعلق برغبة أية فتاة فى الهروب من الخدمة المنزلية ، حتى تصبح سيدة نفسها والمتحكمة فى بيتها أسوة بأمها . وساعدت أيضا تقاليد الخدمة بالبيوت ، التى كانت تطالب عادة الخدم بعدم الزواج على حدوث علاقات غير مشروعة ، ودفعت الكثيرات من الخادمات الى التخلى عن أطفالهن . وهذه حقيقة معروفة منذ أمد بعيد . وما حدث بعد ذلك من اختلاف فى القرن التاسع عشر فى أوربا هو ارتفاع نسبة المشتغلات بالخدمة المنزلية على نسبة المشتغلات بالمصانع . وهذا يعنى حدوث تزايد نسبى لم يسبق له مثيل فى عدد المشتغلات فى هذا المضمار . وهذا عامل مساعد مهم لانجاب أطفال غير شرعيين .

غير أن هناك دافعا آخر للزواج هو الدافع الاقتصادى . فلقد قيل ان الفتيات العاملات فى المصانع كن يتقاضين أجورا مجزية . ولكن ليست جميع الفتيات من العاملات بالمصانع . ولا ننسى أنه قلما حصلت النساء العاملات بصناعة الابر وغيرها من الصناعات الصغيرة على ما يكفى لكى يقيم أودهن مع ملاحظة « حدوث تقلبات مستمرة فى تجارة هذه المنتجات،

وما حدث من انخفاض في انتاجها وطلبها في انجلترا وفرنسا » • وجرت العادة على دفع أجور للنساء المشتغلات في هذه الحرف تساوى نصف الأجور التي يحصل عليها الرجال مقابل أعمال مماثلة ، تمشيا مع الافتراض الغالب باعتبار أجور النساء جزءا من أجر الأسرة ، (وان كان هذا الافتراض لم تؤيده الحقائق دوما) ففي البيت الريفي كانت مقومات الحياة تتطلب عدة اسهامات•وكان الاتجاه المنطقى لأى فتاة وحيدة ودفعتها الظروف الى الابتعاد عن أسرتها وتتقاضى أجرا لا يكفى لاعالتها ، أو يمكنها من ارسال بعض النقود للبيت هو الشروع في البحث عن زوج باعتبار هذا الحل سيمكنهما سويا من مواجهة مطالب الحياة •

وقد تشاء الظروف الحسنة أن تخطب « الفتاة الصغيرة » ثم يجىء في أعقاب ذلك ما كان سائدا من ممارسات شبت عليها معظم الفتيات في المناطق الريفية ، فكن يضاجعن من ينوين الاقتران بهن من رجال • وعندما يحدث الحمل ، اما يختفي الرجال ، أو يواصلن العيش معهم ، وان كانوا لا يعقدون القران • وأحيانا يتم الزواج بعد انجاب الطفل الأول ، أو ربما أكثر من طفل • وفي بعض الأحيان ، كان القيد الذى فرضته الضرورة التقليدية بتقديم دوطة عند عقد الزواج ، كان يعنى ان تعمل المرأة أثناء معاشرتها لعشيقها ، وأن يطرح الشوار جانبا • وحال الافتقار الى السند الأخلاقى للأسرة والمجتمع المحلى والكنيسة دون تحقيق ما هو مأمول من الزواج • ولعل الافتقار الى المال،والضغوط الاقتصادية القاسية ، بالاضافة الى اختلاف التوجهات والتوقعات ــ في أغلب الظن ــ من قبل الرجال ، قد حال دون وفائهم بوعودهم•ويبين مما شهدت به النساء المهجورات لهنرى مايهو(*) أنه كثيرا ما حدث الآتى : أ ــ لم يتوافر مال لعقد زواج صحيح • ب ــ كانت أعمال الرجل تستوجب كثرة التنقل • جـ ــ خلق الفقر حالة من احتمال الشعور بالتوتر • د ــ التقاليد المحيطة بالطرفين ، والتى كانت تدعوهما الى التحقق من حسن سير وسلوك الطرف الآخر ، والذى ربما لا يكون متوافرا • وينتهى الأمر بمطاردة صغار الفتيات للذئاب الذين نالوا مأربهم ، ومن ثم سلكوا نحوهن مسلكا تقليديا ، ثم تتغير الظروف وتظهر نتائج غير متوقعة غالبا مالا تكون سارة •

وحتى بين المومسات ، وكثيرات منهن كن من المعلمات أو الخادمات العاطلات عن العمل أو العاملات بالقطعة • ويلاحظ في حالتهن خلط عجيب من التوجهات القديمة والحديثة • ففى المجتمع السابق للصناعة ، كانت نساء الطبقة الدنيا ، تبتكرن ما لا نهاية له من مصادر الاقتيات ، وتوفير المآكل للأسرة • وكان التسول مسألة مألوفة ، واعترف بالمغازلة ومعاشرة

(*) Henry Mayhew

بنات الهوى كوسائل للحصول على الخبز والدقيق فى أوقات الشدة • وفى القرن التاسع عشر ، فى لندن ، ذكرت المومسات عند لقائهن بمايهو أن شعورهن بالخزى كان مجرد وسيلة للحصول على ما يسد رمق أسرهن • وأوضحت امرأة انجبت طفلا غير شرعى رأيها فقالت ان الحفاظ على بقائها وحماية طفلها من الجوع « قد أرغمها على الالتجاء للتمومس » ووصفت أخرى العشاء الفاخر الذى تناولته مقابل تبذلها ••

على أن جميع العامـلات لا يتعرضن للهجر بعد انجاب أطفال غير شرعيين • كما أن معظمهن لم يجنحن الى « التمومس » ، رغم ما يتصوره ابناء الطبقة المتوسطة من تخيلات تدفعهم الى الانزعاج • فكثيرات منهن انتهى أمرهن بالزواج ، وابتعدت أغلبهن عن القوة العاملة بعد الزواج • ويعكس عدم وجود نساء متزوجات أكثر تقدما فى السن الاصرار على اتباع التقاليد الأسرية • وعندما تتزوج الفتيات ، فلا أحد كان يتوقع استمرارهن فى الاسهام بأجورهن فى تمويل بيت ذويهم • اذ يعنى الزواج عملية انتقال من أسرة لأخرى ، والاضطلاع بتمثيل دور جديد • على أن بعض الفتيات الوحيدات ظللن يتمسكن بقيم أمهاتهن وممارساتهن بعد الزواج • فلقد كان الدور التقليدى للمرأة المتزوجة ، ودورها الاقتصادى الحيوى فى اقتصاديات الأسرة وراء اشتغالها ، عندما كان ايراد عملها مطلوبا لتعزيز ميزانية البيت • وعندما أصبح دخل زوجها وأبنائها كافيا لسد حاجات الأسرة ، بادرت بترك القوة العاملة • وأحيانا لا تقدم أمهات الأبناء الصغار على ترك القوة العاملة الا بعد تعطل الابن الاكبر عن العمل • ويحقق هذا النمط ما هو منشود منه داخل نطاق ما يجرى فى العائلة من تطورات ، ولكن فى حالات الحاجات الوقتية كالمرض أو موت رب الأسرة وعائلها ، فلم يكن من المستبعد رجوع المرأة للعمل • وحتى عندما لا تكون مصدرا للتمويل ، فان اسهامها فى اقتصاديات الأسرة يعد أمرا جوهريا • وفى تسعينات القرن التاســع عشر فى لندن ، كانت زوجات الطبقة الدنيا « تتحملن مسئوليات جسيمة ، سواء كن تتقاضين راتبا أم لا ، لأنهن كن المتصرفات فى ايراد الأسرة ، ولم يكن مسئولات عن شراء المأكولات فحسب، وانما كن تتولين دفع الايجار وشراء الملابس ودفع أقساط التأمين ، والاشراف على مصاريف مدارس أبنائهن » •

وعلى الرغم من أن نقل العمل الى المصانع وأماكن خارج البيت قد يسر للمرأة الوحيدة الاضطلاع بهذه المهام تيسيرا متزايدا ، الا أن بعض المتزوجات واصلن البحث عن عمل • وساعد التصنيع على تحقيق التحول فى فرص شغل العمل تدريجيا • اذ استمرت الأعمال القديمة باقية الى جانب الأعمال المستحدثة • واحتفظت النساء ممن تزوجن عمال صناعيين

يعيشون فى المدن بأساليبهن السلوكية التقليدية ، وقمن بتكييفها حتى تتوائم والظروف المستجدة . وكانت أغلب الأعمال التى يعهد بها للمتزوجات وقتية . ويصف اندرسون أنواعا شتى من وظائف الخدمات فى بريستون ١٨٥١ ، ويقول « ان كثيرات كن تعملن على معاونة أزواجهن . وهناك أخريات لجأن الى فتح محلات (بوفيهات) صغيرة للمأكولات والمشروبات » . ويردف قائلا : « ان أكثر من ثلث العاملات كن تشتغلن فى أعمال بعيدة عن المجال الصناعى ، وعملت كثيرات أخريات على نحو غير منتظم ، أو نصف الوقت » . وغالبا ما كان لا يجىء ذكر أسمائهن فى السجلات الرسمية باعتبارهن لا يشغلن أعمالا محددة . والحق أن الصيغة التى وضعها أندرسون لتمثيل ما كان يجرى فى لانكشاير وتعبيره عنها بالقول بأنه بالمقدور « وصف نمط تكوين الأسرة فى المدن بأنه كان متأثرا بالأنماط الريفية التى سبقته » . ان هذا القول الذى جاء على لسان أندرسون ينطبق على حالات كثيرة جاءت بعد ذلك . فنحن نلاحظ فى مدن وعواصم أوربا وأمريكا وجود تشـابه بين أنماط عمل المتزوجات والأنماط الأقدم فى الممارسات السابقة للصناعة . فعلى سبيل المثال — كانت النسوة النازحات الى مصانع النسيج فى نيو انجلند هن الجماعة الكبيرة الوحيدة من النساء العاملات المتزوجات اللواتى كن تعملن بانتظام باستثناء الزنجيات . ويشرح سمطس ما يعنيه فيقول ان ما كان يجتذبهن ليس العمل المألوف للغزل والنسيج ، لأن الأهم من ذلك هو اتاحة الفرصة لهن للاشتراك مع أولادهن فى العمل . « فالأم التى يعمل أبناؤها بالمصنع أقدر على مراقبتهم اذا كانت تعمل قريبة منهم فى نفس المكان » . وكيفت النساء النازحات ما لديهن من مهارة مع الأوضاع الأمريكية ، اعتمادا على خبرتهن بطبيعة الحال . وهكذا اشتركت الأمهات الايطاليات هن وأبناؤهن فى قطف الثمار والخضروات فى مزارع قريبة من بافالو ونيويورك ، ولعل هذه الأعمال ذكرتهن بما كن يفعلن عندما كن فى جنوب ايطاليا . أما الايطاليات المقيمات فى الطرف الشرقى من نيويورك فقد شغلن بحياكة السراويل أو صناعة الزهور من الورق بالاشتراك مع بناتهن فى البيت . وعندما كانت هؤلاء النسوة يتابعن عملهن بالمصانع ومحلات الحلوى ، كان الرجال يعكفون أحيانا على ادارة شئون المنزل ورعاية الأطفال . وتحولت النساء الايرلانديات المتزوجات ممن لا يملكن ما هو أكثر من الخبرة بالزراعة ، الى خادمات بالمنازل . ولكن كثيرات منهن شغلن بتنظيف الابنية فى نيويورك ليلا حتى يتفرغن لرعاية شئون أسرهن بالنهار .

وسواء عملت المتزوجات خارج بيوتهن أم لم تعملن فقد حرصن دوما على المواءمة بين عملهن واقتصاديات الأسرة . والواقع أن اشتغال النساء المتزوجات خارج بيوتهن يكاد يبدو أشبه برافد داخلى من قيم ما قبل

الصناعة فى نطاق أسرة الطبقة العاملة • فبعد أن بدأ أزواجهن وأولادهن بأمد طويل اتباع بعض القيم النازعة نحو الفردية التى صاحبت التصنيع ، واصلت هؤلاء النسوة التحلى بقيم التضحية بالذات ، واستنفاد كل طاقتهن فى سبيل أسرهن • هذه القيم التى خلبت لب « لى بلاى » ، والتى تميز بها الاقتصاد الفلاحى واقتصاديات البيت • وليس من شك أن هذا هو ما عنته شهادة امرأة نيويورك التى استشهد بها بيتر ستيرنز : « لو اقتضى الأمر شراء شيء ما مثل زوج من الأحذية لأحد الأطفال ، فليس هناك ما يحول دون حرمان نفسى وحرمان أولادى من بعض المأكولات ، والاكتفاء بكوب من الشاى وكسرة من الخبز ، وتوفير الغذاء لزوجى أثناء قيامه بعمله ولا أبوح له بذلك قط » • فما دامت المرأة قد كرست دورها ـ اقتصاديا ـ لخدمة أسرتها ، فانها تعتقد أنها أدت رسالتها على الوجه الصحيح الموائم للقيم الأسرية • وظل دور المرأة الاقتصادى فى عائلات الطبقة العاملة يجمع بين وظيفة ربة البيت والمدبرة المالية والحائكة ، التى قد تدفعها الظروف للعمل خارج البيت والكسب من حين لآخر •

وهناك مثل آخر عظيم الدلالة يمثل التضامن الجماعى أعظم تمثيل • فلقد ولدت فرنشيسكا • ف حوالى ١٨١٧ فى منطقة ريفية من أعمال مورافيا ، وظلت مقيمة فى موطنها الى أن بلغت الحادية عشرة من عمرها • وعاشت الطفولة المعهودة لأية طفلة من طبقتها ، وتعلمت من أمها تدبير البيت ، والمعاونة فى الفـلاحة ، وتعلمت فى المدرسـة القراءة والكتابة والحساب ، وأهم من ذلك الحياكة • واشتغلت فى عدة بيوت مختلفة على التعاقب لزيادة دخلها ، وكانت تغير من طبيعة عملها سعيا وراء هذه الغاية• واكتسبت من أحد البيوت خبرة فى الحياكة ، ساعدتها على ادخار بعض المال ، الذى كانت تقتطع منه جزءا ترسله الى موطنها الذى دأبت على زيارته من حين لآخر ، مرة كل سنة على الأقل لرؤية أهلها ، وتجديد جواز سفرها •

ولم تختلف تجربة فرنشيسكا عن تجارب صغار الفتيات من الأجيال التى سبقتها ، الى أن بلغت الثامنة عشرة من عمرها • بيد أنها عندما صممت على التوجه لفينا لتجربة حظها بدأت مرحلة جديدة من حياتها • وبعد أن تلقت أجمل التمنيات من والديها ، دفعت مصاريف السفر بالعربة من مدخراتها • وبعد ثلاثة أيام من وصولها اهتدت الى العمل كخادمة ، وعاشت عند أسرة بورجوازية ، وعملت عندها زهاء ستة شهور ، ثم تركت العمل عندما عثرت على عمل أفضل ، استمرت تشغله الى أن مات رب البيت (بعد ستة شهور من اقامتها) فتركت العمل وشغلت وظيفة خادمة فى دار أخرى استمرت تعمل بها سنة كاملة •

وعندما بلغت العشرين من عمرها ، وبعد أن استهوتها الفرص الميسورة للعمالة فى بلد كبير ، وبعد أن شعرت باجهاد العمل بالمنازل ، قررت العمل صبية لأحد نساجى الصوف ، الذى أفلس بعد سنة أخرى · وحالفها التوفيق فعثرت على عمل جديد ، وتخلت عنه عندما اكتشفت عدم استقراره ، فاتجهت الى الاشتغال بحياكة القفازات لأحد المصانع الصغيرة · وكانت صناعة القفازات ــ بالقطعة ــ صناعة رابحة · وكان على فرنشيسكا أن تعمل « بالمنزل » الذى كان أشبه بعنبر للنوم ، فكانت تشاركها الفراش عاملة أخرى من « المشبوهات » · وبعد أن شعرت فرنشيسكا باستهجان لهذا الوضع ، حالفها التوفيق فالتقت بنجار شاب من أصل ريفى ، فوافقت على مشاركته العيش · ولم تكن ممارسة المرأة للنوم مع خطيبها من العادات غير المعروفة فى البيئة القروية لمورافيا طبقا لما ذكره لى بلاى · وسرعان ما أنجبت فرنشيسكا طفلا كانت ترعاه أثناء حياكتها للقفازات ، وادخرت فى هذه الأثناء مالا يساعدها على الزواج · (اذ كانت السلطات الفيناوية حينذاك تطالب العمال باثبات قدرتهم على اعالة الأسرة قبل السماح لهم بالزواج · وكانت مهمة الادخار تقع على كاهل عروس المستقبل !) ·

وبعد ثلاث سنوات لالتقائها بالنجار تزوجا ، ودفعت فرنشيسكا جميع تكاليف الزواج ، وزودت البيت « بالجهاز » المطلوب ــ من أغطية وأثاث منزلى ــ وبوصفها ابنة لأحد المزارعين الريفيين ، فانها أصبحت الآن ربة بيت عامل من عمال المدينة · وعلى الرغم من استنفاد معظم وقتها فى رعاية أطفالها وادارة شئون البيت ، فقد استطاعت الحصول على عمل يدر عليها دخلا طيبا (١٨٥٣) · فقد تعاقدت على عمل يستمر ١٢٥ يوما كاملا فى صناعة القفازات · وقدر لى بلاى مدة التعاقد بمائة وخمسة وعشرين يوما ، الا أن فرنشيسكا كانت تشتغل فى حياكة القفازات بعض أجزاء من اليوم طوال معظم أيام السنة ·

وساعد الايراد المكتسب عن طريق العمل بالقطعة على تعزيز أجر زوجها بمال اضافى · ولكن بعد انشاء المصانع ، وتناقص الاهتمام بالانتاج بالقطعة الذى يجرى بالمنازل ، تفاقمت الصعوبات التى واجهت أم الأطفال الخمسة الصغار ، فاضطرت الى التخلى عن الواجبات المنزلية لكسب عيشها من عملها الخارجى · وساعدت الأحوال الاقتصادية فى فيينا فى خمسينات القرن التاسع عشر على تيسير نهوض فرنشيسكا بالدور المتوقع من امرأة تنتمى الى الطبقة الشعبية ·

ولم تصمد القيم التقليدية بلا قيد أو شرط فى وجه التطورات الحديثة ، أو النازعة الى التحديث · فعندما أقدمت الأم على تكييف

مخططاتها للتعامل والمواقف الجديدة مرت بتجارب مختلفة غيرت العلاقات داخل الأسرة ، وغيرت من تصورها لها · وكما استطاعت عملية التغيير استيعاب القيم والممارسات القديمة ، فانها استطاعت أيضا تغييرها ·

واشتملت التحولات الأساسية على اتجاه لاحلال القيم الفردية المنزع محل القيم الأسرية ، وغرست هذه التحولات الاعتقاد بأن الفرد مالك لنفسه أو لنفسها أكثر من كونه أو كونها مجرد جزء من كل اجتماعي أو معنوى · فلقد أثبتت هذه التحولات تكيف أبناء الأسرة مع احتياجات أسرهم ، تبعا لمبدأ الغاية تبرر الوسيلة(*) ، بحيث تحقق اسهاماتهم عائدا فى المدى القصير جدا · ونمت هذه الاتجاهات فى أشكال مختلفة تبعا لما واجهتها من ظروف · وبالرغم من كل هذا فقد بينت الدلائل وجود تماثل كامن فيما جرى وفى النتيجة النهائية · فلقد سمح أولا للبنين ثم للبنات فيما بعد بالاحتفاظ ببعض ما يحصلون عليه من مال · ومنح الأبوان هذا الحق فى بعض حالات · وفى حالات أخرى ، حددت الأسرة نصيبا خاصا لها · وفى حالات ثالثة ، كانت الابنة هى التى تقرر الحصة التى يتوجب عليها دفعها من أجرها لذويها (وبمرور الزمان تناقصت هذه الحصة ، وتزايد عدم انتظام مقدارها ومواعيد ارسالها) · وأشار أندرسون الى ما حدث من انعكاس للأوضاع من تأثير ما يتقاضاه الأبناء من أجور عالية · وأدى التوتر الناجم من الاختلاف على من له الأولوية : الأبوان أم الابناء ، الى حدوث مشاحنات · وغالبا ما كانت تنتهى هذه المواقف الى مبارحة الأبناء لبيوتهم باختيارهم ، وهم يشعرون بالاغتباط لما حصلوا عليه من حرية ، وبالقدرة على تقرير مصيرهم بلا كابح أو جامح ·

وانتهى الأمر بأن أدى الابتعاد عن موطن الأسرة والهجرة الى اضعاف الروابط الأسرية ، كما أدت ضغوط الأجور المنخفضة والعيش المستمر فى الحضر ، وارغام أعداد كبيرة من صغار الفتيات على الاستقلال فى العيش ، الى شيوع الاتجاه نحو الحرص فى الانفاق ، وتدعيم النزعات الأنانية ، فاتجهت الفتيات الى ايثار أشغال معينة باعتبارها وسيلة تسمح لهن بالانطلاق الاجتماعى والمهنى ، أكثر من كونها وسيلة مؤقتة لكسب بعض المال للأسرة · واستمرت الخدمة بالبيوت هى وسيلة العمل الأساسية للمرأة حتى فى أغلب أنحاء أوربا الى أن بدأ القرن العشرون · (والواقع أن عدد النساء المشتغلات بالأعمال المنزليةفى منتصف القرن التاسع عشر قد زاد زيادة هائلة) · ومع هذا ولما كان الاشتغال بالمنازل قد مثل العمل الأنثوى التقليدى ، لذا ساعدت وظيفة الخادمة على اتاحة الفرصة للعاملات بها على الانطلاق الجغرافى والتنقل من عمل لآخر · فبمجرد قدوم الفتاة

(*) an instrumental orientation.

الصغيرة للمدينة ، واجتيازها فترة التكيف مع حياة الحضر ، فى كنف احدى العائلات ، كان بوسعها البحث عن عمل أفضل وأكثر اثابة • وانتعشت أيضا توقعاتها بامكان الزواج من شخص من المدينة يتقاضى أجرا أفضل •

ولا يخفى أن هذه التجارب الجديدة ، وما تعرضت له هؤلاء الفتيات من صعوبات واحباط قد خلق عند صغارهن نزوعا أكثر اندفاعا نحو الروح الفردية ، ومحاولة التكيف تبعا لمبدأ الغاية تبرر الوسيلة ، وتزايد عيشهن وعملهن بصحبة رفقاء واتجهن لادخار بعض المال ، لانفاقه على شراء الملابس والمرفهات ، وتعلمن كيف يبحثن عن نفعهن ، وتقدير قيمة كل بنس تحصلن عليه واتخذت رغباتهن ومصلحتهن الصدارة فوق رغبات الأسرة ، ومصلحتها •

وأيضا تعدلت مخططات العمل الأسرى من تأثير تناقص وفيات الأطفال ، وتزايد فرص التعليم • وبدلا من قيام الوالدين ، بارسال جميع أولادهم للعمل لصالح الأسرة ، اتجهوا الى الاستثمار فى سبيل تحقيق مستقبل أفضل لاولادهم ، وعدم الحاقهم بالقوة العاملة ، وارسالهم الى المدرسة • (ومن الواضح أن هذا المخطط قد اتبع فى حالة البنين فى وقت أبكر من اتباعه فى حالة البنات ، وسنتحدث عن التاريخ الدقيق لمتى بدأت هذه العملية فيما بعد) • وجمعت الأسرة فى أخلاقياتها بين اقرار مبدأ انطلاق الأجيال ، والاتجاه المستحدث الفردى المنزع •

وهكذا شاركت عدة مؤثرات فيما اعترى اقتصاديات الأسرة من تدهور • فكان بين هذه العوامل : ١ ـ موضع فرص العمل • ٢ ـ ارتفاع مستويات الحياة والأجور العالية • ٣ ـ مدى القرب من مراكز التغير الاقتصادى • ٤ ـ زيادة التعرض للقيم البورجوازية ، والتمسك بها باعتبارها تتيح فرص الانطلاق نحو الروح البورجوازية المتزايدة • ٥ ـ التنوع العرقى والعنصرى فى أنماط العمل والأنظمة الأسرية • ٦ ـ اختلاف معدلات التنمية فى مختلف البقاع والبلدان • وساهمت جميع هذه العوامل فى تدهور الأسرة كوحدة منتجة ، وأدت الى حدوث تبدل فى القيم المصاحبة لها • وبالمقدور تحديد تاريخ حدوث ذلك على أنحاء شتى فى مختلف المواقع والطبقات والفئات العنصرية • فهى لم تظهر عند الفلاح الأوربى والعامل الصناعى الأوربى الا فى القرن التاسع عشر • ولم تصل الى بعض بقاع مثل جنوب ايطاليا وريف ايرلاندة وريف فرنسا الا فى القرن العشرين • غير أن فائدة اتخاذ نموذج الأسرة كوحدة لتحليل العلاقات الاجتماعية والقرارات الاقتصادية لم تختف •

يتطلب اعادة تحديد العلاقات الأسرية والتغيرات التى طرأت على تعريف عمل المرأة ، وما حدث من تبدل فى مكانها ، قدرا كبيرا من الجهد . فلا يخفى حدوث جملة تغيرات . فلقد أدى ارتفاع مستوى المعيشة وازدياد أجور الرجال ، ـ مما يسر لهم اعالة أسرهم ـ الى انقاص ضرورة اشتغال المرأة المتزوجة بالعمل خارج البيت . (ولا ننسى أنه فى بداية عهد التصنيع، كان الثمن الذى دفع مقابل ذلك باهظا ، تمثل فى ازدياد نسبة الوفيات بين الأطفال والرضع) وحتى فى حالة النسوة العازبات ، فقد قللت التغيرات الاقتصادية من فرص العمل التقليدية ، بينما فتحت أبوابا جديدة للعمالة للنساء الاكثر تعلما . فبعد الحرب العالمية الأولى على سبيل المثال ، قلت أهمية الخدمة بالمنازل كميدان عمل لصغار النساء ، وحل عدد أصغر من الخادمات المستديمات اللواتى حولن هذا العمل الى مهنة محترمة بدلا من السيل الدائم التدفق من صغار الفتيات اللائى كن تمثلن العاملات فى خدمة المنازل . وترتب على ازدياد انتاج الملابس فى المصانع الحد من فرص العمل الميسورة للنساء فى ميلانو وغيرها من البلدان . ومن جهة أخرى ، زودت الزيادة التى طرأت على الوظائف الجديدة فى الخدمات الحكومية ، بعد اتساع نطاقها ، والخدمات المعاونة للمشروعات العامة ، والتجارة والخدمات الصحية والتعليم فرص عمل للنساء العازبات ، وبخاصة من حصلن على قدر ما من التعليم الأساسى .

وهناك شواهد توضح ما حدث بمرور الزمان من تبدل لدور النساء فى بيوتهن ، يعنى دورهن كزوجات أو بنات . ففى بريطانيا ، بدأت نساء عائلات الطبقة العاملة تفقدن السيطرة على النواحى المالية منذ وقت مبكر من القرن العشرين . غير أن هذه العملية لم تكتمل حتى نشبت الحرب العالمية الثانية . فلم تحصل الفتيات العاملات على ايراد يستطعن الانفاق منه على شؤونهن الخاصة الا فى نهاية القرن التاسع عشر . وبعد حوالى ١٩١٤ تزايد عدد الفتيات العازبات اللاتى كن تحتجزن مبالغ متزايدة من أجورهن ، وخصص الأزواج جانبا من ايرادهم لمصروف خاص للزوجات . أما ما تبقى من ايراد الزوج فكان ينفقه وفقا لمشيئته . وتوحى المجادلات التى دارت فى تنظيمات الطبقة العاملة أيضا بما حدث من تغير فى تصور دور الأسرة . فلقد طالبت اتحادات العمال باجور أكبر للرجال ، حتى يتسنى لهم اعالة أسرهم وابقاء زوجاتهم بالمنزل . ووصفت بعض الصحف الاشتراكية المجتمع المثالى بأنه المجتمع الذى يسمح « ببقاء الزوجات الاشتراكيات الصالحات » بالمنزل لرعاية صحة « الأطفال الاشتراكيين الصالحين ، وتعليمهم » .

وتعد التغيرات التى أثرت فى عمل المرأة ، ومكانتها فى الأسرة ، فى وقت متأخر من القرن التاسع عشر والقرن العشرين من الموضوعات التى

لم يكشف المؤرخون النقاب عنها بالفعل ، ومن غير المقدور فهم هذه التغيرات بمعزل عن السياق التاريخى الذى عرضناه · فلقد كانت أسر الفلاحين الاوربيين والطبقة العاملة الأوربية أول من تعرض للتغيرات البنيوية فى القرن التاسع عشر · وكانت هذه التجارب بعيدة عن الاتصاف بالاطراد · فلقد اختلفت تبعا للموقع الجغرافى والمؤثرات العرقية والزمان ، واشتملت على أنماط معقدة من الديناميات ومظاهر مختلفة لكيفية اتخاذ القرار عند الأسرة · على أن أول احتكاكات بالتغيرات البنيوية فى جميع الحالات قد اشتملت على عمليات تكييف ومواءمة مع مخططات تقليدية ، وكانت تخضع لقيم تمتد جذورها فى اقتصاديات الأسرة · ولن يتسنى لنا فهم عمل السواد الأعظم من النساء فى القرن التاسع عشر ، الا اذا أدركنا هذه الشروط · فعلينا أن نفحص تجربتهن على ضوء قيمهن الأسرية ، وليس على ضوء قيمنا الفردية · فليس بالاستطاعة الربط بين قيمهن منطقيا وتاريخيا بالحقوق السياسية التى منحتهن حق التصويت · ولن يتحقق البدء فى فهم الاضطراب الذى صاحب عمل المرأة ، ومكانتها الا اذا فحصت الافتراضات على ضوء المعطيات التاريخية · فلابد من استبعاد تفسير المذهب التطورى الذى يزعم وجود تجربة وحيدة ومتماثلة تشترك فيها جميع النساء ، أى تجربة تسير فيها العوامل السياسية موازية للعوامل الاقتصادية ، على ضوء الدليل التاريخى ·

- المراجع

M. Anderson, Family Structure in Nineteenth Century Lancashire (1971).

J. A. Banks, Victorian Values : Secularism and the Size of Families (1981).

M. Hewitt Wives and Mothers in Victorian Industry (1958).

J. R. Lehning, The Peasants of Marlhes : Economic Development and Family Organization in Nineteenth-Century France (1980).

A. McLaren, Sexuality and Social Order : The Debate over the Fertility of Women and Workers in France 1770-1790 (1983).

J. Murray, Strong Minded Women and Other Lost Voices from Nineteenth-Century England (1982).

I. Pinchbecv, Women Workers and the Industrial Revolution 1750-1850, (1959).

F. K. Prochaska, Women and Philanthropy in Nineteenth-Century England, 1980).

P. Robertson, An Experience of Women : Pattern and Change in Nineteenth-Century Europe 1982.

N. Smelser, Social Change in the Industrial Revolution : An appli cation of Theory to the British Cotton Industry (1959).

B. G Smith, Ladies of the Leisure Glass : The Bourgoises of Northern France in the Nineteenth Century, 1981.

G. D. Sussman, Selling Mothers' Milk : The Wetnursing Business in France 1715-1914. (1982).

M. Vicinus(ed) Suffer and Be Still : Women in the Victorian Age, (1972).

M. Vicinus (ed) A Widening Sphere : Changing Roles of Victorian Women, (1980).

J. R. Walkowitz, Prostitution and the Victorian Society. Women, Class, and the State (1980).

الحمى ! الحمى !

أنطـون • س • وول

ربما لا يوجد عامل من العوامل المؤثرة في الحياة اليومية في الماضي قد اختلف اختلافا بينا مع ما يجرى في عصرنا الحاضر ، يتماثل هو وعامل تفشي الأمراض المعدية الفتاكة التي لا يعرف سببها • وخلال القرن التاسع عشر ، اشتملت هذه الأمراض على الكوليرا (وكانت مرضا مستحدثا تماما على تجارب الأوربيين) وعلى التيفوس والتيفود والانفلونزا والديفتريا • واضطرت الطبقات الفقيرة التي تقطن مدنا مكتظة بالمساكن من تأثير هذه الأمراض الى دفع ضريبة أفدح من الضريبة التي دفعتها الطبقة المتوسطة والطبقة الأرستقراطية ، وان كانت هاتان الطبقتان لم تأمنا الاصابة بهذه الأمراض ، وأبلغ شاهد على ذلك هو وفاة الأمير البرت زوج الملكة فيكتوريا متأثرا باصابته بالتيفود •

ووقعت عدة تغيرات في النظرة العامة الى هذه الأمراض المميتة خلال القرن • فلقد أحدثت تجربة الاصابة بالكوليرا ابان ثلاثينات القرن ، التي قتلت اناسا من مختلف الطبقات الاجتماعية ، اثر اصابتهم بمرض لم يسبق معرفته باوربا ، وان كان معروفا تماما في آسيا ، أحدثت صدمة للحكومة الانجليزية دفعتها الى اتخاذ اجراءات لمواجهة هذا الخطر ، وتركزت معظم اجراءات الحكومة على تحسين وسـائل الصرف الصحي وتنقية مصـادر المياه•وترتب على ذلك حدوث تزايد مطردوان كان حذرا ــ في مستويات الحكومات المحلية والمركزية في بريطانيا عن شئون الصحة العامة • ولم يكن مستطاعا أن تحقق هذه الجهود ما هو أكثر من التقدم المحدود بالنظر الى قصور المعرفة الطبية آنئذ ، ولم تعرف على نحو مرض الصيغة الجرثومية للمرض ، الا في الثلث الأخير من القرن ، وان استمر تردد السـلطات والمسئولين في الأوساط الطبية لسنوات عن الاعتراف بها ، والحكم عليها

(★) نقـلا عن Endangered Lives : Public Health in Victorian Britain (١٩٨٣) تأليف Antohny S. Wohl.

بالمقارنة بالنظريات المنافسة لها • وحتى بعد ان عرفت وسائل منع هذه الأمراض مثل التحصين ضد مرض الجدرى ، فقد ثارت معارضة أخلاقية وسياسية محلية تعترض على تفويض الحكومة لاتباع هذا السبيل من سبل العلاج • ومع هذا فقد نجحت السيطرة على معظم هذه الأمراض بقدر « معقول » فى مشارف القرن العشرين ، برغم ما شاب هذه الناحية من بلبلة ومنافسات سياسية • ولقد شددنا على كلمة « معقول » ، وربما كان من الواجب ملاحظة ذلك ، لأنه فى العقد الثامن من القرن العشرين ، اجتاحت موجة من الانفلونزا الوبائية أوربا وامريكا ، أصابت أو فتكت بملايين ممن تعرضوا لهذا المرض •

السرطان والنوبات القلبية وحوادث المرور ، جميع هذه الأحداث من مقومات مجتمعنا الحديث • وليس هناك ما يدعو الى شعورنا بالقلق من حدوثها مادامت لم تصبنا بأى أذى • فالخوف والتهديد بالموت المفاجىء يكمن فى كوامن وعينا • وكان القرن التاسع عشر يتماثل معنا فى تخصيصه الجانب الأكبر من وقته وفكره للأحداث المباشرة الخاصة بالاستمتاع بالحياة ، أو الكفاح من أجلها أكثر من الجانب الذى يخصه للتفكير فى احتمال الموت المبكر • اذ كان الناس على عهد الملكة فيكتوريا (ملكة بريطانيا) يحيطون الموت بمظاهر التقديس ، حتى يخففوا عن أنفسهم وطأة صدماته ، وحول الأثرياء الجنازات الى احتفالات مهيبة تتطلب نوعا خاصا من المراسم والاتيكيت ، بل والفنون الزخرفية • وحولها الفقراء الى مناسبات تخضع لنفس البواعث السيكلوجية ، أى لكى يلتقوا بالأصدقاء والجيران ، وللاستعانة بنفس التقليد كبلسم يخفف من لوعتهم ، ويتيح الفرصة للشراب والغذاء والثرثرة وأداء الشعائر ، ومشاطرة الأحزان والعطف على المحزونين • وتساعد عملية التذكرة على تيسير فرص الخشوع والاحترام للموتى ، وللتخفيف من مشاعر لوعة فراق واحد من الأعزاء ، التى يشعر بها من استمروا باقين على قيد الحياة • وكان احتمال التعرض لموت مفاجىء غالبا ما يكون موجعا ــ من جراء الاصابة بمرض أو آخر من الأمراض الوبائية العديدة حينذاك ــ من الحقائق التى لا منص من وقوعها فى حياة أبناء القرن التاسع عشر •

وعندما نقول ذلك ، فاننا لا نقصد الايحاء بهول صدمة الموت على الأحياء • فعندما كانت تحدث اصابة « بالحمى » ، كانت تترك آثارها على حى بأكمله • وكانت مشاهدة الوالدين وأهل البيت أو صغار الأولاد وهم يتداعون على مهل او يموتون فجأة من المشاهد التى يتعذر تفادى الباقين على قيد الحياة الافلات من تأثيرها • ولم يكن بالمقدور مواساة أهل الفقيد الا بقدر محدود ، كتذكيرهم بحتمية وقوع هذا الحدث عندما تتقدم السن •

وينزع المؤرخون الاجتماعيون والطبيون الى التركيز على الأرقام الصماء لنسبة الوفيات · بيد أن مثل هذه الاحصائيات لا تكشف لنا الا القليل عما اعترى من بقوا على قيد الحياة من هزال ، أو عن الشقاء المادى أو السيكلوجى الذى ترتب على المرض أو الموت · وفيما يتعلق بتأثير المرض على الفقراء ، يمكن القول بأنه قد يعنى الانحدار الى درجة الكفاف والالتحاق بمعسكر من يستحقون الغوث · وقد يعنى المرض بالنسبة للمجتمع فى شموله تعطل الحياة العادية والاحساس بالتوتر واللهفة التى تذكرنا بحالة مجتمع فرض عليه الحصار ·

وابان القرن الثامن عشر ، ظهرت طائفة من مستحدثات الأغذية وتوافرت محصولاتها ، مما أدى الى حدوث تحسن فى توريد الغذاء ، تمخض عنه انخفاض فى نسبة الوفيات وازدياد مدعم فى عدد السكان · غير أن ما حدث من نزوح سريع الى الحضر فى بداية مراحل الثورة الصناعية لم يترتب عليه أى تبدل فى نمط التقدم العام · وتغير هذا الحال بأكمله تغيرا حادا قبل ارتقاء فيكتوريا لعرش انجلترا · فلقد ذاعت أخبار العودة المزعجة لعهد الأوبئة ، وجرت احصاءات بشأنها استندت الى أرقام منتزعة من بيانات الاحصاءات السنوية ، التى نشرها مكتب القيودات العامة الحديث الانشاء والأبحاث التى أجرتها الجمعية الاحصائية بلندن · وساهم ما نجم عن ذلك من ازدياد الدراية بارتفاع نسبة الوفيات بقدر كبير فى النهوض بالمدن فى عهد الملك جورج الخامس فيما بعد ، وصحب ذلك ارتفاع نسبى فى كثافة السكان المقيمين وسط المدينة الذين شعروا على حين غرة بانتشار الأوبئة ، مما شجع الطبقات الأثرى على ترك وسط المدينة والاقامة فى الضواحى · وساعدت عودة انتشار الأمراض المعدية والوبائية بمعدل عال ـ وبخاصة الكوليرا ، وهى مرض جديد على الحياة الانجليزية ، ولعلها أول وباء ينتشر فى البلاد منذ انتشار الطاعون فى القرن السابع عشر ـ على تذكير الانجليز فى عهد فيكتوريا بأنهم رغم ما أحرزوا من تقدم ، الا أنهم ليسوا محصنين ضد اقتصاصات الماضى ·

ان هذه الأمراض الوبائية الرئيسية ، رغم انتقالها على أنحاء مختلفة (أى عن طريق المياه الملوثة والأطعمة والملابس وأدوات الطهو وقمل الملابس والذباب أو رذاذ الفم) واحتياجها الى سبل مختلفة للعلاج ووسائل الوقاية، تتأثر جميعا بالنظام الغذائى والنظافة الشخصية والعزل الصحى ، وترتيبات أسلوب العيش بالمنزل · وتتطلب هذه الأمراض شيئا أكثر من الفن العلاجى للطبيب ، والأبحاث التى يجريها المعمليون · انها تتطلب من الدولة التفتيش والتحكم فى المغالاة فى الكثافة السكانية العشوائية واهمال الريف · قصارى القول ، لقد دفعت هذه الأمراض الدولة للتصدى لمسائل الصحة العامة والاضطلاع بدور حارس البيئة ·

ومن بين الأمراض القاتلة فى العصر ، انفردت الكوليرا بنسبتها العالية كما أثبتت البيانات الاحصائية · فلقد اتبعت الكوليرا فى تقدمها خطا صارما بدأ من آسيا عبر أوربا ، وغزا انجلترا لأول مرة (١٨٣١ ـ ١٨٣٢) ، ثم عاودت الكرة (١٨٤٨ ـ ١٨٤٩) ثم خفت حدتها (١٨٥٣ ـ ١٨٥٤) و (١٨٦٦ ـ ١٨٦٧) وتتساوى فى الأهمية مع عدد الوفيات النسبة العالية للضحايا من مخالطى المرض (من ٤٠٪ الى ٦٠٪) ، وسرعتها فى اصابة الأفراد · ومن غير المستبعد أن يموت الضحية بعد ساعات قليلة من ظهور أول أعراض المرض · ولكن الأعم من ذلك هو موته بعد عدة أيام من معاناة أوجاع المعدة والقىء والاسهال وخمول الجسم · وتنخفض درجة حرارة الجسم خلال هذه الأيام ، ويهبط النبض هبوطا شديدا ، ويتيبس الجلد · وخلال المراحل الأخيرة ، قد يعتقد أن المصاب فارق الحياة ، ورويت حكايات بشعة عن عمليات دفن متسرعة قبل الأوان ، وعن محاولة الضحية (الغلبان) الافلات من المصير الزائف ، وتمزيق الكفن ! وازدادت المخاوف بعد أن حدثت حالات وفاة فجائية لأشخاص أصحاء ظاهريا · وكتبت احدى المجلات (*) ١٨٣٢ مقالا عبر عما لوحظ من انزعاج :

« عندما نرى نفرا من أقراننا من المخلوقات ينعمون بصحة جيدة · ويتمتعون بكامل العافية وهم فى مقتبل العمر ، تنتابهم بغتة أعراض تقلصات شديدة ، ثم يلقى بهم فى القبر بعد ساعات قليلة · ألا تؤدى مثل هذه الحالات الى اثارة أشد الأعصاب صلابة ، والى اثارة هلع أقوى القلوب ؟ » ·

وهكذا اكتسبت الكوليرا اسم « مرض الصدمة » ·

وزاد من حدة الازعاج العام التقارير الواردة من أوربا عن تعرض المسئولين أو الأطباء للمرض والمبالغة فى ذكر الأخبار ، كما فعلت جريدة « لانسيت » عندما قالت « لم يتمكن أى شخص مهما علا مقامه من الافلات من أوصابها · فقد أبيدت عائلات كاملة ، وتحولت الأمم المتحضرة الى قطعان من الهمج ، وتلاشت كل درجات التنظيم الاجتماعى وروابطه » · وليس من شك أن جريدة التايمز اللندنية كانت تبالغ ١٨٣١ عندما اختارت عبارات مثل « الذعر الأكبر » · ولكن فى السنة التالية ، وقعت ثلاثون حادثة من حوادث الشغب رافقت ظهور الكوليرا فى لندن وليفربول ومانشستر واكستر وادنبرة وبرمنجهام وبريستول وشيفيلد وجلاسجو وجرينتشر وبازلى · وعلى عكس ذلك لم يحل تفشى الكوليرا فى مدينة هل وسلبى وليدز فى ربيع ١٨٣٢ دون حضور أهل البلاد القريبة من يورك مواكب القداس الذى يقام فى ذكرى وثيقة الاصلاح ١٨٣٢ ، كما

Methodist: Magazine (*)

لم تساعد الكوليرا على تخفيف زخم التزاحم على مشاهدة السباق الأسبوعي للخيل • وقد أثارت معظم أحداث الشغب المخاوف التي شاعت عن انتهاز طلبة الطب والأطباء فرصة تفشي الكوليرا للحصول على جثث الضحايا والاستعانة بها في دروس التشريح • وأشيع أنهم يقتلون ضحايا الكوليرا • وحدثت حالة من الخوف المرضي من الكوليرا (*)،امتدت بضعة أميال من مركز انتشار الوباء • فعندما ظهرت الكوليرا لأول مرة في سوندرلاند في الشمال، ثار الذعر على الفور في مدينة كيرنرفورن وجلوستر ونورويش وبليموث • وصحبت هذه الحالات دوما مخاوف الانتشال السريع(**) للمشتبه في موتهم والدفن المتعجل للضحية قبل التأكد من الوفاة ، أو الدفن في أرض مدنسة• ولا شك أن حالة الصحوة تتطلب الانتظار مدة معقولة بين الوفاة والدفن • وجاء اصرار الجهات المسئولة على سرعة دفن ضحايا الكوليرا متعارضا هو وعادة تكريم الموتى • فلقد حالت الأعداد الكبيرة للموتى دون احاطة عمليات الدفن بمراسم التكريم التي تتطلبها الأعراف • فكان رجال الدين يتلون شعائرهم في عجلة مع الابتعاد بالقدر الكافي الذي يوفر الأمان ، خارج حوش المدفن ، ولم تعر الجنازات أي اهتمام • وكما علقت شارلوت يونج على ذلك بقولها : « الاحياء أولى بالرعاية من الموتى » • وشعر الايرلانديون بوجه خاص بالغضب من سرعة اجراءات الدفن ، وانجازها على وجه لا يناسب المقام • وفي بعض الأحيان ، حاولوا التصدي للسلطات عندما كانت تحضر لدفن الجثة ، ورفضت الشرطة المسئولة عن دساكر لندن الشهيرة الاقتراب من جثة أحد ضحايا الكوليرا ، وكان أقارب الضحية يحاولون حمايتها من الدفن المتعجل • وطلبت السلطات المحلية من بعض « الكونستبلات » الخاصين اقتحام المكان واخراج الجثة ، ولكن قواص الكنيسة أبلغهم بعدم سماح الأبرشية دخول أي كونستابل مهما كانت الأسباب ، ولن تقدم لهم أية مساعدة من الدار • وانتهى الأمر بتطوع بعض السقايين بحمل الجثة نظير خمسة بنسات لكل منهم•وهذا أجر سخي (لانه يتساوى مع ما يتقاضونه لدى اشتغالهم يومين أو ثلاثة أيام) ويمثل ما سموه « بدل الهلع » (***) •

ودلت جميع الشواهد كحالة الخبل التي اجتاحت الحي بأكمله والرائحة النفاذة للقار المحترق وما يتصاعد منه من دخان كثيف ، ودمدمة نحيب أقارب الضحية عند خروج النعش مدى أثر الكوليرا • وبدت بعض المدن بعد هروب عدة آلاف من سكانها بمجرد لمحهم أول بوادر للكوليرا

(*) Chcleraphopia
(**) Burking
(***) Wages of Fear.

أشبه بمدينة أشباح : ولاحظ الدكتور اليزون « أنه قلما رئى أحد يسير في الطريق ، ولم يسمع أى صوت خلاف صوت العربة التي يركبها الأطباء ، والغمز الدائر على الألسن » • وفي مدينة بلستون قرب ولفر هانتون كتب أحد الشماسين بالكنيسة : « لقد توقفت تماما جميع أنشطة السكان ، ولم يعد هناك أى أحد يتمتع بالسلطة غير العوز والمرض والموت والفقر الشائع في كل مكان » • أما في ولفر هانتون نفسها ، فقد جاء وصف الطبيب المحلى لها على الوجه الآتى :

« في جميع الأركان ، لا يوجد غير أحد المرضى وأحد المحتضرين وأحد الموتى •• وساد الصمت المدينة ، الذى لا تقطعه غير أصوات دق جرس الخباز • ياله من صمت رهيب • وكانت الشوارع مهجورة ، لا يلمح فيها سوى خطوات الأطباء ، ومعاونيهم وهم يسرعون الخطى ، أو بعض من يجرون بحثا عمن يقدم لهم العون • ولا يسمع أى صوت غير أصواتهم وصوت أجش لحصان عربة الطبيب الأوحد وهو يهرع لأداء واجبه • ولعل هذه العربة كانت العربة الوحيدة التي تشاهد في الطرقات بعد أن كانت تعج عادة من شدة الزحام » •

ومما يثير الدهشة ، أن لا يوجد سوى قدر قليل من الذعر • وعلينا أن لا ننسى أن أول وبائين للكوليرا قد حدثا في فترة من فترات القلق السياسى والاجتماعى • وكشفا عن مقدار ما كان ينعم به المجتمع الانجليزى من استقرار •

ويزداد وضوح هذه الحقيقة على ضوء العجز الكامل عن السيطرة على هذا الوباء الوبيل ، ناهيك بالقدرة على منعه أو علاجه • اذ يستفحل شر مرض الكوليرا من جراء ابتلاع بعض المياه ، أو تناول طعام ملوث من تأثير نوع البكتريا المسببة لها ، وربما استطاع الفيبريو (*) الاستمرار في البقاء خمسة أيام في اللحم واللبن أو الجبن ، وبدرجة أقل في الخضروات ، وحتى ستة عشر يوما في التفاح • وبمقدوره العيش في الماء زهاء خمسة عشر يوما • وينتشر بدرجة أشد في المياه الملوثة بافرازات ضحايا الكوليرا ، أو عن طريق الذباب الذى يفقس أو يتغذى ببراز المريض •

وانقسم رأى الأطباء مما دفع الى اليأس من امكان تعليل أسباب الكوليرا • ويبين مما نشر في أكثر من سبعمائة بحث في الحقبة الواقعة بين ١٨٤٥ و ١٨٦٠ عن الكوليرا في لندن أن هذا المرض لم يكن « مرض الصدمة » فحسب ، ولكن أسبابه ومنعه كانا من الموضوعات التي تحتمل

(*) Vibrio

تفسيرات شتى • ولاقت النظرية التى تعتقد أن الكوليرا من الأمراض المعدية الكثير من المعارضة • أولا — لأنها ستجر فى ذيلها انشاء مناطق للعزل الصحى (كرانتينة) • ويؤدى هذا الاجراء الى تعطيل التجارة ، وقيل ان أقصى ما يمكن أن يتحقق من وراء الحجر الصحى هو زيادة الفقر والبطالة لجماهير الشعب ، وبذلك تزداد خطورة انتشار الكوليرا • وعلى أية حال ، لم يكن من الميسور انشاء جهاز ادارى يحظى بالقبول لهذا الحجر الصحى داخل البلاد • وأثارت الاستعانة بالجيش شبح الاجراءات القمعية والأحكام العرفية • كما أن أجهزة الأمن التابعة لوزارة الداخلية لم تكن جاهزة للنهوض بمثل هذه المهام•وعندما قررت السلطة فى ستراتفورد على نهر الافون فرض حصار حول المدينة ، كان عليها الاعتماد على زمرة طاعنة فى السن ، وعلى الحثالة • ورئى أن هذا الاجراء لا يليق بمدينة خالدة انجبت أحد مفاخر انجلترا : شكسبير • أما الأهم فهو اصابة الكوليرا لبعض أفراد من العائلة وعدم اصابتها لبعض آخر ، ومن ثم انهارت نظرية القائلين بانتقالها عن طريق العدوى • ورأت النظرية البديلة ارجاع انتشار الكوليرا الى « ميازمات » أو مخلفات العفن فى البراز ، كما اعتقد شادويك • وبدا هذا الرأى وكأنه قد وضع اصبعه على السبب الحقيقى ، لأنه وجه الانتباه الى خطورة القاذورات ومخلفات الغائط المترتبة — بوجه خاص — عن عدم كفاية الصرف الصحى وتراكم القمامة •

على أن ازاحة الافرازات ازاحة كاملة كانت من المقترحات التى يحتاج تنفيذها الى وقت طويل ، بينما يتطلب القضاء على الوباء عملا فوريا • وذكرت عدة وسائل للعلاج،أوحت معظمها باقتراب الفيكتوريين فى تصورهم لمحاربة الأمراض الوبائية من القرون الوسطى ، أكثر من قربهم من عصرنا • وذكرت مجلة لانسيت فى مقال مفعم بروح التفاؤل (١٨٣١) خبرا عن نجاح بعض يهود شرق أوربا فى النجاة من الكوليرا بفضل دهن أجسامهم بمحلول مؤلف من النبيذ والخل ومسحوق الكافور والمسطردة والفافل والثوم ومسحوق آخر للأجسام المجففة للخنافس التى تعرف هناك باسم الذبابة الاسبانية ! • ومر موردو الأدوية المرخصة بأيام عصيبة • اذ كان بين الوصفات أشياء عجيبة(*)•••وفضل كثيرون الدواء الأكثر اغراء وتوافرا فى الأسواق ، وكان عبارة عن عشرين نقطة من اللودنم (صبغة الأفيون) فى زجاجة من البراندى !

(★) ذكرت قائمة كبيرة لعلها معروفة للمشتغلين بالصيدلة او العطارة وعلى راسها اكيبير Moxon Effervescent Maagnesium, Daffey وخلطة من الخضروات الصحية الحقة •

أما العلاج الأبلغ أثرا ، رغم صعوبة الاعتراف بذلك ، وان كان له أثر معترف به في طمأنة النفوس ، فهو اقامة الصلوات وصيام بعض أيام • وذكر هذا الاقتراح بعض أصحاب المناصب الدينية الوقورة • وأعلن في صوت هادر من فوق آلاف من المنابر أن الكوليرا عقاب أنزله الله بالناس لانحلالهم الخلقي والروحاني،ولافراطهم في الشراب،وعدم احترامهم لقدسية أيام السبت ، بالاضافة الى عدة ذنوب أخرى من ضمنها اعطاء حق الانتخاب لليهود ، والزواج من شقيقات المصابات بالوباء • واتجه الانجلكانيون بوجه خاص الى مطالبة الفقراء بالوثوق بالصلوات ، كما قدمت طائفة دينية أخرى كانت تطالب بالاستقلال الذاتي للكنائس علاجا أخلاقيا للوقاية من الكوليرا ويتلخص في التعفف والنظافة والاجتهاد والجلد وتلاوة الكتاب المقدس • أما طائفة الوحدويين فجنحت الى نزعة أكثر عقلانية وأرجعت « الخطيئة الى الحالة العامة للطبقة الدنيا » ، التي تشجع على انتشار المرض • « وربما ساعدت الصلوات على شفاء الروح الجريحة ، ولكنها لن تداوي الجسد الممزق ، واذا أفلحت في تنقية القلوب ، فانها لن تطهر الجو •• » •

واتبع نفس الاتجاه الى حد كبير اللورد بامرستون • فعندما طلبت منه بعض الطوائف الكنسية أثناء زيارته ١٨٥٣ اعلان يوم وطني للصوم أجاب وزير الداخلية : « ان خالق الكون قد وضع قوانين معينة لطبيعة الأرض التي نحيا فوقها • ويعتمد ما يصيب البشر من كرب أو فلاح على مراعاة هذه القوانين أو تجاهلها » • وأشار بامرستون الى أن الأجدى هو « الشروع في تطهير أحياء الطبقة العاملة في جميع المدن ، والنهوض بها » حتى يتسنى الخلاص من :

« مصادر العدوى التي اذا سمح لها بالبقاء ستولد الوباء بلا مراء رغم كل شعائر الصلاة والصيام التي تقوم بها الأمة المتحدة ، وان كانت خاملة الهمة • واذا بذل الجميع قصارى جهدهم لتحقيق سلامتهم ، سيكون من المناسب حينذاك التضرع لله لكي يوفق جهدهم » •

وعندما رجع سيرجون سايمون بذاكرته الى استعراض الأحداث في نهاية تاريخه الطويل ، انضم الى رأي بامرستون ورآه يرمز الى « مميزات عصر جديد » • ان هذا العصر ، وما يتميز به من تصميم الحكومة المركزية على ارشاد الجماعات والطوائف المحلية ، وتوجيهها ، قد بدأ عندما انتشر وباء الكوليرا ١٨٣٢ ، وما تمخض عن ذلك من مطالبة الحكومة للتحرك • وبينما لم تفعل الحكومة شيئا ما لمواجهة « الحميات » التي كانت متوطنة في جميع المدن الكبرى ، والتي كانت على المدى البعيد مسئولة عن بعض الاصابات التي أدت الى الوفاة ، وفاق عددها ضحايا الكوليرا ، الا أنها قد غدت الآن مرغمة على اتخاذ اجراء ما • وتم الاسراع في تشكيل مكتب

مؤقت لصحة بعد تبادل الرأى بين «المجلس الخاص» (*) وكلية الأطباء الملكية .. وكان هذا المكتب يتألف من رئيس وأربعة أعضاء من كلية الطب والمشرف العام على الحجر الصحى والمدير العام للخدمات الطبية فى القوات المسلحة والمستشار الطبى لادارة التغذية واثنين من العاملين خارج الدوائر الطبيـــة .

وأصدر هذا المكتب المؤقت للصحة سنة ١٨٣١ و ١٨٣٢ مجموعة من التوصيات فى شكل تعليمات صحية ، وطالبت هذه التوصيات الحكومات والادارات المحلية باقامة مكاتب للصحة . واقترح أن تضم واحدا أو أكثر من المعينين المسئولين وأحد رجال الدين وعددا من أصحاب الدور الخاصة (وهى توصية تميزت بهـا هذه المكاتب على الهيئات المحلية السابقة) وواحدا أو أكثر من المشتغلين بالطب . وتضمنت التوصيات قيام المكاتب المحلية بتعيين مفتشين للأقاليم والأحياء ، ولعلها المرة الأولى التى تقترح فيها الحكومة المركزية انشاء شىء ما فى جميع أنحاء انجلترا ، « للاشراف على حالة غذاء الفقراء وملابسهم وفراشهم ، والتهوية فى دور اقامتهم ، وحالة المكان ووســائل التنظيف وعاداتهم ، ومدى اتصــافهم بالاعتدال والتعفف » ، وأشير الى وجوب طلاء المساكن وتنظيف أغطية الفراش ، واقامة مستشفيات للكوليرا ، وانشاء معسكرات للحجر الصحى ـ وان كان هذا المطلب الأخير لم يتصف بقدر كاف من الجدية ـ بالاضافة الى توزيع الغذاء والكساء على الفقراء ، وتوحى هذه التوصيات بادراك الحكومة ضرورة توافر النظافة فى أماكن الاقامة ، وكفاية الملابس والغذاء الوافى لزيادة مقاومة المرض ، بعد أن تعرضت لضغوط شديدة من تأثير أزمة الكوليرا . على أنه فى العقدين التاليين ، انتقل التركيز بفضــل جهود المصلح البريطانى سير ادوين تشدويك (١٨٠٠ ـ ١٨٩٠) الى اصلاح المرافق الأكثر عمومية كمصادر المياه وأجهزة الصرف الصحى .

وتميزت أغلب توصيات المكتب بمعقوليتها ، ولكن الجهات المسئولة ظلت حائرة فى تفسير أسباب تفشى الكوليرا ، ومن ثم عمدت الى اضافة نصيحة بالشروط الواجب مراعاتها عند اختيار وجبات الغذاء ، الى جانب نصيحتها باتباع النظافة الشخصية ونظافة المأوى :

« عليك أن تتناول فى وجبة الغذاء مقدارا معقولا من شواء اللحم البقرى بدلا من اللحم المسلوق ، مع كسرة من الخبز الناشف والبطاطس وزجاجتين من النبيذ الممتزج بالماء أو مقدارا مكافئا من المشروبات الروحية الممتزجة بالماء ، أو الجعة السوداء . وعليك التزام الحرص على تناول الفاكهة والخضروات الطازجة ، وتجنب اللحوم السمينة والمأكولات المفرطة

(*) Privy Council

الحلاوة ، وباختصار ، وخشية التعرض للاصابة بالكوليرا ، تناول الوجبات المغذية الجافة ، واحرص على أن تكون وجبتك كاملة القيمة الغذائية أكثر من كونها متعددة الأصناف ، والتزم الحذر عند تناول وجبة العشاء ، لأن الكوليرا غالبا ما تصيب ضحاياها عند اقتراب منتصف الليل ، وفي وقت مبكر قبل الشروق » ٠

واعترف المنشور نفسه باخلاص « بعدم العثور حتى الآن على دواء للوقاية من الكوليرا ، وحذرت توصياته من رؤى الدجالين وما يقال عن جدوى عملية الاستنزاف بوساطة دودة العلق ، والحمامات الدافئة المتبوعة بالتدليك بقطعة من الفانيلا ، أو تناول مزيج من زيت الحوت واللودن ، والضمادات المنقوعة في مزيج من زيت الخردل والنعناع وزيت التربنتين الساخن » ٠ ومن الطريف أن مجلة لانسيت لم تر في هذه الوصفات ما يستحق النقد ، واكتفت بالتعليق عليها بالقول بأن المكتب لم يوضح توضيحا كافيا دور الأطباء ٠

٠ أما داخل البلاد ، فقد شعرت المجالس المحلية بقدر من الانزعاج من فكرة انشاء مكاتب وقتية للصحة وشن حرب عشوائية نوعا على القاذورات طبقا للأسس التي وضعها المكتب العام ، وأنفقت مبالغ من المال لم يسبق لها مثيل على النظافة ، فاعتمدت ادنبرة مثلا مبلغ ١٩٠٠٠ جنيه لمحاربة الوباء (١٨٣٢) ٠ غير أن هذه المكاتب كانت مؤقتة ، وتماثلت في أثرها المهلك هي والكوليرا ، لأنها بمجرد انتهاء الوباء سينسى أمرها ، وترتجل الاصلاحات على عجل ، ولم ينظر اليها على أنها وسائل لمواجهة التحدي ، وأنها أساس للنظرة الشاملة الى مشكلات الصحة العامة ٠ واذا نظرنا فيما وقع في هذه السنة ، سنرى أن السجل السنوي (*) ١٨٣٢ قد ذكر انتشار المخاوف على نطاق واسع : ففي كل مكان داهمته الكوليرا لم تكن بالفظاعة ولم يترتب عليها ضحايا بالقدر الذي تخيلته التصورات المسبقة ، وكان الفزع أشد بدرجة كبيرة من الخطر ٠ وعندما اختفى المرض شيئا فشيئا ٠٠٠ « شعر الجميع بالدهشة لما أصاب الناس من شدة الهلع » ٠ وعندما عاودت الكوليرا الظهور بعد عقد ونصف من الزمان ، تبين ببشاعة مدى ضآلة ما أنجزته السلطات المحلية ، فحتى ١٨٤٨ ، فشل الوباء في الحث على انشاء مكاتب محلية للصحة في شتى أنحاء البلاد ، واستمرت مراكز عديدة لتجمعات الأهالي تعاني من البلبلة ومن جهل الشرطة ، وعمال الصرف الصحي والاضاءة ورصف الطرق ، الذين كانوا جميعا يرزحون تحت وطأة تخلفهم وافتقارهم للكفاءة الى درجة محبطة للآمال ٠

(*) Annual Register.

وفي ١٨٨٥ ، عندما أشرف الدكتور بالارد على عملية مسح للكوليرا بتكليف من مكتب الحكومة المحلية ، انتهى الى القول : « بأن بمقدورنا الآن أن نواجه بشعور أخف من الفزع مما تشعر به أية دولة أوربية ظهور وباء الكوليرا ، وليس من شك ٠٠ أنه على الرغم من ظهور الكوليرا في ٦٤ مجتمعا (١٨٩٣) ، الا أنها اقتصرت على احداث اصابة واحدة في كل ٤٢ حالة ٠ وهذا بالتأكيد مقياس تقريبي لما حدث من ارتفاع في مستوى الخدمات الصحية العامة ، وكما كتب المسئول الطبي عن الصحة (*) في مكتب الحكومة المحلية بعد شعور بالارتياح والتهلل : « لقد جاءت هذه النتيجة ، والتي لم يسبق لها مثيل في تاريخ الكوليرا — في اعتقادي — بفضل تحسن الأحوال الصحية في انجلترا ، وفي ١٨٩١ ، تسنى للحكومة « استبعاد الكوليرا كأحد الأمراض المستوردة من الخارج ٠ وبعد أن كان متوسط الوفيات سنويا قد بلغ معدل ٢٣١ في المليون من الأحياء ، في الحقبة الواقعة بين ١٨٤٨ و ١٨٧٢ ، هبط هـذا المعدل الى مقدار تافه ٠٠٦ر (١٩٠١ — ١٩١٠) » ٠

وفي الفترة التي تفصل انتشار الوباء الأول للكوليرا ، وانتشارها في الوباء الثاني ، قلت المجاهرة نوعا برد الكوليرا الى انتقال المرض عن طريق العدوى ، أو ارجاعهـــا الى عقوبة موقعـــة من الله ٠ أما النظرية « المياسمية » فاستمرت مهيمنة على الرأى الطبي العام ، حتى بعد ظهور نتـائج التجـارب التي أجراها الدكتور وليم باد والدكتور جون سنو(**) ١٨٤٩ ٠ فقد استخلص الدكتور باد الذي أجرى أبحاثا عديدة للتعرف على أسباب التيفوس والتيفود (١٨٤٩) الاعتقاد بأن « الكوليرا كائن حي من نوع متمايز ، يدخل الجسم أثناء عملية البلع ، ويتكاثر في الأمعاء بتأثير التكاثر الذاتي » ، وأذاع سنو هذه النظرية على نطاق واسع(***) ٠ واتيحت لسنو ١٨٥٤ الفرصة لاثبات صحة نظرياته ، عندما تتبع حالات الكوليرا على نحو درامي وقاطع الدلالة في بيوت مزودة بمياة ملوثة مستمدة من شركات للمياه في ساوثورك وفوكسهول ، وعندما حاول اقناع السلطات المحلية بايقـاف ضـخ المياه في شارع برود بسوهو (وهو من الأحيـاء المكتظة التي بلغت فيها نسبة وفيات الاصابة بالكوليرا خمسين شخصا يوميا) ، وتوقفت حالات الموت المفاجيء ٠ وعلى الرغم من عدم افلاح أحد في التعرف على فيروس الكوليرا قبل نجاح العالم الألماني كوخ في هذا الشأن ١٨٨٣ ، الا أن ما أنجزه سنو يعد انتصارا لعلم الأوبئة ٠

(*) Moh.

(**) John Snow, William Budd

(***) كتـاب On the Mode of Communication of Cholera. (١٨٤٩) ٠

وعلى الرغم من أن الكوليرا كان لها وقع درامى تفردت به بين جميع الأمراض ، الا أن الحمى خـلال القرن التاسع عشر هى التى استحثت السلطة المركزية والسلطات المحلية على بذل أعظم الجهود لمكافحتها • فالكوليرا تروح وتجىء ، كما لاحظ « المجلس الخاص » ١٨٦٤ « أما حمى التيفوس ، فالظاهر أنها لا ترغب فى مفارقتنا قط » • وكانت مختلف أمراض الحمى تتصف دوما بتوطنها وغلبة ارتفاع معدل الاصابة بها عن المعدلات المعروفة عن الأوبئة ، ومن ثم فانها كانت تتربص وتهدد صحة البلاد • ولفتت الحمى الأنظار الى أوصـاب القاذورات والفقر ، وبذلك أرغمت السلطات على الالتفات الى مسائل الصحة العامة ، يعنى الظروف الاجتماعية والبيئية ، بعد التعرف على أثر مستوى المعيشة وعواقبه •

ويعرف التيفوس أيضا باسم «الحمى الايرلاندية» وحمى «السجون» و « حمى السفن » و « حمى العفونة » و « حمى المعسكرات » والتيفوس مرض ماكر خداع ، ينتشر بصفة أساسية عن طريق براز المصابين • وكانت نسبة وفياته عالية ، وان كان حتى أواخر عهده لا ينتهى بالوفاة الا فى حالة ثلث الحالات المبلغ عنها • وانخفضت نسبة الاصابة بالتيفوس فى سبعينيات القرن التاسع عشر فى سائر أنحاء انجلترا • وفى سنة ١٨٦٩ ، عندما أمكن التفرقة بين التيفود والتيفوس لأول مرة ، كانت هناك حالات وفيات من أثر الاصابة بالتيفوس مقدارها (٤٢٨١) حالة فى انجلترا وويلز • واقترب عدد الموتى من التيفوس فى سبعينيات القرن التاسع عشر من ١٤٠٠ سنويا ، وخلال العقد التالى ، انخفض المتوسط الى ما هو أكثر ، فوصل الى أقل من ربعمائة ، وانخفض عدد الوفيات فى التيفوس والتيفود معا الى ما يقرب الربع بين احصاء (١٨٥١ ــ ١٨٦٠) واحصاء (١٨٩١ ــ ١٩٠٠) وفى ليفربول ، وهى مدينة فقيرة يقيم فيها نازحون من الفقراء والعمال العرضيين ، وعرفت بشدة اكتظاظها بالسكان، وقد أثبتت هذه المدينة أثر القاذورات فى انتشار المرض • ولما عولج هذا السبب انخفض المتوسط السنوى للوفيات من جراء الاصابة بالتيفوس من ٧٤٨ (١٨٠٦ ــ ١٨٦٠) ومن ٦٠٢ (١٨٦٦ ــ ١٨٧٥) الى ٢٣٨ (١٨٧٦ ــ ١٨٨٥) • وتضـاءل العدد الى ١٥ شخصا فقط (١٨٩٦ ــ ١٩٠٥) ، وتناقص العدد الى ما هو أكثر من ذلك بين ١٩٠٦ ، و١٩١٣ ، الى عدد تافه ، يعنى أقل من ستة أشخاص سنويا • ومما يثير الانتباه أنه بالرغم من استمرار التيفوس فى البقاء الا أنه قد ازداد التحكم فيه بدرجة ملحوظة ، ولم يعد وجوده فى محافل ليفربول يحمل أى تهديد باحتمال تحوله الى وباء داهم يصعب السيطرة عليه •

فكيف نفسر هذا الانخفاض الملحوظ ؟ لقد شاع القول حديثا باحتمال رد الانخفاض الدرامى فى التيفوس فى سبعينات القرن التاسع عشر ، الى حد كبير الى التاريخ الطبيعى للمرض ذاته أكثر من رده الى ما حدث من تبدل فى البيئة الفزيائية نتيجة لمخطط واع • وتستند هذه الحجة ـ من ناحية ـ على الترتيب الزمنى للانخفاض • فقد زعم أنه كان أسبق فى الحدوث من ظهور آثار النهوض بمرافق الصرف الصحى وموارد المياه ، وما عاد من ذلك من آثار حميدة على السواد الأعظم من الآدميين • ويشار دعما لهذه الحجة الى أن المناطق التى عانت أكثر من غيرها من وباء التيفوس كثيرا ما كانت آخر المناطق التى جرت فيها اصلاحات لموارد المياه ، فلم يتم انشاء مرافق المياة الجارية فى أحياء الطبقة العاملة فى لندن ـ حيث كان التيفوس متوطنا ـ الا فى سبعينيات القرن التاسع عشر • ولا يستبعد تفسير آخر ركز على حدوث « تغير خارجى فى خطورة تأثير الكائن الدقيق الناقل للعدوى » وابتعد عن تأكيد دور برامج اصلاح المدن تبعا لمخطط واع ، وهذا لا يعنى « انه استبعد هذا العامل الأخير استبعادا كاملا ، ولكنه سعى فقط لاعادة ترتيب أولويات العوامل العلية » •

وهناك بالتأكيد الكثير مما يدعم هذه النظرية التى صححت المعتقدات السائدة ، وبخاصة لأن انخفاض عدد الوفيات بالتيفوس بالرغم من عدم اتصافه بالاطراد على الاطلاق قد انتشر ابتداء من سنة ١٨٧٠ ، وبعد ذلك، بينما لم يحدث تحسن مماثل فى الرعاية الصحية فى ستينيات وسبعينيات القرن التاسع عشر ، اذ قلت خطورة الاصابة بالتيفوس واحتمال تسببه فى موت ضحاياه فى البقاع التى لم تصل اليها اصلاحات النواحى الصحية • ومع هذا فلعلنا نتساءل هل كان التيفوس سيتضاءل بنفس هذا القدر المدهش فى المواضع المزدحمة كحارات المدن الكبرى وسجونها ومحاكمها ، لو أنهم اكتفوا باضعاف الكائن الدقيق ، ولم يعمدوا الى ازالة القمامة ونزح نفاية الصرف الصحى ، فلقد تضاءلت الاصابة بالتيفوس ، وتباطأت سرعة انتشاره فى مدن مثل بلفاست ودبلن وسوندلاند وليفربول ، أى فى المدن التى تقاعست عن تنفيذ عمليات اصلاح المرافق الصحية وموارد المياه ، حيث نجع الفقر المنتشر فى التعايش مع القاذورات ، وعندما تكون الكائنات الدقيقة فى حالة نزوع الى الضعف فانها لن تحتاج الى ما هو أكثر من أوهى المؤثرات الاضافية (كرفع المستوى الغذائى مثلا) كى تزداد ضعفا • وبينما يصح القول بأن التيفوس قد خفف من قبضته المريعة قبل تعميم نظام الصرف الصحى ومشروعات المياه فى شتى أنحاء انجلترا ، فلا يمكن أن ننكر أن أبسط التحسينات التى تمت فى ستينيات القرن التاسع عشر كالخلاص من القمامة الملوثة واستعمال الأوانى والأسطال الجافة التى تتوافر فيها الشروط الصحية والاكثار من الاستعانة بالقطنيات

« الأسهل في غسلها من الملابس الصوفية) في صنع الملابس الداخلية وأغطية الفراش ، قد عجلت باضعاف أثر التيفوس • واذا سلمنا بالقول بأن الطبيعة ذاتها كان لها دور أساسي في التخفيف من أثر التيفوس ، كمرض قاتل ، فلابد أن نصحح هذا الرأى ونقول ان الطبيعة كانت تعتمد على جهود المجالس البلدية وتشجيعها •

وخلال النصف الأول من القرن التاسع عشر ، كان من الصعب التفرقة بين التيفوس والتيفود ، وكان هناك خلط بينهما ، وبينما يصيب التيفوس المريض بالوهن والخور وينتشر عن طريق قملة الجسم ، فان التيفود من الأمراض البكتيرية ويتشابه هو والكوليرا في انتقاله بوساطة الطعام والشراب الملوثين • ويحتمل أن يكون حامله ، أى من ينقل المرض من شخص لآخر محصنا من الاصابة به • وتضيف هذه الظاهرة الى غموض التيفود ، ويعرض مريض التيفود جميع أعراض الحمى وآثارها كالاصابة بالفتور والخمول وفقدان الشهية والحرارة المرتفعة المتواصلة ، التى ربما صاحبتها حالة اسهال شديد (ولا تصحب هذه الأعراض التيفوس على الاطلاق) • وربما كانت جرثومته عالقة بالماء ، وبخلاف ما يحدث في التيفوس ، فان الاصابة به قد استمرت طيلة القرن التاسع عشر ، وتعرضت لها أيضا جميع الطبقات • فقد مات بسببه الأمير البرت ، وأصيب به اصابة خطيرة ادوارد أمير ويلز ، أثناء اقامته في القصر الريفي للكونتيسة لوندسبيرى (*) • ومات بنفس هذا المرض سايس الأمير والايرل شسترفيلد ، الذى كان مقيما بالقصر أيضا • وساعدت نجاة الوريث الشرعي للعرش البريطاني ، بعد أن كان مهددا بالموت على تحذير الآخرين من أبناء الطبقة الأرستقراطية بضرورة العناية بوسائل الصرف الصحى في دورهم • وبعد ذلك بعامين ، تفشى التيفود فأصاب احدى كليات جامعة كيمبردج ، ولفت الانتباه الى بداوة وسائل الصرف الصحى بالكليات التى يتخرج منها زعماء بريطانيا • وعلى الرغم من احتمال انتقال العدوى بالتيفود عن طريق سبل متعددة ، الا أنه من الواجب تشخيصه كباقى الأمراض الاسهالية كمرض من أمراض القاذورات • ومن غير المستبعد أن تكون المياة الملوثة ببراز آدمى وراء معظم الوفيات التى نجمت عن الاصابة بالتيفود في القرن التاسع عشر • فمثلا في مدينة ستوكبورت ، بلغت الاصابة بالدور التى لا يزيد ايجارها الشهرى عن أربعة جنيهات أربعة أمثال الاصابة في الدور المجهزة بدورات للمياه ، وثمانية أمثال الدور التى يتراوح ايجارها الشهرى بين خمسة جنيهات وثمانية • وعندما أوفد المجلس الخاص (١٨٧٠) الدكتور بوشانان (**) للتحرى عما اعتقد أنه

(*) Countess of Londesborough.

(**) Buchanan.

اصابة بالتيفوس (وان كانت الحقيقة قد بينت أن الاصابة كانت بالتيفود) رأى وجود مؤثرات « تحتم الاصابة بالأمراض الاسهالية ، نظرا لسوء حالة وسائل التخلص من البراز وتلوث مياه الشرب ، مما جعل الآدميين مرغمين على شرب برازهم » ٠

ولربما ساعد تعميم وسائل الصرف الصحى التى ساعدت بلا ريب على الاقلال من عـدد المتوفين من جراء الاصابة بالتيفوس ، على زيادة عـدد وفيات الاصابة بالتيفود ٠ وهذه نكتة تثير السخرية ! ويرجع السبب الى أن عمال الصرف الصحى كثيرا ما يلقون بالبراز الملوث فى الأنهار التى تعد مصدرا رئيسيا لمياه الشرب ٠٠٠ وبغض النظر عن السبب الحقيقى ، فان التيفود قد استمر متوطنا حتى نهاية القرن ، وحارت فى أمره السلطات المحلية والحكومة المحلية ، وبمجرد التفاتهم الى أحد المصادر التى يحتمل نقلها للعدوى ، ظهر مصدر آخر أثار اشتباههم كمصادر المياه واللبن والمواد الغذائية مثل الكارسون المائى (حب الرشـاد) وبعض الأسماك ٠ واعتبرت جميع هذه الأشياء من حين لآخر مسئولة عن انتشار التيفود ٠ وكافحت مقـاطعات نورثمبرلاند ودورهام ويوركشاير لتفادى تكرار الاصابة بوباء التيفود ٠ واستمرت مدن أخرى (*) تتعرض لوباء التيفود حتى نهاية هذا القرن ٠ اذ كانت جميع هذه المدن تستقى مياهها من نهر التيمز ، وفيه تلقى عشرون قرية مخلفات صرفها ، دون تنقيتها ، وبوجه عام ، بلغ عدد وفيات التيفود ضعفى باقى الوفيات فى المدن والريف على السواء ٠

وهكذا وأصل « التيفود » دوره كمقياس لعدم كفاية مصادر المياه ووسائل الصرف الصحى حتى نهاية القرن ٠ وعندما تفشى التيفود فى بعض المواقع ، كميدستون مثلا ،انتهزت المكاتب المحلية وانتهز المسئولون عن الشئون الصحية الفرصة فقدموا المختصين بالمياه محليا للمحاكمة ٠ وحتى عندما حدث اشتباه فى ارجاع التلوث الى مصادر أخرى (كاللبن أو الروث الذى يستخدم لتسبيخ التربة) كثير ما استغل التيفود كوسيلة للضغط على شركات المياه المحلية للعناية بمرافقها ٠

وعلى الرغم من غموض أسباب الاصابة بالتيفود وأسباب تفشيه ، وعدم الدراية بها ، فقد نجحت وسائل تحسين الامداد بالمياه والعناية بمرافق الصرف فى تخفيف آثاره الضارة ، اذ بلغ عدد الوفيات من التيفود فى الحقبة الواقعة بين ١٨٩١ و ١٩٠٠ نصف عدد الوفيات من ١٨٧١ –

(*) مثـل Middlesborough, Stockton, Darlington.

١٨٨٠ على وجه التقريب • وما أن جاءت ١٩٠٤ حتى انخفض معدل الوفيات الى ما هو أقل من ثلث المعدل الذى ساد طوال سبعينيات القرن التاسع عشر •

نظرنا حتى الآن فى الأمراض الوبائية التى تصيب الأمعاء ، وان كانت الأمراض الرئيسية للقرن التاسع عشر قد اشتملت على العديد من الأمراض التى تصيب الجهاز التنفسى والرئتين ، وعلى سبيل المثال ، كانت الانفلونزا من الأمراض المتوطنة طوال القرن التاسع عشر ، وانتشرت بعض الأمراض الوافدة فى فترات مختلفة بين (١٨٣٠ و ١٨٣١ وبين ١٨٣٦ ـ ١٨٣٧ وفى سنة ١٨٤٣ ومن ١٨٤٧ ـ ١٨٤٨ وأيضا من ١٨٨٩ الى ١٨٩٢) ، وعندما انتشرت الانفلونزا فى ١٨٤٧ و ١٨٤٨ بلغ عدد ضحاياها خمسين ألف شخص فى لندن وحدها • ويعادل هذا العدد حوالى خمسة أضعاف عدد وفيات الكوليرا (١٨٤٩) • وساعد على انتشـار الانفلونزا نوع المأكولات التى يتغذى بها الفقراء ، والتى تضعف مقاومة الجسم • وأيضا أحوالهم الاجتماعية العامة وارتفاع ثمن الوقود•واستسلمت جميع الأطراف للانفلونزا معظم سنوات القرن ، ولم تبدأ تثير اهتمام أجهزة الصحة العامة الا فى القرن الحالى •

وتحولت أمراض عديدة أخرى الى أمراض وبائية من تأثير انخفاض مستوى التغذية ، وما تبع ذلك من ضعف فى المقاومة • ولكن جميع هذه الأمراض لم تتماثل مع الحالة التى وصلت اليها الحمى القرمزية ، ولقد خشى الجميع هذا المرض ، لانخفاض نسبة نجـاة الأطفـال الذين كانوا يصابون بها • (اذ كان ٩٥٪ من المصابين فى جميع الحالات من الأطفال الأقل من عشر سنوات) • وفى وقت متأخر كثمانينات القرن التاسع عشر كان هناك فى ادنبرة طفـل يموت من بين كل ١٤ يصـابون بالمرض ، بينما اختطفت هذه الحمى ابان الوباء الكبير فى ثمانينات القرن التاسع عشر واحدا تقريبا من بين كل خمسة أطفال من المصابين بها • وعلى الرغم من الاشتباه فى تلوث اللبن كمصدر للمرض ، الا أن سببه الحقيقى لم يعرف ، واستمر من الأسباب الرئيسية للاماتة طيلة القرن•ففى ١٨٦٣ ، مات من جرائها ٣٤٫٠٠٠ وفى ١٨٧٤ ما ينوف عن ٢٦٫٠٠٠ • وفى لندن وحدهـا ، كانت سببا لموت ألف أو يزيد فى وقت متأخر (١٨٩١) • وطالب سير جون سيمون (١٨٩١) بعد أن أصـابه الاحباط لاخفاق الاجراءات الصحية لمنع انتشارها ، بانشاء نظام للحجر الصحى يتماثل فى الصرامة هو والنظام المفروض على الحيوانات المصابة ، وطالب أيضا بانشاء مستشفيات للحجر الصحى • وبطبيعة الحال ، تعذر انشاء نظام للحجر الصحى فى المساكن المكتظة للفقراء • وعلى الرغم من الحاح هذه

الضرورة ، الا أن السلطات المحلية تقاعست فى الاستجابة لمطلب انشاء عنابر للعزل فى مستشفيات الأطفال والمستشفيات • ويرجع ذلك الى الجهل بطريقة انتقال المرض ، والى التقتير ، وبعد ثلاثين سنة من تقدم جون سيمون لأول مرة بمطلبه ، استمرت السلطات المحلية عاجزة عن الاستجابة لرغبات المسئولين المحليين عن الصحة • وهكذا كان الأطفال يتنقلون أحرارا من دورهم التى تعرضت للاصابة الى المدارس ، ويعودون منها ناقلين المرض الى دورهم فى أحيان أخرى ، (وكانت الحصبة بالمثل من الأمراض المعدية التى لاقت نفس المصير) • وفى الحالات التى اتبعت فيها اجراءات العزل المعززة بالتبليغ المباشر عن الحالة ، وبالرقابة المحكمة على توريد الألبان ، كانت النتائج مذهلة فى أغلب الظن • وبوجه عام ، يمكن القول بأنه بين ١٨٦١ و ١٨٩١ ، هبط عدد وفيات الحمى القرمزية بمقدار ٨١٪ • ويرجع ذلك جزئيا الى ضعف قوة الميكروب السبحى الذى يسبب الحمى القرمزية ، أو مناعة أهل الحضر ، وقد اشتركت عوامل مختلفة فى تحقيق انخفاض الاصابة بالحمى القرمزية ، مما جعلها لا تزيد عن نسبة ١٩٪ من معدل الوفيات العامة فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر •

ومن الأمراض المميتة الأخرى التى كان يخشى بأسها : الدفتيريا (*) • وبعد أن يبدأ هذا المرض بتقرح فى الحلق يتحول بسرعة الى تسمم الدم وهبوط فى القلب أو الى التهاب فى الغشاء المغلف لفتحتى الأنف ، يتطلب شق القصبة الهوائية ، وغالبا ما كانت تجرى هذه العملية عندما تسوء الحالة ، كمحاولة أخيرة لانقاذ المريض ، وتستعمل فى جراحتها آلات بدائية أو ربما بعض الأدوات المستخدمة فى المطابخ ! وكان المسئولون عن السجل العام يدرجون الدفتيريا ضمن مرضى الحمى القرمزية حتى ١٨٦٠ ، ولم تعامل معاملة علمية جادة الا فى النصف الثانى من القرن • وفى ١٨٨٣ ، نجح ادوين كريبس فى التعرف على جرثومتها • وفى ١٨٩٤ ، شاع استعمال مضادات السميات • وكما حدث فى حالة الحمى القرمزية ، كانت نسبة وفيات المصابين بالدفتيريا عالية (حوالى ٢٠ ـ ٢٥٪) وتماثلت أيضا والحمى القرمزية فى عدم معرفة سببها وطريقة انتقالها ، مما دفع المسئولين الرسميين عن الصحة الى اعتبارها لغزا ، والى الجنوح الى القاء تبعة الاصابة بها على الوسائل غير الصحية المتبعة فى توريد الألبان • وكان لهذا الاتهام ما يبرره • وشعرت الجهات المسئولة عن الصحة العامة

(*) تسمى ايضا Croup وتعنى التهاب الحلق والتقرح والعفن فى الحلق او التقرح الخبيث بالحلق او حمى الحلق • وتوحى هذه الاسماء من غموضها بمدى الجهل بطبيعة المرض •

بعد تزايد عدد وفيات الأطفال الأقل من ١٥ سنة من الدفتريا فى السنوات العشرين الأخيرة من القرن بالاحباط • واحتدم الخلاف حول تاثير اللائحة التعليميه الصـــادرة فى ١٨٨٠ على زيادة نسبة الوفيـات من الدفتريا والحصبة والحمى القرمزية • وزودت لائحة ١٨٨٠ اللائحة التعليمية التى سبق اصدارها ١٨٧٠ ، بأنياب حادة أرغمت السلطات المحلية على تشديد مواظبة التلاميذ على الانتظام فى الدراسة • وقيل ان ازدياد الاحتكاك بين الأطفال من بين الاسباب الكامنة وراء ارتفاع معدلات الوفيات •

ولعل « السل » كان أبشع الأمراض القاتلة التى تصيب الجهاز التنفسى أو الأمعاء ، وربما أمكن القول بأن ثلثى من ماتوا من المرضى فى عهد فيكتوريا كانوا من ضحاياه • وهكذا صدقت تسمية الأديب الانجليزى جون بنيان فى القرن السابع عشر له « بالطاعون الأبيض » « وزعيم رسل الموت » • وعلى الرغم من الربط بينه عهودا طويلة وبين الفنانين والشعراء ، وعلى الرغم من اصابته لجميع الطبقات ، الا أنه كان وثيق الصلة بمستويات التغذية ، وكانت أفدح وأدهى اصاباته تحل فى أحياء الطبقة العـاملة بالمدينة ، ممن يحيون فى ظروف تهوية سيئة وفى دور مكتظة • وكان المرض ينتشر بسرعة ، وتزداد خطورته القاتلة ، عندما تتكرر اصابته لشخص يقيم فى أماكن سيئة التهوية ، واسترعى انتباه أحد الأطباء انتشار المرض بين الترزية ، منذ مشارف هذا القرن • كما اجتذب انتباه « المجلس الخاص » شـيوعه بين غيرهم من العاملين فى أماكن مزدحمة كالخزافين وعمال المناجم وبائعى الملابس الداخلية • ومن المتعذر تحديد المسار البيانى لسير مرض السل على نحو موثوق منه ، لاختلاطه فى الأغلب بأمراض أخرى ، بما فى ذلك السرطان ، ولم يكن هذا المرض من الأمراض التى تركز عليها الانتباه حتى ١٩١٢ • ومع هذا فالظاهر أنه فى الحقبة الواقعة بين ١٨٥١ و ١٨٦٠ ، وبين ١٩٠١ و ١٩١٠ ، انخفض عدد الوفيات الى قرابة النصف ، وعلى الرغم من الآمال المبشرة ، التى حملهـــا هذا الانخفاض ، الا أن السل قد ازدادت أهميته نسبيا حتى أصبح على نهاية القرن المرضى التالى للسرطان من بين الأسباب الرئيسية المؤدية للموت • وزعم ١٨٩٤ أنه فى كل سنة ، يموت ثلاثة أشخاص لاصابتهم بالسل مقابل ميتة واحدة كانت تحدث أثناء العمليات الحربية أو من جراء المرض أثناء حرب القرم • ومع هذا فقد حدث انخفاض له أهميته • اذ ينسب نصف ما حدث من انخفاض فى المجموع الكلى لمعدل الوفيات فى النصف الثانى من القرن الى ما حدث من انخفاض فى نسبة الموتى بمرض السل •

ويزودنا مرض السل « بدليل حساس ربما يفوق باقى الأمراض التى ذكرناها آنفا عن الحالة المعيشية فى أى مجتمع » • ويحتاج التغلب

عليه الى اجراء تحسينات بعيدة المدى فى أحوال الاقامة ومعايير التغذية ونوعية الألبان · ولقد حدثت تحسينات فى هاتين الناحيتين الأخيرتين ، ولكن ما باليد حيلة اذ ظل الاكتظاظ بالسكان مشكلة عارمة ، وظلت الأكواخ والدساكر (*) التى ترتفع فيها نسبة الاصابة بالسل الى قرابة ٥٠٪ زيادة عن نسبة الوفيات فى النوع الآخر من محلات الاقامة فى المنطقة ، والتى اختلفت أحوال معيشة الطبقة العاملة فيها عن ظروف الاعاشة ، بعد منتصف القرن ·

ولا يستبعد أن تكون محاولات الجمعيات الخيرية وأجهزة الاشراف على الشئون الصحية قد ساعدت على تناقص الاصابة بالسل ، فلقد حاولت السلطات المحلية فى نهاية القرن التاسع عشر السيطرة على المنفثات المشوشة التى تنقل السل ، وأصدرت السلطات فى أولدهام تعليمات تحذر فيها المواطنين من ارتفاع نسبة العدوى من السل ، واحتمال انتشاره بمجرد بصق الشخص المصاب بالمرض · وحظرت التعليمات المواطنين من البصق فى الغرف العامة وعربات السكك الحديدية ، وغيرها من الأماكن العامة ، ونصحت باحراق المناديل والخرق التى يستعملها المسلولون فور انتهائهم من استعمالها ، وأخطرت الكافة باستعدادها لتطهير البيوت التى يشغلها المصابون بالسل ، وبالمثل ، أصدرت السلطات المسئولة عن الشئون الصحية فى برايتون « تعليمات للوقاية للمصابين بالسل » ، حثت فيها المواطنين على عدم البصق الا فى « أوعية يمكن تفريغ محتوياتها قبل أن تجف » · وراود الجهات المسئولة الأمل بأن تقتدى انجلترا بالمثل الذى ضربته الولايات المتحدة ، وتحظر البصق فى الأماكن العامة ، وذكرت بعض جوانب من الوسائل الوقائية التى يصعب حصرها ·· وليس من شك أن التنبيه باستعمال المناديل وعدم البصق لم يسهم بدور كبير فى الاقلال من احتمال نقل العدوى عن طريق الجو الحامل للجراثيم · ولعل السلطات الصحية قد تقاعست عن فرض القوانين التى تمنع البصق ، والتى تشدد على فرض رقابة صارمة على الألبان ، لأنها لم تتبن النظرية الجرثومية للأمراض الا بعد لأى ، مما حدا برئيس القسم الطبى فى الجمعية الطبية الانجليزية الى المجاهرة بعد قرابة ١٧ عاما من اكتشاف ميكروب السل بما يأتى :

« أقول ان بمقدورنا محاربة الدرن على الطريقة التقليدية ، برفع مستوى الوراثة عندما يتيسر ذلك ، وبارتقاء مستوى البيت وأحوال المعيشة والعمل ، فجميع هذه السبل ممكنة على الدوام ، وتحتاج لتدخل المسئولين ،

(*) back to-backs.

أما هذه المطاردة المخبولة لجرثومة السل ، وكأنه بالاستطاعة تفريغها فى مبصقة ثمنها بنسان ونصف بنس ، ثم الخلاص منها ، فلعمرى أنها أحمق حرب صليبية شنت على أساس بعيد عن المنطق » •

ولما كان قد أصاب فى نظرته للأسباب التى أضعفت مقاومة السل ، فانه قد كشف عن احجامه على الموافقة على الاعتراف بالسبب الأصلى للمرض ، وفى ذات الوقت ، فقد استمر الهلع من السل • ولجأ الفقراء للوصفات الشعبية مثل أكل القواقع الحلزونية الحية وبيض الذباب ، أو استنشاق الهواء المتصاعد من أنفاس الخنازير والبقر والخيول ، أو استعانوا بعقاقير الدجالين • وما من شك أن اتباع هذه الوسائل قد بدا أرحم فى نظرهم من انتظار الارتقاء بمستوى المعيشة الذى يستغرق وقتا أطول •

ومن بين جميع الأمراض الوبائية فى القرن التاسع عشر ، انفرد الجدرى بامكان التغلب عليه ، ورده ، اعتمادا على أحد الاكتشافات الطبية ، وقدر الانخفاض فى نسبة الوفيات من المرض فى عهد الملكة فيكتوريا بخمسة فى المائة من معدل الوفيات من الأمراض • وتحقق ذلك بفضل التطعيم الاجبارى الذى أقحم الدولة فى المسائل الصحية العامة على نحو مباشر ، وبطريقة بدت ديكتاتورية فى نظر بعض النقاد المعاصرين • ولقد شاع التحصين على نطاق واسع طبقا للعملية التى ابتكرها (١٧٩٨) العالم الفزيائى البريطانى ادوارد جينر (١٧٤٩ – ١٨٢٣) عندما اعتلت فيكتوريا عرش انجلترا ، وصدر قرار من البرلمان ١٨٠٨ يبين مدى ما سيعود على رعايا جلالة الملك بالخير والفائدة من جراء انشاء معهد مركزى لتصنيع المصل • وفى ١٨٣٢ ، أنتجت منشأة الأمصال الوطنية (وكانت وقتئذ تحت اشراف كلية الطب الملكية ثم انتقل الاشراف عليها الى المجلس الخاص ١٨٦٠) ما ينوف عن مائة ألف عبوة من « اللنف » ، كما أنتجت بين ١٨٣٧ و ١٨٣٩ ثمانمائة الف عبوة أخرى •

ومن المحتمل نسبة الفضل للتطعيم بالجدرى فى تعريف المواطنين على عهد الملكة فيكتوريا مبدأ التدخل الحكومى فى مسائل الصحة • وكتبت مجلة الجرافيك (١٨٧١) « ان منظر أبناء الشعب ، وهم يعرون أذرعهم اليسرى انتظارا لخدشها ، لمن المناظر المثيرة للسخرية ، ومجرد اقبال الناس على ذلك يثير الضحك » • وعلى الرغم من أن مجلة الجرافيك قد اكتشفت ما يبرر السخرية من حالة الاطمئنان والرضا التى ارتسمت على أوجه المقبلين على التطعيم ، فان منظر « الاستسلام الرهيب » عند من يتهيأون لخدش أذرعهم ، والارتجاف من الرعب عند من لمس المشرط أذرعهم – ومهما بدا فى هذا المنظر من مظهر آدمى هزلى – الا أنه كشف عن جوانب بعيدة الأهمية ، فلقد مثلت هذه الحالة وكشفت عن استعداد الرأى العام

للوثوق ثقة كافية فى علم الطب ، مما دفعها الى تقبل الحقن بجراثيم من المرض اللعين . والواقع أن العملية برمتها قد برهنت على الابتعاد الملحوظ عن مبـدأ اطلاق الحرية دون قيـد أو شرط (*) ، والتحرر من تدخـل الحكومة . ولم يكن مستغربا أن تهب حركة قوية مناهضة للتطعيم باسم الحفاظ على قدسية الجسم الآدمى وسـلامة كيان الدولة ومستندة على أسس دينية وسياسية تهدف الى وجوب الدفاع عن حقوق الفرد ضد هذا التهديد الجديد للدولة المتطببة . وقيل على نحو شبيه بما يحدث الآن من معارضة للارغام على ارتداء راكبى الدراجات البخارية للخوذات بأنه من الواجب أن يسمح للفرد بتجربة حظه مع الموت ، بدلا من تعريضه للتهديد والخضوع لدولة بوليسية فضولية ثرثارة . وأوضـحت بعض النساء من أمثال آن سابل التى استدعاها المسئولون خمسا وعشرين مرة لاستجوابها لرفضها « أن تكون طرفا فى عملية تسميم طفلها الرضيع » ، على حد قولها ، والتى واجهت الحكم بالحبس ، وفضلت ذلك على الخضوع لعملية التطعيم . وبذلك أصبحت هى وأمثالها شهيدات وشهداء لهذه القضية .

ولم تفرض الحكومة على عهد فيكتوريا التطعيم الاجبارى على الشعب ، قبل اجتياز مرحلة تجربة التطعيم الطوعى ، ومثل وباء الجدرى (١٨٣٧ – ١٨٤٠) ، والذى مات فيه ٤٢٠٠٠ شـــخص تحديا كان من الضرورى مواجهته . وكان الرد على ذلك هو صدور قرار بالاذن بالتطعيم (١٨٤٠) يبيح لكل شخص التطعيم على نفقـة الدولة ، وأوكل عبء الاشراف على عملية التطعيم على المسئولين عن تنفيذ قانون الفقراء ، الذى كان مثقلا بالفعل بالأعباء . ولم يتقرر التطعيم الاجبارى الا سنة ١٨٥٣ ، بعد أن أجريت دراسة من قبل جمعية علوم الأوبئة فى لندن . ونص هذا القرار على الزام الآباء بارسال أطفالهم للتطعيم بعد ثلاثة شهور من مولدهم . وعلى الرغم من أن التقرير اعتبر التطعيم مسـألة عامة فى شتى أنحـاء انجلترا ، الا أن تنفيذ القرار تم على نحو عشوائى ، وتفشى الجدرى بين ١٨٧٠ و ١٨٧٣ (ومات فى هذه الفترة حوالى ٤٤٠٠٠ ، ربعهم تقريبا من لندن وحدها) وتوافق ظهور هذا الوباء هو وتعيين مجلس صحى لشئون الجدرى انتهى الى اصدار قرار جديد لمكافحة هذا المرض ، واحكام تنفيذ الطابع الاجبارى للتطعيم ، والنص على الزام المكاتب المحلية بتعيين مسئولين عن التطعيم ، وفرض غرامة تصل الى ٢٥ بنسا على من يرفضون تطعيم أطفالهم ، وبالسجن لمن يرفض دفع الغرامة .

(*) مبـدأ Laissez-faire.

ولربما خطر بالبال احتمال اثارة وباء (١٨٧٠ ــ ١٨٧٣) قدرا كافيا من الفزع يدفع المواطنين لتعميم التطعيم ، ولكن ما حدث كان عكس ذلك ، ولقد حشدت الحركة المناهضة للتطعيم صفوفها فى الربع الأخير من القرن . وترتب على ذلك هبوط معدل من طعموا من الأطفال من ٨٥٪ (١٨٧٣) الى ما هو أكثر قليلا من ٧٠٪ (١٨٩٧) ولقد كانت فاعلية التطعيم ضد الجدرى مسألة لا يتطرق اليها الشك . ففى وباء ١٨٧١ ، لم تزد نسبة الوفيات فى لندن بين من أصيبوا بالمرض ، وسبق تطعيمهم عن ٧ر١٠٪ أما نسبة الوفيات بين من لم يطعموا فكانت ٦ر٤٥٪ ولا يستبعد أن ترجع أسباب التفاوت الى أسباب أخرى .

وبدأت الحركة المناهضة للتطعيم نشاطها بعد صدور القرار ١٨٧١ بتعيين مسئولين عن التطعيم فى جميع أنحاء البلاد ، واستمرار الاجــــراء الذى اتخذه « المجلس الخاص » بايفـــاد مفتشين للتفتيش على المراكز المحلية للتطعيم . واعتبر « تدخل » الحكومة المركزية الى جانب الالزام الذى فرض على السلطات المحليــه حينذاك بتعيين مسئولين عن التطعيم ، واستحالة اختيــار حــل بديــل لذلك ، من قبيــل الوســيلة التى كانت تتبعها مدينة لايسستر التى كانت تخطر المصاب أولا ثم تعزله ــ اعتبر لطمة انتهكت حريات السلطات المحليــة ، واعتقد كثيرون تمشـــيا مع المخاوف الكامنة والملحوظة منذ أمد بعيد فى البلاد ، أن اهتمام الحكومة بالصحة العامة قد يؤدى الى اصـــدار قرارات ديكتاتورية ، فحتى ذلك العهد ، اقتصر دورالحكومة على عملية الاعلام والاقناع ، ولكنها ظهرت ــ الآن ــ فى لونها الحقيقى ، كوحش يشتهى الهيمنة ، وانضمت الى هذه الحجج الصيحات التى تتمسح فى كرامة الجســم البشرى ، واعتبــار التطعيم اجراء مصطنعا ، يتعارض والطبيعة (وأضافت مجلة لانسيت على ذلك بأنه من غير الطبيعى أيضا ارتداء الملابس أو ركوب القطار .) . واستندت معارضة التطعيم الاجبارى كذلك على مبادىء دينية ، يعنى القول بأن حقن مدنسات فى الدم رجس ، وهى حجة اعترف بها فى نهاية الأمر فى الفقرة التى تركت هذه المسألة لضمير أولياء الأمر فى لائحة الجدرى التى صدرت ١٨٩٨ ، بالرغم من الحجج المضادة « التى نددت بما يترتب على ذلك من لقاء الأطفال لحتفهم من أثر الاهمال » .

وكانت مدينة لايسستر وراء القوة المتزعمـــة لحركة مناهضـــة التطعيم ، ورغم سوء الأحوال الصحية فى هذه المدينة ، فانها كانت تتمتع بمميزات كاختفاء البطالة منها وقلة الزحام وخلو سجلاتها الطبية من فداحة الاصابة بالجدرى بفضل اتباع طريقـة « لايسستر » التى تقضى بالعزل الاجبارى لضحايا الجدرى ، والحجـــر الصحى لجميع من يضطرون الى

مخالطة المصاب ، واتباع برنامج متشدد في النظافة ، واجراء عمليات تطهير ، ولا مانع أيضا اذا لزم الامر من احراق فراش المريض وملابسه ، وتطهير دار الاقامة ، وفى ١٨٦٩ ، تأسست جماعة لايسستر المناهضة للتطعيم ، واشتركت هى « وجمعية لندن لالغاء التطعيم الاجبارى » فى شن حملات منظمة ضد السياسات المركزية للحكومة ، وفى الحقبة الواقعة بين ١٨٦٩ و ١٨٨٤ ، حكم بالسجن فى لايسستر على ٦١ شخصا، وتصاعدت الحركة عندما قامت مظاهرة كبيرة ١٨٨٥ التفت حولها جميع القوى المعادية للتطعيم القادمة من أكثر من خمسين مدينة ، وعلى الرغم من أن انخفاض نسبة الوفيات من الجدرى ترجع الى التطعيم أكثر من نسبتها الى أى تحسن طرأ على الشئون الصحية ، الا أن القرار الذى صدر عن التطعيم ١٨٩٨ قد تضمن فقرة تنص على ترك مسالة التطعيم لضمائر الأفراد مما يسر على الآباء والأمهات تفادى التطعيم الاجبارى لأطفالهم ، وعلى نهاية ١٨٩٨ ، بلغ عدد الشهادات التى منحت للمعترضين الذين تركوا لضمائرهم تمشيا مع ما جاء فى اللائحة (٢٠٣ر١٤٣) شخصا ينتمى أكثر من ربعهم الى لانكشاير . وطالبت لايسستر بشهادات ل ٥٢٤ر٢٨ حالة ، وعلى الرغم من اشتراط اللائحة منع حصول الشخص فى الأغلب على تامين على حياته واستئجار منزل ، أو الحصول على وظيفة بغير اثبات أنه أجرى التطعيم (فى حالة طلب هذه التراخيص من مجالس مقاطعة لندن ومجلس الاسكان بلندن) الا أن آلافا من الأطفال فى نهاية القرن ظلوا بلا تطعيم ، وبعد أن انخفضت نسبة عدد غير المطعمين الى ٨ر٣٪ فقط من الولادات المسجلة فى انجلترا وويلز ١٧٨٥ والى ٧ر٥٪ فى لندن ١٨٩١ ، ارتفعت نسبة الأطفال غير المطعمين باطراد حتى بلغت ٣ر٢٢ و ٦ر٢٦٪ على التوالى (١٨٩٨) . ولا يوحى ما حدث من نقص فى عدد المطعمين حدوث تناقص لضرورته ، بعد انخفاض الاصابة بالمرض (وانخفاض عدد حامليه) أو انتشار الجهل بالدواء الذى يساعد على الوقاية من أوصابه ، أو قوة الشعور بتعزيز الحكومة (التى تحاول فرض وصايتها عليهم) لهم مما دفعهم الى الاعتقاد بأنهم يتمتعون بتمام الصحة والعافية ، فلقد أثبت الصراع حول مسالة التطعم أن تحسن أحوال الصحة العامة قد اعتمد على ما هو أكثر من التزام الحكومة القوى برعاية صحة المواطنين ، أو حتى على تقدم الكشوف العلمية ، فقد كانوا بحاجة أيضا الى تعاون الحكومة المحلية والمسئولين عن الصحة ومؤازرة العاملين بمهنة الطب فى جملتهم ، واستعداد الرأى العام لقبول أحكام السياسة الصحية للدولة .

ولا يخفى أن مختلف الأمراض تتطلب اجراءات حكومية متنوعة ، فالتيفوس والتيفود والكوليرا والأمراض الأخرى التى تنتشر عن طريق

الكائنات الدقيقة الموجودة في الماء والألبان أو الغذاء والتي تصيب الأمعاء أو تنتشر عن طريق الأصابع والذباب بالمقدور التغلب عليها اذا أمكن

تنقية المياه ، وتم انشاء مرافق صحية أفضل حالا ، وعندما يحدث تحسن في صحة الأشخاص . غير أن هناك أمراضا أخرى تنتشر عن طريق الفيروس ، عندما يتطاير رذاذ اللعاب في الجو . واذا صح ما قاله أحد الثقات في الطب حديثا : « بأننا في كل شهقة نشهقها في غرفة تضم شخصا أو أكثر ، ينتقل هذا الرذاذ المتطاير من لعاب الآخرين الى انوفنا ، وتتسارع هذه العملية كثيرا من جراء عمليات السعال والعطس ، ومن ثم يتعين اتخاذ اجراءات أخرى غير التدابير الصحية . فمن المستطاع تخفيف خطورة أمراض عديدة كالسل والحصبة والجدري والحمى القرمزية اذا اتبع نظام للتنبيه والانذار المبكر وعزل المصابين . وتتطلب هذه الاجراءات الوقائية قدرا من التعاون الوثيق بين السلطات الصحية المركزية ، والسلطات الصحية المحلية وبين المسئولين عن الصحة والرأى العام ، بقدر لايقل عن القدر الذى يحتاج اليه لمحاربة القاذورات .

وزاد من خطورة مشكلة الأمراض التى تنتقل عن طريق الهواء ، المقدار الهائل من الاكتظاظ بالسكان ، والذى يسود معظم المراكز السكانية الكبرى ، والافتقار الى عدد كاف من المرافق ، وامتداد التحركات السكانية فى القرن التاسع عشر ، والتى زجت بموجات جديدة من صغار شباب وفتيات الريف الى المدن ، ممن يتمتعون بصحة أوفر ، وبذلك ارتفع مستوى الصحة العامة . ولكن في مقابل ذلك ، فقد زجت حركة النزوح ذاتها بوافدين لا يتمتعون بقدر كبير من المقاومة لشتى الأمراض ، التى تنتعش في المدن الصناعية المكدسة بالسكان ، ودفعتهم للعيش وسط أهل المدينة الأصلية . ولعله لم يكن فى جعبة الحكومة ما تستطيع أن تفعله للحد من حركة الهجرة الداخلية (وعلى أية حال ، فان تأثيرهم على بداية المرض هو بالتأكيد مسالة بالغة التعقيد) ، لأن حل مشكلة التكدس السكانى تحتاج الى أنواع شتى من الحلول طويله الأجل ، التى يهتدى اليها بعد عناء ، وبعد تكرار المحاولة والوقوع فى الخطأ ، على أن « الاخطار والعزل » كانا من السبل التى بوسع الحكومة الدعوة اليها ، والارغام على اتباعها ، ولكن لسوء الحظ لم يتبع هذا الاجراء الا بعد تردد طويل ..

ومنذ عهد باكر يرجع الى ستينات القرن التاسع عشر ، نادى «سيمون» باتباع نظام فعال «للاخطار والعزل» لمحاربة الأمراض المعدية ، ولكن نداءه ذهب أدراج الرياح ، فى ١٨٧٤ ، ومن منظوره المركزى فى مكتب الحكومة المحلية ، نسب استمرار الارتفاع الكبير فى نسبة الوفيات

الى عاملين رئيسيين : ١ - الاغفال أو السهو « عن اجراء عمليــــة اخلاء النفايات والفضلات الجامدة والسائلة من أماكن الايواء » ، ٢ - الترخيص الممنوح لحالات الأمراض المعدية « بالانتشار الى خارج موطن الاصابة » ، وعلى الرغم من الالحاح المستمر لجون سيمون ، الا ان انشاء مستشفيات للعزل أو عنابر للعزل فى المستشفيات القائمة بالفعل قد تأخر نوعا ، ففى ١٨٨٣ ، لم يزد عدد المدن التى أدخلت نظام الاخطار الاجبــارى عن الأمراض المعدية عن ٣٤ مدينة (*) ، تضم مليونين ونصف فقط ، وترك أمر الأخذ بنظام « الاخطار » لمشيئة المسئولين المحليين ، واتضــح أن الحاجة كانت ماسة اليه ، ولقد اتبعت مدينة هادرسفيلد نظام الاخطار منذ وقت مبكر يرجع الى سنة ١٨٧٩ ، وجرى اتباع نظام الاخطـــار فى عدة مدن انجليزية ابتداء من ١٨٧٩ غير أن النظام لم يتبع فى جميع أنحاء انجلترا الا بعد التصديق على لائحة الأمراض المعدية ١٨٨٩ ، أى بعد عشرين سنة تقريبا من بدء المسئولين عن الصحة العامة حملتهم الدعائية ، ومما يثير الاهتمام عدم ادراج السل ضمن قائمة الأمراض التى يتعين الاخطار عنها ، ويرجع ذلك أولا - الى ما قد يثيره هذا القرار من مصاعب اقتصـــادية (من جراء العزل الاجبارى) للسواد الأعظم الذين سيعانون من ذلك ، ومن بين أسباب التمهل فى اتباع نظام الاخطار الطوعى انقسام الدوائر الطبية فى الرأى فى هذه المسألة ، لأنه بينما حدث اجماع على وجوب الاخطار ، الا أن الرابطة المحلية للمسئولين عن الصحة العامة رأت القاء مسئولية الاخطار على عاتق الممارسين العامين • ورأى فريق آخر أن الانصاف يقضى بالقاء المسئولية على كاهل أصحاب الدور التى تحدث فيها الاصابة بالمرض، وفى مثل فذ لروح المبادرة عند الطبقة العاملة فى المسائل الصحية العامة ، والعمل لصالحها ، اجاز مؤتمر اتحـــاد العمال ١٨٨٣ قرارا بالاخطـار الاجبارى ، متضمنا مبدأ سبق عصره بالتعويض عن الخسائر التى تلحق بالأجور من السلطات المحلية •

ونصت لائحة الأمراض المعدية ١٨٨٩ على أن يكون اخطار الأطباء للسلطات المحلية اجباريا ، واتبعته على الفور ٧٥ سلطة محلية ، وبقدوم ١٨٩١ ، اتبعته ٥٥٥ ادارة صحية بالمدن و ٣٧٢ بالريف • وفى هذه السنة ، اعتقد مكتب الحكومة المحلية أن اللوائح قد نفذت (ولا يلزم بالضرورة أن تكون قد فرضـــت قسرا) فى مناطق يقطنهــا قرابة عشرين مليونا من بين عدد السكان الذين كانوا يعيشون حينـذاك فى

(*) مثل Llandudno, Jarrow, Nottingham, Burton, Bolton Harrington, Edinburgh, Preston, Oldéam, Leicester, Derby n Blackpool, Rotherham, Norwich, Blackbur.

انجلترا وويلز ، ويقدر عددهم بستة وعشرين مليونا • ومن بين المدن المحلية (وعددها ١٤١ مدينة بالأقاليم يربو سكان كل منها على ٢٥ر٠٠٠ نسمة) ، اتبعت اللائحة فيها جميعاً باستثناء ١٣ • وفى ١٨٩٣ ، كان عدد من يستظلون بهذه اللائحة نظريا حوالى ٢٥ مليونا •

ويمثل هذا التبني الشامل للقرارات التي تعفى الأشخاص من التطعيم ضد الجدرى التزاما من السلطات المحلية باتباع الطب الوقائى ، الذى ذهب الى ما هو أبعد من اصلاح المجارى ومرافق الصرف الصحي ومصادر المياه ، وعمليات الرصف • وتندرج جميع هذه الاجراءات تحت عنوان « وسائل النهوض بالمدينة وتجميلها »، ومثلت هذه السياسة الاعتراف المتزايد على المستوى المحلي بالنظرية الجرثومية للمرض ، وربما كان ما ألهمها هو الدراية بعد صدور اللائحة التعليمية الالزامية (*) ١٨٧٠ ، بأنه ما لم يراع مبدأ « الاخطار والعزل » ، فانه لا يستبعد أن يزداد انتشار الأمراض المعدية ، التى تصيب الأطفال ، أو تنتقل اليهم بالعدوى •

وبعد أن ازدادت أعداد الأطفال المقبولين بالمدارس بين ١٨٧٠ و ١٨٨٩ ، ارتفعت نسبة الأولاد (من سن خمس سنوات الى خمس عشرة سنة) من ٢٢ر٧٪ الى ٥٥٪ ، وازداد تبعا لذلك انتشار أمراض مثل الحمى القرمزية والحصبة ، ولم تتوافر الحوافز الصحيحة للمدرسين للابلاغ عن حالات العدوى ، لانهم كانوا يشعرون بالرضا اذا ارتفعت نسبة المواظبة بالفصول ، لأنها كانت تساعد على حصولهم على علاوات مالية من الحكومة •

على أن تبنى اللوائح التى جعلت التطعيم طوعيا شىء ، وتقديم التيسيرات للعزل الصحى شىء آخر ، لأنها كانت تكبد السلطات المحلية مصاريف اضافية ، وتجعلها عرضة للاتهام بالاسراف من قبل دافعى الضرائب الذين لا يتوانون عن ترقب أية هفوة من هذا القبيل ، وعلى أية حال لقد كان هناك ترقب ملحوظ كثيرا ما تصاعد لدرجة الهلع من مستشفيات العزل ، لأنه لم يكن من الميقون منه البتة نجاح المسئولين بالمستشفى فى وقف تسرب المرض الى الخارج الذى يفترض أنه انحصر فى حيز محدود ، وتلويثه للأماكن المجاورة ، وتهديدها ، فلا عجب اذا سمعنا ما كره دافعو الضرائب فى اقليم محلى كادنبرة عن كشف تعرضه عمليات الصرف الصحى فى عنبر المرضى بالأمراض المعدية فى احدى

(*) Education Act.

المصحات للفيض وغمر مرفق الصرف الصحي كله ، وبذلك تنتقل العدوى الى جميع أنحاء المدينة وعندما أقدمت احدى الادارات على انشاء مستشفيات للعزل لأول مرة ١٨٧٠ ، شن السكان المحليون حملة معارضة شرسة ، أدت الى اغلاق بعضها ، وتأجيل افتتاح البعض الأخر وفى نهاية القرن ، اضطرت مدينة وندسور الى انشاء مستشفاها المؤقت للجدرى بالصاج المعرج محاذية لمزرعة يخترقها مجرى للصرف الصحى ، بعيدا عن المناطق السكنية ، وصدر كتيب عن الأحوال الصحية ١٨٨٥ تضمن الحديث عن مستشفيات الأمراض المعدية ، واحتوت القائمة بيانا عن المدافن وأعمال الصرف الصحى ، ومواقع تجميع القمامة ٠

وهكذا تباطات جهود انشاء عنابر ومستشفيات العزل الخاصة ٠ فحتى وقت متأخر (١٨٧٩) لم تتوافر لأكثر من خمس الادارات المسئولة عن الشئون الصحية فى الأقاليم (وعددها ١٥١٠) أية وسائل لعزل الأمراض المعدية ، وحتى بعد ذلك ، أى سنة ١٨٩١ ، لم يرتفع المجموع الكلى لهذه المنشآت الى ما هو أكثر من حوالى ربعمائة ، ونكرر القول بأنه كما يحدث فى الكثير من قطاعات الصحة الأخرى ، كانت المشكلة فى المقام الأول ، مالية ، لأنه برغم استطاعة الحكومة تقديم قروض ، الا أن العبء كان يقع فى نهاية المطاف على الموارد المحلية : ففى دربيشاير على سبيل المثال ، كانت هناك جهتان مسئولتان عن الصحة المحلية ، وقدرت الضرائب على كل منهما بمبلغ أربعة آلافمن الجنيهات ٠ وقدرت الضرائب فى أربعة أو خمسه أقاليم أخرى بمبالغ تراوحت بين أربعة آلاف وثمانية آلاف جنيه ، وكتب المجلس المسئول عن الشئون الصحية الى المجلس المحلى بدربشاير : « ليس فى مقدور هذه الأقاليم انشاء مستشفيات لائقة ، أو حتى صيانتها ، والحفاظ عليها ، لو تم انشاؤها » ، وتبعا لذلك لم توجد جهة مسئولة واحدة فى دربشاير ـ وهى اقليم يتسع لـ ٤٢٦ر٠٠٠ نسمة ـ قادرة على انشاء مستشفى عزل دائمة ١٨٩٥ ٠ ويسرت لائحة مستشفيات العزل الصادرة ١٨٩٣ للمجالس المحلية انشاء مستشفيات للعزل ، وان كانت التكاليف المنتظرة لمثل هذا المشروع قد أثبطت عزيمة الجميع ، ما عدا المدافعين بحمية عن الطب الوقائى ، وفى ١٨٨٢ ، قدرت الحكومة المحلية تكاليف انشاء السرير الواحد فى أية مستشفى تحت الانشاء بمبلغ يتراوح بين المائتين والثلثمائة جنيه ، وتتجاوز مثل هذه المبالغ امكانات الأقاليم الريفية الصغيرة ، والكثير من المدن أيضا ٠ وعندما أرادت ليفربول فى وقت متأخر انشاء مستشفى يضم ثلاثمائة سرير قدر لهذا المشروع اعتماد يتجاوز الثمانين ألف جنيه ٠

وهكذا اكتشفت المجالس المحلية فى تسعينات القرن التاسع عشر ، عدم كفاية مرافق العزل للامراض الوبائيه المعدية فى أغلب أنحاء البلاد ، ولقد جاء انشاء أكثرها على نحو عشـــوائى · ففى بعض الأقاليم كانت مستشفيات العزل فى الأصـــل دورا لايواء الكلاب الضـــالة ، ولم تزد الأسرة فيها عن خمسة فقط ، ولم توجد بها أية وسائل للتطهير ، بينما كانت تخدم قطاعات يقترب فيها عدد السكان من الاربعين الف نسمة·وفى مدينتين أخريين (*) اشتهرتا بصناعة الخزف ، وارتفعت فيهـــا نســـبة الاصــــــابة بأمراض الرئة ، لم يزد عدد الأسرة فى مستشفيات العزل ـ والأصح هو وصفها بمعسكرات العزل ـ عن ثمانية عشر سريرا ، بينما كان متـــوسط عدد السكان فى المدينتين ٤٦٠٠٠ر نسمة · أما مدينـــة للانيللى (سكانها ٢٤٠٠٠ر) فلم يوجد بهـــا أى مستشفى للعـــزل على الاطلاق ، بينما كانت مدينة ويجامن أسعد حظا ، لوجود ستين سريرا بها، تخدم خمسين الف نسمة ، ولم تكن المـــدن الأكبر حجما أفضـــل حالا · اذ ضمت مدينة ليدز دارا واحـــدة للنقاهة تحتـــوى على ستة وأربعين سريرا ، ومستشفى للجدرى (٣٦ سريرا) ومأوى صغير للناقهين من الأطفال الذين شفوا من الحمى القرمزية ، بينما كان تعداد هذه المدينة ٣٦٧٠٠٠ر نسمة ، أما مدينة بولتون البالغ عدد سكانها مائة وخمسة عشر الف نسمة فكانت أول مدينة فى انجلترا تحصل على سلطات تبيح لها حق ارغام المواطنين على الاخطار عن الأمراض المعدية (١٨٧٧) · وقد فرضت الزاما على كل من الأطباء وأصحاب الدور معا للابلاغ عن الأمراض المعدية ، ولكن لم يتوافر لها أية عنابر للعزل الى أن أنشئت بها مستشفى للحميات ١٨٨٢ · وفى ١٨٩٥ ضمت هذه المستشفى اثنين وثلاثين سريرا والقليل من الاكواخ ، واعتمدت مدينة ليفربول مثل الكثير من المدن الأخرى على بعض الورش المحلية لايواء المرضى الذين يعانون من الأمراض المعدية · وفى ١٨٨٥ زادت الجمعيات الشعبية فى ليفربول من ضغطها على المسئولين الحكوميين بعد أن أخفقوا فى تزويد المدينة بمرافق للعزل ، واقترحت انشاء مرفق يضم ٥٧ سريرا كانت فى أمس الحاجة اليها ، وانتهى الأمر بارغام المدينة على الاستجابة لهذا المطلب ، وفى ١٨٩٢ ، زودت ليفربول بثلاثة مستشفيات للعزل تسمح باقامة ٢٩٨ مريضا فى مدينة يقدر عدد سكانها بخمسمائة وثمانية عشر الف نسمة · ولم تخصص مانشستر اية اعتمادات لانشاء مستشفى للبلدية ، ولكنها اعتمدت على التبرعات التى قدمت لانشاء « مصحة ملكية » تضم ٣٧٢ سريرا فى عنـــابر العزل ، وأنشأت برمنجهام (٤٧٨٠٠٠ر نسمة) مستشفى للعزل يضم ربعمائة

(*) فى مدينتى Burton, Burslem على نهر الترنت

سرير . أما برستون فكانت من المدن القليلة العنـاية بالشئون الصحية (عدد سكانها ينوف على ١٧٠٠٠٠ نسمة) ولم تنشىء أى مرافق للعزل على أى نحو كان .

وبغض النظر عن عدم كفاية هذه المرافق ، الا أنها كانت أفضـل حالا من الأقاليم الريفية التى لم يكن بها أى بديل لاصلاحيات الأبرشيات ، وفى لندن ، كان الموقف أفضل حالا ، فبفضل لائحة المتروبليتان للفقراء ، زودت المدينة بشبكة من مستشفيات عزل الأمراض المعدية ، وأنشىء أول مستشفى للحميات (١٨٧٠) وخصص للمصـابين بالجـدرى والحمى القرمزية ، ولم يعد دخول المستشفيات مقصورا على الفقراء ، بعد أن قـرر المسئولون بكل حـزم الخلاص من وصمة التفرقة بين المعـوزين وميسورى الحال . وفى ١٨٩٣ ، توافر لمصحات مدينة لندن أكثر من خمسة آلاف سرير ، أو بمعنى أصـبـح كان هذا العدد من الأسرة تحت الانشاء فى مستشفيات الحميات ، وبينما كانت جملة وفيـات الحمى القرمزية فى مستشفيات لندن تعادل ٢٪ من مجموع عدد وفيـات هذه الحمى ، ارتفع بعد ذلك هذا الرقم الى حـوال ١١٪ (١٨٨٣) ثم ازداد ارتفاعا الى أن بلغ ٧٤٪ ، والأمر بالمثـل فيما يتعلق بالدفتيريا ، فقـد ارتفعت هذه النسـبة من حوالى ٤٪ (١٨٨٨) الى ٣٨٪ (١٨٩١) . ولا يدل هذا المؤشر على عدم فاعلية العلاج بالمستشفيات بقدر دلالته على ازدياد عدد المصابين بأمراض معدية ، وكان الكثيرون منهم فى المراحـل المتقدمة من المرض ، وسمح لهم بالعـلاج فى المستشفيات التى تديرها البلديات ، وحث قرار «الاخطار الاجبارى» عن الأمراض المعدية على تسريع الخطى فى تنفيذ هذا القرار ، وازداد عدد من دخلوا مستشفيات لندن ١٨٩٣ وحدهـا ، عن عدد من دخلوا هذه المستشفيات طيلة العقد (من ١٨٨١ ــ ١٨٩٠) .

وصودق على قرار الاخطار الالزامى الصادر (١٨٨٩) بعد صدور قرار الحكومة المحليـة (١٨٨٨) وكان من بين آثاره تخصيص مسئول صحى عن الاقليم وكان بمقدور هؤلاء المسئولين عن الأقاليم أحيانا الضغط على السلطات المحلية ، ورأينا مثلا المسئول الصحى فى أحد الأقاليم (*) يركز على الأمراض المعدية ويستحث السلطات المحليـة على تنفيذ قرار « الاخطار الاجبارى » على الفور ، وعلى انشاء مرافق كافيـة للعزل . وبفضل استمرار قوته الدافعة ، ارتفع عدد البلاغات من سـبعة عشر

(*) اقليم West-Riding فى يوركشـاير .

بلاغا (فى نهاية ١٨٨٩) الى ٦٩ فى (١٨٩١) • وارتفعت نسبة بلاغات مرض الجدرى والدفتريا والحمى القرمزية والتيفود التى سمح لها بدخول المستشفى من ١٤٪ الى ٣٠ر٤٪ •

لم يكن انشاء مستشفيات لايواء المرضى الذين يعانون من أمراض معدية على قمة الأولويات عند السلطات المحلية فقط • ولم يتم انشاء مستشفيات للعزل الا بعد الحاح مكتب الحكومة المحلية ، وصدور تشريعات شاملة • وليس بمقدورنا القول بأن السلطات المحلية استجابت بنفس الحماسة للنظرية الجرثوميـة للمرض ، مثلما فعلت قبل ذلك بثلاثين سنة فى حالة البيروجينى (التى تعيش فى الأوساخ والأدناس) • وعلى أية حال يمكن القول بأن التخطيط الصحى قد قوبل بالترحاب فى عصر الملكة فيكتوريا الذى عرف باحساسه الحضارى ، ناهيك بقوة حاسة الشم عنده ، بغض النظر عما تطلبه من اعتمادات مالية ، ومن العسير القول بأن مبدأ « الابلاغ والعزل » قد حظى باستهواء مماثل ، لارتباطه بالحجر الصحى ، والأسر وتقييد الحرية •

وعلى الرغم من اتصاف الاستجابة للأوبئة الرئيسية فى عهد الملكة فيكتوريا بأوجه نقصها وحيرتها وترددها ، الا أنها قد تركت أثرا مهما ، وباستثناء الجدرى ، فانهم كانوا مضطرين لمحاربة هذه الأمراض دون حاجة الى الانتفاع بمزايا مضادات التوكسين أو التسمم ، ومع هذا فقد نجحوا فى مهمتهم • وفى عصر عرف بما جرى فيه من التساع فى المدن وبسرعة ازدياد عدد السكان ، لابد أن ينظر الى هذه الحالة على أنها من دلائل انتصار الطب الوقائى • انها شهادة أيضا على ما تمتع به عصر الملكة فيكتوريا من حماسة وخصب خيال وبعد نظر ، وبطبيعة الحال ، لم تنحن جموع الناس بكل خشوع للوائح الحكومة المركزية ، ولما تضمنته من تعليمات ، كما أنهم لم يبتلعوا عن طيب خاطر أقراص التشريعات الالزامية ، ولايمكن انكار حدوث تصدع ومرارة فى كثير من الأحيان فى علاقة الحكومة المركزية بالسلطات المحلية ، فلقد شب الصراع بين الطرفين باعتبارهما جهازين حديثى الانشاء • وكان أحد الطرفين يتكلم بلغة الصحة الوطنية والعزيمة الوطنية والكفاية والتقدم • بينما يستعمل الطرف الآخر مصطلحات المعدلات المتدنية وحق المحليات فى اختيار قراراتها والاستقلال والحرية •

والى اللقاء فى الجزء الثالث

المـراجـع

J. Brand, Doctors and the State : The British Medical Profession and Government Action in Public Health (1870-1921), 1965.

W. Coleman Death Is a Social Disease Public Health and Political Economy in Early Industrial France (1831-1932) 1982.

M. Durrey : The Return of the Plague : British Society and the Cholera (1831 — 1832), 1979.

J. Eyler, Victorian Social Medicine : The Ideas and the Methods of William Farr (1975).

S. E. Finer, The Life and Times of Edwin Chadwick 1952.

T. Gelfand, Professionalizing Modern Medicine. Paris Surgeons and Medical Science and Institutions in the Eighteenth Century (1950).

R. Lambert, Sir John Simon (1816-1904) and English Social Adminstration (1963).

R. E. McGrew, Russia and the Cholera 1823-1832 (1965).

M. Pelling, Cholera, Fever and English Medicine, 1825-1865. (1978).

F. B. Smith, The Peoples Health 1830-1910 (1979).

F. B. Smith, Florence Nightengale. Reputation and Power (1982).

C.E.A. Winslow, The Conquest of Epidemic Disease : A Chapter in the History of Ideas (1980).

A. J. Youngson, The Scentific Revolution in Victorian Medicine, (1979).

اقرأ فى هـذه السلسلة

أحلام الاعلام وقصص اخرى	برتراند رسل
الألكترونيات والحياة الحديثة	ى · رادونسكايا ·
نقطة مقـابل نقطة	الدس هكسلى ·
الجغرافيا فى مائة عام	ت · و · فريمان
الثقافة والمجتمع	رايموند وليامز
تاريخ العلم والتكنولوجيا (٢ ج)	ر · ج · فوربس
الأرض الغـامضة	ليستر ديل راى
الرواية الانجليزية	والتر الن
المرشد الى فن المسرح	لويس فارجاس
آلهة مصر	فرانسوا دوماس
الانسان المصرى على الشاشة	د· قدرى حفنى وآخرون
القاهرة مدينة الف ليلة وليلة	اولج فولكف
الهوية القومية فى السينما العربية	هاشم النحاس
مجموعات النقـود	ديفيد وليام ماكدونالد
الموسيقى ـ تعبير نفسى ـ ومنطق	عزيز الشـوان
عصر الرواية ـ مقال فى النوع الأدبى	د· محسن جاسم الموسوى
ديلان توماس	اشرف س· بى كوكس
الانسان ذلك الانسان الفريد	جون لويس
الرواية الحـديثة	بول ويست
المسرح المصرى المعاصر	د· عبد المعطى شعراوى
على محمـود طـه	انور المعـداوى
القوة النفسية للاهرام	بيل شول وادنبيت
فن الترجمـة	د· صـفاء خلوصى
تولسـتوى	رالف ئى ماتلو
سـتندال	فيكتور برومبير
رسائل واحاديث من المنفى	فيكتور هوجـو
الجزء والكل (محـاورات فى مضمار الفيزياء الذرية)	فيرنر هيزنبرج
التراث الغامض ماركس والماركسيون	سـيدنى هـوك
فن الادب الروائى عند تولستوى	ف· ع ادنيكوف
ادب الأطفال	هادى نعمان الهيتى
احمد حسن الزيات	د· نعمة رحيم العزاوى
اعلام العرب فى الكيمياء	د· فاضل احمد الطائى

فكرة المسرح	فرنسيس فرجون
الجحيم	هنرى باربوسى
صنع القرار السياسى	السيد عليوة
التطور الحضارى للانسان	جاكوب برونوفسكى
هل نستطيع تعليم الأخلاق للاطفال ؟	د. روجر ستروجان
تربية الدواجن	كاتى ثير
الموتى وعالمهم فى مصر القديمة	ا. سبنسر
النحل والطب	د. ناعوم بيتروفيتش
سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى	جوزيف داهموس
سياسة الولايات المتحدة الأمريكية ازاء مصر ١٨٣٠ ـ ١٩١٤	د. ليلوار تشامبرز رايت
كيف تعيش ٣٦٥ يوما فى السنة	د. جون شندلر
الصحافة	بيير البير
اثر الكوميديا الالهية لدانتى فى الفن التشكيلى	الدكتور غبريال وهبه
الأدب الروسى قبل الثورة البلشفية وبعدها	د. رمسيس عوض
حركة عدم الانحياز فى عالم متغير	د. محمد نعمان جلال
الفكر الأوروبى الحديث (٤ ج)	فرانكلين ل . باومر
الفن التشكيلى المعاصر فى الوطن العربى ١٨٨٥ ـ ١٩٨٥	شوكت الربيعى
التنشئة الأسرية والأبناء الصغار	د. محيى الدين احمد حسين
نظريات الفيلم الكبرى	تاليف : ج. دادلى اندرو
مختارات من الأدب القصصى	جوزيف كونراد
الحياة فى الكون كيف نشأت واين توجد؟	طائفة من العلماء الأمريكيين
حرب الفضاء	د. محمد أسعد عبد الرؤوف
ادارة الصراعات الدولية	د. السيد عليوة
الميكروكمبيوتر	د. مصطفى عنانى
مختارات من الأدب اليابانى	صبرى الفضل
تاريخ ملكية الأراضى فى مصر الحديثة	جابرييل باير
اعلام الفلسفة السياسية المعاصرة	انطونى دى كرسبنى وكينيث مينوج
كتابة السيناريو للسينما	دوايت سوين
الزمن وقياسه	زافيلسكى ف.س
اجهزة تكييف الهواء	ابراهيم القرضاوى

الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعى	بيتر رداى
سبعه مؤرخين فى العصور الوسطى	جوزيف داهموس
التجربة اليونانية	س · م بورا
مراكز الصناعة فى مصر الاسلامية	د· عاصم محمد رزق
العلم والطلاب والمدارس	رونالد د · سمبسون
	و نورمان د · اندرسون
الشارع المصرى والفكر	د· انور عبد الملك
حوار حول التنمية الاقتصادية	والت روستو
تبسيط الكيمياء	فرد · س · هيسى
العادات والتقاليد المصرية	جون بوركهارت
التذوق السينمائى	الان كاسبيار
التخطيط السياحى	سامى عبد المعطى
البذور الكونية	فريد هويل
	شاندرا ويكراما ماسينيح
دراما الشاشة (٢ ج)	حسين حلمى المهندس
الهيروين والايدز	روى روبرتسون
صور افريقية	دوركاس ماكلينتوك
نجيب محفوظ على الشاشة	هاشم النحاس
الكمبيوتر فى مجالات الحياة	د· محمود سرى طه
المخدرات حقائق اجتماعية ونفسية	بيتر لورى
وظائف الأعضاء من الألف الى الياء	بوريس فيدروفيتش سيرجيف
الهندسة الوراثية	ويليام بينز
تربية أسماك الزينة	ديفيد الدرتون
كتب غيرت الفكر الانسانى	أحمد الشنوانى
الفلسفة وقضايا العصر (٣ ج)	جمعها : جون · ر · بورر
	وميلتون جولد ينجر
الفكر التاريخى عند الاغريق	أرنولد توينبى
قضايا وملامح الفن التشكيلى	د· صالح رضا
التغذية فى البلدان النامية	م · هـ · كنج وآخرون
بداية بلا نهاية	جورج جاموف
الحرف والصناعات فى مصر الاسلامية	د· السيد طه ابو سديره
للكون	
حوار حول النظامين الرئيسيين	جاليليو جاليليه
الارهاب	اريك موريس ، الان هو
اخناتون	سيريل الدريد

القبيلة الثالثة عشرة	آرثر كيســـتلر
التــوافق النفسى	توماس ا ٠ هاريس
الدليل الببليوجرافى	مجموعة من الباحثين
لغـــة الصـــورة	روى ارمز
الثورة الاصلاحية فى اليابان	ناجاى متشيو
العــالم الثالث غدا	بول هاريسون
	ميكائيل ألبى
الانقراض الكبير	جيمس لفلوك
تاريخ النقــود	فيكتور مورجان
التحليل والتوزيع الأوركسترالى	اعداد محمد كمال اسماعيل
الشــاهنامة (٢ جـ)	الفردوسى الطوسى
الحياة الكريمة (٢ جـ)	بيرتون بورتر
كتابة التاريخ فى مصر ق ١٩٠	جاك كرابس جونيور
قيام الدولة العثمانية	محمد فؤاد كوبريلى
العثمانيون فى أوربا	بول كونر
مختارات من الآداب الآسيوية	اختيار واعداد صبرى الفضل
التمثيل للسينما والتليفزيون	تونى بار
ســقوط المطـر	نادين جورديمر وآخرون
صناع الخلود	موريس بيربراير
دليل تنظيم المتاحف	آدامز فيليب
كتب غيرت الفكر الانسانى (٣ جـ)	أحمد الشنوانى
الحملة الصليبية الأولى	جوناثان ريلى سميث
رواد الفلسفة الحديثة	ريتشارد شاخت
جماليات فن الاخراج	زيجمونت هبنر
الكنائس القبطية (٢ جـ)	الفرد ٠ ج ٠ بتلر
كرانيم زرادشت	اعداد ٠ د٠ فيليب عطية

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١١٠٣٥ / ١٩٩٣

ISBN — 977 — 01 — 3603 — 4

استدراك

ص	السطر	الخطأ	الصواب
١٢٦	٢٢	ولت المحامى	ولفت المحامى
١٤٢	٥	محاولة للوصول	محاولة للحصول
١٧٧	٢٥	القرن الثانى عشر	القرن الثامن عشر
١٨٨	١٦	استهلال كولمان الذى سجله	استهلال كولمار سجله
٠٠٠	٢٣	وقال الاكليروس	وقام الاكليروس
٢٠٠	٦	وشرلى لانجى وبورج	وشعرت لانجر وبودج
٢٠٧	٣	من نهاية الصفحة القس الدستورى	الدستورى جمعية ابراشية فى اقليم ليمـــوج

مازلنا نكتب التاريخ على النحو التقليدى، أى فى صورة أحداث متعاقبة، فيما يدعى بالكرونولوجى أو الحوليات.

وقد تطورت الكتابة التاريخية منذ بداية القرن التاسع عشر وظهرت مدارس متعددة ومتنوعة مازال أثرها واهنا فى مصر. وقد جمع المؤلفان مجموعة من المقالات التاريخية التى تمثل التاريخ من شتى جوانبه.

ومن الموضوعات التى يتناولها هذا الجزء :

إندلاع الحرب الأهلية الإنجليزية

الحكم الفردى للويس الحادى عشر

تمرد القوزاق وحرب الفلاحين فى روسيا

وسائل التسويق فى السوق الدولية

المرأة عملها وأسرتها في أوربا القرن التاسع عشر

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

٤٥٠ قرشا